تأليف

عبد الهادي بن حسن وهبي

توزيع

دار الدليل الأثرية
للنشر والتوزيع

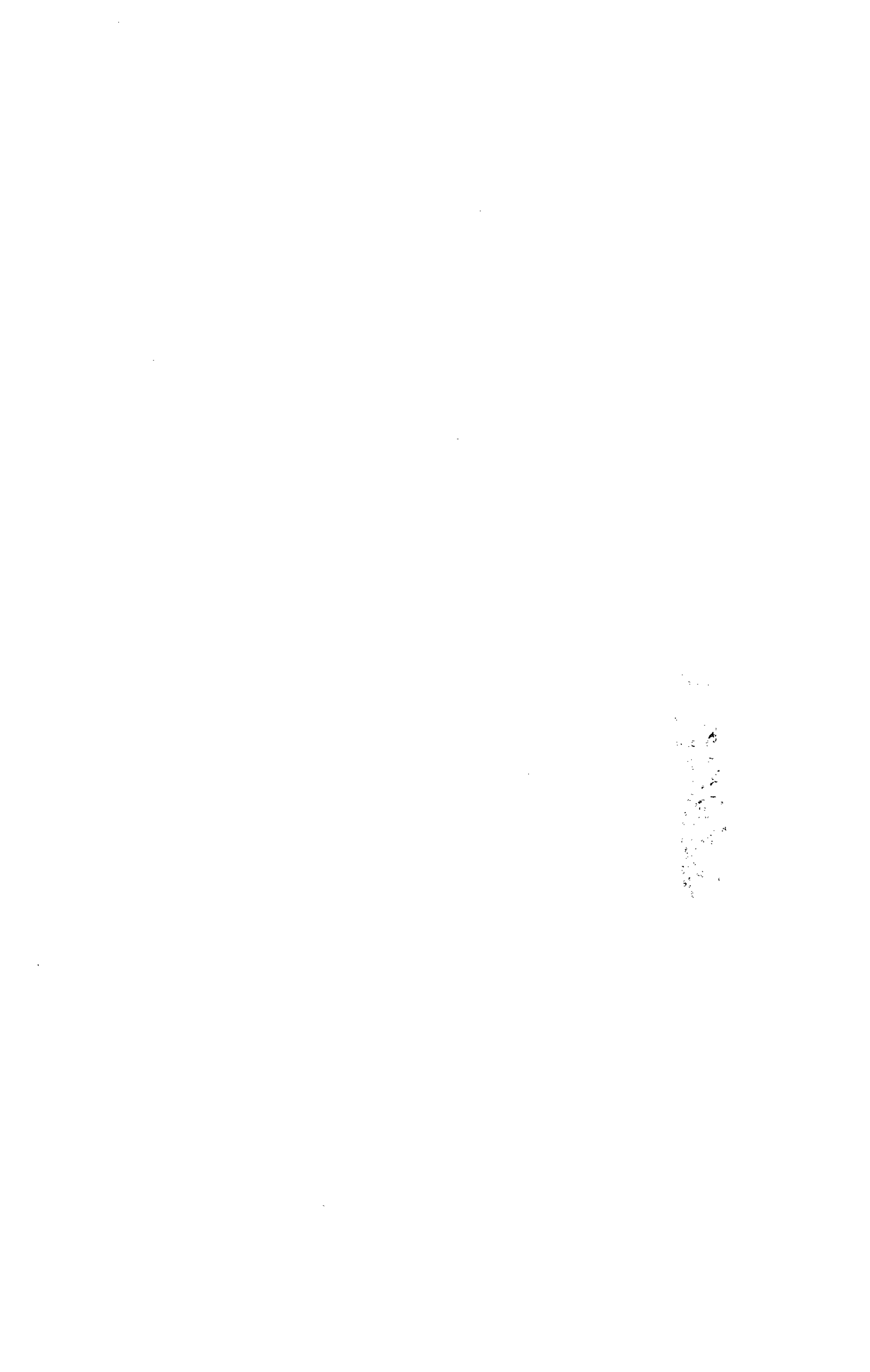

الأسماء الحسنى
و
الصفات العلى

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

المملكة العربية السعودية - الجبيل - ص ب : ١٠٢٣٩ - هاتف : ٠٦٠٠٣٦١ - فاكس : ٣٤٦٥٨٩٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ الحَمدَ للهِ نَحمَدُهُ وَنَستَعِينُهُ وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِن شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِن سَيِّئَاتِ أَعمَالِنَا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَن لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّ خَيرَ الكَلَام كَلَامُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا؛ وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّ العلمَ بِاللهِ وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ «أَشرَفُ العُلُوم عَلَىٰ الإِطلاقِ، وَأَوْلاهَا بِالتَّفضِيلِ عَلَىٰ الاستِحقَاقِ، وَأَرفَعُها قَدراً بِالاتِّفَاقِ»[١]، مُثمِرٌ لِجَمِيعِ الخَيرَاتِ العَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ، مِن أَقوَالٍ سَنِيَّةٍ، وَأَفْعَالٍ رَضِيَّةٍ، وَدَرَجَاتٍ أُخرَوِيَّةٍ.

وهَذَا يَتَبَيَّنُ مِنَ الوُجُوهِ التَّالِيَةِ:

أَحَدُهَا: شَرَفُ العِلم بِحَسَبِ شَرَفِ مَعلُومِهِ وَشِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَيهِ، وَلا رَيبَ أَنَّ أَجَلَّ مَعلُومٍ وَأَعظَمَهُ وَأَكبَرهُ فَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

---

(١) فتح القدير (١/١٨).

العَالَمِينَ، وَقَيّومُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ، المَلِكُ الحَقُّ المُبِينُ، المَوصُوفُ بالكَمَالِ كُلِّهِ، المُنَزَّهُ عَن كُلِّ عَيبٍ وَنَقصٍ، وَعَنْ كُلِّ تَمثِيلٍ وَتَشبِيهٍ فِي كَمَالِهِ.

وَلَا رَيبَ أَنَّ العِلمَ بِاللهِ وَبِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ أَجَلُّ العُلُومِ وَأَفضَلُهَا[1] وَأَكبَرُهَا وَأَعلَاهَا وَأَزكَاهَا، وَأَنفَعُهَا وَأَعظَمُهَا، وَأَهَمُّهَا وَأَشرَفُهَا عَلَىٰ الإِطلَاقِ. فَالعِلمُ بِاللهِ وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ هُوَ المَطلَبُ الأَسنَىٰ والحَظُّ الأَوفَىٰ؛ وَالاشتِغَالُ «بِفَهمِهِ، وَالبَحْثُ التَّامُّ عَنهُ، اشتِغَالٌ بِأَعلَىٰ المَطَالِبِ، وَحُصُولُهُ لِلعَبدِ مِنْ أَشْرَفِ المَوَاهِبِ»[2].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]؛ فَالعِلمُ بِالعَلِيِّ الأَعلَى هُوَ العِلمُ الأَعلَى.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلقَ، لِيَعرِفُوهُ وَيَعبُدُوهُ. «وَهَذَانِ الأَمرَانِ ـ وَهُمَا مَعرِفَتُهُ وَعِبَادَتُهُ ـ هُمَا اللَّذَانِ خَلَقَ اللهُ الخَلقَ لأَجلِهِمَا. وَهُمَا الغَايَةُ المَقصُودَةُ مِنهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ. وَهُمَا المُوصِلانِ إِلَىٰ كُلِّ خَيرٍ وَفَلَاحٍ وَصَلَاحٍ، وَسَعَادَةٍ دُنيَوِيَّةٍ وَأُخرَوِيَّةٍ. وَهُمَا أَشرَفُ اللَّذَاتِ عَلَىٰ الإِطلَاقِ. وَهُمَا اللَّذَانِ إِن فَاتَا، فَاتَ كُلُّ خَيرٍ، وَحَضَرَ كُلُّ شَرٍّ»[3]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢]، «فَأَخبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ العَالَمَ لِيُعَرِّفَ عِبَادَهُ كَمَالَ قُدرَتِهِ وَإِحَاطَةَ عِلمِهِ، وَذَلِكَ

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٥).
(٣) المصدر السابق (ص١٠٤١).

يَستَلزِمُ مَعرِفَتَهُ وَمَعرِفَةَ أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوحِيدِهِ»[١]. فَالغَايَةُ الحَمِيدَةُ الَّتي يَحصُلُ بِهَا كَمَالُ بَنِي آدَمَ وَسَعَادَتُهُم وَنَجَاتُهُم هِيَ مَعرِفَةُ اللهِ وَمَحبَّتُهُ وَعِبَادَتُهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ[٢]. فَالاشتِغَالُ بِذَلِكَ، اشتِغَالٌ بِمَا خُلِقَ لَهُ العَبدُ، وَتَركُهُ وَتَضيِيعُهُ، إِهمَالٌ لما خُلِقَ لَهُ؛ وَقَبِيحٌ بِعَبدٍ، لَم تَزَل نِعَمُ اللهِ عَلَيهِ مُتَوَاتِرَةً، وَفَضلُهُ عَلَيهِ عَظِيمٌ مُتَوَالٍ مِن كُلِّ وَجهٍ، أَن يَكُونَ جَاهِلاً بِرَبِّهِ، مُعرِضاً عَن مَعرِفَتِهِ، وَمَعرِفَةِ أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ أَصلَ الأُصُولِ الإِيمَانُ بِاللهِ. وَلَيسَ الإِيمَانُ مُجرَّدَ قَولِ العَبدِ: «**آمَنتُ بِاللهِ**» مِن غَيرِ مَعرِفَتِهِ بِرَبِّهِ؛ بَلْ حَقِيقَةُ الإِيمَانِ، أَن يَعرِفَ الرَّبَّ الَّذِي يُؤمِنُ بِهِ، وَيَبذُلُ جَهدَهُ فِي مَعرِفَةِ أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، حَتَّىٰ يَبلُغَ دَرَجَةَ اليَقِينِ. وَبِحَسَبِ مَعرِفَتِهِ بِرَبِّهِ، يَكُونُ إِيمَانُهُ، فَكُلَّمَا ازدَادَ مَعرِفَةً بِرَبِّهِ ازدَادَ يَقِينُهُ، وَرَسَخَ إِيمَانُهُ؛ وَكَانَ الإِيمَانُ في قَلبِهِ أَرسَخَ مِنَ الجِبَالِ، وَأَطيَبَ وَأَحلَىٰ وَأَلَذَّ مِن كُلِّ اللَّذاتِ، وَأَنفَسَ مِن كُلِّ نَفِيسٍ. «فَبِذَلِكَ يَكُونُ العَبدُ مِنَ الرَّابِحِينَ الَّذِينَ أَدرَكُوا أَجَلَّ المَطَالِبِ، وَأَفضَلَ الرَّغَائِبِ، وَأَتَمَّ المَنَاقِبِ»[٣].

وَمِنْهَا: أَنَّ مَعرِفَةَ اللهِ تَعَالَىٰ، تَدعُو إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ وَخَشيَتِهِ، وَخَوفِهِ وَرَجَائِهِ، وَإِخلاصِ العَمَلِ لَهُ؛ وَهَذَا هُوَ المَطلَبُ الأَعلَىٰ، وَالمَقصَدُ الأَسنَىٰ، وَهَذَا عَينُ سَعَادَةِ العَبدِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعرِفَةِ اللهِ، إِلَّا بِمَعرِفَةِ أَسمَائِهِ الحُسنَىٰ، وَمَعرِفَةِ ما احتَوَت عَلَيهِ مِنَ الصِّفَاتِ العَظِيمَةِ، وَالمَعَانِي الجَلِيلَةِ.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٩٣). وانظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٠٨).

فَمَثَلاً أَسمَاءُ العَظَمَةِ وَالكِبرِيَاءِ وَالمَجدِ وَالجَلالِ، تَملأُ القَلبَ تَعظِيماً للهِ وَإجلالاً لَهُ وَتَقدِيساً. وَأَسمَاءُ البِرِّ وَالإحسَانِ وَالرَّحمَةِ وَالجُودِ، تَملأُ القَلبَ رَغبَةً وَطَمَعاً فِيهِ، وَفي فَضلِهِ وَإحسَانِهِ، وَجُودِهِ وَامتِنَانِهِ. وَأَسمَاءُ العِزِّ وَالحِكمَةِ وَالقُدرَةِ تَملأُ القَلبَ خُضُوعاً للهِ وَخُشُوعاً وَانكِسَاراً بَينَ يَديهِ. وَأَسمَاءُ العِلمِ وَالخِبرَةِ وَالإحَاطَةِ، وَالمُرَاقَبَةِ وَالمُشَاهَدَةِ، تَملأُ القَلبَ مُرَاقَبَةً للهِ في الحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ، وَحِرَاسَةً لِلخَوَاطِرِ عَنِ الأَفكَارِ الرَّدِيَّةِ، وَالإرَادَاتِ الفَاسِدَةِ. وَأَسمَاءُ الغِنَىٰ وَاللُّطفِ، تَملأُ القَلبَ افتِقَاراً وَاضطِرَاراً إِلَيهِ، وَالتِفَاتاً إِلَيهِ كُلَّ وَقتٍ، وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ. «وَمَجمُوعُ الصِّفَاتِ المُتَنَوِّعَةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ الجَلالِ وَالجَمَالِ وَالإكرَامِ، تَملأُ القُلُوبَ مَحَبَّةً للهِ وَشَوقاً إِلَيهِ؛ وَتُوجِبُ لَهُ التَّأَلُّهَ وَالتَّعبُّدَ وَالتَّقرُّبَ مِنَ العَبدِ إِلَىٰ رَبِّهِ بِأَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ، بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، بِقِيامِهِ بِحَقِّهِ، وَقِيامِهِ بِحُقُوقِ خَلقِهِ»[1].

فَهَذِهِ المَعَارِفُ الَّتِي تَحصُلُ لِلقُلُوبِ، بِسَبَبِ مَعرِفَةِ العَبدِ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَعَبُّدِهِ بِهَا للهِ، مِنَ التَّعظِيمِ وَالإجلالِ الَّذِي لَيسَ لَهُ نَظِيرٌ؛ وَمِنَ الوُدِّ وَالسُّرُورِ وَالابتِهَاجِ؛ هِيَ مِن أَشرَفِ المَسَائِلِ لِمَن عَرَفَ قَدرَهَا، وَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا. فَمَن تَحقَّقَ بِهَا عِلماً وَمَعرِفَةً وَعَمَلاً وَحَالاً، فَقَد فَازَ مِن كَمَالِهِ بِأَوفَرِ نَصِيبٍ.

وَمِن هَاهُنَا نَعلَمُ اضطِرَارَ العِبَادِ فَوقَ كُلِّ ضَرُورةٍ إِلَىٰ مَعرِفَةِ رَبِّهِم، فَالضَّرُورَةُ إِلَىٰ مَعرِفَتِهِ أَعظَمُ مِن ضَرُورَةِ البَدَنِ إِلَىٰ رُوحِهِ، وَالعَينِ إِلَىٰ نُورِهَا، وَالرُّوحِ إِلَىٰ حَيَاتِهَا، فَأَيُّ ضَرُورَةٍ وَحَاجَةٍ فُرِضَت، فَضَرُورَةُ

---

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٢١)، للعلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

العَبدِ وَحَاجَتُهُ إِلىٰ معرِفَةِ رَبِّهِ فوقَهَا بِكَثيرٍ.

فَحَقِيقٌ بِعِلْمِ هَذَا قَدْرُهُ أَنْ يَكُونَ هوَ أَوَّلَ ما يَهْتَمُّ بِهِ العَبْدُ، وَأَكبَرَ مَقَاصِدِهِ، وَأَعظَمَ مَطَالبِهِ، بَلْ يَجعَلُهُ غَايَتَهُ وَمَقصَدَهُ، وَسَلوَتَهُ وَأُنسَهُ، وَيُنْفِقُ فِيْهِ عُمُرَهُ حَتَّى يَموتَ عَلَىٰ ذَلِكَ. وَالنَّاسُ في هَذَا بَينَ مُستَقِلٍّ، وَمُستَكثِرٍ، وَمَحرُومٍ، وَالفَضلُ بِيَدِ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ.

«وَلَمَّا كَانَ هَذَا العِلمُ بِهَذِهِ المَنزِلَةِ الشَّامِخَةِ الأَركَانُ، العَالِيَةِ البُنيَانُ، المُرتَفِعَةِ المَكَانُ»[١]؛ وَفَّقَنِي اللهُ تَعَالَىٰ لِلكِتَابَةِ في «**الأَسمَاءِ الحُسنَىٰ وَالصِّفَاتِ العُلَىٰ**» لِفَرَطِ الحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ إِلىٰ مَعرِفَتِهَا، وَمَعرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَثَمَرَاتِهَا. سَائِلاً الحَيَّ القَيُّومَ ذا الجَلالِ وَالإِكرَامِ: أَن يَملأَ قُلُوبَنَا مِن مَعرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ، وَيَتَغَمَّدَنَا بِرَحمَتِهِ، وَيَكتُبَ لَنا وَلَكُم رِضوَانَهُ وَيَجمَعَنَا في دَارِ رَحمَتِهِ وَكَرَامَتِهِ؛ «وَلَيسَ هَذَا بِعَظِيمٍ عَلَىٰ الرَّبِّ الكَرِيمِ، الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ، البَرِّ الجَوَادِ، الوَاسِعِ الغَنِيِّ، الحَمِيدِ اللَّطِيفِ الرَّحمَنِ، المَلِكِ الدَّيَّانِ، الجَلِيلِ الجَمِيلِ المَنَّانِ، ذِي الفَضلِ البَاهِرِ، وَالكَرَمِ المُتَوَاتِرِ، الَّذِي لَا تُحصَىٰ نِعَمُهُ، وَلا يُحَاطُ بِبَعضِ بِرِّهِ»[٢]. فَلَهُ الحَمدُ وَالمِنَّةُ، وَنسأَلُهُ المَزِيدَ مِن فَضلِهِ[٣].

الراجي رِضَى الرَّحمٰنِ
عَبد الهَادِي بن حَسَن وَهبي[٤]

---

(١) فتح القدير (١/ ١٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٠٣).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٠١).

(٤) بيروت ـ لبنان. ص.ب / ١٣٦٠٩٣ شوران.
هاتف: ٠٣/٦٢٦٧٨٧ ـ فاكس: ٠١/٧٩١٠٥١

إنَّ اللهَ ﷻ مَوصُوفٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، مَنعُوتٌ بِنُعُوتِ الجَلالِ، مُنَزَّهٌ عَنِ العُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَالمِثَالِ، فَهُوَ كَمَا وَصَفَ نَفسَهُ في كِتَابِهِ، وَفَوقَ ما يَصِفُهُ بِهِ خَلقُهُ.

تَمَّتْ كَلِمَاتُهُ صِدقاً وَعَدلاً، وَجَلَّت صِفَاتُهُ أَنْ تُقَاسَ بِصِفَاتِ خَلقِهِ شَبَهاً وَمَثَلاً، وَتَعَالَت ذَاتُهُ أَنْ تُشْبِهَ شَيئاً مِنَ الذَّوَاتِ أَصلاً، وَوَسِعَتِ الخَلِيقَةَ أَفعَالُهُ عَدلاً، وَحِكمَةً وَرَحمَةً وَإِحسَاناً وَفَضلاً، لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ وَلَهُ النِّعمَةُ وَالفَضلُ، وَلَهُ المُلكُ وَالحَمدُ وَلَهُ الثَّنَاءُ وَالمَجدُ.

أَسمَاؤُهُ كُلُّهَا أَسمَاءُ مَدحٍ وَحَمدٍ وَثَنَاءٍ وَتَمجِيدٍ، وَلِذَلِكَ كَانَت حُسنَىٰ. وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، وَنُعُوتُهُ كُلُّهَا نُعُوتُ جَلالٍ، وَأَفعَالُهُ كُلُّهَا حِكمَةٌ وَرَحمَةٌ، وَمَصلَحَةٌ وَعَدلٌ.

وَهُوَ الَّذِي لا يُحَدُّ كَمَالُهُ، وَلا يُوصَفُ جَلالُهُ وَجَمَالُهُ، وَلَا يُحصِي أَحَدٌ مِن خَلقِهِ ثَنَاءً عَلَيهِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ وَعَظِيمِ إِحسَانِهِ وَبَدِيعِ أَفعَالِهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ.

❀ ❀ ❀

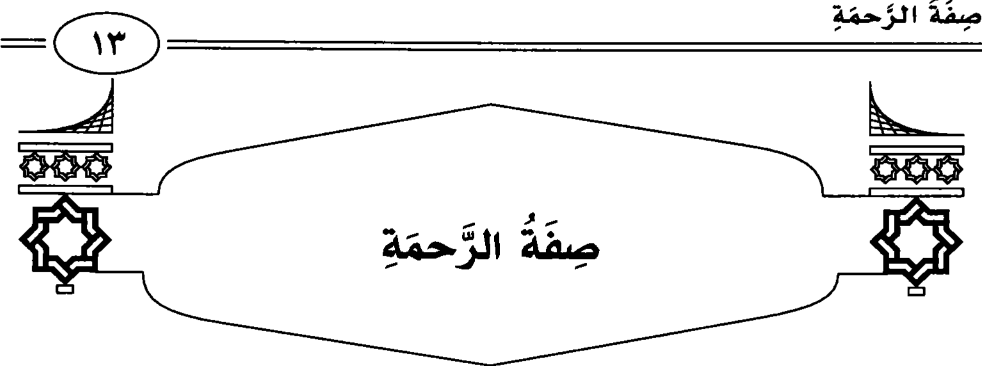

صِفَةُ الرَّحمَةِ

إِنْ سَأَلْتَ عَنْ رَحمَتِهِ: فَهُوَ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ الَّذِي قَد كَمُلَ في رَحمَتِهِ، وَأَحسَنَ إِلىٰ خَلقِهِ بِأَنْوَاعِ الإِحسَانِ، وَتَحَبَّبَ إِلَيهِم «بِصُنُوفِ النِّعَمِ، وَوَسِعَ كُلَّ شَيءٍ رَحمَةً وَعِلماً، وَأَوسَعَ كُلَّ مَخْلُوقٍ نِعمَةً وَفَضلاً، فَوَسِعَت رَحمَتُهُ كُلَّ شَيءٍ، وَوَسِعَت نِعمَتُهُ كُلَّ حَيٍّ»(١)، وَعَمَّ إِحسَانُهُ البَرَايَا(٢). وَوَصَلَ جُودُهُ إِلىٰ جَمِيعِ المَوجُودَاتِ، فَلا تَستَغنِي عَن إِحسَانِهِ طَرفَةَ عَينٍ فَبلَغَت رَحمَتُهُ حَيثُ بَلَغَ عِلمُهُ. قَالَ ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وَأَخبَرَنَا سُبحَانَهُ «أَنَّهُ ذُو الرَّحمَةِ، فَكَانَ صَاحِبَ الرَّحمَةِ الحَقِيقِيَّةِ العَظِيمَةِ الوَاسِعَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وَقَولُهُ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وَقَولُهُ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]»(٣). فَلَا مَخلُوقٌ، إِلَّا وَقَدْ وَصَلَت إِلَيهِ رَحمَةُ اللهِ، وَغَمَرَهُ فَضلُهُ وَإِحسَانُهُ(٤).

وَسَمَّىٰ جَلَّ وَعَلا نَفسَهُ الرَّحمَنَ «الدَّالُّ عَلَىٰ سِعَةِ رَحمَتِهِ، وَعُمُومِ

---

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص٢٠٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٢٠٩).
(٣) أسماء الله الحسنى (ص٤٠)، للأشقر.
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٠٧).

إِحسَانِهِ، وَجَزِيلِ بِرِّهِ، وَوَاسِعِ فَضلِهِ»(١). وَالرَّحمَنُ دَالٌّ عَلَىٰ الصِّفَةِ القَائِمَةِ بِهِ سُبحَانَهُ، وَالرَّحِيمُ دَالٌّ عَلَىٰ تَعَلُّقِهَا بِالمَرحُومِ، فَالرَّحمَنُ لِلوَصفِ، وَالرَّحِيمُ لِلفِعلِ، فَالرَّحمنُ دَالٌّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّحمَةَ صِفَتُهُ، وَالرَّحِيمُ دَالٌّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَرْحَمُ خَلقَهُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. وَلَم يَجِىء قَطُّ رَحمَنٌ بِهِم، فَعُلِمَ أَنَّ رَحمَنَ هُوَ المَوصُوفُ بِالرَّحمَةِ، وَرَحِيمٌ هُوَ الرَّاحِمُ بِرَحمَتِهِ(٢). كَثِيرُ الرَّحمَةِ عَظِيمُهَا بَلِيغُهَا وَاسِعُهَا.

«وَرَحمةُ اللهِ ﷻ عامَّةٌ وَخَاصَّةٌ، فَأَمَّا العامَّةُ فهيَ لجميعِ الخلقِ، فَكُلُّ الخلقِ مرحومونَ برحمةِ الله، وَلولا رحمةُ اللهِ ما أكَلُوا وما شرِبُوا، وما اكتَسَوا، وما سكَنُوا، ولكنَّ اللهَ رَحِمَهُم، فَهَيَّأَ لهم ما تقومُ بهِ أبدانُهُم، مِنَ المعيشةِ الدنيويةِ، وَأمَّا رحمتُهُ الخاصَّةُ فَهيَ خاصَّةٌ بالمؤمنينَ الذينَ تستَمِرُّ رحمَتُهُم في الدنيا والآخرةِ، ففي الدنيا رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى بحصولِ ما تقومُ بهِ أبدانُهُم، وفي الآخرةِ رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى بِحصولِ ما تَقومُ بهِ أديانُهُم»(٣).

وَرَحمَتُهُ سبحانهُ مِن لَوَازِمِ ذَاتِهِ كَعِلمِهِ وَقُدرَتِهِ وَحَيَاتِهِ وَسَمعِهِ وَبَصَرِهِ وَإِحسَانِهِ، فَيستَحِيلُ أَن يَكُونَ عَلَىٰ خِلافِ ذَلِكَ، وَلَيسَ كَذَلِكَ غَضَبُهُ؛ فَإِنَّهُ لَيسَ مِن لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَلا يَكُونُ غَضبَانَ دَائِماً غَضَباً لا يُتَصَوَّرُ انفِكَاكُهُ، بَلْ يَقُولُ رُسُلُهُ وَأَعلَمُ الخَلقِ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ: «**إِنَّ رَبِّي**

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١١٦٦).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ٤٧)، طبعة دار عالم الفوائد.
(٣) أحكام من القرآن (١/ ١٤)، للعلامة ابن عثيمين رحمه الله تعالى.

قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَباً لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ»[١].

وَرَحمَتُهُ وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ، وَغَضَبُهُ لَمْ يَسَع كُلَّ شَيءٍ، وَهُوَ سُبحَانَهُ كَتَبَ عَلَىٰ نَفسِهِ الرَّحمَةَ، وَلَم يَكتُب عَلَىٰ نَفسِهِ الغَضَبَ، وَوَسِعَ كُلَّ شَيءٍ رَحمَةً وَعِلماً، وَلَم يَسَع كُلَّ شَيءٍ غَضَباً وَانتِقَاماً[٢]. وَهَذَا هُوَ اللائِقُ بِشَأنِ أَرحَمِ الرَّاحِمِينَ. وَلَولَا ذَلِكَ لَكُنَّا جَمِيعاً خَاسِرِينَ هَالِكِينَ. نَعُوذُ بِاللهِ مِن غَضَبِ اللهِ، وَمِن سَخَطِهِ؛ وَنَتُوبُ إِلَيهِ، وَنَرجُو رَحمَتَهُ وَكَرَمَهُ، وَفَضلَهُ وَلُطفَهُ[٣].

فَسُبحَانَ الرَّحِيمِ الرَّحمَنِ، الَّذِي عَمَّت رَحمَتُهُ أَهلَ الأَرضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَوَسِعَت جَمِيعَ الخَلقِ فِي كُلِّ الآنَاتِ وَاللَّحَظَاتِ.

«وَسِعَةُ رَحمَتِهِ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ لَا يَهلِكُ عَلَيهِ أَحَدٌ مِنَ المُؤمِنِينَ مِن أَهلِ تَوحِيدِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَإِنَّهُ وَاسِعُ الرَّحمَةِ لَا يَخرُجُ عَن دَائِرَةِ رَحمَتِهِ إِلَّا الأَشقِيَاءُ، وَلَا أَشقَىٰ مِمَّن لَم تَسَعهُ رَحمَتُهُ الَّتِي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ»[٤].

يَكفيكَ مَنْ وَسِعَ الخلائقَ رَحمَةً ... وَكِفَايَةً ذو الفَضْلِ والإحسانِ[٥]

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]؛ «فَإِنَّ هَذَا وَعدٌ مِنَ اللهِ وَهُوَ لَا يُخلِفُ الوَعدَ، وَخَبَرٌ مِنهُ لِعِبَادِهِ وَهُوَ

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة الَّذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ وَهُوَ مرويٌّ في «صحيح البخاري» (٣١٦٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).
(٢) فوائد الفوائد (ص٢٢٦ ـ ٢٢٧).
(٣) السراج الوهاج (١١/ ٦٣).
(٤) الداء والدواء (ص١٧٩).
(٥) الكافية الشافية (ص٢٨٧).

صَادِقُ المَقَالِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ»[١].

إِنَّهُ ذُو رَحمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَخَيرُ الرَّاحِمِينَ. «وَرَحمَتُهُ اسمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ خَيرٍ»[٢]. أَرحَمُ بِنَا مِن كُلِّ رَاحِمٍ، أَرحَمُ بِنَا مِن آبَائِنَا، وَأُمَّهَاتِنَا، وَأَولَادِنَا، وَأَنفُسِنَا[٣]؛ فَكُلُّ رَاحِمٍ لِلعَبدِ، فَاللهُ أَرحَمُ بِهِ مِنهُ.

إِنَّهُ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ: لَو جُمِعَت رَحمَاتُ الخَلقِ كُلِّهِم؛ لَكَانَت رَحمَةُ اللهِ أَشَدَّ وَأَعظَمَ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ وَمَعَهُ صَبِيٌّ، فَجَعَلَ يَضُمُّهُ إِلَيهِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَرحَمُهُ؟**» قَالَ: نَعَم، قَالَ: «**فَاللهُ أَرحَمُ بِكَ مِنكَ بِهِ، وَهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ**»[٤].

أَرحَمُ مَا يَكُونُ مِنَ الخَلقِ بِالخَلقِ الأُمُّ بِوَلَدِهَا؛ فَإِنَّ رَحمَةَ الأُمِّ وَلَدَهَا لَا يُسَاوِيهَا شَيءٌ مِن رَحمَةِ النَّاسِ أَبداً، حَتَّىٰ الأَبُ لَا يَرحَمُ أَولَادَهُ مِثلَ أُمِّهِم فِي الغَالِبِ.

عَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ سَبيٌ، فَإِذَا امرَأَةٌ مِنَ السَّبيِ تَحلُبُ تَسقِي، إِذَا وَجَدَت صَبِيّاً فِي السَّبيِ أَخَذَتهُ، فَأَلصَقَتهُ بِبَطنِهَا وَأَرضَعَتهُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَرَونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قُلنَا: لَا، وَهِيَ تَقدِرُ عَلَىٰ أَن لَا تَطرَحَهُ؛ فَقَالَ: «**لَلَّهُ أَرحَمُ**

---

(١) تحفة الذاكرين (ص٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٠٥).
(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٩٠).

بِعِبَادِهِ مِن هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[١]. وَأَينَ تَقَعُ رَحمَةُ الوَالِدَةِ مِن رَحمَةِ اللهِ الَّتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ؟ فَهُوَ أَرحَمُ بِالعَبدِ «مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، الرَّفِيقَةِ بِهِ فِي حَملِهِ وَرَضَاعِهِ وَفِصَالِهِ»[٢].

كُلُّ الرَّاحِمِينَ؛ إِذَا جَمَعتَ رَحَمَاتِهِم كُلِّهِم؛ فَلَيسَت بِشَيءٍ عِندَ رَحمَةِ اللهِ.

وَيَدُلُّكَ عَلَىٰ هَذَا قَولُ النَّبيِّ ﷺ: **«جَعَلَ اللهُ الرَّحمَةَ فِي مَائَةِ جُزءٍ، فَأَمسَكَ عِنْدَهُ تِسعَةً وَتِسعِينَ جُزءاً، وَأَنزَلَ فِي الأَرضِ جُزءاً وَاحِداً، فَمِن ذَلِكَ الجُزءِ تَتَرَاحَمُ الخَلقُ، حَتَّىٰ تَرفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَن وَلَدِهَا، خَشيَةَ أَن تُصِيبَهُ»**[٣].

وَالمَقصُودُ بِذَلِكَ هُوَ التَّمثِيلُ لِمَا خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الرَّحمَةِ بِعِبَادِهِ، وَلَيسَ المَقصُودُ هُوَ انقِسَامَ صِفَةِ الرَّحمَةِ إِلَىٰ تِسعٍ وَتِسعِينَ[٤].

فَلَا يُمكِنُ لِلوَاصِفِينَ أَن يُعَبِّرُوا عَن جُزءٍ يَسِيرٍ جِدّاً مِن رَحمَةِ اللهِ الَّتي بَثَّهَا وَنَشَرَهَا عَلَىٰ العِبَادِ[٥]، وَأَنْتَ لَو تَأَمَّلتَ العَالَمَ بِعَينِ البَصِيرَةِ، لَرَأَيتَهُ مُمتَلِئاً بِهَذِهِ الرَّحمَةِ الوَاحِدَةِ، كَامتِلَاءِ البَحرِ بِمَائِهِ وَالجَوِّ بِهَوَائِهِ[٦].

وَمِن آثَارِ هَذِهِ الرَّحمَةِ الَّتي أَنزَلَهَا: أَنَّ الدَّابَّةَ تَرفَعُ حَافِرَهَا عَن

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).
(٢) موارد الأمان (ص٢٨).
(٣) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).
(٤) التعليقات الزكية عَلَى العقيدة الواسطية (١/ ١٤٧).
(٥) المجموعة الكاملة (٥/ ٤٠٩)، للعلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.
(٦) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٨٧٩ ـ ٨٨٧).

وَلَدِهَا؛ خَشيَةَ أَن تُصِيبَهُ. وَقَدْ أَعطَاكَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الرَّحمَةِ الوَاحِدَةِ عَطَايَا كَرِيمَةً عَزِيزَةً، فَقَد أَنعَمَ عَلَيْكَ ابتِدَاءً بِأَجزَلِ المَوَاهِبِ وَأَفضَلِ العَطَايَا مِن حُسنِ الصُّورَةِ، وَكَمَالِ الخِلقَةِ، وَقِوَامِ البُنيَةِ، وَإِعدَادِ الآلَةِ، وَإِتمَامِ الأَدَاةِ، وَتَعدِيلِ القَامَةِ، وَمَا مَتَّعَكَ مِن رُوحِ الحَيَاةِ، وَفَضَّلَكَ بِهِ مِن حَيَاةِ الأَروَاحِ، وَمَا أَكرَمَكَ بِهِ مِن قَبُولِ العِلمِ، وَهَدَاكَ إِلَىٰ مَعرِفَتِهِ ﷻ الَّتِي هِيَ أَسنَىٰ جَوَائِزِهِ، وَمَنَّ عَلَيْكَ بِالإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَهُمَا أَجَلُّ النِّعَمِ عَلَىٰ الإِطلَاقِ، وَالكَونِ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ المَرحُومَةِ، ثُمَّ مَعرِفَةِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، إِلَىٰ سَائِرِ مَا لَدَيكَ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ. فَمَرجُوٌّ مِنْ فَضلِهِ وَكَرَمِهِ أَن يُتِمَّ ذَلِكَ، فَإِنَّ مَن بَدَا بِالإِحسَانِ فَعَلَيهِ الإِتمَامُ، وَيَجعَلُ لَكَ مِن تِسعٍ وَتِسعِينَ رَحمَةً الحَظَّ الوَافِرَ، نَسأَلُ اللهَ تَعَالَى أَن لَا يُخَيِّبَ آمَالَنَا مِن فَضلِهِ العَظِيمِ بِفَضلِهِ، إِنَّهُ الجَوَادُ الكَرِيمُ الرَّحِيمُ.

وَبِرَحمَتِهِ استَوَىٰ عَلَىٰ عَرشِهِ بِاسمِ الرَّحمَنِ، قَالَ ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]؛ لِأَنَّ العَرشَ مُحِيطٌ بِالمَخلُوقَاتِ، قَد وَسِعَهَا. وَالرَّحمَةُ مُحِيطَةٌ بِالخَلقِ وَاسِعَةٌ لَهُم، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فَاستَوَىٰ عَلَىٰ أَوسَعِ المَخلُوقَاتِ بِأَوسَعِ الصِّفَاتِ. فَلِذَلِكَ وَسِعَت رَحمَتُهُ كُلَّ شَيءٍ.

وَلَمَّا استَوَىٰ عَلَىٰ عَرشِهِ بِهَذَا الاسمِ، الَّذِي اشتَقَّهُ مِن صِفَتِهِ، وَتَسَمَّىٰ بِهِ دُونَ خَلقِهِ؛ كَتَبَ بِمُقتَضَاهُ عَلَىٰ نَفسِهِ ـ يَومَ استِوَائِهِ عَلَىٰ عَرشِهِ حِينَ قَضَىٰ الخَلقَ ـ كِتَاباً، فَهُوَ عِندَهُ وَضَعَهُ عَلَىٰ عَرشِهِ: أَنَّ رَحمَتَهُ سَبَقَت غَضَبَهُ، وَكَانَ هَذَا الكِتَابُ العَظِيمُ الشَّأنِ كَالعَهدِ مِنهُ سُبحَانَهُ لِلخَلِيقَةِ كُلِّهَا بِالرَّحمَةِ لَهُم وَالعَفوِ وَالصَّفحِ عَنهُم، وَالمَغفِرَةِ

وَالتَّجَاوُزِ وَالسَّترِ وَالإِمهَالِ وَالحِلم وَالأَنَاةِ، فَكَانَ قِيَامُ العَالَم العُلوِيِّ وَالسُّفلِيِّ بِمَضمُونِ هَذَا الكِتَابِ، الَّذِي لَولَاهُ لَكَانَ لِلخَلقِ شَأنٌ آخَرُ.

عَن أبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا قَضَىٰ اللهُ الخَلقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوقَ العَرشِ، إِنَّ رَحمَتِي غَلَبَت غَضَبِي**»(١). وَفِي كَونِهِ عِنْدَهُ سُبحَانَهُ زِيَادَةُ تَشرِيفٍ وَتَكرِيمٍ وَتَعظِيمٍ وَتَفخِيمٍ.

فَبِرَحمَتِهِ أَرسَلَ إِلَينَا رَسُولَهُ ﷺ، وَأَنزَلَ عَلَينَا كِتَابَهُ، وَعَلَّمَنَا مِنَ الجَهَالَةِ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَنَا مِنَ العَمَىٰ، وَأَرشَدَنَا مِنَ الغَيِّ. «فَشَرعُهُ وَأَمرُهُ نَزَلَ بِالرَّحمَةِ، وَاشتَمَلَ عَلَىٰ الرَّحمَةِ، وَأَوصَلَ إِلَىٰ الرَّحمَةِ الأَبَدِيَّةِ وَالسَّعَادَةِ السَّرمَدِيَّةِ»(٢). فَنِعمَتُهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِإِرسَالِ رُسُلِهِ إِلَيهِم، وَإِنزَالِ كُتُبِهِ عَلَيهِم، وَتَعرِيفِهِم أَمرَهُ وَنَهيَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَيُبغِضُهُ، أَعظَمُ النِّعَمِ وَأَجَلُّهَا وَأَعلَاهَا وَأَفضَلُهَا، بَلْ لَا نِسبَةَ لِرَحمَتِهِم بِالشَّمسِ وَالقَمَرِ وَالغَيثِ وَالنَّبَاتِ إِلَىٰ رَحمَتِهِم بِالعِلمِ وَالإِيمَانِ وَالشَّرَائِعِ وَالحَلَالِ وَالحَرَامِ(٣).

وَبِرَحمَتِهِ عَرَّفَنَا مِن أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ، مَا عَرَّفَنَا بِهِ رَبَّنَا وَمَولَانَا.

وَبِرَحمَتِهِ عَلَّمَنَا مَا لَم نَكُن نَعلَمُ، وَأَرشَدَنَا لِمَصَالِحِ دِينِنَا وَدُنيَانَا.

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٤) و(٧٤٠٤) و(٧٤٢٢) و(٧٤٥٣) و(٧٥٥٣) و(٧٥٥٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (ص٢٤).

(٣) شفاء العليل (٢/ ٦٢٣).

وَبِرَحمَتِهِ أَدَرَّ عَلَينَا النِّعَمَ، وَصَرفَ عَنَّا النِّقَمَ.

وَبِرَحمَتِهِ «وُجِدَتِ المَخلُوقَاتُ، وَبِرَحمَتِهِ حَصَلَت لَهَا أَنوَاعُ الكَمالَاتِ»[١].

وَبِرَحمَتِهِ أَطلَعَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ، وَجَعَلَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ، وَبَسَطَ الأَرضَ وَجَعَلَهَا مِهاداً وَفِرَاشاً، وَكِفَاتاً لِلأَحيَاءِ وَالأَمواتِ.

وَبِرَحمَتِهِ سَخَّرَ لَنَا الخَيلَ وَالإِبلَ وَالأَنعَامَ، وَذَلَّلَهَا مُنقَادَةً لِلرُّكُوبِ وَالحَملِ، وَالأَكلِ وَالدَّرِّ.

وَمِن رَحمَتِهِ: مَا قَالَهُ فِي مُحكَمِ كِتَابِهِ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ «أي: رَحمَةُ اللهِ بِخَلقِهِ خَيرٌ لَهُم مِمَّا بِأَيدِيهِم مِنَ الأَموَالِ وَمَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنيَا»[٢].

وَمِن رَحمَتِهِ: أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُنَا بِالغَفلَةِ عَن شُكرِ نِعَمِهِ وَالقُصُورِ عَن إِحصَائِهَا وَالعَجزِ عَنِ القِيَامِ بِأَدنَاهَا. وَمِن رَحمَتِهِ إِدَامَتُهَا عَلَينَا وَإِدرَارُهَا فِي كُلِّ لَحظَةٍ وَعِندَ كُلِّ نَفَسٍ نَتَنَفَّسُهُ، وَحَرَكَةٍ نَتَحَرَّكُهَا. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨]. «وَمَا أَحسَنَ مَا خَتَمَ بِهِ هَذَا الامتِنَانَ الَّذِي لَا يَلتَبِسُ عَلَىٰ إِنسَانٍ مُشِيراً إِلَىٰ عَظِيمِ غُفرَانِهِ وَسِعَةِ رَحمَتِهِ»[٣]. وَمَا أَوقَعَ هَذَا التَّذيِيلَ الجَلِيلَ وَأَحَبَّهُ إِلَىٰ قُلُوبِ العَارِفِينَ بِأَسرَارِ التَّنزِيلِ[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٣).
(٣) فتح القدير (٣/ ٢٢١).
(٤) المصدر السابق (١/ ٥٧١).

وَمِن رَحمَتِهِ مَا قَالَهُ عَن نَفسِهِ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، فَهُوَ مَعَ كَونِهِ غَنِيّاً عَن خَلقِهِ فَهُوَ ذُو رَحمَةٍ بِهِم «لَا يَكُونُ غِنَاهُ عَنهُم مَانِعاً مِن رَحمَتِهِ لَهُم، وَمَا أَحسَنَ هَذَا الكَلامَ الرَّبَّانِيَّ وَأَبلَغَهُ وَمَا أَقوَىٰ الاقتِرَانَ بَينَ الغِنَىٰ وَالرَّحمةِ فِي هَذَا المَقَامِ، فَإِنَّ الرَّحمَةَ لَهُم مَعَ الغِنَىٰ عَنهُم هِيَ غَايَةُ التَّفَضُّلِ وَالتَّطَوُّلِ»[١].

وَمِن رَحمَتِهِ: مَا قَالَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

«وَفِي هَذِهِ الآيَةِ لَطَائِفُ: مِنْهَا: أَنَّهُ أَكَّدَ ذِكرَ الرَّحمَةِ وَالمَغفِرَةِ بِمُؤَكِّدَاتٍ ثَلاثَةٍ:

أَوَّلُهَا: قَولُهُ ﴿أَنِّىٓ﴾.

وَثَانِيهَا: ﴿أَنَا﴾.

وَثَالِثُهَا: التَّعرِيفُ فِي ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ تَغلِيبِ جَانِبِ الرَّحمَةِ وَالمَغفِرَةِ، وَلَم يَقُل فِي ذِكرِ العَذَابِ: إِنِّي أَنَا المُعَذِّبُ وَلَم يَصِف نَفسَهُ بِذَلِكَ، بَلْ قَالَ عَلَىٰ سَبِيلِ الإِخبَارِ ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٥٠]»[٢].

وَمِن رَحمَتِهِ أَن خَلَقَ لِلذَّكَرِ مِنَ الحَيَوَانِ أُنثَىٰ مِن جِنسِهِ، وَأَلقَىٰ بَينَهُمَا المَحَبَّةَ وَالرَّحمَةَ لِيَقَعَ بَينَهُمَا التَّوَاصُلُ، الَّذِي بِهِ دَوَامُ التَّنَاسُلِ وَانتِفَاعُ الزَّوجَينِ، وَتَمَتُّعُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُمَا بِصَاحِبِهِ.

---

(١) فتح القدير (٢/ ٢٣٩).

(٢) فتح البيان (٧/ ١٧٧).

وَمِن رَحمَتِهِ: أَحوَجَ الخَلقَ بَعضَهُم إِلَىٰ بَعضٍ، لِتَتِمَّ بَينَهُم مَصَالِحُهُم، وَلَو أَغنَىٰ بَعضَهُم عَن بَعضٍ، لَتَعَطَّلَت مَصَالِحُهُم، وَفَسَدَ نِظَامُهُم.

وَمِن رَحمَتِهِ بِهِم: أَن جَعَلَ فِيهِمُ الغَنِيَّ وَالفَقِيرَ، وَالعَزِيزَ وَالذَّلِيلَ، وَالعَاجِزَ وَالقَادِرَ، وَالرَّاعِيَ وَالمَرعِيَّ، ثُمَّ أَفقَرَ الجَمِيعَ إِلَيهِ، ثُمَّ عَمَّ الجَمِيعَ بِرَحمَتِهِ.

وَمِن رَحمَتِهِ بِالمُذنِبِينَ وَالعُصَاةِ: أَنَّهُ «لَا يُعَاجِلُهُم بِالعُقُوبَةِ، وَرَحِيمٌ بِهِم فَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِم، وَيُضَاعِفُ حَسَنَاتِهِم[١] وَيُوصِلُهُم بِالتَّوبَةِ إِلَىٰ أَعلَىٰ الدَّرَجَاتِ، وَأَرفَعِ المَقَامَاتِ، وَيُعطِيهِم أَجراً حَسَناً، وَثَوَاباً جَزِيلاً»[٢].

وَمِن تَمَامِ رَحمَةِ أَرحَمِ الرَّاحِمِينَ: أَنَّهُ أَجرَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ مَكَارِهَ تُوصِلُهُم إِلَىٰ مَا يُحِبُّونَ، بَلْ رَحِمَهُم بِالمَصَائِبِ وَالآلَامِ، فَجَعَلَ الآلَامَ خَيراً لِلمُؤمِنِ الَّذِي يَقُومُ بِوَظِيفَةِ الصَّبرِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَجَباً لِأَمرِ المُؤمِنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤمِنِ؛ إِن أَصَابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيراً لَهُ، وَإِن أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيراً لَهُ**»[٣].

وَمِن رَحمَتِهِ سُبحَانَهُ بِعِبَادِهِ: ابتِلَاؤُهُم بِالأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي رَحمَةً وَحِميَةً، لَا حَاجَةَ مِنهُ إِلَيهِم بِمَا أَمَرَهُم بِهِ، فَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ، وَلَا بُخلاً مِنهُ عَلَيهِم بِمَا نَهَاهُم عَنهُ، فَهُوَ الجَوَادُ الكَرِيمُ.

---

(١) التعليقات الزكية عَلَى العقيدة الواسطية (١/ ١٤٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٢٦).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩).

فَتَأَمَّل مَا فِي أَمرِهِ وَنَهيِهِ وَوَصَايَاهُ وَمَوَاعِظِهِ مِنَ الرَّحمَةِ البَالِغَةِ، وَالنِّعمَةِ السَّابِغَةِ، وَمَا فِي حَشوِهَا مِنَ الرَّحمَةِ وَالنِّعمَةِ[١]. فَأَوَامِرُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ رَحمَةٌ وَإِحسَانٌ وَشِفَاءٌ وَدَوَاءٌ وَغِذَاءٌ لِلقُلُوبِ، وَزِينَةٌ لِلظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، وَحَيَاةٌ لِلقَلبِ وَالبَدَنِ، فَمَا يُسَمِّيهِ [البَعضُ] تَكَالِيفَ، إِنَّمَا هُوَ قُرَّةُ العُيُونِ، وَبَهجَةُ النُّفُوسِ، وَحَيَاةُ القُلُوبِ، وَنُورُ العُقُولِ، وَتَكمِيلٌ لِلفِطَرِ، وَإِحسَانٌ تَامٌّ إِلَىٰ النَّوعِ الإِنسَانِيِّ، أَعظَمُ مِن إِحسَانِهِ إِلَيهِ بِالصِّحَّةِ وَالعَافِيَةِ، وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ[٢].

وَمِن رَحمَتِهِ: أَن نَغَّصَ عَلَيهِمُ الدُّنيَا وَكَدَّرَهَا لِئَلَّا يَسكُنُوا وَيَطمَئِنُّوا إِلَيهَا؛ وَيَرغَبُوا فِي النَّعِيمِ المُقِيمِ فِي دَارِهِ وَجِوَارِهِ، فَسَاقَهُم إِلَىٰ ذَلِكَ بِالابتِلَاءِ وَالامتِحَانِ، فَمَنَعَهُم لِيُعطِيَهُم، وَابتَلَاهُم لِيُعَافِيَهُم، وَأَمَاتَهُم لِيُحيِيَهُم.

وَمِن رَحمَتِهِ: أَن حَذَّرَهُم نَفسَهُ، لِئَلَّا يَغتَرُّوا بِهِ، فَيُعَامِلُوهُ بِمَا لَا تَحسُنُ مُعَامَلَتُهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: مِن رَأفَتِهِ بِالعِبَادِ: حَذَّرَهُم مِن نَفسِهِ، لِئَلَّا يَغتَرُّوا بِهِ[٣].

وَهَذَا التَّحذِيرُ الشَّدِيدُ المُقتَرِنُ بِالرَّأفَةِ مِنهُ سُبحَانَهُ لِعِبَادِهِ لُطفاً بِهِم وَرَحمَةً.

---

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص٢٠٣).
(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٢٣).
(٣) إغاثة اللّهفان (ص٥٤٤ ـ ٥٤٥).

وَمِن رَحمَتِهِ: «تَسخِيرُهُ المَخلُوقَاتِ لِبَنِي آدَمَ، وَحِفظُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَإِبقَاؤُهَا لِئَلَّا تَزُولَ، فَتَختَلَّ مَصَالِحُهُم.

وَمِن رَحمَتِهِ: سَخَّرَ لَهُمُ البِحَارَ لِتَجرِيَ فِي مَنَافِعِهِم وَمَصَالِحِهِم، فَرَحِمَهُم حَيثُ خَلَقَ لَهُمُ المَسكَنَ وَأَودَعَ لَهُم فِيهِ كُلَّ مَا يَحتَاجُونَهُ، وَحَفِظَهُ عَلَيهِم وَأَبقَاهُ»(١).

وَمِن رَحمَتِهِ: أَن جَعَلَ لَهُمُ النَّهَارَ لِيَبتَغُوا مِن فَضلِهِ، وَيَنتَشِرُوا لِطَلَبِ أَرزَاقِهِم وَمَعَايِشِهِم فِي ضِيَائِهِ، وَاللَّيلَ لِيَهدَؤُوا فِيهِ وَيَسكُنُوا، وَتَستَرِيحَ أَبدَانُهُم وَأَنفُسُهُم مِن تَعَبِ التَّصَرُّفِ فِي النَّهَارِ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣].

«فَلَولَا اللَّيلُ، لَمَا سَكَنَ العِبَادُ، وَلَا استَمَرُّوا فِي تَصَرُّفِهِم، فَضَرَّهُم ذَلِكَ غَايَةَ الضَّرَرِ، وَلَوِ استَمَرَّ أَيضاً الظَّلَامُ، لَتَعَطَّلَت عَلَيهِم مَعَايِشُهُم، وَمَصَالِحُهُم.

فَاختِلَافُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَتَعَاقُبُهُمَا، مِن أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَىٰ كَمَالِ رَحمَةِ اللهِ، وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ وَحدَهُ المَعبُودُ المَحمُودُ، المَحبُوبُ المُعَظَّمُ، ذُو الجَلَالِ وَالإِكرَامِ»(٢).

وَمِن رَحمَتِهِ: أَنَّهُ خَوَّفَ العِبَادَ، وَزَجَرَهُم عَنِ الغَيِّ وَالفَسَادِ، وَحَذَّرَهُم مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي تُفضِي بِهِم إِلَىٰ المَكرُوهَاتِ، وَسَهَّلَ لَهُمُ الطُّرُقَ الَّتِي يَنَالُونَ بِهَا الخَيرَاتِ.

---

(١) شرح القواعد الحسان (ص٦٥ ـ ٦٦).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٨١٢).

وَمِن رَحمَتِهِ: أَنَّهُ يَسَّرَ لِلعِبَادِ «أسبَابَ الهِدَايَةِ غَايَةَ التَّيسِيرِ، وَنَبَّهَهُم عَلَىٰ سُلُوكِ طُرُقِهَا، وَبَيَّنَهَا لَهُم أَتَمَّ تَبيِينٍ»[١].

وَمِن رَحمَتِهِ: أَنَّهُ وَفَّقَ المُؤمِنِينَ إِلَىٰ الخَيرَاتِ، وَحَمَاهُم مِنَ المُخَالَفَاتِ، وَأَجزَلَ لَهُم أَنوَاعَ المَثُوبَاتِ، وَدَفَعَ عَنهُمُ البَلِيَّاتِ؛ فَصَلَحَت أَحوَالُهُم، وَاستَقَامَت أُمُورُهُم «فَلَولَا تَوفِيقُهُ إِيَّاهُم لَم يُرِيدُوهَا، وَلَولَا إِقدَارُهُم عَلَيهَا لَم يَقدِرُوا عَلَيهَا، وَلَولَا إِحسَانُهُ لَم يُتِمَّهَا وَيَقبَلْهَا مِنهُم، فَلَهُ الفَضلُ أَوَّلاً وَآخِراً، وَهُوَ الَّذِي مَنَّ بِالسَّبَبِ وَالمُسَبَّبِ»[٢]؛ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٠].

فَسُبحَانَ مَن رَحِمَ عِبَادَهُ فِي كُلِّ شَيءٍ، وَسَهَّلَ لَهُمُ الطُّرُقَ المُوصِلَةَ إِلَيهِ، وَحَثَّهُم عَلَىٰ سُلُوكِهَا، وَرَغَّبَهُم بِكُلِّ مُرَغِّبٍ تَشتَاقُ لَهُ النُّفُوسُ، وَتَطمَئِنُّ لَهُ القُلُوبُ. وَحَذَّرَهُم مِنَ العَمَلِ لِغَيرِ ذَلِكَ غَايَةَ التَّحذِيرِ، وَذَكَرَ لَهُمُ الأَسبَابَ الزَّاجِرَةَ عَن تَركِهِ[٣].

وَمِن رَحمَتِهِ: مَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَمَّا نَفَخَ اللهُ فِي آدَمَ الرُّوحَ، فَبَلَغَ الرُّوحُ رَأسَهُ عَطَسَ؛ فَقَالَ: الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَرحَمُكَ اللهُ**»[٤].

وَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الحَمدُ، وَأَوَّلَ مَا سَمِعَهُ الرَّحمَةُ[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٧).

(٢) المصدر السابق (ص١١٢).

(٣) المصدر السابق (ص١٠١١ ـ ١٠١٢).

(٤) رواه ابن حبان (٦١٦٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح موارد الظمآن» (١٧٤٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٤).

فَصَارَت تِلكَ سُنَّةَ العُطَاسِ، فَمَن لَم يَحمَدِ اللهَ لَم يَستَحِقَّ هَذِهِ الدَّعوَةَ، وَلَمَّا سَبقَت هَذِهِ الكَلِمَةُ لِآدَمَ قَبلَ أَن يُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُ كَانَ مَآلُهُ إِلَىٰ الرَّحمَةِ، وَكَانَ مَا جَرَىٰ عَارِضاً، وَزَالَ، فَإِنَّ الرَّحمَةَ سَبقَتِ العُقُوبَةَ وَغَلَبَتِ الغَضَبَ[١].

وَبِرَحمَتِهِ نَالَ أَهلُ الجَنَّةِ الأَوصَافَ الجَمِيلَةَ، «وَتَبَوَّأُوا مَنَازِلَهَا بِرَحمَتِهِ، وَجَازَاهُم بِمَحَبَّتِهِ وَقُربِهِ وَرِضوَانِهِ، وَثَوَابِهِ وَكَرَامَتِهِ بِرَحمَتِهِ»[٢].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَن يُدخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِفَضلٍ وَرَحمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**»[٣].

فَأَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ دُخُولَ الجَنَّةِ لَيسَ فِي مُقَابَلَةِ عَمَلِ أَحَدٍ، وَأَنَّهُ لَولَا تَغَمُّدُ اللهِ سُبحَانَهُ لِعَبدِهِ بِرَحمَتِهِ لَمَا أَدخَلَهُ الجَنَّةَ، فَلَيسَ عَمَلُ العَبدِ - وَإِن تَنَاهَىٰ - مُوجِباً بِمُجَرَّدِهِ لِدُخُولِ الجَنَّةِ، وَلَا عِوَضاً لَهَا، فَإِنَّ أَعمَالَهُ - وَإِن وَقَعَت مِنهُ عَلَىٰ الوَجهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرضَاهُ - فَهِيَ لَا تُقَاوِمُ نِعمَةَ اللهِ الَّتِي أَنعَمَ بِهَا عَلَيهِ فِي دَارِ الدُّنيَا، وَلَا تُعَادِلُهَا، بَلْ لَو حَاسَبَهُ لَوَقَعَت أَعمَالُهُ كُلُّهَا فِي مُقَابَلَةِ اليَسِيرِ مِن نِعَمِهِ، وَتَبقَىٰ بَقِيَّةُ النِّعَمِ مُقتَضِيَةً لِشُكرِهَا، فَلَو عَذَّبَهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ لَعَذَّبَهُ وَهُوَ غَيرُ ظَالِم لَهُ، وَلَو رَحِمَهُ لَكَانَت رَحمَتُهُ خَيراً لَهُ مِن عَمَلِهِ»[٤]، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَو أَنَّ اللهَ**

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٥٨).
(٢) فتح الرحيم الملك العلَّام (ص٢٢).
(٣) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٠).

عَذَّبَ أَهلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهلَ أَرضِهِ، عَذَّبَهُم وَهُوَ غَيرُ ظَالِمٍ لَهُم؛ وَلَو رَحِمَهُم، كَانَت رَحمَتُهُ خَيراً لَهُم مِنْ أَعمَالِهِم...»[١].

فَمَن نَظَرَ فِي هَذَا الحَقِّ الَّذِي لِرَبِّهِ عَلِمَ عِلمَ اليَقِينِ أَنَّهُ غَيرُ مُؤَدٍّ لَهُ كَمَا يَنبَغِي، وَأَنَّهُ لَا يَسَعُهُ إِلَّا العَفوُ وَالمَغفِرَةُ، وَأَنَّهُ إِن أُحِيلَ عَلَىٰ عَمَلِهِ هَلَكَ[٢].

فَحَاجَةُ العِبَادِ «إِلَىٰ مَغفِرَتِهِ وَرَحمَتِهِ وَعَفوِهِ، كَحَاجَتِهِم إِلَىٰ حِفظِهِ وَكَلَاءَتِهِ وَرِزقِهِ، فَإِن لَم يَحفَظهُم هَلَكُوا وَإِن لَم يَرزُقهُم هَلَكُوا، وَإِن لَم يَغفِر لَهُم وَيَرحَمهُم هَلَكُوا وَخَسِرُوا، وَلِهَذَا قَالَ أَبُوهُم آدَمُ عليه السلام وَأُمُّهُم حَوَّاءُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وَهَذَا شَأنُ وَلَدِهِ مِن بَعدِهِ»[٣].

وَمِنْ آثَارِ رَحمَةِ اللهِ إِحيَاءُ الأَرضِ، وَكَذَلِكَ إِرسَالُ السَّحَابِ، وَإِنزَالُ المَطَرِ الَّذِي هُوَ أَرفَعُ أَنوَاعِ الرِّزقِ وَأَعَمُّهَا فَائِدَةً، وَأَكثَرُهَا مَنفَعَةً وَمَصلَحَةً. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورىٰ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ [الروم: ٥٠]؛ وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ﴾ [الأعراف: ٥٧]، «فَيَسُوقُهُ اللهُ إِلَىٰ حَيثُ شَاءَ، فَيُحيِي بِهِ البِلَادَ وَالعِبَادَ، وَيَروِي

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٤٨).

(٢) موارد الأمان (ص١٥٤).

(٣) شفاء العليل (١/ ٣٥٩).

التُّلولَ وَالوِهَادَ، وَيُنزِلُهُ عَلَىٰ الخَلقِ وَقتَ حَاجَتِهِم إِلَيهِ[١]، فَأَنبَتَ اللهُ بِهِ كُلَّ شَيءٍ، مِمَّا يَأكُلُ النَّاسُ وَالأَنعَامُ. فَرَتَعَ الخَلقُ، بِفَضلِ اللهِ، وَانبَسَطُوا بِرِزقِهِ، وَفَرِحُوا بِإِحسَانِهِ، وَزَالَ عَنهُمُ الجَدبُ وَالقَحطُ، فَفَرِحَتِ القُلُوبُ، وَأَسفَرَتِ الوُجُوهُ، وَحَصَلَ لِلعِبَادِ مِن رَحمَةِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، مَا بِهِ يَتَمَتَّعُونَ، وَبِهِ يَرتَعُونَ[٢]، فَمَا أَعظَمَ سُلطَانَهُ، وَأَغزَرَ إِحسَانَهُ، وَأَلطَفَ امتِنَانَهُ!![٣] فَسُبحَانَ مَنْ أَجزَلَ وَأَنْعَمَ وَأَسنَىٰ النِّعَمَ، وَأَكثَرَ العَطَايَا وَالمِنَحَ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرِّيحُ مِن رَوحِ اللهِ، تَأتِي بِالرَّحمَةِ وَالعَذَابِ، فَلَا تَسُبُّوهَا. وَلَكِن سَلُوا اللهَ مِن خَيرِهَا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِن شَرِّهَا**»[٤].

فَسُبحَانَ مَن جَعَلَ هُبُوبَ الرِّيَاحِ تَأتِي بِرَوحِهِ وَرَحمَتِهِ وَلُطفِهِ وَنِعمَتِهِ[٥].

وَلَا تَزَالُ رَحمَةُ اللهِ «تَنزِلُ عَلَىٰ العِبَادِ فِي كُلِّ وَقتٍ، فِي جَمِيعِ اللَّحَظَاتِ، مَا تَقُومُ بِهِ أُمُورُهُمُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنيَوِيَّةُ»[٦]، وَلَم تَزَل آثَارُهَا، «سَارِيَةً فِي الوُجُودِ، مَالِئَةً لِلمَوجُودِ. تَسُحُّ يَدَاهُ مِنَ الخَيرَاتِ، آنَاءَ اللَّيلِ

(١) شفاء العليل (ص٣٤٧).
(٢) المصدر السابق (ص٨٥).
(٣) المصدر السابق (ص٨٥).
(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٠)، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح الأدب المفرد» (٥٥٨).
(٥) مفتاح دار السعادة (٢/ ٧٩).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٥٤).

وَالنَّهَارِ، وَيُوَالِي النِّعَمَ وَالفَوَاضِلَ عَلَىٰ العِبَادِ فِي السِّرِّ وَالجِهَارِ»[(١)].

وَمِن رَحمَتِهِ: مَا قَالَهُ النَّبيُّ ﷺ: «**لَمَّا أَغرَقَ اللهُ فِرعَونَ قَالَ**: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]؛ **فَقَالَ جِبرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، فَلَو رَأَيتَنِي، وَأَنَا آخِذٌ مِن حَالِ البَحرِ؛ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أَن تُدرِكَهُ الرَّحمَةُ**»[(٢)].

وَمِمَّا يَرتَاحُ لَهُ القَلبُ، وَتَطمَئِنُّ بِهِ النَّفسُ، وَيَنشَرِحُ لَهُ الصَّدرُ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَضَافَ المُلكَ فِي يَومِ القِيَامَةِ، لاسمِهِ (**الرَّحمَنِ**) كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]؛ وَقَدْ حَضَرُوا فِي مَوقِفِ الذُّلِّ، وَالخُضُوعِ، وَالاستِكَانَةِ بَينَ يَدَيهِ، يَنتَظِرُونَ مَا يَحكُمُ فِيهِم، وَمَا يَجرِي عَلَيهِم، وَهُوَ أَرحَمُ بِهِم مِنْ أَنْفُسِهِم، وَوَالِدِيهِم، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يُعَامِلُهُم بِهِ[(٣)]. سَيَرَونَ مِن رَحمَتِهِ «فَوقَ وَصفِ الوَاصِفِينَ، وَتَصَوُّرِ المُتَصَوِّرِينَ»[(٤)]: مَا لَا يَخطُرُ فِي الظُّنُونِ، وَلَا حَسَبَ الحَاسِبُونَ[(٥)]؛ وَلَا يَهلِكُ عَلَىٰ اللهِ إِلَّا هَالِكٌ، وَلَا يَخرُجُ مِن رَحمَتِهِ إِلَّا مَن غَلَبَت عَلَيهِ الشَّقَاوَةُ، وَحَقَّت عَلَيهِ كَلِمَةُ العَذَابِ[(٦)].

فَقُل مَا شِئتَ عَن رَحمَتِهِ فَإِنَّهَا فَوقَ مَا تَقُولُ، وَتَصَوَّر فَوقَ مَا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٢٠).
(٢) رواه الترمذي (٣١٠٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٢٥٦).
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٨٠٨).
(٤) فتح البيان (٥/ ٢٥٧).
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٩٧٦).
(٦) انظر: المصدر السابق (ص٨٠٨).

شِئتَ فَإِنَّهَا فَوقَ[١] مَا يَخطُرُ بِالبَالِ أَو يَدُورُ فِي الخَيَالِ.

وَفِي الجُملَةِ: فَلَا طَابَتِ الأُمُورُ وَلَا تَيَسَّرَتِ الأَشيَاءُ، وَلَا حَصَلَتِ المَقَاصِدُ وَأَنوَاعُ المَطَالِبِ إِلَّا بِرَحمَتِهِ. فَكُلُّ خَيرٍ أَوصَلَهُ إِلَينَا فَمِن آثَارِ رَحمَتِهِ، وَكُلُّ شَرٍّ دَفَعَهُ عَنَّا فَهُوَ مِن آثَارِ رَحمَتِهِ، وَرَحمَتُهُ فَوقَ ذَلِكَ أَجَلُّ وَأَعلَىٰ.

وَأَصنَافُ رَحمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الدُّنيَا لَا تُحصَرُ وَلَا تُحصَىٰ، وَهِيَ فِي الآخِرَةِ أَجَلُّ وَأَعظَمُ مِن أَن تُستَقصَىٰ. سَيَرحَمُ بِهَا عِبَادَهُ، لَا تَخطُرُ بِبَالِ بَشَرٍ، وَلَا يُدرِكُ لَهَا وَصفٌ «وَالأَمَلُ بِالرَّبِّ الكَرِيمِ، الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، أَن يَرَىٰ الخَلَائِقُ مِنهُ، مِنَ الفَضلِ وَالإِحسَانِ، وَالعَفوِ وَالصَّفحِ وَالغُفرَانِ، مَا لَا تُعَبِّرُ عَنهُ الأَلسِنَةُ، وَلَا تَتَصَوَّرُهُ الأَفكَارُ»[٢].

فَنَسأَلُهُ تَعَالَىٰ أَن يَتَغَمَّدَنَا وَيُدخِلَنَا بِرَحمَتِهِ فِي عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَو يَعلَمُ المُؤمِنُ مَا عِندَ اللهِ مِنَ العُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَو يَعلَمُ الكَافِرُ مَا عِندَ اللهِ مِنَ الرَّحمَةِ، مَا قَنَطَ مِن جَنَّتِهِ أَحَدٌ**»[٣].

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَو تَعلَمُونَ قَدرَ رَحمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، لَاتَّكَلتُم عَلَيهَا**»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٠٨).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص٧٠٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧٥٥).

(٤) رواه البزار «كشف الأستار» (٣٢٥٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٢٦٠).

فَتَأَمَّل هَذَا الكَلامَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، يَفتَح لَكَ بَاباً مِن أَبوَابِ مَعرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ.

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الرَّحمَةِ:

١ - إِنَّ الإِنسَانَ مَا دَامَ يَعرِفُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَحِيمٌ؛ فَسَوفَ يَتَعَلَّقُ بِرَحمَةِ اللهِ، وَيَكُونُ مُنتَظِراً لَهَا، لِأَنَّهُ فِي غَايَةِ الضَّرُورَةِ وَالافتِقَارِ إِلَىٰ رَحمَةِ اللهِ، لَا يَستَغنِي عَنهَا طَرفَةَ عَينٍ، وَكُلُّ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَاندِفَاعِ النِّقَمِ، مِن رَحمَةِ اللهِ. فَيَحمِلُهُ هَذَا الاعتِقَادُ عَلَىٰ فِعلِ كُلِّ سَبَبٍ تُنَالُ بِهِ رَحمَةُ اللهِ الَّتِي هِيَ أَعظَمُ العَطَايَا، وَأَفضَلُ المَوَاهِبِ، وَأَكمَلُ المَقَاصِدِ وَالرَّغَائِبِ، فَهَلُمَّ إِلَىٰ الأَسبَابِ الجَلِيلَةِ، وَالطُّرُقِ العَظِيمَةِ.

أَوَّلاً: الإِحسَانُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ «فِي عِبَادَةِ اللهِ، الـمُحسِنِينَ إِلَىٰ عِبَادِ اللهِ، فَكُلَّمَا كَانَ العَبدُ أَكثَرَ إِحسَاناً، كَانَ أَقرَبَ إِلَىٰ رَحمَةِ رَبِّهِ، وَكَانَ رَبُّهُ قَرِيباً مِنهُ بِرَحمَتِهِ، وَفِي هَذَا مِنَ الحَثِّ عَلَىٰ الإِحسَانِ مَا لَا يَخفَىٰ»[١].

وَإِنَّمَا اختَصَّ أَهلُ الإِحسَانِ بِقُربِ الرَّحمَةِ مِنهُم، لِأَنَّهَا إِحسَانٌ مِنَ اللهِ أَرحَمِ الرَّاحِمِينَ، وَإِحسَانُهُ تَعَالَىٰ إِنَّمَا يَكُونُ لِأَهلِ الإِحسَانِ؛ لِأَنَّ الجَزَاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فَكَمَا أَحسَنُوا بِأَعمَالِهِم أَحسَنَ إِلَيهِم بِرَحمَتِهِ.

وَأَمَّا مَن لَم يَكُن مِن أَهلِ الإِحسَانِ فَإِنَّهُ لَمّا بَعُدَ عَنِ الإِحسَانِ بَعُدَت عَنهُ الرَّحمَةُ، بُعداً بِبُعدٍ، وَقُرباً بِقُربٍ، فَمَن تَقَرَّبَ بِالإِحسَانِ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٩٢).

تَقَرَّبَ اللهُ إِلَيهِ بِرَحمَتِهِ، وَمَن تَباعَدَ عَنِ الإِحسَانِ تَبَاعَدَ اللهُ عَنْهُ بِرَحمَتِهِ. وَاللهُ سُبحَانَهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ، وَيُبغِضُ مَن لَيسَ مِنَ المُحسِنِينَ، وَمَن أَحَبَّهُ اللهُ فَرحمَتُهُ أَقرَبُ شَيءٍ مِنهُ، وَمَن أَبغَضَهُ فَرحمَتُهُ أَبعَدُ شَيءٍ مِنهُ.

فَأَعظَمُ الإِحسَانِ الإِيمَانُ وَالتَّوحِيدُ وَالإِنَابَةُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالإِقبَالُ عَلَيهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيهِ، وَأَن يَعبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ إِجلَالاً وَمَهَابَةً، وَحَيَاءً وَمَحَبَّةً وَخَشيَةً. فَهَذَا هُوَ مَقَامُ الإِحسَانِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ سَأَلَهُ جِبرِيلُ عَنِ الإِحسَانِ؛ فَقَالَ: «**أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[١]. وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الإِحسَانُ، فَرَحمَةُ اللهِ قَرِيبٌ مِن صَاحِبِهِ[٢]؛ وَ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]، يَعنِي هَل جَزَاءُ مَن أَحسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ إِلَّا أَن يُحسِنَ رَبُّهُ إِلَيهِ؟![٣]

فَكَانَ فِي بَيَانِ قُربِهِ سُبحَانَهُ مِنَ المُحسِنِينَ مِنَ التَّحرِيضِ عَلَىٰ الإِحسَانِ، وَاستِدعَائِهِ مِنَ النُّفُوسِ، وَتَرغِيبِهَا فِيهِ، غَايَةُ حَظٍّ لَهَا وَأَشرَفُهُ وَأَجَلُّهُ عَلَىٰ الإِطلَاقِ، وَهُوَ أَفضَلُ عَطَاءٍ أُعطِيَهُ العَبدُ، وَهُوَ قُربُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِن عَبدِهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ الأَمَانِي، وَنِهَايَةُ الآمَالِ، وَقُرَّةُ العُيُونِ، وَحَيَاةُ القُلُوبِ، وَسَعَادَةُ العَبدِ كُلُّهَا: مَا لَا يَتَخَلَّفُ بَعدَهُ إِلَّا مَن غَلَبَت عَلَيهِ شَقَاوَتُهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ تَعَالَىٰ[٤].

ثانياً: اتِّبَاعُ القُرآنِ عِلماً وَعَمَلاً: قَالَ ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٨٦١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٧ ـ ٢٨).
(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٨٨٣).

مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥].

القُرآنُ العَظِيمُ، أَعظَمُ رَحمَةٍ رَحِمَ بِهَا الرَّحمَنُ عِبَادَهُ. فَمَنْ قَبِلَهَا، فَقَدْ قَبِلَ خَيرَ المَوَاهِب، وَفَازَ بِأَعْظَمِ المَطَالِبِ وَالرَّغَائِبِ[١].

وَهَذَا القُرآنُ العَظِيمُ، وَالذِّكرُ الحَكِيمُ، فِيهِ الخَيرُ الكَثِيرُ، وَالعِلمُ الغَزِيرُ. وَهُوَ الَّذِي تُستَمَدُّ مِنهُ سَائِرُ العُلُومِ، وَتُسْتَخْرَجُ مِنْهُ البَرَكَاتُ. فَمَا مِنْ خَيرٍ إِلَّا وَقَدْ دَعَا إِلَيهِ، وَرغَّبَ فِيهِ، وَذَكَرَ الحِكَمَ وَالمَصَالِحَ الَّتي تَحُثُّ عَلَيهِ. وَمَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا وَقَدْ نَهَىٰ عَنهُ، وَحَذَّرَ مِنهُ، وَذَكَرَ الأَسبَابَ المُنَفِّرَةَ عَنْ فِعْلِهِ، وَعَوَاقِبَهَا الوَخِيمَةَ. فَاتَّبِعُوهُ فِيمَا يَأمُرُ بِهِ وَيَنْهَىٰ، وَابنُوا أُصُولَ دِينِكُمْ، وَفُرُوعَهُ عَلَيهِ. وَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ تُخَالِفُوا لَهُ أَمراً لَعَلَّكُم إِنِ اتَّبَعتُمُوهُ تُرْحَمُوا.

فَأَكْبَرُ سَبِيلٍ لِنَيلِ رَحمَةِ اللهِ: اتِّبَاعُ هَذَا الكِتَابِ، عِلْماً وَعَمَلاً[٢].

ثَالِثاً: الاسْتِمَاعُ لِقِرَاءَةِ القُرآنِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

هَذَا الأَمْرُ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ سَمِعَ كِتَابَ اللهِ يُتلَىٰ، فَإِنَّهُ مَأمُورٌ بِالاسْتِمَاعِ لَهُ وَالإِنْصَاتِ، وَالفَرْقُ بَينَ الاسْتِمَاعِ وَالإِنْصَاتِ، أَنَّ الإِنْصَاتَ فِي الظَّاهِرِ بِتَرْكِ التَّحَدُّثِ أَوِ الاشْتِغَالِ بِمَا يَشْغَلُ عَنِ اسْتِمَاعِهِ.

وَأَمَّا الاسْتِمَاعُ لَهُ، فَهُوَ أَنْ يُلْقِيَ سَمْعَهُ، وَيُحْضِرَ قَلْبَهُ، وَيَتَدَبَّرَ مَا يَسْتَمِعُ. فَإِنَّ مَنْ لَازَمَ عَلَىٰ هَذَينِ الأَمْرَينِ، حِينَ يُتْلَىٰ كِتَابُ اللهِ، فَإِنَّهُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٧٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص٣٦٨).

يَنَالُ خيراً كَثِيراً، وَعِلْماً غزيراً، وَإِيماناً مُستَمِرّاً مُتَجَدِّداً، وَهُدًى مُتَزَايِداً، وَبَصِيرَةً فِي دِينِهِ. وَلِهَذَا رَتَّبَ اللهُ حُصُولَ الرَّحمَةِ عَلَيهِما، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ تُلِيَ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَلَم يَسْتَمِع لَهُ وَلَمْ يُنْصِتْ، أَنَّهُ مَحْرُومُ الحَظِّ مِنَ الرَّحمَةِ، قَدْ فَاتَهُ خيرٌ كَثِيرٌ[1].

رَابِعاً: إِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَطَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦].

خَامِساً: الاسْتِغْفَارُ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

سَادِساً: الدُّعَاءُ: وَهُوَ سَبَبٌ قَوِيٌّ مِنَ الأَسْبَابِ الجَالِبَةِ لِرَحمَةِ اللهِ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ «لِأَنَّ مَنْ هُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ تُؤمَلُ مِنْهُ الرَّحمَةُ»[2]. قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨]. أَي: رَحمَةً «عَظِيمَةً تُوَفِّقُنَا بِهَا لِلخيرَاتِ، وَتَعْصِمُنَا بِهَا مِنَ المُنكَرَاتِ. إِنَّكَ وَاسِعُ العَطَايَا وَالهِبَاتِ، كَثِيرُ الإِحْسَانِ الَّذِي عَمَّ جُودُكَ جَمِيعَ البَرِيَّاتِ»[3]؛ وَتَنكِيرُ «رَحمَةً» لِلتَّعظِيمِ: أَي رَحمَةً عَظِيمَةً وَاسِعَةً تُزلِفُنَا إِلَيكَ وَنَفُوزُ بِهَا عِنْدَكَ[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٢٠ ـ ٤٢١).
(٢) فتح البيان (٥/ ٢٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص١٤٤ ـ ١٤٥).
(٤) فتح البيان (٢/ ١٩١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وَمَنْ رَحِمَهُ اللهُ حَصَلَ عَلَىٰ كُلِّ خَيرٍ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿**قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١].

سَابِعاً: التَّقْوَىٰ: قَالَ ﷻ: ﴿**وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ١٠]. عَلَّقَ اللهُ تَعَالَىٰ الرَّحمَةَ بِالتَّقوَىٰ وَأَتَىٰ بِأَدَاةِ «لَعَلَّ» المُشعِرَةِ بِالتَّرَجِّي، إِيذَاناً بِأَنَّكُم إِذَا اتَّقَيتُم كُنتُم عَلَىٰ رَجَاءِ الرَّحمَةِ. فَلَا يَرجُو الرَّحمَةَ إِلَّا المُتَّقُونَ. جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

ثامِناً: عِيَادَةُ المَرِيضِ: عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضاً خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ، حَتَّىٰ إِذَا قَعَدَ اسْتَقَرَّ فِيهَا**»(١).

تَاسِعاً: الاسْتِغَاثَةُ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»(٢).

فَإِنَّ الرَّحْمَةَ هُنَا صِفَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَهِيَ مُتَعَلَّقُ الاسْتِغَاثَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِمَخْلُوقٍ، وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ مِن أَدْعِيَةِ الكَرْبِ لِمَا

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٢٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٤٠٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٢٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٤٨).

تَضَمَّنَهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالاسْتِغَاثَةِ بِرَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِيْنَ، مُتَوَسِّلاً إِلَيهِ بِاسمَيْنِ عَلَيهِما مَدَارُ الأَسْمَاءِ الحُسْنَىٰ كُلِّهَا، وَإِلَيهِمَا مَرْجِعُ مَعَانِيْهِمَا جَمِيْعِهَا، وَهُوَ اسْمُ: الحَيِّ القَيُّومِ[١].

عَاشِراً: وَمِن أَكْبَرِ الأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا رَحْمَةُ اللهِ: رَحْمَةُ العَبْدِ لِلْخَلْقِ، فَتَرَاهُ رَحِيْماً رَقِيْقَ القَلْبِ بِالصِّغَارِ وَالكِبَارِ، يَرْحَمُ النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَالطَّيْرَ فِي وَكْرِهِ، فَهَذَا أَقْرَبُ القُلُوْبِ مِنَ اللهِ.

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَضَعُ اللهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَىٰ رَحِيمٍ»**. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كُلُّنَا يَرْحَمُ. قَالَ: **«لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُم صَاحِبَهُ، يَرْحَمُ النَّاسَ كَافَّةً»**[٢].

وَعَنْ عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَومٍ فِي خُطْبَتِهِ: «... **أَهْلُ الجنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٍ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**»[٣].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ، يَرْحَمْكُم مَنْ فِي السَّماءِ»**[٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٦٧٨ ـ ٦٧٩).

(٢) رواه أبو يَعلَى في «مسنده» (٤٢٥٨)، وَقواه الألباني رحمه الله بالمتابعة وَالشواهد في «الصحيحة» (١٦٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٤) رواه الترمذي (١٩٢٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٥٦٩).

وَعَن أُسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»**(١).

وَالمعنَى: «أَنَّ اللهَ تَعَالَى لا يَرحَمُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا كَثِيرَ الرَّحمَةِ، فَالرُّحَماءُ جَمْعُ رَحِيمٍ، وَهُوَ مِنْ صِيَغِ المُبَالَغَةِ»(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَىٰ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَأَعْطَتْهَا عَائِشَةُ ثَلاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ لَهَا تَمرَةً، وَأَمْسَكَتْ لِنَفسِهَا تَمْرَةً، فَأَكَلَ الصَّبِيَّانِ التَّمْرَتَينِ وَنَظَرَا إِلَىٰ أُمِّهِمَا، فَعَمَدَتْ إِلَىٰ التَّمْرَةِ فَشَقَّتْهَا، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ نِصْفَ تَمْرَةٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ فَقَالَ: **«وَمَا يُعْجِبُكِ مِنْ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَحِمَهَا اللهُ بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّيهَا»**(٣).

وَعَنْ قُرَّةَ بنِ إِياسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لأَذْبَحُ الشَّاةَ فَأَرْحَمُهَا ـ أَو قَالَ: إِنِّي لأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا ـ؛ قَالَ ﷺ: **«وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا، رَحِمَكَ اللهُ»** مرَّتَينِ(٤).

وَعَن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ رَحِمَ وَلَو ذَبِيْحَةً، رَحِمَهُ اللهُ يومَ القِيَامَةِ»**(٥).

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٤)، وَمسلم (٩٢٣).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٧٦).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٩)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٦٦).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٣)، وَصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٦).

(٥) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨١)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٢٦١).

وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ نَزَلَ مَنْزِلاً فَأَخَذَ رَجُلٌ بَيْضَ حُمَّرَةٍ، فَجَاءَتْ تَرِفُّ عَلَىٰ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ فَجَعَ هَذِهِ بِبَيضَتِهَا؟**». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رسولَ اللهِ! أَنَا أَخَذْتُ بَيْضَتَهَا، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**ارْدُدْهُ؛ رَحْمَةً لهَا**»[(١)].

فَمَنْ رَحِمَ رُحِمَ أَضْعَافَ مَا رَحِمَ، ثُمَّ الجَزَاءُ فِي الآخِرةِ أَضْعَافُ ذَلِكَ.

وَاللهُ سُبحَانَهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْحَمَ عَبْداً أَسْكَنَ فِي قَلْبِهِ الرَّحْمَةَ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُعَذِّبَهُ نَزَعَ مِنْ قَلْبِهِ الرَّحْمَةَ.

عَنْ عَمْرِو بنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بنِ خَالِدِ بنِ عَمْرِو بنِ عُثمَانَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**خَابَ عَبْدٌ وَخَسِرَ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ [تَعَالَىٰ] فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلبَشَرِ**»[(٢)].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ الصَّادِقَ المَصْدُوقَ ﷺ - صَاحِبَ هَذِهِ الحُجْرةِ - يَقُولُ: «**لا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ**»[(٣)].

وَإِنَّ مِنْ أَبعَدِ قُلُوبِ النَّاسِ، مِنْ رَبِّنَا الرَّحِيمِ: قَلْبٌ قَاسٍ.

وَمَنْ لَا يَرحَمْهُ اللهُ فَهُوَ فِي النَّارِ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ لَا يَرْحَمْ،**

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٢)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٩٥).

(٢) رواه الدولابي في «الكنى والأسماء» رقم (١٣٤٩)، وَابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢١/ ٥٤)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٤٥٦).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٤٢)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٧٤٦٧).

لا يُرْحَمْ»[١].

وَمَنْ رَحِمَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ «فَهَؤلاءِ سَبقَتْ لهُم سَابِقَةُ السَّعَادَةِ، وَتَدارَكَتْهُمُ العِنَايَةُ الرَّبَّانيَّةُ وَالتَّوفِيقُ الإِلَهِيُّ»[٢]، وَأَدْخَلَهُم دَارَ كَرَامَتِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الجاثية: ٣٠]، أَي الَّتي مَحِلُّهَا الجَنَّةُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٧].

«وَإِذَا كَانُوا خَالِدِينَ فِي الرَّحْمَةِ، فَالجَنَّةُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ تَعَالَىٰ، فَهُم خَالِدُونَ فِيهَا بِمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ وَالعَيشِ السَّلِيمِ، فِي جِوَارِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ»[٣].

عَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قَالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَن أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»**[٤].

وَرَحْمَتُهُ هَهُنَا فِي الجَنَّةِ، وَهِيَ رَحْمَةٌ مَخْلُوقَةٌ، نَاشِئَةٌ عَنِ الرَّحْمَةِ، الَّتي هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَنِ[٥]. وَفِيهَا مِنَ الرَّحْمَةِ وَالإِحْسَانِ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

فَالبِدَارَ البِدَارَ إِلَىٰ رَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ وَبِرِّهِ العَمِيمِ، وَسُلُوكِ الطُّرُقِ المُوصِلَةِ إِلَىٰ رَحْمَةِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٧)، وَمسلم (٢٣١٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٣٥).

(٣) المصدر السابق (ص١٧٢).

(٤) رواه البخاري (٤٨٥٠)، وَمسلم (٢٨٤٦).

(٥) حادي الأرواح (ص٤٠٥).

وَللهِ درُّ القَائِلِ:

ذُنُوبِي إِنْ فَكَّرْتُ فِيهَا كَثِيرَةٌ ... وَرَحْمَةُ رَبِّي مِنْ ذُنُوبِي أَوْسَعُ
وَمَا طَمَعِي في صَالحٍ قَدْ عَمِلْتُهُ ... وَلَكِنَّنِي فِي رَحْمَةِ اللهِ أَطْمَعُ[(١)]

فَنَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ، أَنْ لَا يَحْرِمَنَا خيرَ مَا عِنْدَهُ، مِنَ الإِحْسَانِ، بِشَرٍّ مَا عِنْدَنَا مِنَ التَّقْصِيرِ وَالعِصْيانِ[(٢)].

فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: عَن أَبِي الحَارِثِ الكِرْمَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلاً قَالَ لأَبِي رَجَاءَ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْمَعَ بَينِي وَبَينَكَ فِي مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ! قَالَ: وَهَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَمَا مُسْتَقَرُّ رَحْمَتِهِ؟ قَالَ: الجَنَّةُ، قَالَ: لَمْ تُصِبْ. قَالَ: فَمَا مُسْتَقَرُّ رَحْمَتِهِ؟ قَالَ: قُلْتُ: (رَبُّ العَالَمِينَ)[(٣)].

قَالَ العَلَّامَةُ الأَلبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَهَذَا الأَثَرُ عَنْهُ يَدُلُّ عَلَىٰ فَضلِهِ وَعِلمِهِ، وَدِقَّةِ مَلاحَظَتِهِ؛ فَإِنَّ الجَنَّةَ لا يُمكِنُ أَن تَكُونَ مُستَقَرَّ رَحمَتِهِ تَعَالَىٰ؛ لأَنَّهَا صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ، بِخِلافِ الجَنَّةِ فَإِنَّهَا خَلقٌ مِن خَلقِ اللهِ، وَإِن كَانَ استِقرَارُ المؤمِنينَ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ بِرحمَتِهِ تَعَالَىٰ كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٧] يعني: الجنَّةَ[(٤)].

* * *

(١) المحجة في سير الدلجة (ص٤٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٥٤).
(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٦٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٥٩٥).
(٤) صحيح الأدب المفرد (ص٢٠٧ ـ ٢٠٨).

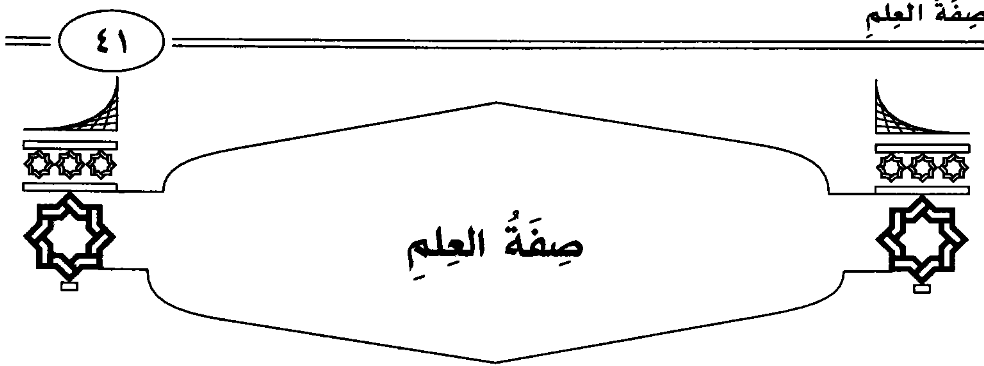

صِفَةُ العِلمِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ عِلمِهِ: فَهُوَ العَلِيمُ الَّذِي قَد كَمُلَ في عِلمِهِ. فَهُوَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، وَعَالِمُ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ، وَبِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ، واسعُ العلمِ عليمٌ بكلِّ شيءٍ جملةً وتفصيلاً.

وَعلمُ اللهِ تعالَى أزليٌّ أبديٌّ لَمْ يُسْبَقْ بِجَهلٍ، ولا يَلْحَقُهُ نسيانٌ؛ قالَ موسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ لفرعونَ حينَ سألَهُ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢].

فَيعلَمُ تَعالَىٰ الأُمورَ المُتقَدِّمَةَ وَالأُمورَ المُتأَخِّرَةَ، أَزَلاً وَأبداً، وَيَعلَمُ جَلِيلَ الأُمورِ وَحَقِيرَهَا، وصَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، وَيَعلَمُ تَعالَىٰ ظَوَاهِرَ الأَشيَاءِ وَبَوَاطِنَهَا، غَيبَهَا وَشَهَادَتَهَا، مَا يَعلَمُ الخَلقُ مِنْهَا وَمَا لَا يَعلَمُونَ؛ وَيَعلَمُ تَعالَىٰ مَا تَحتَ الأَرضِ السُّفلَىٰ، كَمَا يَعلَمُ مَا فَوقَ السَّمَاوَاتِ العُلَىٰ، وَيَعلَمُ تَعالَىٰ جُزئِيَّاتِ الأُمورِ وَخَبَايَا الصُّدُورِ، وَخَفَايَا مَا وَقَعَ وَيَقَعُ فِي أَرجَاءِ العَالَمِ وَأَنحَاءِ المَملَكَةِ، فَهُوَ الَّذِي أَحَاطَ عِلمُهُ بِجَمِيعِ الأَشيَاءِ فِي كُلِّ الأَوقَاتِ، وَلَا يَعرِضُ لِعِلمِهِ خَفَاءٌ وَلَا نِسيَانٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [التغابن: ٤]، «وذَاتُ الصُّدُورِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِمَا يَشتَمِلُ عَلَيهِ الصَّدرُ مِنَ الاعتِقَادَاتِ وَالإِرَادَاتِ وَالحُبِّ وَالبُغضِ، أَي: صَاحِبَةُ

الصُّدُورِ، فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَت فِيهَا، قَائِمَةً بِهَا، نُسِبَت إِلَيهَا نِسبَةَ الصُّحبَةِ وَالمُلازَمَةِ(١).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]: يَعنِي أَن تَنظُرَ عَلَىٰ وَجهِ الخَفَاءِ الَّذِي لَا يُدرِكُهُ النَّاسُ وَلَكِنَّ اللهَ يَعلَمُهُ، فَهُوَ يَعلَمُ خَائِنَةَ الأَعيُنِ وَيَعلَمُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ مَا تُخفِي الصُّدُورُ مِنَ النيَّاتِ الحَسَنَةِ وَالنيَّاتِ السيِّئَةِ، بَل يَعلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ النَّفسُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

«هَذِهِ الآيَةُ العَظِيمَةُ، مِنْ أَعظَمِ الآيَاتِ تَفصِيلاً، لِعِلمِهِ المُحِيطِ، وَأَنَّهُ شَامِلٌ لِلغُيُوبِ كُلِّهَا، الَّتِي يُطلِعُ مِنْهَا مَا شَاءَ مِن خَلقِهِ. وكَثِيرٌ مِنْهَا طَوَىٰ عِلمَهُ عَنِ المَلائِكَةِ المُقَرَّبِينَ، وَالأَنبِيَاءِ المُرسَلِينَ، فَضلاً عَن غَيرِهِم مِنَ العَالَمِينَ. وَأَنَّهُ يَعلَمُ مَا فِي البَرَارِي وَالقِفَارِ، مِنَ الحَيَوَانَاتِ، وَالأَشجَارِ، وَالرِّمَالِ وَالحَصَىٰ، وَالتُّرَابِ. ومَا فِي البِحَارِ مِن حَيَوَانَاتٍ وَمَعَادِنِهَا وَصَيدِهِ، وَغَيرِ ذَلِكَ، مِمَّا تَحتَوِيهِ أَرجَاؤُهَا، وَيَشتَمِلُ عَلَيهِ مَاؤُهَا.

وَبَعضُ هَذَا المَذكُورِ، يُبهِرُ العُقَلَاءَ، وَيُذهِلُ أَفئِدَةَ النُّبَلَاءِ. فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ عَظَمَةِ الرَّبِّ العَظِيمِ وَسِعَتِهِ، فِي أَوصَافِهِ كُلِّهَا.

---

(١) شفاء العليل (١/٢٠٨).

وَأَنَّ الخَلقَ ـ مِنْ أَوَّلِهِم إِلَىٰ آخِرِهِم ـ لَوِ اجتَمَعُوا عَلَىٰ أَن يُحِيطُوا بِبَعضِ صِفَاتِهِ، لَم يَكُن لَهُم قُدرَةٌ، وَلَا وِسعٌ فِي ذَلِكَ. فَتَبَارَكَ الرَّبُّ العَظِيمُ الوَاسِعُ العَلِيمُ، الحَمِيدُ المَجِيدُ، الشَّهِيدُ المُحِيطُ.

وَجَلَّ مِنْ إِلَهٍ، لَا يُحصِي أَحَدٌ ثَنَاءً عَلَيهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ، وَفَوقَ مَا يُثنِي عَلَيهِ عِبَادُهُ. فَهَذِهِ الآيَةُ دَلَّت عَلَىٰ عِلمِهِ المُحِيطِ بِجَمِيعِ الأَشيَاءِ، وَكِتَابِهِ المُحِيطِ، بِجَمِيعِ الحَوَادِثِ»(١).

وَمِن كَمَالِ عِلمِهِ أَنَّ عُلُومَ الأَنبِيَاءِ، وَعُلُومَ الخَلَائِقِ جَمِيعِهِم فِي جَنبِ عِلمِهِ تَعَالَىٰ، أَقَلُّ مِن نِسبَةِ نَقرَةِ عُصفُورٍ فِي بَحرٍ مِن بِحَارِ العَالَمِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. «وَلَولَا تَعلِيمُهُ إِيَّانَا لَم نَعلَم شَيئاً، وَلَم نَصِل إِلَىٰ مَعرِفَةِ شَيءٍ، فَلَهُ الحَمدُ عَلَىٰ ذَلِكَ»(٢).

وَقَالَ الخَضِرُ لِمُوسَىٰ عليه السلام ـ وَهُمَا أَعلَمُ أَهلِ الأَرضِ حِينَئِذٍ ـ: **«مَا نَقَصَ عِلمِي وَعِلمُكَ مِن عِلمِ اللهِ، إِلَّا كَنَقرَةِ هَذَا العُصفُورِ فِي البَحرِ»**(٣).

وَيَكفِي أَنَّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ مِن عِلمِهِ لَو قُدِّرَ أَنَّ البَحرَ يَمُدُّهُ مِن بَعدِهِ سَبعَةُ أَبحُرٍ مِدَادٍ، وَأَشجَارُ الأَرضِ كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِ الدَّهرِ إِلَىٰ آخِرِهِ أَقلَامٌ يُكتَبُ بِهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ مِمَّا يَعلَمُهُ، لَنَفِدَتِ البِحَارُ وَفَنِيَتِ الأَقلَامُ وَلَم تَنفَد كَلِمَاتُهُ، فَنِسبَةُ عُلُومِ الخَلَائِقِ إِلَىٰ عِلمِهِ سُبحَانَهُ، كَنِسبَةِ قُدرَتِهِم إِلَىٰ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٣٥ ـ ٣٣٦).

(٢) فتح البيان (٢/ ٦٠).

(٣) قطعة من حديث رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

قُدرَتِهِ، وَغِنَاهُم إِلَىٰ غِنَاهُ، وَحِكمَتِهِم إِلَىٰ حِكمَتِهِ، وَإِذَا كَانَ أَعلَمُ الخَلقِ بِهِ عَلَىٰ الإِطلَاقِ يَقُولُ: «**لَا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثنَيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ**»[١].

وَيَقُولُ فِي دُعَاءِ الاستِخَارَةِ: «**فَإِنَّكَ تَقدِرُ وَلَا أَقدِرُ، وَتَعلَمُ وَلَا أَعلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ**»[٢]. وَيَقُولُ سُبحَانَهُ لِمَلائِكَتِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ وَيَقُولُ سُبحَانَهُ لِأَعلَمِ الأُمَمِ، وَهُم أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]؛ وَتَقُولُ رُسُلُهُ يَومَ القِيَامَةِ حِينَ يَسأَلُهُم: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]؛ وَهَذَا هُوَ الأَدَبُ المُطَابِقُ لِلحَقِّ فِي نَفسِ الأَمرِ، فَرَدُّوا العِلمَ كُلَّهُ إِلَىٰ وَلِيِّهِ وَأَهلِهِ، وَمَن هُوَ أَولَىٰ بِهِ، «فَإِنَّ عُلُومَهُم وَعُلُومَ الخَلَائِقِ تَضمَحِلُّ وَتَتَلَاشَىٰ فِي عِلمِهِ سُبحَانَهُ، كَمَا يَضمَحِلُّ ضَوءُ السِّرَاجِ الضَّعِيفِ فِي عَينِ الشَّمسِ»[٣].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ العِلمِ:

١ ـ التَّوسُّلُ إِلى اللهِ بِصِفَةِ العِلمِ:

عَنِ السائِبِ بنِ مالكٍ قَالَ: صَلَّى عَمَّارُ بنُ ياسرٍ صَلاةً فَأَوجَزَ فِيهَا فَقَالَ لَهُ بَعضُ القَومِ: لَقَد خَفَّفتَ أَو أَوجَزتَ الصَّلاةَ، فَقَالَ: أَمَّا عَلَى

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم (٤٨٦).

(٢) رواه البخاري (١١٦٦).

(٣) شفاء العليل (٢/ ٥٣٠).

ذلكَ فَقَد دَعَوتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعتُهُنَّ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ القَومِ هُوَ أُبَيٌّ، غَيرَ أَنَّهُ كَنَّى عَن نَفسِهِ فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخبَرَ بِهَا القَومَ: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْراً لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيماً لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ في الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ في الفَقْرِ وَالغِنَى. وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»[1].

وَعَنْ شَدَّادِ بنِ أَوسٍ رضي الله عنه قالَ: قَالَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا شَدَّادَ ابنَ أَوسٍ! إِذا رَأَيتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ؛ فَاكْنِزْ هَؤُلاءِ الكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ في الأَمرِ، وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسأَلُكَ قَلْباً سَلِيماً، وَلِسَاناً صَادِقاً، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لما تَعْلَمُ؛ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ**»[2].

جَلَّ وَعَلا يَعلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ وَمَا هُوَ كَائِنٌ.

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١٢٣٧).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٧١٣٥)، وجوَّد إسناده العلامة الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣٢٢٨).

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ! إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسم هُوَ لَكَ، سَمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ، أَو عَلَّمتَهُ أَحداً مِن خَلْقِكَ، أَو أَنزلتَهُ في كِتَابِكَ، أَوِ استَأثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيبِ عِندَكَ؛ أَنْ تجعَلَ القُرآنَ رَبِيعَ قَلبي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً**» قَالَ: فَقِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ! أَلا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «**بَلى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»(١).

وعَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاستِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرآنِ، يَقُولُ: «**إِذا هَمَّ أَحَدُكُم بِالأَمرِ، فَليَركَع رَكعَتَينِ مَن غَيرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَستَخِيرُكَ بِعِلمِكَ، وَأَستَقدِرُكَ بِقُدرَتِكَ، وَأَسأَلُكَ مِن فَضلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقدِرُ وَلا أَقدِرُ، وَتَعلَمُ وَلا أَعلَمُ، وَأَنتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ؛ اللَّهُمَّ إِن كُنتَ تعلَمُ أَنَّ هَذا الأَمرَ خَيرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمرِي - أَو قَالَ: عَاجِلِ أَمرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرهُ لِي ثُمَّ بَارِك لِي فِيهِ، وَإِن كُنتَ تَعلَمُ أَنَّ هَذا الأَمرَ شَرٌّ لِي في دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمرِي - أَو قَالَ: عَاجِلِ أَمرِي وَآجِلِهِ - فَاصرِفهُ عَنِّي وَاصرِفنِي عَنهُ، وَاقدُر لِيَ الخَيرَ حَيثُ كَانَ، ثُمَّ أَرضِنِي بِهِ**» قَالَ: «وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٢٣٧٢) «موارد»، والحاكم (١/ ٥٠٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (١٩٩).

(٢) رواه البخاري (١١٦٢).

قَوْلُهُ: «**فَإِنَّك تَقدِرُ وَلا أَقدِرُ**» أَي تَقدِرُ أَنْ تَجعَلَنِي قَادِراً فَاعِلاً، وَلا أَقدِرُ أَن أَجعَلَ نَفسِي كَذَلِكَ.

قَولُهُ: «**وَتَعلَمُ وَلا أَعلَمُ**» أَي حَقِيقَةَ العِلمِ بِعَوَاقِبِ الأُمُورِ وَمَآلِهَا، وَالنَّافِعِ مِنهَا وَالضَّارِّ عِندَكَ، وَلَيسَ عِندِي.

قَولُهُ: «**يسِّره لِي**» أو «**فاصرِفه عنِّي**» فَإِنَّهُ طَلَبَ مِنَ اللهِ تَيسِيرَهُ إِن كَانَ فِيهِ مَصلَحَةٌ، وَصَرْفَهُ عَنهُ إِن كَانَ فِيهِ مَفسَدَةٌ[١].

قَولُهُ: «**ثُمَّ بَارِك لِي فِيهِ**» وَالبَرَكَةُ تَتَضَمَّنُ ثُبُوتَهُ وَنُمُوَّهُ، وَهَذا قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى إِقدَارِهِ عَلَيهِ وَتَيسِيرِهِ لَهُ[٢].

قَولُهُ: «**ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ**» فَإِنَّ المَقدُورَ يَكتَنِفُهُ أَمرَانِ: الاستِخَارَةُ قَبلَ وُقُوعِهِ، وَالرِّضَى بَعدَ وُقُوعِهِ. فَمِن سَعَادَةِ العَبدِ أَن يَجمَعَ بَينَهُمَا[٣].

فَتَضَمَّنَ هَذَا الدُّعَاءُ: الإِقرَارَ بِوُجُودِهِ سُبحَانَه، وَالإِقرَارَ بِصِفَاتِ كَمَالِهِ مِن كَمَالِ العِلمِ، وَالقُدرَةِ، وَالإِرَادَةِ، وَالإِقرَارَ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَتَفوِيضَ الأَمرِ إِلَيهِ، وَالاستِعَانَةَ بِهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيهِ، وَالخُرُوجَ مِن عُهدَةِ نَفسِهِ، وَالتَّبَرِّيَ مِنَ الحَولِ وَالقُوَّةِ إِلَّا بِهِ، وَاعتِرَافَ العَبدِ بِعَجزِهِ عَن عِلمِهِ بِمَصلَحَةِ نَفسِهِ وَقُدرَتِهِ عَلَيهَا وَإِرَادَتِهِ لَهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بِيَدِ وَلِيِّهِ، وَفَاطِرِهِ وَإِلَهِهِ الحَقِّ[٤].

٢ ـ إِذَا عَلِمَ الإِنسَانُ أَنَّ اللهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ

---

(١) شفاء العليل (١/ ١١٠).
(٢) المصدر السابق (١/ ٣٤).
(٣) إغاثة اللَّهفان (١/ ٢٨).
(٤) زاد المعاد (٢/ ٤٠٤).

عَلِيمٌ، فَإِنَّهُ يَخَافُ وَيَرهَبُ وَيَهرُبُ مِنَ اللهِ إِلَيهِ ﷻ، وَلَا يَقُولُ قَولاً يُغضِبُ اللهَ، وَلَا يَفعَلُ فِعلاً يُغضِبُ اللهَ، وَلَا يُضمِرُ عَقِيدَةً تُغضِبُ اللهَ؛ لِأَنَّهُ يَعلَمُ أَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعلَمُ ذَلِكَ، لَا يَخفَىٰ عَلَيهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وَهَذِهِ الآيَةُ فِيهَا «إِرشَادٌ إِلَىٰ تَطهِيرِ القُلُوبِ وَاستِحضَارِ عِلمِ اللهِ كُلَّ وَقتٍ، فَيَستَحِي العَبدُ مِن رَبِّهِ أَن يَرَىٰ قَلبَهُ مَحَلّاً لِكُلِّ فِكرٍ رَدِيءٍ، بَلْ يَشغَلُ أَفكَارَهُ فِيمَا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ، مِن تَدَبُّرِ آيَةٍ مِن كِتَابٍ، أَو سُنَّةٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَو تَصَوُّرٍ وَبَحثٍ فِي عِلمٍ يَنفَعُهُ، أَو تَفَكُّرٍ فِي مَخلُوقَاتِ اللهِ وَنِعَمِهِ، أَو نُصحٍ لِعِبَادِ اللهِ»[1].

نسأَلُ اللهَ تعالَى أن يوَفِّقَنا للعملِ الذي يُرضيهِ، وأنْ لا يعلَمَ منَّا إلَّا ما يرضَى بهِ عنَّا؛ إنَّهُ جوادٌ كريمٌ.

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٥١ ـ ١٥٢).

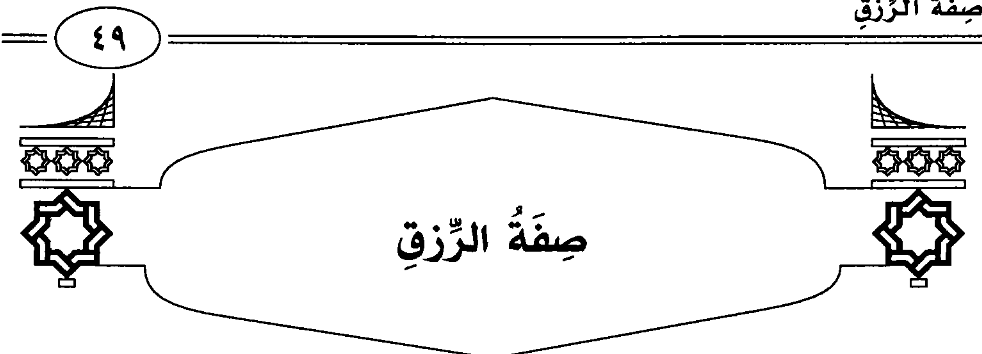

صِفَةُ الرِّزقِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ رِزقِهِ: فَهُوَ الرزَّاقُ الَّذِي قَد كَمُلَ في رِزقِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. خَيرُ مَنْ رَزَقَ وَأَعطَى. يَرزُقُ مِنْ خَزَائِنَ لا تَفْنَى وَلا تَنْتَهِي.

وَكَلِمَةُ (الرزَّاقِ) أَبلَغُ مِن كَلِمَةِ (الرَّازِقِ)؛ لِأَنَّ (الرزَّاقَ) صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ كَثرَةِ الرِّزقِ، وَعَلَىٰ كَثرَةِ المَرزُوقِ، فَرِزقُ اللهِ كَثِيرٌ بِاعتِبَارِ كَثرَةِ المَرزُوقِينَ، فَلَا تَنقَطِعُ عَنهُم أَمدَادُهُ وَفَوَاضِلُهُ طَرفَةَ عَينٍ! مَنْ يُحصِي المَرزُوقِينَ؟ لَا أَحَدَ يُحصِيهِم أَبَداً، وَرِزقُهُ كَثِيرٌ بِاعتِبَارِ الوَاحِدِ، فَكَم للهِ عَلَيْكَ مِن رِزقٍ كَثِيرٍ لَا يُحصَىٰ؟! رِزقُ اللهِ لَكَ دَارٌّ عَلَيْكَ لَيلاً نَهَاراً: رَزَقَكَ عَقلاً، وَصِحَّةً، وَمَالاً، وَوَلَداً، وَأَمناً، وَأَشيَاءَ لَا تُحصَىٰ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، «فَإِنَّ نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ عَلَىٰ العِبَادِ بِعَدَدِ الأَنفَاسِ وَاللَّحَظَاتِ، مِن جَمِيعِ أَصنَافِ النِّعَمِ، مِمَّا يَعرِفُ العِبَادُ، وَمِمَّا لَا يَعرِفُونَ، وَمَا يَدفَعُ عَنهُم مِنَ النِّقَمِ، فَأَكثَرُ مِنْ أَن تُحصَىٰ»[1]. وَلِهَذَا جَاءَ اسمُ الرزَّاقِ بِالتَّشدِيدِ، الدَّالِّ عَلَىٰ الكَثرَةِ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٠٢).

وَرِزقُهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ نَوعَانِ: عَامٌّ وَخَاصٌّ. فَالعَامُّ إِيصَالُهُ لِجَمِيعِ الخَلِيقَةِ مَا تَحتَاجُهُ فِي مَعَاشِهَا وَقِيَامِهَا. مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزقُهَا حَتَّىٰ الطَّيرُ فِي جوِّ السَّمَاءِ، لَا يُمسِكُهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَرزُقُهُ إِلَّا اللهُ.

كُلُّ دَابَّةٍ فِي الأَرضِ مِنْ آدَمِيٍّ، أَو حَيَوَانٍ بَرِّيٍّ أَو بَحرِيٍّ، فَاللهُ قَد تَكَفَّلَ بِأَرزَاقِهِم وَأَقوَاتِهِم، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هُود: ٦]؛ «هَذَا مَع ضَعفِ كَثِيرٍ مِنَ الدَّوَابِّ وَعَجزِهَا عَنِ السَّعيِ فِي طَلَبِ الرِّزقِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]»[١]. أَي لَا تُطِيقُ جمعَهُ وَتَحصِيلَهُ، وَلَا تَدَّخِرُ شَيئاً لِغَدٍ ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أَي: اللهُ يُقَيِّضُ لَهَا رِزقَهَا عَلَىٰ ضَعفِهَا وَيُيَسِّرُهُ عَلَيهَا، فَيَبعَثُ إِلَىٰ كُلِّ مَخلُوقٍ مِنَ الرِّزقِ مَا يُصلِحُهُ[٢]. رَزَقَ اللهُ الأَجِنَّةَ فِي بُطُونِ الأُمَّهَاتِ، وَالحِيتَانَ فِي قِعَارِ البِحَارِ، وَالسِّبَاعَ فِي مَهَامِهِ القِفَارِ، وَالطُّيُورَ فِي أَعَالِي الأَوكَارِ، وَرَزَقَ كُلَّ حَيَوَانٍ وَهَدَاهُ لِتَحصِيلِ مَعَاشِهِ، فَأَعطَىٰ كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ. فَسُبحَانَ مَن عَمَّ بِجُودِهِ جَمِيعَ المَخلُوقَاتِ، وَتَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَت رَحمَتُهُ، جَمِيعَ البَرِيَّاتِ[٣].

وَلَقَد ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً مَنْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ، فَقَالَ: لَا تُكثِرُوا الأَولَادَ تُضَيِّقْ عَلَيكُمُ الأَرزَاقُ.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٠٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص١١٤٣).

كَذَبُوا وَرَبِّ العَرشِ، فَإِذَا أَكثَرُوا مِنَ الأَولَادِ أَكثَرَ اللهُ رِزقَهُم، لِأَنَّهُ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزقُهَا.

فَرِزقُ أَولَادِكَ وَأَطفَالِكَ عَلَىٰ اللهِ، هُوَ الَّذِي يَفتَحُ لَكَ أَبوَابَ الرِّزقِ مِنْ أَجْلِ أَن تُنفِقَ عَلَيهِم، لَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ عِنْدَهُم سُوءُ ظَنٍّ بِاللهِ؛ وَيَعتَمِدُونَ عَلَىٰ الأُمُورِ المَادِّيَّةِ المَنظُورَةِ، وَلَا يَنظُرُونَ إِلَىٰ المَدَىٰ البَعِيدِ وَإِلَىٰ قُدرَةِ اللهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرزُقُ، وَلَو كَثُرَ الأَولَادُ. أَكثِر مِنَ الأَولَادِ تَكثُرْ لَكَ الأَرزَاقُ[1].

وَمِن لَطَائِفِ رِزقِهِ: أَنَّهُ قَد يَرِدُ عَلَىٰ الإِنسَانِ العَاجِزِ عَن إِدرَاكِ رِزقِهِ قُوَّةُ حَالٍ وَقُوَّةُ تَوَكُّلٍ، يُيَسِّرُ اللهُ لَهُ بِسَبَبِهَا رِزقاً عَاجِلاً، وَقَدْ يَأتِيهِ ذَلِكَ بِدَعوَةٍ مُستَجَابَةٍ، وَخُصُوصاً عِندَ الاضطِرَارِ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

فَكَمَا أَنَّ البَارِي إِذَا رَأَىٰ عَبدَهُ مُضطَرّاً إِلَىٰ كِفَايَتِهِ، مُنقَطِعاً تَعَلُّقُهُ بِغَيرِهِ، أَجَابَ دَعوَتَهُ وَفَرَّجَ كُربَتَهُ، فَكَذَلِكَ المُضطَرُّ إِلَىٰ طَعَامٍ أَو شَرَابٍ؛ مَتَىٰ وَصَلَ إِلَىٰ حَالَةٍ يَيأَسُ فِيهَا مِن كُلِّ أَحَدٍ وَيُوقِنُ بِالهَلَاكِ، أَتَاهُ مِن رِزقِ رَبِّهِ وَأَلطَافِهِ، مَا بِهِ يَعرِفُ غَايَةَ المَعرِفَةِ: أَنَّ اللهَ هُوَ المَرجُوُّ وَحدَهُ لِكَشفِ الشَّدَائِدِ وَالكُرُوبِ، فَكَم مِنَ الوَقَائِعِ الكَثِيرَةِ فِي هَذَا البَابِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ لُطفِ المَلِكِ الوَهَّابِ[2].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَىٰ رَجُلٌ أَهلَهُ، فَرَأَىٰ مَا بِهِم مِنَ الحَاجَةِ، فَخَرَجَ إِلَىٰ البَرِّيَّةِ؛ فَقَالَتِ امرَأَتُهُ: اللَّهُمَّ ارزُقنَا مَا

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٨٦).

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (ص٤٤).

نَطحَنُ، أَو مَا نَعجِنُ وَنَخبِزُ؛ فَإِذَا الجَفنَةُ مَلأَىٰ خُبزاً، وَالرَّحَىٰ تَطحَنُ، وَالتَّنُّورُ مَلأَىٰ جَنُوبَ شِوَاءٍ؛ فَجَاءَ زَوجُهَا، فَقَالَ: عِندَكُم شَيءٌ؟ قَالَت: رِزقُ اللهِ، أَو: قَد رَزَقَ اللهُ؛ فَرَفَعَ الرَّحَىٰ، فَكَنَسَ حَولَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَو تَرَكَهَا، لَطَحَنَت إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ»**[1].

وَمِنْ أَلطَافِ رِزقِهِ أَنَّ كَثِيراً مِنَ المَرضَىٰ يَبقُونَ مُدَّةً طَوِيلَةً لَا يَتَنَاوَلُونَ طَعَاماً وَلَا شَرَاباً، وَاللهُ تَعَالَىٰ يُعِينُهُم عَلَىٰ تَمَاسُكِ أَبْدَانِهِم فَضلاً مِنهُ وَكَرَماً، وَلَو بَقِيَ الصَّحِيحُ بَعضَ هَذِهِ المُدَّةِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ لَهَلَكَ[2].

عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تُكرِهُوا مَرضَاكُم عَلَىٰ الطَّعَامِ، فَإِنَّ اللهَ يُطعِمُهُم وَيَسقِيهِم»**[3].

وَتَنَوُّعُ الأَرزَاقِ وَكَثرَةُ فُنُونِهَا لَا يُحصِيهَا وَصفُ الوَاصِفِينَ، وَلَا تُحِيطُ بِهَا عِبَارَاتُ المُعَبِّرِينَ[4].

وَأَمَّا الرِّزقُ الخَاصُّ: وَهُوَ الرِّزقُ النَّافِعُ المُستَمِرُّ نَفعُهُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، رِزقُ القُلُوبِ بِالعِلمِ النَّافِعِ وَالإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ الدَّائِبِ، وَهَذَا أَعظَمُ رِزقٍ يَمُنُّ اللهُ بِهِ عَلَىٰ العَبدِ **﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ**

---

(١) رواه البزار «كشف الأستار» (٣٦٨٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٩٣٧).

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (ص٤٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٩٧).

(٤) فتح الرحيم الملك العلام (ص٤٤).

مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣][(١)].

فَإِذَا رَزَقَ اللهُ العَبدَ العِلمَ النَّافِعَ، وَالإِيمَانَ الصَّحِيحَ، وَالرِّزقَ الحَلَالَ، وَالقَنَاعَةَ بِمَا أَعطَاهُ اللهُ مِنهُ، فَقَد تَمَّت أُمُورُهُ، وَاستَقَامَت أَحوَالُهُ الدِّينِيَّةُ وَالبَدَنِيَّةُ. وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الرِّزقِ هُوَ الَّذِي مَدَحَتهُ النُّصُوصُ النَّبَوِيَّةُ، وَاشتَمَلَت عَلَيهِ الأَدعِيَةُ النَّافِعَةُ[(٢)].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا رُزِقَ عَبدٌ خَيراً لَهُ، وَلَا أَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ**»[(٣)].

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَسَمَ بَينَكُم أَخلَاقَكُم كَمَا قَسَمَ بَينَكُم أَرزَاقَكُم، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعطِي المَالَ مَنْ أَحَبَّ وَمَن لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعطِي الإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ...[(٤)].

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ انفَعنِي بِمَا عَلَّمتَنِي، وَعَلِّمنِي مَا يَنفَعُنِي، وَارْزُقنِي عِلماً تَنْفَعُنِي بِهِ**»[(٥)].

فَيَنبَغِي لِلعَبدِ إِذَا دَعَا رَبَّهُ فِي حُصُولِ الرِّزقِ، أَنْ يَستَحضِرَ بِقَلبِهِ هَذَينِ الأَمرَينِ، فَمَعنَىٰ «اللَّهُمَّ ارزُقنِي» أَي مَا يَصلُحُ بِهِ قَلبِي مِنَ العِلمِ وَالهُدَىٰ وَالمعرِفَةِ، وَمِنَ الإِيمَانِ الشَّامِلِ لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ، وَمَا بِهِ يَصلُحُ بَدَنِي مِنَ الرِّزقِ الحَلَالِ الهَنِيِّ، الَّذِي لَا صُعُوبَةَ فِيهِ، وَلَا تَبِعَةَ تَعتَرِيهِ.

---

(١) الضياء اللامع (ص٢٢).

(٢) المجموعة الكاملة (٣/ ٣٨٨).

(٣) رواه الحاكم (٢/ ٤١٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٦٢٧).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٥)، وقال العلامة الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٠٩): صحيح موقوف في حكم المرفوع.

(٥) رواه الحاكم (١/ ٥١٠)، وحسنه الألباني رحمه الله بشاهده في «الصحيحة» (٣١٥١).

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَكَذَلِكَ الرَّزَّاقُ مِنْ أَسمَائِهِ وَالرِّزقُ مِنْ أَفعَالِهِ نَوعَانِ
رِزقُ القُلُوبِ العِلمَ وَالإِيمَانَ وَالرِّ زقُ المُعَدُّ لِهَذِهِ الأَبدَانِ[١]

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الرِّزقِ:

١ ـ إثباتُ أنَّ الرِّزْقَ بيدِ اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]. «قيَّدَ رِزْقَهُ تعالى بالمشيئةِ؛ لِيَتَبَيَّنَ أنَّ الإنسانَ قدْ يَفْعَلُ أسْبَابَ الرِّزقِ، وَلَكِن لا يُرْزَقُ، بِمَنْعِ اللهِ تعالى عَنْهُ الرِّزقَ؛ لِحِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ بَالِغَةٍ. فَإنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ إذا رَزَقَهُ اللهُ تعالى وَأغناه، أفسَدَهُ الغنى. ومنهُم مَنْ إذا قَدَرَ عليهِ رِزْقَهُ، أفْسَدَهُ الفقرُ. فاللهُ جلَّ وَعلا بِحِكمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بالمؤمنِ، يَختارُ لهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أكملَ الحالاتِ؛ سَواءٌ كانَ في كثرةِ المالِ، أو قِلَّةِ المالِ ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]»[٢].

فَكَمْ مِن إنسانٍ عَمِلَ الأسبَابَ الكَثيرَةَ للرِّزْقِ، وَلَمْ يَحْصُلْ عليه. وكمْ مِنْ إنسانٍ حَصَلَ لهُ الرِّزْقُ، بلا تَعبٍ. لكنْ لا يعني ذلكَ أنْ نُكَبِّلَ أيديَ العَامِلينَ، وأنْ نَقُولَ: لا تبتَغُوا الرِّزقَ. بلْ نَقُولُ: ابتغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ، واعمَلُوا الأسبابَ، لكن إنْ لمْ تَصِلُوا إلى مُرادِكُم، فاعْلَمُوا أنَّ الأمرَ بيدِ اللهِ، وأنَّهُ تعالى يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حِسَابٍ[٣].

٢ ـ إنَّ العَبدَ لَا بُدَّ لَهُ مِن رزقٍ، وَهُوَ مُحتَاجٌ إِلَىٰ ذَلِكَ، فَإِذَا

---

(١) الكافية الشافية (ص٢١٣).
(٢) أحكام من القرآن الكريم (٢/ ٦٠)، للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) المصدر السابق (٢/ ٦١ ـ ٦٢).

طَلَبَ رِزقَهُ مِنَ اللهِ صَارَ عَبداً للهِ، فَقِيراً إِلَيهِ، وَإِنْ طَلَبَهُ مِن مَخلُوقٍ صَارَ عَبداً لِذَلِكَ المَخلُوقِ فَقِيراً إِلَيهِ. قَالَ الخَلِيلُ ﷺ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وَلَم يَقُل: فَابتَغُوا الرِّزقَ عِندَ اللهِ، لِأَنَّ تَقدِيمَ الظَّرفِ يُشعِرُ بِالاختِصَاصِ وَالحَصرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَبتَغُوا الرِّزقَ إِلَّا عِندَ اللهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وَالإِنسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِن حُصُولِ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ مِنَ الرِّزقِ وَنَحوِهِ؛ وَدَفعِ مَا يَضُرُّهُ؛ وَكِلَا الأَمرَينِ شَرَعَ لَهُ أَن يَكُونَ دُعَاؤُهُ للهِ؛ فَلَهُ أَن يَسأَلَ اللهَ وَإِلَيهِ يَشتَكِي؛ كَمَا قَالَ يَعقُوبُ ﵇: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦][1].

٣ ـ يَنبَغِي لِلعَبدِ أَن يُعَلِّقَ رَجَاءَهُ بِاللهِ وَحدَهُ، وَأَنَّ اللهَ إِذَا قَدَّرَ لَهُ سَبَباً مِنْ أَسبَابِ الرِّزقِ: أَن يَحمَدَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ وَيَسأَلَهُ أَن يُبَارِكَ فِيهِ لَهُ، فَإِذَا انقَطَعَ أَو تَعَذَّرَ ذَلِكَ السَّبَبُ فَلَا يَتَشَوَّشُ قَلبُهُ، فَإِنَّ هَذَا السَّبَبَ لَا يَتَوَقَّفُ رِزقُ العَبدِ عَلَيهِ، بَلْ يَفتَحُ لَهُ سَبَباً غَيرَهُ وَأَحسَنَ مِنهُ وَأَنفَعَ، وَرُبَّمَا فَتَحَ لَهُ عِدَّةَ أَسبَابٍ، فَعَلَيهِ فِي أَحوَالِهِ كُلِّهَا: أَن يَجعَلَ فَضلَ رَبِّهِ وَالطَّمَعَ فِي برِّهِ، نُصبَ عَينَيهِ وَقِبلَةَ قَلبِهِ، وَيُكثِرَ مِنَ الدُّعَاءِ المَقرُونِ بِالرَّجَاءِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، أَي: «رِزقاً وَاسِعاً مِن حَيثُ لَا يَحتَسِبُ وَلَا يَكتَسِبُ»[2]. بِكَثْرَةٍ وَغَزَارَةٍ.

وَعَلَيهِ أَن يُفَرِّغَ خَاطِرَهُ لِلهَمِّ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَلَا يَشغَلَهُ بِمَا ضُمِنَ لَهُ؛

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨١ ـ ١٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٥١).

«فَإِنَّ الرِّزقَ وَالأَجلَ قَرِينَانِ مَضمُونَانِ، فَمَا دَامَ الأَجلُ بَاقِياً كَانَ الرِّزقُ آتِياً.

وَإِذَا سَدَّ عَلَيْكَ بِحِكمَتِهِ طَرِيقاً مِن طُرُقِهِ؛ فَتَحَ لَكَ بِرَحمَتِهِ طَرِيقاً أَنفَعَ لَكَ مِنهُ.

فَتَأَمَّل حَالَ الجَنِينِ يَأتِيهِ غِذَاؤُهُ ـ وَهُوَ الدَّمُ ـ مِن طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ السُّرَّةُ، فَلَمَّا خَرَجَ مِن بَطنِ الأُمِّ وَانقَطَعَت تِلكَ الطَّرِيقُ، فَتَحَ لَهُ طَرِيقَينِ اثنَينِ، وَأَجرَىٰ لَهُ فِيهِمَا رِزقاً أَطيَبَ وَأَلَذَّ مِنَ الأَوَّلِ: لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً، فَإِذَا تَمَّت مُدَّةُ الرَّضَاعِ، وَانقَطَعَتِ الطَّرِيقَانِ بِالفِطَامِ، فَتَحَ طُرُقاً أَربَعَةً أَكمَلَ مِنْهَا؛ طَعَامَانِ وَشَرَابَانِ، فَالطَّعَامَانِ: مِنَ الحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، وَالشَّرَابَانِ: مِنَ المِيَاهِ وَالأَلبَانِ، وَمَا يُضَافُ إِلَيهِمَا مِنَ المَنَافِعِ وَالمَلاذِّ، فَإِذَا مَاتَ انقَطَعَت عَنْهُ هَذِهِ الطُّرُقُ الأَربَعَةُ.

لَكِنَّهُ سُبحَانَهُ فَتَحَ لَهُ ـ إِن كَانَ سَعِيداً ـ طُرُقاً ثَمَانِيَةً، وَهِيَ أَبوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدخُلُ مِن أَيِّهَا شَاءَ.

فَهَكَذَا الرَّبُّ سُبحَانَهُ؛ لَا يَمنَعُ عَبدَهُ المُؤمِنَ شَيئاً مِنَ الدُّنيَا، إِلَّا وَيُؤتِيهِ أَفضَلَ مِنهُ وَأَنفَعَ لَهُ»[1].

وَاللهُ سُبحَانَهُ قَد أَمَرَ العَبدَ بِأَمرٍ وَضَمِنَ لَهُ ضَمَاناً، فَإِن قَامَ بِأَمرِهِ بِالنُّصحِ وَالصِّدقِ وَالإِخلَاصِ وَالاجتِهَادِ، قَامَ اللهُ سُبحَانَهُ لَهُ بِمَا ضَمِنَهُ لَهُ مِنَ الرِّزقِ وَالكِفَايَةِ.

فَالفَطِنُ الكَيِّسُ إِنَّمَا يَهتَمُّ بِأَمرِهِ وَإِقَامَتِهِ وَتَوفِيَتِهِ، لَا بِضَمَانِهِ، فَإِنَّهُ الوَفِيُّ الصَّادِقُ، وَمَنْ أَوفَىٰ بِعَهدِهِ مِنَ اللهِ؟!

(١) فوائد الفوائد (ص٨٢).

فَمِن عَلَامَاتِ السَّعَادَةِ: صَرفُ اهتِمَامِهِ إِلَىٰ أمرِ اللهِ دُونَ ضَمَانِهِ، وَمِن عَلَامَاتِ الحِرمَانِ: فَرَاغُ قَلبِهِ مِنَ الاهتِمَامِ بِأَمرِهِ وَحُبِّهِ وَخَشيَتِهِ، وَالاهتِمَامُ بِضَمَانِهِ، وَاللهُ المُستَعَانُ[1].

وَإِذَا تَأَمَّلَ العَاقِلُ اللَّبِيبُ حَالَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، يَرَاهُم «يَهتَمُّونَ بِمَا ضَمِنَهُ اللهُ لَهُم، وَلَا يَهتَمُّونَ بِمَا أَمَرَهُم بِهِ، وَيَفرَحُونَ بِالدُّنيَا، وَيَحزَنُونَ عَلَىٰ فَوَاتِ حَظِّهِم مِنْهَا، وَلَا يَحزَنُونَ عَلَىٰ فَوَاتِ الجَنَّةِ وَمَا فِيهَا، وَلَا يَفرَحُونَ بِالإِيمَانِ فَرَحَهُم بِالدِّرهَمِ وَالدِّينَارِ»[2].

فَلتَطمَئِنَّ القُلُوبُ إِلَىٰ كِفَايَةِ مَن تَكَفَّلَ بِأَرزَاقِهَا، وَأَحَاطَ عِلماً بِذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا[3].

عَن عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَو أَنَّكُم كُنتُم تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقتُم كَمَا يُرزَقُ الطَّيرُ، تَغدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَاناً**»[4].

وَهَذَا «إِخبَارٌ بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ يَرزُقُ المَتُوَكِّلِينَ عَلَيهِ مِن حَيثُ لَا يَحتَسِبُونَ، وَأَنَّهُ لَا يُخَلِّيهِم مِن رِزقٍ قَطُّ، كَمَا تَرَونَ ذَلِكَ فِي الطَّيرِ، فَإِنَّهَا تَغدُو مِنْ أَوكَارِهَا خِمَاصاً، فَيَرزُقُهَا اللهُ سُبحَانَهُ، حَتَّىٰ تَرجِعَ بِطَاناً مِن رِزقِهِ، وَأَنتُم أَكرَمُ عَلَىٰ اللهِ مِنَ الطَّيرِ وَمِن سَائِرِ الحَيَوَانَاتِ، فَلَو تَوَكَّلتُم

(١) فوائد الفوائد (ص٨٥ ـ ٨٦).
(٢) الفوائد (ص٢٢٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥١٢ ـ ٥١٣).
(٤) رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٤٢).

عَلَيهِ لَرَزَقَكُم مِنْ حَيثُ لا تَحتَسِبُونَ، وَلَم يَمنَع أَحَداً مِنكُم رِزقَهُ»[١].

فَدَلَّ ذَلِكَ «عَلَىٰ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُؤتَونَ مِنْ قِلَّةِ التَّوَكُّلِ، وَوُقُوفِهِم مَعَ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ بِقُلُوبِهِم وَمُسَاكَنَتِهِم لهَا، فَلِذَلِكَ يُتْعِبُونَ أَنفُسَهُم في الأَسْبَابِ، وَيَجْتَهِدُونَ فِيهَا غَايَةَ الاجْتِهَادِ، وَلا يَأْتِيهِم إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُم، فَلَو حَقَّقُوا التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللهِ بِقُلُوبِهِم، لَسَاقَ اللهُ إِلَيهِم أَرْزَاقَهُم مَعَ أَدْنَىٰ سَبَبٍ، كَمَا يَسُوقُ إِلىٰ الطَّيرِ أَرْزَاقَها بِمُجَرَّدِ الغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ، وَهُوَ نَوعٌ مِنَ الطَّلَبِ وَالسَّعيِ، لَكِنَّهُ سَعْيٌ يَسِيرٌ»[٢].

٤ ـ عَلَىٰ المَرزُوقِ مِنْ فَضْلِ اللهِ، أَنْ يُنْفِقَ مِمَّا رَزَقَهُ اللهُ؛ يُنْفِقِ اللهُ عَلَيهِ، وَيَزِدْهُ مِنْ فَضْلِهِ. فَلَيسَ لِلعَبْدِ في تَحْصِيلِ الرزْقِ قُدْرَةٌ، لَولا تَيسِيرُ اللهِ، وَرِزْقُهُ إِيَّاهُ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: أَنْفِقْ أُنفِقْ عَلَيْكَ**»[٣].

وَعَنْهُ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ يَوم يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ؛ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**»[٤].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

---

(١) جلاء الأفهام (ص٣٣٠).
(٢) جامع العلوم وَالحكم (٢/ ٥٠٢).
(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤)، وَمسلم (٩٩٣).
(٤) رواه البخاري (١٤٤٢)، وَمسلم (١٠١٠).

انْظُرْ إِلىٰ هَذِهِ الآيةِ الكَرِيمَةِ، فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ أَخْبَرَهُم: بِأَنَّهُ يُخْلِفُ لَهُم كُلَّ مَا أَنْفَقُوهُ، يُخْلِفُ لَهُم كُلَّ حَقِيرٍ وَجَلِيلٍ؛ مِنْ أَنْوَاعِ مَا أَنْفَقُوهُ. وَمَعَ هَذَا الخُلْفِ الَّذِي يُخلِفُهُ عَلَىٰ المُنْفِقِينَ، فَلَهُمُ الجَزَاءُ الأُخْرَوِيُّ بِمَا أَنْفَقُوا: الحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا إِلىٰ سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ، كَمَا وَعَدَ بِهِ الرَّبُّ ﷻ.

وَاللهُ ﷻ فِي عَوْنِ المتَصَدِّقِ يُيَسِّرُ لَهُ الأَسْبَابَ، وَيَسُوقُ لَهُ السَّحَابَ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: **«بَينَا رَجُلٌ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوتاً فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّىٰ ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوعَبَتْ ذَلِكَ المَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ المَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ! مَا اسْمُك؟ قَالَ: فُلانٌ ـ لِلاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ ـ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ! لِمَ سَأَلْتَنِي عَنِ اسْمِي؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوتاً فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ ـ لاسْمِك ـ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلىٰ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ»**(١).

عَنْ بِلَالٍ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«أَنْفِقْ [يَا] بِلالُ! وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلَالاً»**(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٤).

(٢) رواه البزار «كشف الأستار» (٣٦٥٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٥١٢).

فَمَنِ استَنَارَ صَدرُهُ، وَعَلِمَ غِنى رَبِّهِ وَكَرَمَهُ، أَنفَقَ وَلم يَخفِ الإِقلَالَ[١].

ثُمَّ إِذَا أَعْوَزَكَ الرِّزْقُ فَلا تَطْلُبْهُ بِكَثْرَةِ الحِرْصِ، فَلَنْ يَزِيدَكَ في الرِّزْقِ المُقَدَّرِ إِلَّا مَا قَسَمَهُ لَكَ وَقَدَّرَ. فَاطْلُبْ مِنْهُ أَعْلاهُ وَأَجَلَّهُ، وَأَصْفَاهُ وَأَحَلَّهُ. وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّزْقَ يَطْلُبُ صَاحِبَهُ، كَمَا أَنَّ أَجَلَهُ يَطْلُبُهُ، بَلْ أَكْثَرُ.

عَن أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرِّزْقُ أَشَدُّ طَلَباً لِلعَبْدِ مِنْ أَجَلِهِ**»[٢].

فَمَا كُتِبَ لِلْعِبْدِ مِنْ رِزْقٍ وَأَجَلٍ، لا بُدَّ أَنْ يَسْتَكْمِلَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ.

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَو أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرُبُ مِنَ المَوتِ، لأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ المَوتُ**»[٣].

وَعَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَوفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ. خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ**»[٤].

وَاعْلَمْ بِأَنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٧٥).

(٢) رواه القضاعي في «مسند الشِّهاب» (٢٤١)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٥٥١).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩٠)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٢٤٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٧٤٣).

وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

وَكَيفَ أَخَافُ الفَقرَ وَاللهُ رَازِقِي ... وَرَازِقُ هَذا الخَلْقِ في العُسرِ واليُسرِ
تَكَفَّلَ بِالأَرزَاقِ لِلخَلقِ كُلِّهِم ... وَلِلضَّبِ في البَيداءِ والحُوتِ في البَحرِ[(١)]

فَإِذَا سَلَكْتَ هَذَا «الطَّرِيقَ، كُنْتَ مُتَعَلِّقاً بِالرزَّاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَانْتَفَعْتَ بِالرزْقِ وَانْتَفَعَ بِكَ غَيرُكَ، وَضُوعِفَ لَكَ الرِّزْقُ البَاطِنُ وَالظَّاهِرُ، في المنزِلِ الطَّاهِرِ في المقْعَدِ الصِّدْقِ، عِنْدَ المَلِكِ القَادِرِ»[(٢)].

٥ ـ وَرِزْقُ العِبَادِ لِبَعْضِهِمُ البَعضَ إِنَّمَا هُوَ بِتَيسِيرِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ، وَلَيسُوا بِرَازِقِينَ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، بَلْ عَلَىٰ طَرِيقِ المجَازِ كَمَا يُقَالُ في الرَّجُلِ: إِنَّهُ يَرْزُقُ عِيَالَهُ، وَفي الأَمِيرِ: إِنَّهُ يَرْزُقُ جُنْدَهُ؛ وَالرَّازِقُ لِلأَمِيرِ وَالمأمُورِ، وَالكَبيرِ وَالصَّغِيرِ: هُوَ الخَالِقُ لَهُم، وَمَنْ أَخْرَجَ مِنَ العِبَادِ إِلىٰ غَيرِهِ شَيئاً، فَهُوَ مِمَّا رَزَقَهُ اللهُ وَأَجْرَاهُ عَلَىٰ يَدِهِ[(٣)].

٦ ـ وَإِذَا كَانَ الرِّزْقُ بِيَدِ اللهِ تَعَالَىٰ وَمِنْهُ سُبحَانَهُ، فَإِنَّ قَولَ بَعْضِ النَّاسِ: «الرِّزْقُ لِلشَّاطِرِ، عَلَىٰ حَسَبِ نِيَّاتِكُم تُرْزَقُونَ، غَيِّرُوا العَتَبَاتِ تُرْزَقُونَ، وَجْهُكَ يَقْطَعُ الرِّزْقَ، قَطْعُ الأَعْنَاقِ وَلا قَطْعُ الأَرْزَاقِ» مِمَّا يُنَافِي التَّوحِيدَ[(٤)].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٧).
(٢) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (١/ ٢٨٤).
(٣) فتح البيان (١١/ ٢٠٣).
(٤) انظر: معالم التوحيد (ص٤٣)، للدكتور مروان القيسي.

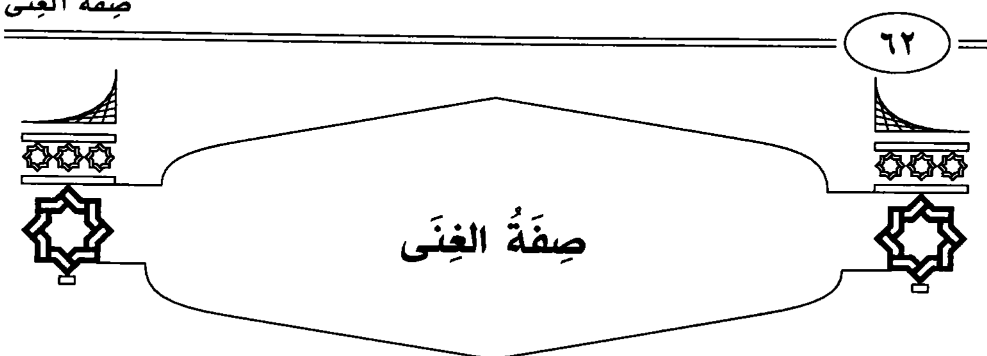

صِفَةُ الغِنَى

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ غِنَاهُ: فَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ، الَّذِي قَدْ كَمُلَ في غِنَاهُ، فَلَهُ الغِنىٰ المطْلَقُ التَّامُّ، بِكُلِّ وَجْهٍ وَاعْتِبَارٍ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨]، لِكَمَالِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ الَّتي لا يَتَطَرَّقُ إِلَيهَا نَقْصٌ بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ إِلَّا غَنِيّاً؛ فَإِنَّ غِنَاهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، فَكَمَا لا يَكُونُ إِلَّا خَالِقاً رَازِقاً، مُحْسِناً جَوَاداً بَرّاً، رَحِيماً كَرِيماً، فَلا يَكُونُ إِلَّا غَنِيّاً عَنْ جَمِيعِ الخَلْقِ، لا يَحْتَاجُ إِلَيهِم بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ. «وَكُلُّ ما نَافىٰ غِنَاهُ، فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ»[١].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا ... تِيٌّ لَهُ كَالجُودِ وَالإِحْسَانِ[٢]

فَمِنْ تَمَامِ غِنَاهُ: أَنَّهُ كَامِلُ الأَوصَافِ، إِذْ لَو كَانَ فِيهِ نَقْصٌ بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، لَكَانَ فِيهِ نَوعُ افْتِقَارٍ إِلىٰ ذَلِكَ الكَمَالِ، بَلْ لَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَمِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ كَمَالُهَا.

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٨٤).
(٢) الكافية الشافية (ص٢٠٨).

وَمِنْ سَعَةِ غِنَاهُ: أَنَّ خَزَائِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالرَّحْمَةِ بِيَدِهِ، وَأَنَّ جُودَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ مُتَواصِلٌ في جَمِيعِ اللَّحَظَاتِ وَالأَوقَاتِ، وَأَنَّ يَدَهُ سَحَّاءُ بِالخَيرِ وَالبَرَكَاتِ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ، وَخَيرُهُ عَلَىٰ الخَلْقِ مِدْرَارٌ.

عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلأَىٰ لا يَغِيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ؛ أَرَأَيتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ؟! فَإِنَّهُ لم يَنقُصْ ما في يَمِينِهِ...**»(١).

قَولُهُ: «**لا يَغِيضُهَا**» أي: لا يُنقِصُهَا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: ٨].

وَقَولُهُ: «**سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهَارَ**» أَي دَائِمَةُ الصَّبِّ في اللَّيلِ وَالنَّهارِ، وَسَحَّ المَاءُ سحّاً: أَي سَالَ مِن فَوقٍ. فَلَقَد نَبَّهَ ﷺ بِهَذَا اللَّفظِ مِن حيثُ الاشتقَاقِ اللغويِّ، على مَعَانٍ دَقِيقَةٍ وَهُوَ: أَنَّهُ وَصَفَ يَدَ اللهِ في الإعطَاءِ بِالتَّفوقِ وَالاستِعلاءِ، فَإِنَّ السَّحَّ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عَلٍ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّهَا هِيَ المُعطِيَةُ عَن ظَهرِ غِنًى؛ لأَنَّ المَاءَ إِذا انصَبَّ مِن فَوقٍ انصَبَّ بِسُهُولَةٍ وَعَفوٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى جَزالَةِ عَطَايَاهُ سبحانَهُ وَغَزَارَتِهَا؛ لأَنَّ السَّحَّ يُستَعمَلُ فِيمَا ارتَفَعَ عَنِ القَطرِ وَبَلَغَ حَدَّ السَّيَلانِ، يُقَالُ: مَطَرٌ سَحَّاحٌ: أَي يَسُحُّ شَدِيداً، وَأَشَارَ أَيضاً إِلى أَنَّهُ لا مَانِعَ لِعَطَائِهِ؛ لأَنَّ المَاءَ إِذَا أَخَذَ في الانصِبَابِ لَم يَستَطِع أَحَدٌ أَن يَرُدَّهُ، ثُمَّ وَصَفَ السَّحَّ بِالدوَامِ تَشبِيهاً، عَلَى أَن لا انقِطَاعَ لِمَادَّةِ عَطَائِهِ(٢).

فَيَمِينُ اللهِ شَدِيدَةُ الامتِلاءِ بِالخَيرِ، لا يُنقِصُهَا نَفَقَةٌ، دَائِمَةُ الصَّبِّ

---

(١) رواه البخاري (٧٤١٩)، وَمسلم (٩٩٣).

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة (١/ ٥٨).

في اللَّيلِ وَالنَّهارِ. وَهَذَا الإِنفَاقُ الهَائِلُ الكَثِيرُ، المُستَمِرُّ الدائِمُ بِدُونِ تَوَقُّفٍ، لَمْ يُنْقِصْ ما في يَدِهِ تَعَالى، وَلا يُحصِيهِ إِلَّا الذي أعطاهُ ﷻ.

«وبذَلِكَ تَعْلَمُ عِظَمَ افْتِرَاءِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وَقَدْ هَدَّدَهُم اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِقَولِهِ: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]»[١].

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ يَأمُرُ عِبَادَهُ بِدُعَائِهِ، وَيَعِدُهُم بِإِجَابَةِ دَعَوَاتِهِم وَإِسْعَافِهِم بِجَمِيعِ مُرَادَاتِهِم، وَيُؤتِيهِم مِنْ فَضْلِهِ مَا سَأَلُوهُ وَمَا لَمْ يَسْأَلُوهُ. فَأَعْطَاهُم مَا أَعْطَاهُم، وَمَنَحَهُم مَا مَنَحَهُم، بِمُجَرَّدِ فَضْلِهِ العَظِيمِ، وَكَرَمِهِ الجَسِيمِ.

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَ أَوَّلُ الخَلْقِ وَآخِرُهُم في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوهُ، فَأَعْطَىٰ كُلّاً مِنْهُم مَا سَأَلَهُ وَمَا بَلَغَتْ أَمَانِيُّهُ، مَا نَقَصَ مِنْ مُلْكِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ.

عَن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ ـ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي! لو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم، وَإِنْسَكُم وَجِنَّكُم، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوني، فَأَعْطَيتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ**»[٢].

انْظُرْ إِلىٰ هَذَا الكَرَمِ الفَيَّاضِ. فَعَطَاؤُهُ الجَمُّ: لا يَنْقُصُ بِكَثْرَةِ العَطَايَا، وَإِنْ بَلَغَتْ أَبْلَغَ المَبْلَغِ، وَوَصَلَتْ إِلىٰ حَدٍّ يَقْصُرُ عَنْهُ الوَصْفُ، وَيَضِيقُ الذِّهْنُ عَنْ تَصَوُّرِهِ، وَتَقْصُرُ العُقُولُ عَن إِدْرَاكِهِ. فَإِنَّ «ما عِنْدَهُ لا

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٧٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

يَنقُصُ البَتَّةَ، كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦]، فَإِنَّ البَحْرَ إِذَا غُمِسَ فِيهِ إِبْرَةٌ، ثُمَّ أُخْرِجَتْ، لَمْ يَنْقُصْ مِنَ البَحْرِ بِذَلِكَ شَيءٌ، وَكَذَلِكَ لَو فُرِضَ أَنَّهُ شَرِبَ مِنْهُ عُصْفُورٌ مَثَلاً، فَإِنَّهُ لا يَنْقُصُ البَحْرُ البَتَّةَ»[١]. فَنِسْبَةُ «مَا يَسْأَلُونَهُ كُلُّهُم إِيَّاهُ فَيُعْطِيهِم، إِلَىٰ مَا عِنْدَهُ، كَلَا نِسْبَةٍ»[٢]. وَهَذَا مِنْ أَحسَنِ الأَمثَالِ، وَأَبلَغِهَا، وَأَعظَمِهَا تَقرِيباً إِلى الأَفهَامِ.

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: مَا يَبْسُطُهُ عَلَىٰ أَهْلِ دَارِ كَرَامَتِهِ مِنَ اللَّذَّاتِ المُتَتَابِعَاتِ وَالكَرَامَاتِ المُتَنَوِّعَاتِ، وَالخَيرَاتِ المُتَوَاصِلاتِ، مِمَّا لا عَينٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَت، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ. وَهَذَا قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ غِنَاهُ.

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً وَلا شَرِيكاً في المُلْكِ، وَلا وَلِيّاً مِنَ الذُّلِّ، فَهُوَ الغَنِيُّ الَّذِي كَمُلَ بِنُعُوتِهِ وَأَوصَافِهِ، المُغْنِي لِجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ[٣].

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَينَهُمَا، لا شَرِيكَ لَهُ في شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: ٦٤]، ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان: ٢٦].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥١٢).
(٣) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ لا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ، كَمَا لا تَضُرُّهُ مَعْصِيةُ العَاصِينَ.

عَن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ - فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم، وَإِنْسَكُم وَجِنَّكُم، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم، ما زَادَ ذَلِكَ في مُلْكِي شَيئاً. يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم، وَإِنْسَكُم وَجِنَّكُم، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحدٍ مِنْكُم، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيئاً**»(١).

يَعْنِي: أَنَّ العِبَادَ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُوصِلُوا إِلَىٰ اللهِ نَفْعاً وَلا ضَرّاً، وَلَنْ يَبْلُغُوا ذَلِكَ فَهُوَ سُبحَانَهُ الغَنِيُّ الحَمِيدُ؛ «كَيفَ وَالخَلْقُ عَاجِزُونَ عَمَّا يَقْدِرُونَ عَلَيهِ مِنَ الأَفْعَالِ إِلَّا بِإِقْدَارِهِ وَتَيسِيرِهِ وَخَلْقِهِ، فَكَيفَ بِمَا لا يَقْدِرُونَ عَلَيهِ، فَكَيْفَ يَبْلُغُونَ نَفْعَ الغَنِيِّ الصَّمَدِ الَّذِي يَمتَنِعُ في حَقِّهِ أَنْ يَسْتَجْلِبَ مِنْ غَيرِهِ نَفعاً، أَو يَسْتَدْفِعَ مِنْهُ ضَرراً، بَلْ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ في حَقِّهِ؟!»(٢).

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ في نَفسِهِ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، لا يَتَزَيَّنُ بِطَاعَةِ عِبَادِهِ، وَلا تَشِينُهُ مَعَاصِيهِم، «فَلا حَاجَةَ لَهُ بِطَاعَاتِ العِبَادِ، وَلا يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيهِ، وَإِنَّمَا هُم يَنْتَفِعُونَ بِهَا، وَلا يَتَضَرَّرُ بِمَعَاصِيهِم، وَإِنَّمَا هُم يَتَضَرَّرُونَ بِهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]. وَقَالَ: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥١١ - ٥١٢).

شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وَقَالَ حَاكِياً عَنْ مُوسَىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]»[(١)].

فَعِبَادَةُ «العَابِدِينَ، وَتَقْوَىٰ المُتَّقِينَ، وَزُهْدُ الزَّاهِدِينَ، إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا فَاعِلُهَا فَقَط، وَمَعْصِيَةُ العَاصِينَ، وَتَهَتُّكُ المُتَهَتِّكِينَ، وَكُفْرُ الكَافِرِينَ، وَنِفَاقُ المُنَافِقِينَ، إِنَّمَا تَضُرُّ فَاعِلَهَا، وَلَيسَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ، وَلا عَلَيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ ذَلِكَ شَيءٌ»[(٢)]. قَالَ ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ لا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَا يَحْتَاجُ إِلَيهِ خَلْقُهُ، وَلا يَفْتَقِرُ إِلَىٰ شَيءٍ مِمَّا يَفْتَقِرُ إِلَيهِ الخَلْقُ، وَذَلِكَ لِكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَكَونِهَا كُلِّهَا صِفَاتِ كَمَالٍ وَنُعُوتَ جَلالٍ.

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ أَغْنَىٰ عِبَادَهُ بِمَا بَسَطَ لَهُم مِنَ الأَرْزَاقِ، وَبِمَا أَدَرَّهُ عَلَيهِم مِنَ الخَيرَاتِ وَأَنْزَلَهُ مِنَ البَرَكَاتِ، وَمَا تَابَعَ عَلَيهِم مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لا تُعَدُّ وَلا تُحْصَىٰ، وَبِمَا يَسَّرَهُ مِنَ الأَسْبَابِ المُوصِلَةِ إِلَىٰ الغِنَىٰ.

وَأَخَصُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَغْنَىٰ خَوَاصَّ عِبَادِهِ، بِمَا أَفَاضَهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مِنَ المَعَارِفِ وَالعُلُومِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالحَقَائِقِ الإِيمَانِيَّةِ، حَتَّىٰ تَعَلَّقَتْ قُلُوبُهُم بِهِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَىٰ أَحَدٍ سِوَاهُ.

---

(١) جامع العلوم وَالحكم (٢/ ٤٣).

(٢) نثر الجوهر عَلَى حديث أبي ذر (ص١٦٥).

وَهَذَا هُوَ الغِنَىٰ العَالي، كَمَا قَالَ ﷺ: «**لَيسَ الغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ**»(١).

وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

تَقَنَّع بِمَا يَكفِيكَ وَاستَعمِلِ الرِّضا ... فَإِنَّكَ لا تَدري أَتُصبِحُ أَم تُمسِي
فَلَيسَ الغِنى عَنْ كَثرَةِ المَالِ إِنَّما ... يَكُونُ الغِنى والفَقرُ مِن قِبَلِ النَّفسِ(٢)

وَعَن أَبي ذرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبا ذَرٍّ! أَتَرَىٰ كَثْرَةَ المَالِ هُوَ الغِنَىٰ؟**» قُلْتُ: نَعم يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**فَتَرَىٰ قِلَّةَ المَالِ هُوَ الفَقْرَ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ. قَالَ ﷺ: «**إِنَّمَا الغِنَىٰ غِنَىٰ القَلْبِ، وَالفَقْرُ فَقْرُ القَلْبِ**»(٣).

فَكَمْ مِنْ صَاحِبِ ثَرْوَةٍ وَقَلْبُهُ فَقِيرٌ مُتَحَسِّرٌ، وَكَمْ مِنْ فَقِيرِ ذَاتِ اليَدِ، وَقَلْبُهُ غَنِيٌّ رَاضٍ، قَانِعٌ بِرِزْقِ اللهِ(٤).

وَمِنْ كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّ الخَلائِقَ بِأَسْرِهَا لا تَسْتَغْنِي عَنْهُ طَرْفَةَ عَينٍ في حَالٍ مِنْ أَحْوالِهَا، فَهُم فُقَرَاءُ إِلىٰ اللهِ عَلَىٰ الإِطْلاقِ في كُلِّ شَيءٍ، فُقَراءُ إِلَيهِ في الخَلْقِ وَالإِيجَادِ، وَفُقَراءُ إِلَيهِ في إِعْدَادِهِم بِالقِوَىٰ وَالأَعْضَاءِ وَالجَوَارِحِ، الَّتي لَولا إِعْدَادُهُ إِيَّاهُم، لما اسْتَعَدُّوا لأَيِّ عَمَلٍ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]. «وَتَعْرِيفُ الفُقَرَاءِ لِلْمُبَالَغَةِ في فَقْرِهِم، كَأَنَّهُم لِشِدَّةِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢١٨).
(٣) أخرجه ابن حبان (٢٥٢١)، والحاكم (٤/ ٣٢٧) وصححه ووافقه الذهبي.
(٤) بهجة قلوب الأبرار (ص١٣٩).

افْتِقَارِهِم وَكَثْرَةِ احْتِيَاجِهِم هُمُ الفُقَراءُ»[١] فَقراً كَامِلاً.

فُقَراءُ في إِمْدَادِهِم بِالأَقْوَاتِ وَالأَرْزَاقِ، وَالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ. فَلَولا فَضْلُهُ وَإِحسَانُهُ وَتَيسِيرُهُ الأُمُورَ، لَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ وَالنِّعَمِ شَيءٌ.

فُقَراءُ في صَرْفِ النِّقَمِ عَنهُم، وَدَفْعِ المَكَارِهِ، وَإِزَالَةِ الكُرُوبِ وَالشَّدَائِدِ. فَلُولا دَفْعُهُ عَنهُم، وَتَفرِيجُهُ لِكُرُبَاتِهِم وَإِزَالَتُهُ لِعُسْرِهِم، لاسْتَمَرَّتْ عَلَيهِمُ المَكَارِهُ وَالشَّدَائِدُ.

فُقَراءُ إِلَيهِ في تَرْبِيَتِهِم بِأَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ، وَأَجْنَاسِ التَّدْبِيرِ.

فُقَراءُ إِلَيهِ في تَعْلِيمِهِم مَا لا يَعْلَمُونَ، وَعَمَلِهِم بِمَا يُصْلِحُهُم، فَلَولا تَعْلِيمُهُ، لَمْ يَتَعَلَّمُوا، وَلَولا تَوفِيقُهُ لَمْ يَصلُحُوا.

فُقَراءُ إِلَيهِ مِنْ جِهَةِ عَفوِهِ عَنهُم وَمَغْفِرَتِهِ لَهُم، ذَلِكَ بِأَنَّ «الإِنْسَانَ يُذْنِبُ دائِماً فَهُوَ فَقِيرٌ مُذْنِبٌ، وَرَبُّهُ تَعالَىٰ يَرْحَمُهُ وَيَغْفِرُ لَهُ، وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، فَلَولا رَحْمَتُهُ وَإِحسَانُهُ: لَمَا وُجِدَ خَيرٌ أَصْلاً، لا في الدُّنيَا وَلا في الآخِرَةِ»[٢] فَإِنْ لَمْ يَعْفُ عَنِ العَبْدِ وَيَغْفِرْ لَهُ، فَلا سَبِيلَ لَهُ إِلىٰ النَّجَاةِ، فَمَا نَجَا أَحَدٌ إِلَّا بِعَفْوِ اللهِ، وَلا دَخَلَ الجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ «فَلَولا فَضْلُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ مَا هَنَأَ أَحداً عَيشٌ البَتَّةَ، وَلا عَرَفَ خَالِقَهُ، وَلا ذَكَرَهُ، وَلا آمَنَ بِهِ، وَلا أَطَاعَهُ»[٣]. فَلا يَسَعُ الخَلائِقَ إِلَّا رَحْمَتُهُ وَعَفْوُهُ، وَلا يَبْلُغُ عَمَلُ أَحَدٍ مِنْهُم أَنْ يَنْجُوَ بِهِ مِنَ النَّارِ أَو يَدْخُلَ

---

(١) فتح البيان (١١/٢٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١/٤٢).

(٣) شفاء العليل (١/٣٤٩).

بِهِ الجَنَّةَ، كَمَا قَالَ أَطْوَعُ الخَلْقِ لِرَبِّهِ وَأَفْضَلُهُم عَمَلاً وَأَشَدُّهُم تَعْظِيمًا لَهُ: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَداً مِنْكُم عَمَلُهُ**» قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ**»[١].

فَإِذَا كَانَ عَمَلُ العَبْدِ لا يَسْتَقِلُّ بِالنَّجَاةِ، فَلَو لَمْ يُنَجِّهِ اللهُ فَلَم يَكُنْ قَدْ بَخَسَهُ شَيئاً مِنْ حَقِّهِ وَلا ظَلَمَهُ، فَإِنَّهُ لَيس مَعَهُ مَا يَقْتَضِي نَجَاتَهُ، وَعَمَلُهُ لَيسَ وَافِياً بِشُكْرِ القَلِيلِ مِنْ نِعَمِهِ، فَهَلْ يَكُونُ ظَالِماً لَو عَذَّبَهُ؟ وَهَلْ تَكُونُ رَحْمَتُهُ لَهُ جَزَاءً لِعَمَلِهِ، وَيَكُونُ العَمَلُ ثَمَناً لَهَا مَعَ تَقْصِيرِهِ فِيهِ وَعَدَمِ تَوفِيَتِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ بَذْلِ النَّصِيحَةِ فِيهِ، وَكَمَالِ العُبُودِيَّةِ مِنَ الحَيَاءِ وَالمُرَاقَبَةِ، وَالمَحَبَّةِ وَالخُشُوعِ، وَحُضُورِ القَلْبِ بَينَ يَدَيِ اللهِ فِي العَمَلِ لَهُ؟[٢]

فَهُم فُقَرَاءُ إِلَيهِ بِالذَّاتِ بِكُلِّ مَعْنًى وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ، فِي جَمِيعِ الحَالاتِ وَالأَوقَاتِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ، سَوَاءٌ شَعَرُوا بِبَعْضِ أَنْوَاعِ الفَقْرِ أَمْ لَمْ يَشْعُرُوا.

فُقَرَاءُ إِلَيهِ، مُحْتَاجُونَ إِلَيهِ، وَهُوَ وَحْدَهُ الغَنِيُّ عَنهُم، وَكُلُّ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَسْأَلُونَهُ، وَهُوَ لا يَسْأَلُ أَحَداً. «فَالمَلائِكَةُ تَسْأَلُهُ مَا لا حَيَاةَ لَهَا إِلَّا بِهِ، مِنْ إِعَانَتِهِ عَلَىٰ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَتَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ، وَالقِيَامِ بِمَا جَعَلَ إِلَيهِم مِنْ مَصَالِحِ العَالَمِ العُلوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَتَسْأَلُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِبَنِي آدَمَ، وَالرُّسُلُ تَسْأَلُهُ أَنْ يُعِينَهُم عَلَىٰ أَدَاءِ رِسَالاتِهِ وَتَبْلِيغِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَهُم عَلَىٰ أَعْدَائِهِم، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِم فِي

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣)، وَمسلم (٢٨١٦).

(٢) طريق الهجرتين (ص٥١٨).

مَعَاشِهِم وَمَعَادِهِم، وَبَنُو آدَمَ كُلُّهُم يَسْأَلُونَهُ مَصَالِحَهُم عَلَىٰ تَنَوُّعِهَا وَاخْتِلافِهَا، وَالحَيَوانُ كُلُّهُ يَسْأَلُهُ رِزْقَهُ وَغِذَاءَهُ وَقُوتَهُ وَمَا يُقِيمُهُ، وَيَسْأَلُهُ الدَّفْعَ عَنْهُ، وَالشَّجَرُ وَالنَّبَاتُ يَسْأَلُهُ غِذَاءَهُ وَمَا يَكْمُلُ بِهِ، وَالكَونُ كُلُّهُ يَسْأَلُهُ إِمْدَادَهُ بِقَالِهِ وَحَالِهِ ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]»[١].

عَنْ أَبي الدَّرْداءِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: في قَولِهِ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ قال: «**مِنْ شَأنِهِ أَنْ يَغفِرَ ذَنْباً، وَيُفَرِّجَ كَرْباً، وَيَرْفَعَ قَوماً، وَيَضَعَ آخَرِينَ**»[٢].

فُقَراءُ إِلَيهِ لِذَاتِهِ في الأَسْبَابِ وَالغَايَاتِ؛ فَإِنَّ مَا لا يَكُونُ بِحَولِهِ وَقُوَّتِهِ: لا يَكُونُ، وَمَا لا يَكُونُ خَالِصاً لِوَجْهِهِ: فَهُوَ بَاطِلٌ لا يَنْفَعُ وَلا يَدُومُ.

عَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[٣].

فُقَراءُ إِلَيهِ في قَبُولِ أَعْمَالِهِم، قَالَ إِبرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عليهما السلام وَهُمَا يَرْفَعَانِ القَوَاعِدَ مِنَ البَيتِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. «وَالإِنْسَانُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلىٰ رَبِّهِ عز وجل في العَمَلِ وَفي

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٥٢١).

(٢) رواه ابن حبان (١٧٦٣) «موارد»، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (١٤٨٧).

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥).

قَبُولِ العَمَلِ، زَالَ عَنْهُ الإِعْجَابُ، وَإِذَا زَالَ عَنْهُ الإِعْجَابُ صَارَ حَرِيّاً بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقْبَلُ مِنْهُ وَيُثِيبُهُ»[١]. فَأَيُّ عَمَلٍ أَجَلُّ مِنْ عَمَلٍ يَقْبَلُهُ رَبُّ العَالَمِينَ، وَأَيُّ سَعْيٍ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيٍ يَشْكُرُهُ وَيُثْنِي عَلَيهِ رَبُّ العَالَمِينَ، وَأَيُّ طَاعَةٍ أَعَزُّ مِنْ طَاعَةٍ اخْتَارَهَا وَرَضِيَهَا رَبُّ العَالَمِينَ؟!

فُقَراءُ إِلَيهِ غَيرُ قَادِرِينَ عَلَىٰ تَحْصِيلِ مَصَالِحِهِم، وَدَفْعِ الأَضْرَارِ عَن أَنفُسِهِم، كَمَا قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وكَانَ النَّبيُّ ﷺ يَقُولُ في اسْتِغَاثَتِهِ رَبَّهُ في الاسْتِسْقَاءِ: **«اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنتَ الغَنِيُّ، وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ! أَنْزِلْ عَلَينَا الغَيثَ، وَاجْعَل مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلاغاً إِلَىٰ حِينٍ»**[٢].

عَن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبيِّ ﷺ - فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - أَنَّهُ قَالَ: **«يَا عِبَادِي! كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيتُهُ، فَاسْتَهدُونِي أَهْدِكُم. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُم. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُم»**[٣].

فَسُبحَانَ اللهِ وَبِحمدِهِ، مَا أَبْلَغَ هَذَا الكَلامَ! وَأَعلَىٰ طَبقَتَهُ، وَأَرْفَعَ مَنْزِلَتَهُ[٤].

وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ جَمِيعَ الخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إِلىٰ اللهِ تَعَالَىٰ في جَلْبِ

---

(١) تفسير سورة آل عمران (١/ ٢٢٧).

(٢) رواه أبو داود (١١٧٣)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٣٢١).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) نثر الجوهر عَلَى حديث أبي ذر (ص١٤٤).

مَصَالِحِهِم، وَدَفْعِ مَضَارِّهِم، في أُمُورِ دِينِهِم وَدُنْيَاهُم، وَأَنَّ العِبَادَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِم شَيئاً مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ[1].

فُقَرَاءُ إِلَيهِ في أَعْظَمِ الحَاجَاتِ وَأَشَدِّ الضَّرُورَاتِ، وَهِيَ تَأَلُّهُهُم لَهُ وَحُبُّهُم لَهُ، وَتَعَبُّدُهُم وَإِخْلاصُ العِبَادَةِ لَهُ تَعَالَىٰ. فَلَو لَمْ يُوَفِّقْهُم لِذَلِكَ، لَهَلَكُوا وَفَسَدَت أَرْوَاحُهُم، وَقُلُوبُهُم وَأَحْوَالُهُم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اسْتَغَاثَ بِالفَقِيرِ بِالذَّاتِ، «الضَّعِيفِ بِالذَّاتِ، وَالعَاجِزِ بِالذَّاتِ، المُحْتَاجِ بِالذَّاتِ، الَّذِي لَيسَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ إِلَّا العَدَمُ»[2]، وَتَرَكَ الاسْتِغَاثَةَ «بِالغَنِيِّ بِالذَّاتِ، القَادِرِ بِالذَّاتِ، الَّذِي غِنَاهُ وَقُدْرَتُهُ، وَمُلْكُهُ وَجُودُهُ، وَإِحسَانُهُ وَعِلْمُهُ، وَرَحْمَتُهُ وَكَمَالُهُ الْمُطْلَقُ، مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟!»[3].

وَبِالجُمْلَةِ: فَإِنَّ «جَمِيعَ المَخلُوقَاتِ مُفتَقِرَةٌ إِلَيهِ تَعَالَى في وُجُودِهَا، فَلا وُجُودَ لَهَا إِلَّا بِهِ، فَهِيَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيهِ في قِيَامِها، فلا قَوَامَ لَها إِلَّا بِهِ، فَلا حَرَكَةَ وَلا سُكُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَهُوَ الحَيُّ القَيُّومُ القَائِمُ بِنَفْسِهِ، فَلا يَحتَاجُ إِلى شَيءٍ، القَيِّمُ لِغَيْرِهِ فَلا قَوَامَ لِشَيءٍ إِلَّا بِهِ، فَلِلخَالِقِ مُطلَقُ الغِنَى وَكَمَالُهُ، وَلِلمَخلُوقِ مُطْلَقُ الفَقرِ إِلى اللهِ وَكَمَالُهُ»[4].

وَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ سُبحَانَهُ ... جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَعَالَى شَأنُهُ
وَكُلُّ شَيءٍ رِزقُهُ عَلَيهِ ... وَكُلُّنَا مُفتَقِرٌ إِلَيهِ[5]

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٧).
(٢) الداء والدواء (ص٢٠٣).
(٣) المصدر السابق.
(٤) معارج القبول (١/ ٢٤٤).
(٥) المصدر السابق.

وَقد قَرَنَ جَلَّ وَعَلا غِنَاهُ بِالحَمدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]؛ لأَنَّهُ «لَيسَ كُلُّ غَنيٍّ نَافِعاً بِغِنَاهُ إِلَّا إِذا كَانَ الغَنِيُّ جَوَاداً مُنعِماً، وَإِذا جَادَ وَأَنعَمَ حَمِدَهُ المُنعَمُ عَلَيهِم، وَاستَحَقَّ عَلَيهِمُ الحَمدَ، وَلِيَدُلَّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ الغَنِيُّ النَّافِعُ بِغِنَاهُ خَلقَهُ، الجَوَادُ المُنعِمُ عَلَيهِم، المُستَحِقُّ بِإِنعَامِهِ عَلَيهِم أَن يَحمَدُوهُ»[1].

وَالكَلامُ في صِفَةِ الغِنَى كَثِيرٌ جِدّاً، لَو أَرَدنَا استِقصَاءَهُ لَطَالَ الفَصلُ «وَفِيمَا ذَكَرنَا كِفَايَةٌ، فَسُبحَانَ مَن وَسِعَ خَلقَهُ بِغِنَاهُ، وَافتَقَرَ كُلُّ شَيءٍ إِلَيهِ، وَهوَ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ»[2].

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الغِنَى:

مَتَىٰ شَهِدَ العَبْدُ غِنَىٰ اللهِ عَنْ كُلِّ شَيءٍ، وَفَقْرَ المَخْلُوقَاتِ إِلىٰ اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، صَارَ فَقْرُهُ وَضَرُورَتُهُ إِلىٰ رَبِّهِ وَصْفاً لازِماً لَهُ، «فَهُوَ لا غِنَىٰ لَهُ عَنْهُ طَرْفَةَ عَينٍ، بَلْ هُوَ مُضطَرٌّ إِلَيهِ عَلَىٰ مَدَىٰ الأَنْفَاسِ، في كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ بَاطِناً وَظَاهِراً، فَاقَتُهُ تَامَّةٌ إِلَيهِ»[3]؛ مِنْ جِهَةِ كَونِهِ رَبَّهُ، وَخَالِقَهُ وَفَاطِرَهُ، وَنَاصِرَهُ، وَحَافِظَهُ وَمُعِينَهُ وَرَازِقَهُ، وَهَادِيَهُ وَمُعَافِيَهُ، وَالقَائِمَ بِجَمِيعِ مَصَالِحِهِ، وَمِنْ جِهَةِ كَونِهِ مَعْبُودَهُ وَإِلَهَهُ، وَحَبِيبَهُ الَّذِي لا تَكمُلُ حَيَاتُهُ وَلا تَنْفَعُ، إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ أَحَبَّ شَيءٍ إِلَيهِ، وَأَشْوَقَ شَيءٍ إِلَيهِ[4]. فَلا يَشْهَدُ لَهُ حَالاً مَعَ اللهِ وَلا مَقَاماً، كَمَا لَمْ يَشْهَدْ لَهُ

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢١٥).
(٢) معارج القبول (١/ ٢٤٧).
(٣) فوائد الفوائد (ص١٠٢).
(٤) تهذيب المدارج (ص٩٧٧ ـ ٩٧٨).

عَمَلاً. فَقَدْ جَعَلَ عُدَّتَهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ: فَقْرَهُ مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ. فَهُوَ لا يَقْدُمُ عَلَيهِ إِلَّا بِالفَقْرِ المَحْضِ. فَالفَقْرُ خَيرُ العَلاقَةِ الَّتِي بَينَهُ وَبَينَ رَبِّهِ، وَالنِّسْبَةُ الَّتِي يَنْتَسِبُ بِهَا إِلَيهِ، وَالبَابُ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ عَلَيهِ[1]. وَالطَّرِيقُ الأَعْظَمُ الَّذِي لا يَدخُلُ عَلَيهِ إِلَّا مِنْهُ، وَكُلُّ طَرِيقٍ فَمَسْدُودٌ[2]. وَهُوَ لُبُّ العُبُودِيَّةِ وَسِرُّهَا. وَحُصُوْلُهُ أَنْفَعُ شَيءٍ لِلْعَبْدِ، وَأَحَبُّ شَيءٍ إِلىٰ اللهِ[3].
وَكُلَّمَا كَانَ العَبْدُ أَعْظَمَ شُهُوداً لِفَقْرِهِ، وَضَرُورَتِهِ وَحَاجَتِهِ إِلىٰ رَبِّهِ، وَعَدَمِ استِغْنَائِهِ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، كَانَ أَقْرَبَ إِلَيهِ، وَأَعَزَّ لهُ، وَأَعْظَمَ لِقَدْرِهِ.
وَلِهَذَا: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: **«يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»**[4]. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»**[5].

فَالفَقِيرُ هُوَ الَّذِي حَاجَاتُهُ إِلىٰ اللهِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِهِ أَوْ أَكْثَرَ، فَالعَبْدُ لَهُ فِي كُلِّ نَفَسٍ وَلَحْظَةٍ وَطَرْفَةِ عَيْنٍ، عِدَّةُ حَوَائِجَ إِلىٰ اللهِ، لَا يَشْعُرُ بِكَثِيرٍ مِنْهَا، فَأَفْقَرُ النَّاسِ إِلىٰ اللهِ مَنْ شَعَرَ بِهَذِهِ الحَاجَاتِ، وَطَلَبَهَا مِنَ الغَنِيِّ الحَمِيدِ. فَيُغْنِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَيُعْطِيهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَرْتَقِبْ[6].

---

(١) تهذيب المدارج (ص٧٥٤ ـ ٧٥٥).
(٢) المصدر السابق (ص٨٥٢).
(٣) المصدر السابق (ص٢٠٧).
(٤) رواه الترمذي (٣٥٢٤)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٤٨).
(٥) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٥١).
(٦) طريق الهجرتين (ص٩٧).

وللهِ دَرُّ القَائِلِ:

أَنَا الفَقِيرُ إِلَىٰ رَبِّ البَرِيَّاتِ ... أَنَا المِسْكِينُ في مَجْمُوعِ حَالاتِي
أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسي وَهِيَ ظَالِمَتِي ... وَالخَيرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَأتِي
لا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعُ المَضَرَّاتِ
وَالفَقْرُ لي وَصْفُ ذَاتٍ لازِمٌ أَبَداً ... كَمَا الغِنَىٰ أَبداً وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي
وَهَذِهِ الحَالُ حَالُ الخَلْقِ أَجْمَعِهِم ... وَكُلُّهُم عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي[1]

وَمَتَىٰ شَهِدَ فَقْرَ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، لَمْ يَفْتَقِرْ إِلَيهِم، وَلَمْ يُعَلِّقْ أَمَلَهُ وَرَجَاءَهُ بِهِم، وَهَذَا هُوَ العَبْدُ الحَقِيقِيُّ، «فَإِنَّهُ لا يَزَالُ يَشْهَدُ فَقْرَهُ في كُلِّ حَالٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَتَضَرَّعُ لَهُ وَيَسْأَلُهُ أَنْ لا يَكِلَهُ إِلَىٰ نَفسِهِ طَرْفَةَ عَينٍ، وَأَنْ يُعِينَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَيَسْتَصْحِبُ هَذَا المَعْنَىٰ في كُلِّ وَقْتٍ، فَهَذَا حَرِيٌّ بِالإِعَانَةِ التَّامَّةِ مِنْ رَبِّهِ وَإِلَهِهِ، الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ بِهِ مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا»[2]. فَمَا أَغْنَاهُ حِينَئِذٍ مِنْ فَقِيرٍ، وَمَا أَعَزَّهُ مِنْ ذَلِيلٍ، وَمَا أَقْوَاهُ مِنْ ضَعِيفٍ، وَمَا آنَسَهُ مِنْ وَحِيدٍ. فَهُوَ الغَنِيُّ بِلا مَالٍ، القَوِيُّ بِلا سُلْطَانٍ، العَزِيزُ بِلا عَشِيرَةٍ، المَكْفِيُّ بِلا عَتَادٍ[3]. افْتَقَرَ إِلَىٰ اللهِ فَأَغْنَاهُ عَنهُم، وَذَلَّ للهِ فَأَعَزَّهُ فِيهِم، وَتَوَاضَعَ للهِ فَرَفَعَهُ بَينَهُم، وَاسْتَغْنَىٰ بِاللهِ فَأَحْوَجَهُم إِلَيهِ[4]. قَدْ تَمَّ لَهُ غِنَاهُ بِالإِلَهِ الحَقِّ، وَصَارَ مِنْ أَغْنَىٰ العِبَادِ. وَلِسَانُ حَالِ مِثْلِ هَذَا يَقُولُ:

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص٤٤٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٩٦١).
(٣) طريق الهجرتين (ص٥٩).
(٤) تهذيب المدارج (ص٩٨١ ـ ٩٨٢).

غَنِيتُ بِلا مَالٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمُ ... وَإِنَّ الغَنِيَّ العَالي عَنِ الشَّيءِ لا بِهِ

فَيَا لَهُ مِنْ غِنًى! مَا أَعْظَمَ خَطَرَهُ وَأَجلَّ قَدْرَهُ[١]؛ وَيَا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ عَظِيمِ المنْفَعَةِ، جَلِيلِ الفَائِدَةِ، تَحْتَهُ مِنْ أَسْرَارِ العُبُودِيَّةِ، مَا لا يَنَالُهُ الوَصْفُ.

وَهَذِهِ المَرْتَبَةُ العَالِيَةُ: كُلٌّ يُحِبُّ الوُصُولَ إِلَيهَا وَالاتِّصَافَ بِهَا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الخَلْقِ مُتَخَلِّفٌ عَنْهَا، غَيرُ عَامِلٍ بِالأَسْبَابِ المُوصِلَةِ إِلَيهَا.

وَالأَسْبَابُ الَّتي تُنَالُ بِهَا هَذِهِ المَرْتَبَةُ الجَلِيلَةُ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ، هَذَا أَوَانُ سَرْدِهَا فَأَلْقِ سَمْعَكَ، وَأَحْضِرْ قَلْبَكَ، وَتَأَمَّلْهَا تَأَمُّلَ طَالِبٍ لِلحَقِّ عَامِلٍ بِهِ:

أ ـ التَّفَرُّغُ لِعِبَادَةِ اللهِ: عَن مَعْقَلِ بنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَقُولُ رَبُّكُم تَبارَكَ وتَعَالَىٰ: يَا ابنَ آدمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَملأْ قَلْبَكَ غِنًى، وَأَملأْ يَدَيْكَ رِزْقاً، يَا ابْنَ آدَمَ! لا تَباعَدْ مِنِّي فَأَملأَ قَلْبَكَ فَقْراً، وَأَملأَ يَدَيْكَ شُغْلاً»**[٢].

ب ـ هَمُّ الآخِرَةِ: عَنْ زَيْدِ بنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ كَانَتِ الدُّنيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»**[٣].

---

(١) طريق الهجرتين (ص٧٩).

(٢) رواه الحاكم (٤/ ٣٢٦) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٣).

فهَذَا هُوَ الفقْرُ الحَقِيقِيُّ وَالغِنَىٰ الحَقِيقِيُّ.

«فَمَنْ كَانَ فَقْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، لَمْ يَزَلْ خَائِفاً مِنَ الفَقْرِ، لا يَسْتَغْنِي قَلْبُهُ بِشَيءٍ، وَلا يَشْبَعُ مِنَ الدُّنْيَا؛ وَمَنْ كَانَ الغِنَى في قَلْبِهِ فَلا يَضُرُّهُ ما لَقِيَ مِنَ الدُّنيا»[1].

وَإِذَا كَانَ هَذَا غِنَىٰ مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، فَكَيفَ مَنْ كَانَ اللهُ أَكْبَرَ هَمِّهِ[2].

ج - الرِّضَىٰ بِمَا قَسَمَ اللهُ: عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ، أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟**» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْساً وَقَالَ: «**اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَىٰ النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَىٰ جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفسِكَ تَكُنْ مُسْلِماً، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ، تُمِيتُ القَلْبَ**»[3].

د - الدُّعَاءُ: عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ وَالعَفَافَ وَالغِنَىٰ**»[4].

فَإِنَّ مَنِ اجتَهَدَ وَاستَعَانَ بِاللهِ، وَأَلَحَّ عَلَيهِ فِي السُّؤَالِ لَمْ يُخَيِّبْهُ اللهُ،

---

(١) لطائف المعارف (ص٥٣٧).

(٢) طريق الهجرتين (ص٩١).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٦٧).

(٤) رواه مسلم (٢٧٢١).

فَإِنَّهُ أَمَرَ بِالدُّعَاءِ وَوَعَدَ عَلَيهِ الإِجَابَةَ فِي جَمِيْعِ الأَدْعِيَةِ[١]. فَمَنْ رُزِقَ الهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ، وَالعَفَافَ وَالغِنَىٰ، نَالَ السَّعَادَتَيْنِ، وَحَصَلَ لَهُ كُلُّ مَطْلُوبٍ، وَنَجَا مِنْ كُلِّ مَرْهُوبٍ[٢].

هـ ـ المُجَاهَدَةُ عَلَىٰ الاتِّصَافِ بِذَلِك: عَنْ حَكَيْمِ بنِ حِزَامٍ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «... **وَمَنْ يَسْتَغْنِ، يُغْنِهِ اللهُ**»[٣].

أَيْ مَنِ اجتَهَدَ عَلَىٰ تَحْصِيلِ الاسْتِغْنَاءِ بِحَسَبِ مَا يَقْتَدِرُ عَلَيهِ وَيَسْتَطِيْعُهُ مِنَ الأَسْبَابِ، وَبَذَلَ جُهْدَهُ وَجَاهَدَ نَفسَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، أَعَانَهُ اللهُ وَوَفَّقَهُ وَيَسَّرَ لَهُ هَذَا الأَمْرَ الَّذِي طَلَبَهُ وَرَغِبَ فِيهِ، وَبَذَلَ فِيهِ مَقْدُوْرَهُ، لِعِلْمِهِ بِمَحَبَّةِ اللهِ لَهُ، وَلِعِلْمِهِ أَنَّهُ بِهَذَا يَكْسِبُ الرِّزْقَ الحَقِيْقِيَّ وَالمَرَاتِبَ العَالِيَةَ؛ فَأَرَاحَ اللهُ قَلْبَهُ مِنْ تَعَلُّقِهِ بِالخَلْقِ، وَأَرَاحَهُ مِنْ تَشَوُّشِ الأَسْبَابِ وَإِتْيَانِهَا عَلَىٰ غيرِ مُرَادِهِ، وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ وَحَيِيَ حَياةً طَيِّبَةً سَعِيدَةً، فَإِنَّهُ لا أَهْنَأَ حَيَاةً وَلا أَلَذَّ، مِمَّنْ قَطَعَ رَجَاءَهُ عَنِ الخَلْقِ وَاسْتَغْنَىٰ عَمَّا فِي أَيدِيهِم، وَلَمْ يَتَطَلَّعْ إِلىٰ مَا عِنْدَهُم، بَلْ قَنِعَ بِرِزْقِ اللهِ وَاسْتَغْنَىٰ بِفَضْلِ اللهِ، وَعَلِمَ أَنَّ القَلِيلَ مِنَ الرِّزْقِ إِذَا أَكْسَبَ القَنَاعَةَ؛ خَيرٌ مِنَ الكَثِيرِ الَّذِي لا يُغْنِي، فَلَيسَ الغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، إِنَّمَا الغِنَىٰ فِي الحَقِيقَةِ غِنَىٰ القَلْبِ، غِنَاهُ بِاللهِ[٤]. وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً بِاللهِ فَهُوَ الغَنِيُّ حَقّاً، وَإِنْ قَلَّتْ حَوَاصِلُهُ[٥]. وَهُوَ الَّذِي يُحِبُّهُ رَبُّهُ.

---

(١) المجموعة الكاملة (١/ ٤٩٦).
(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص١٧٣).
(٣) رواه البخاري (١٤٢٧).
(٤) المجموعة الكاملة (١/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦).
(٥) بهجة قلوب الأبرار (ص٧٣).

عَنْ سَعْدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ»(١).

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا الغِنَى؟ قَالَ: «اليَأْسُ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ»(٢).

أي: الزَمِ اليَأسَ مِمَّا فِي أيدي النَّاسِ، وَلا تُحَدِّث نَفسَكَ أَن تَسأَلَ النَّاسَ شَيئاً، وَتَوَكَّل على اللهِ وَحدَهُ، وَثِق بِفَضلِهِ، وَاحفَظ مَاءَ وَجهِكَ ولا تَبذُلهُ إلَّا لِلكَرِيمِ المُتَفَضِّلِ المَنَّانِ، وَضَع نُصبَ عَينَيك قَولَهُ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

وَالسَّالِكُ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ غَرِيبٌ في النَّاسِ، وَهُوَ في وَادٍ وَهُم في وَادٍ، فَاللهُ المُسْتَعَانُ، وَهُوَ خَيرُ الغَافِرِينَ(٣).

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٦٧).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٧٦)، وحسنه الألباني رحمه الله بشواهده في «الصحيحة» (١٩١٤).

(٣) تهذيب المدارج (ص٣٦٨).

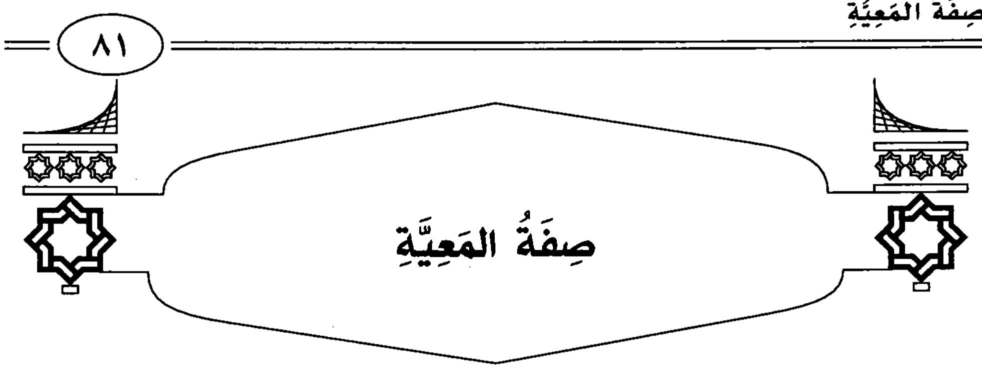

صِفَةُ المَعِيَّةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ مَعِيَّتِهِ: فَهِيَ نوعَانِ: مَعِيَّةٌ عَامَّةٌ وَمَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ.

أَمَّا المَعِيَّةُ العَامَّةُ: فَفِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، وَقَولِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وَقَولِهِ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وَهَذِهِ المَعِيَّةُ تَقْتَضِي عِلْمَهُ وَاطِّلاعَهُ وَمُرَاقَبَتَهُ لأَعْمَالِهِم.

وَلا مُنَافَاةَ بَينِ العُلُوِّ وَالمَعِيَّةِ، لأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَينَهُمَا فِي قَولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

قَالَ عَالِمُ خُرَاسَانَ مُقَاتِلُ بنُ حَيَّانَ: فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]: «**هُوَ عَلَىٰ عَرْشِهِ وَعِلْمُهُ مَعَهُم**»(١).

وَقَالَ مَعْدَانُ: سَأَلْتُ سُفْيَانَ الثَّورِيَّ عَنْ قَولِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

---

(١) أخرجه أبو داود في «مسائله» (ص٢٦٣) بسندٍ حسنٍ.

كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]؟ قَالَ: عِلمُهُ(١).

وَقَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ: «**اللهُ في السَّماءِ، وَعِلْمُهُ في كُلِّ مَكَانٍ لا يَخْلو مِنْهُ شَيءٌ**»(٢).

وَقَالَ يُوسُفُ بنُ مَوسَىٰ القَطَّانُ شَيخُ أَبي بَكْرٍ الخَلَّالِ: «قِيلَ لأَبي عَبْدِ اللهِ [الإمامُ أَحمَدُ]: **اللهُ فَوقَ السَّماءِ السَّابِعَةِ عَلَىٰ عَرْشِهِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَقُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ؟ قَالَ: نَعَم هُوَ عَلَىٰ عَرْشِهِ وَلا يَخْلو شَيءٌ مِنْ عِلْمِهِ**»(٣).

وَأَمَّا المَعِيَّةُ الخَاصَّةُ: فَفِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ لموسىٰ وَهَارُونَ عليهما السلام: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

عَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عز وجل يَقُولُ: أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**»(٤).

---

(١) أخرجه الذهبي في «السير» (٧/ ٢٧٤) بسندٍ صحيحٍ.

(٢) أخرجه أبو داود في «مسائله» (ص٢٦٣) بسندٍ حسنٍ.

(٣) أخرجه الذهبي في «العلو» (ص١١١٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «مختصر العلو» (ص١٩٠).

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٥).

وَعَنْهُ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنا مَعَ عَبْدِي إِذَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»(١).

وَهَذِهِ المعِيَّةُ تَقْتَضِي النَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ، وَالحِفْظَ وَالإِعَانَةَ وَالرِّعَايَةَ وَالكَلاءَةَ، وَالمَحَبَّةَ وَالتَّوفِيقَ وَالكِفايَةَ، وَالهِدَايَةَ وَالتَّسدِيدَ وَالقُرْبَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، فَهُوَ سُبحَانَهُ قَرِيبٌ مِنْ دَاعِيهِ وَقَرِيبٌ مِنْ عَابِدِهِ.

عَن أَبي مُوسىٰ الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُم! إِنَّكُمْ لَيسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِباً، إِنَّكُم تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً وَهُوَ مَعَكُم، أَقْرَبُ إِلىٰ أَحَدِكُم مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»(٢).

فَهَذَا قُرْبٌ خَاصٌّ بِالدَّاعِي، دُعَاءَ العِبَادَةِ وَالثَّنَاءِ وَالحَمدِ(٣).

قَالَ ابنُ القَيِّم ﷺ:

وَهُوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بِالـ ... ـدَّاعِي وَعَابِدِهِ عَلَىٰ الإِيمَانِ(٤)

عَنْ عَمْرِو بنِ عَبَسَةَ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ في جَوفِ اللَّيلِ الآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ**

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٩٩) تعليقاً، وَابن ماجه (٣٧٩٢)، وَابن حبان (٨١٥)، وَالحاكم (١/ ٤٩٦). وصححه وَوافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢و٤٢٠٢و٦٣٨٤و٦٤٠٩و٦٦١٠و٧٣٨٦)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٣) تهذيب المدارج (ص٦٢٥).

(٤) الكافية الشافية (ص٢١٠).

مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ في تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»(١).

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ المَعِيَّةِ:

إِذَا عَرَفَ العَبْدُ أَنَّ اللهَ مَعَهُ؛ فَلا شَكَّ أَنَّهُ يُرَاقِبُ اللهَ، يَعْرِفُ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيهِ، وَأَنَّهُ لا تَخْفَىٰ عَلَيهِ مِنْهُ خَافِيَةٌ. فَإِذَا آمَنَ بِأَنَّ اللهَ مَعَهُ - أَي عَالِمٌ بِهِ وَمُطَّلِعٌ عَلَيهِ وَرَقِيبٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِ -؛ «فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ مُرَاقَبَةِ اللهِ، وَعَلَىٰ خَوفِهِ، وَعَدَمِ الخُرُوجِ عَنْ طَاعَتِهِ، وَعَدَمِ ارْتِكَابِ شَيءٍ مِنْ مَعَاصِيهِ. تَقُولُ لَهُ نَفْسُهُ وَقَلْبُهُ: كَيفَ تَتَجَرَّأُ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهِ وَهُوَ مُرَاقِبٌ لَكَ وَلأَعْمَالِكَ؟ وَيَحْمِلُهُ هَذَا عَلَىٰ إِصْلاحِ الأَعْمَالِ وَعَدَمِ إِفْسَادِهَا، وَعَلَىٰ الإِكْثَارِ مِنَ الحَسَنَاتِ وَالبُعْدِ عَنِ السَّيئاتِ، هَذِهِ فَائِدَةُ الإِيمَانِ بِالمَعِيَّةِ»(٢) العَامَّةِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مُعَاوِيَةَ الغَاضِرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«ثَلاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ فَإِنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَعْطَىٰ زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ... وَزَكَّىٰ عَبْدٌ نَفْسَهُ»** فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ المَرْءِ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيثُ مَا كَانَ»**(٣).

---

(١) رواه النسائي (٥٧٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٥٥٧).
(٢) التعليقات الزكية عَلَى العقيدة الواسطية (١/ ٢٤٢).
(٣) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٥٥)، وَالبيهقي في «السنن الكبرى» (٧٢٧٥) واللفظ له، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٠٤٦).

فَحَصَلَتِ التَّزْكِيَةُ بِالإِيمَانِ بِهَذِهِ المَعِيَّةِ، وَأَيُّ تَزْكِيَةٍ أَعْظَمُ مِنْهَا!

وَأَمَّا المَعِيَّةُ الخَاصَّةُ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا عَرَفَ أَنَّ هَذَا العَمَلَ يَحْظَىٰ أَهْلُهُ بِمَعِيَّةِ اللهِ، حَرِصَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ، فَيَحْرِصُ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مِن أَهْلِ التَّقْوىٰ وَالإِحْسَانِ وَالصَّبْرِ وَالإِيمَانِ، وَيُكْثِرُ مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ. «وَأَيُّ فَضِيلَةٍ تُدَانِي فَضِيلَةَ مَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ! وَأَيُّ مَزِيَّةٍ تُوَازِي مَزِيَّةَ مَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ الشَّرِيفَةِ، وَالمَنْزِلَةِ السَّامِيَةِ؟!»[(١)].

فَمَتَىٰ حَظِيَ العَبْدُ بِمَعِيَّةِ اللهِ «هَانَتْ عَلَيهِ المَشَاقُّ، وَانْقَلَبَتِ المَخَاوِفُ في حَقِّهِ أَمَاناً، فَبِاللهِ يَهُونُ كُلُّ صَعْبٍ، وَيَسْهُلُ كُلُّ عَسِيرٍ، وَيَقْرُبُ كُلُّ بَعِيدٍ، وَبِاللهِ تَزُولُ الهُمُومُ وَالغُمُومُ وَالأَحْزَانُ؛ فَلا هَمَّ مَعَ اللهِ، وَلا غَمَّ وَلا حُزنَ»[(٢)]. وَإِنَّمَا الحُزْنُ كُلُّ الحُزْنِ لِمَنْ فَاتَهُ اللهُ، فَمَنْ حَصَلَ اللهَ لَهُ فَعَلَىٰ أَيِّ شَيءٍ يَحْزَنُ؟ وَمَنْ فَاتَهُ اللهُ فَبِأَيِّ شَيءٍ يَفْرَحُ[(٣)]. وَإِذَا كَانَ اللهُ مَعَكَ، فَمَنْ تَخَافُ؟ وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ، فَمَنْ تَرْجُو؟[(٤)]

وَاعْلَمْ بِأَنَّ مَعِيَّةَ اللهِ «مِنْ أَعْظَمِ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَىٰ عَبْدِهِ، وَلَكِنْ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ أَقْوَالٌ وَأَعْمَالٌ، هُمَا السَّبَبُ الَّذِي تُنَالُ بِهِ، وَاللهُ سُبحَانَهُ سَمِيعٌ لِتِلْكَ الأَقْوَالِ، عَلِيمٌ بِتِلْكَ الأَفْعَالِ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَصْلُحُ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ، وَيَشْكُرُهَا، وَيَعْرِفُ قَدْرَهَا، وَيُحِبُّ المُنْعِمَ عَلَيهِ، فَتَصْلُحُ

---

(١) الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني (٣/ ١٣٦٠).

(٢) الداء والدواء (ص٢٨٨).

(٣) طريق الهجرتين (ص٢٨٠).

(٤) الدرر السنية (٢/ ١٦٨).

عِنْدَهُ هَذِهِ النِّعْمَةُ، وَيَصْلُحُ بِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]، فَإِذَا فَاتَتِ العَبْدَ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ رَبِّهِ، فَلْيَقْرَأْ عَلَىٰ نَفسِهِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[١].

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ، وَفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ[٢].

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ١٧).

(٢) طريق الهجرتين (ص٥٠٧).

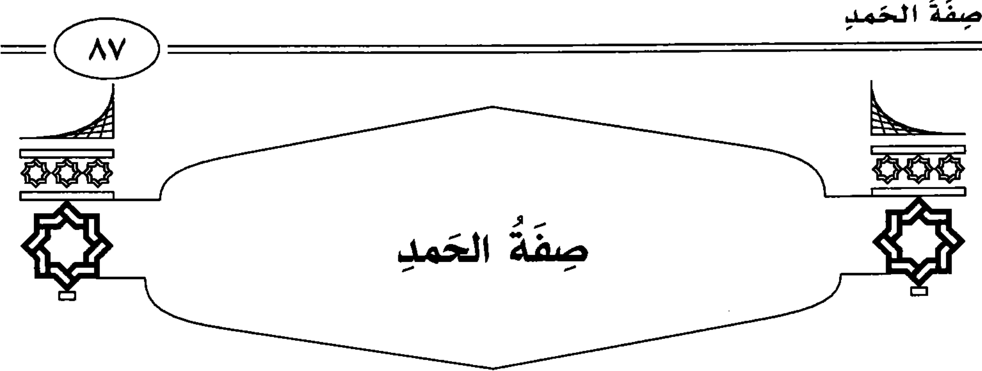

صِفَةُ الحَمدِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حَمدِهِ: فَهُوَ الحَمِيدُ في ذَاتِهِ وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ، فَلَهُ مِنَ الأَسمَاءِ أَحسَنُهَا، وَمِنَ الصِّفَاتِ أَكمَلُهَا وَأَحسَنُهَا، وَالمُستَحِقُّ لِكُلِّ حَمدٍ، وَمَحَبَّةٍ وَثَنَاءٍ؛ لِكَمَالِ أَوصَافِهِ، وَجَمِيلِ مَعرُوفِهِ، وَهِبَاتِهِ، وَعَدلِهِ، وَلِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِن صِفَاتِ الحَمدِ، الَّتِي هِيَ صِفَةُ الجَمَالِ وَالجَلالِ، لِمَا أَنعَمَ بِهِ عَلَىٰ خَلقِهِ مِنَ النِّعَم الجزَالِ، «الَّتي لا يُمكِنُ لِلعِبَادِ إِحصَاؤُهَا، وَيَتَعَذَّرُ عَلَيهِمُ استِقصَاؤُهَا»(١). فَنِعْمَ الرَّبُّ الكَرِيمُ، الَّذِي ابتَدَأَنَا بِالنِّعَمِ، وَأَسدَىٰ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، مَا لا يُحصِيهِ المُحصُونَ، وَلا يَعُدُّهُ العَادُّونَ(٢)؛ فَهُوَ المَحمُودُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَعَلَىٰ مَا لَهُ مِنَ الكَمَالِ، وَمَا أَوصَلَهُ إِلَىٰ خَلقِهِ مِنْ أَنوَاعِ الأَفضَالِ. فَالحَمدُ للهِ الحَمِيدِ بِمَنِّهِ، لَهُ كُلُّ اسمٍ حَسَنٍ، وَوَصفٍ كَامِلٍ، وَفِعلٍ جَمِيلٍ.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الحَمِيدُ فَكُلُّ حَمدٍ وَاقِعٍ ... أَو كَانَ مَفرُوضاً مَدَىٰ الأَزمَانِ
مَلأَ الوُجُودَ جَمِيعَهُ وَنَظِيرَهُ ... مِن غَيرِ مَا عَدٍّ وَلا حُسبَانِ
هُوَ أَهلُهُ سُبحَانَهُ وَبِحَمدِهِ ... كُلَّ المَحَامِدِ وَصفُ ذي الإِحسَانِ(٣)

(١) فتح الرحيم الملك العلام (ص٣٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٨١).
(٣) الكافية الشافية (ص٢٠٧ ـ ٢٠٨).

وَالحمدُ «هُوَ أَعَمُّ المَعَارِفِ وَأَوسَعُ العُلُومِ، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلالِهِ، مُستَلزِمٌ لَهَا، كَمَا هُوَ مُتَضَمِّنٌ لِحِكمَتِهِ في جَمِيعِ أفعَالِهِ وَأَوَامِرِهِ، فَهُوَ المَحمُودُ»(١) عَلَىٰ مَا لَهُ مِنَ الأَسمَاءِ الحُسنَىٰ وَالصِّفَاتِ الكَامِلَةِ العُليَا، وَالمَدَائِحِ وَالمَحَامِدِ وَالنُّعُوتِ الجَلِيلَةِ الجَمِيلَةِ، فَلَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَلَهُ مِن تِلكَ الصِّفَةِ أَكمَلُهَا وَأَعظَمُهَا، فَكُلُّ صِفَةٍ مِن صِفَاتِهِ يَستَحِقُّ عَلَيهَا أَكمَلَ الحَمدِ وَالثَّنَاءِ، فَكَيفَ بِجَمِيعِ الأَوصَافِ المُقَدَّسَةِ؟! فَلَهُ الحَمدُ لِذَاتِهِ، وَلَهُ الحَمدُ لِصِفَاتِهِ، وَلَهُ الحَمدُ لأَفعَالِهِ؛ لأَنَّهَا دَائِرَةٌ بَينَ أَفعَالِ الفَضْلِ وَالإِحسَانِ، وَبَينَ أَفعَالِ العَدلِ وَالحِكمَةِ الَّتي يَستَحِقُّ عَلَيهَا كَمَالَ الحَمدِ، وَلَهُ الحَمدُ عَلَىٰ خَلقِهِ وَعَلَىٰ شَرعِهِ، وَعَلَىٰ أَحكَامِهِ القَدَرِيَّةِ وَأَحكَامِهِ الشَّرعِيَّةِ، وَأَحكَامِ الجَزَاءِ في الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ(٢).

وَالرَّبُّ سُبحَانَهُ حَمدُهُ قَد مَلأَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ وَمَا بَينَهُمَا وَمَا بَعدَ ذَلِكَ، فَمَلأَ العَالَمَ العُلوِيَّ وَالسُّفلِيَّ وَالدُّنيَا وَالآخِرَةَ، وَوَسِعَ حَمدُهُ مَا وَسِعَ عِلمُهُ. فَالكَونُ كُلُّهُ نَاطِقٌ بِحَمدِهِ، وَالخَلقُ وَالأَمرُ صَادِرٌ عَن حَمدِهِ، وَقَائِمٌ بِحَمدِهِ، وَوُجِدَ بِحَمدِهِ؛ فَحَمدُهُ هُوَ سَبَبُ وَجُودِ كُلِّ مَوجُودٍ، وَهُوَ غَايَةُ كُلِّ مَوجُودٍ، وَكُلُّ مَوجُودٍ شَاهِدٌ بِحَمدِهِ، وَإِرسَالُهُ رَسُولَهُ بِحَمدِهِ، وَإِنزَالُهُ كُتُبَهُ بِحَمدِهِ، وَالجَنَّةُ عُمِّرَت بِأَهلِهَا بِحَمدِهِ، وَالنَّارُ عُمِّرَت بِأَهلِهَا بِحَمدِهِ، وَمَا أُطِيعَ إِلَّا بِحَمدِهِ، وَمَا عُصِيَ إِلَّا بِحَمدِهِ، وَهُوَ المَحمُودُ لِذَاتِهِ وَإِن لَم يَحمَدهُ العِبَادُ(٣).

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٣٨).

(٢) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٣٢)، للعلامة السعدي.

(٣) الكلام عَلَى مسألة السماع (ص١٩٦ ـ ١٩٧).

وَلِهَذَا حَمِدَ نَفسَهُ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ لِذَلِكَ كُلِّهِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، وَحَمِدَ نَفسَهُ عَلَىٰ إِنزَالِ كِتَابِهِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وَحَمِدَ نَفسَهُ عَلَىٰ خَلقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]؛ وَحَمِدَ نَفسَهُ عَلَىٰ كَمَالِ مُلكِهِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ [سبأ: ١]، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨]. وَكَيفَ لا يُحمَدُ عَلَىٰ خَلقِهِ كُلِّهِ وَهُوَ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]، وعَلَىٰ صُنعِهِ وَقَدْ أَتقَنَهُ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وَعَلَىٰ أَمرِهِ وَكُلُّهُ حِكمَةٌ وَرَحمَةٌ وَعَدلٌ وَمَصلَحَةٌ، وَعَلَىٰ نَهيِهِ وَكُلُّ مَا نَهَىٰ عَنْهُ شَرٌّ وَفَسَادٌ، وَعَلَىٰ ثَوَابِهِ وَكُلُّهُ رَحمَةٌ وَإِحسَانٌ، وَعَلَىٰ عِقَابِهِ وَكُلُّهُ عَدلٌ وَحَقٌّ؟!»[1].

وَاللهُ سُبحَانَهُ افتَتَحَ الخَلقَ بِالحَمدِ، وَخَتَمَ أَمرَ هَذَا العَالَمِ بِالحَمدِ، فَقَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وَقَالَ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

فَحَمدُهُ مَلأَ الزَّمَانَ وَالمكَانَ وَالأعيَانَ، وَعَمَّ الأَحوَالَ كُلَّهَا. فَلَهُ الحَمدُ كُلُّهُ، وَلَهُ المُلكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِهِ الخَيرُ كُلُّهُ، وَإِلَيهِ يُرجَعُ الأَمرُ كُلُّهُ. وَلَهُ الحَمدُ في الآخِرَةِ؛ لأَنَّ في الآخِرَةِ يَظهَرُ مِن حَمدِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيهِ، مَا لا يَكُونُ في الدُّنيَا. فَأَهلُ الجَنَّةِ، يَرونَ مِن تَوَالي نِعَمِ اللهِ، وَإِدرَارِ خَيرِهِ،

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦١٢ ـ ٦١٣).

وَكَثرَةِ بَرَكَاتِهِ، وَسَعَةِ عَطَايَاهُ، الَّتي لا يَبقَىٰ في قُلوبِ أَهلِ الجَنَّةِ أُمنِيَةٌ، وَلا إِرَادَةٌ، إِلَّا وَقَدْ أَعطَىٰ مِنْهَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُم فَوقَ مَا تَمَنَّىٰ وَأَرَادَ. بَلْ يُعطَونَ مِنَ الخَيرِ مَا لَم تَتَعَلَّق بِهِ أَمَانِيُّهُم، وَلا يَخطُرُ بِقُلُوبِهِم.

فَمَا ظَنُّكَ بِحَمدِهِم لِرَبِّهِم في هَذِهِ الحَالِ، مَعَ أَنَّ في الجَنَّةِ تَضمَحِلُّ العَوَارِضُ وَالقَوَاطِعُ، الَّتي تَقطَعُ عَن مَعرِفَةِ اللهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَىٰ أَهلِهَا مِن كُلِّ نَعِيمٍ، وَأَلَذَّ عَلَيهِم مِن كُلِّ لَذَّةٍ.

هَذَا إِذَا أَضَفتَ إِلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ يَظهَرُ لأَهلِ الجَنَّةِ، في الجَنَّةِ، كُلَّ وَقتٍ، مِن عَظَمَةِ رَبِّهِم، وَجَلالِهِ، وَجَمَالِهِ، وَسَعَةِ كَمَالِهِ، مَا يُوجِبُ لَهُم كَمَالَ الحَمدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيهِ[1].

وَتَفَاصِيلُ حَمدِهِ وَمَا يُحمَدُ عَلَيهِ لا تُحِيطُ بِهَا الأَفكَارُ، وَلا تُحصِيهَا أَقلامُ الدُّنيَا «وَأَورَاقُهَا، وَلا قِوَىٰ العِبَادِ، وَتَقصُرُ بَلاغَاتُ الوَاصِفِينَ عَن بُلُوغِ كُنهِهَا، وَتَعجَزُ الأَوهَامُ عَنِ الإِحَاطَةِ بِالوَاحِدِ مِنْهَا، وَإِنَّمَا هُوَ التَنبِيهُ وَالإِشَارَةُ»[2].

وَلا يَسَعُنَا إِلَّا أَن نَقُولَ كَمَا قَالَ مُؤمِنُو الجِنِّ لَمَّا سَمِعُوا قَولَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣]: **«وَلا بِشَيءٍ مِن نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمدُ»**[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٩٤٢).

(٢) طريق الهجرتين (ص٢٥٠).

(٣) انظر: الحديث الَّذِي رواه الترمذي (٣٢٩١)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٤٢).

فَسُبحَانَهُ وَبِحَمدِهِ لا يُحصِي أَحَدٌ مِن خَلقِهِ ثَنَاءً عَلَيهِ؛ بَلْ هُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ وَفَوقَ مَا يُثنِي بِهِ عَلَيهِ خَلقُهُ، فَلَهُ الحَمدُ أولاً وَآخِراً حَمداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ، مُبَارَكاً عَلَيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرضَىٰ.

«فَلَهُ الحمدُ كَمَا يَقُولُ، وَخيراً مِمَّا نَقُولُ، لا نُحصِي ثَنَاءً عَلَيهِ هُوَ كَمَا أَثنَى عَلَى نَفسِهِ؛ وَكَيفَ يُحصِي العَبدُ الضَّعِيفُ ثَنَاءً عَلَى العَلِيِّ الكَبِيرِ، الَّذِي أَحصَى كُلَّ شَيءٍ عَدَداً؟!»[١].

(الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ) وفي الإتيانِ باللامِ دليلٌ على استحْقَاقِ هذا الحمدِ للهِ وحدَهُ، لا يُشَارِكُهُ فيهِ أحدٌ، فَالحَمدُ المُطْلَقُ الكَامِلُ لا يَكُونُ إلَّا للهِ ﷻ؛ لأنَّ كُلَّ ما سِوَاهُ إِنَّما يُحمَدُ على شيءٍ مُعَيَّنٍ حمداً يَليقُ بهذا الشيءِ المعيَّنِ، وَيُكافِئُ هذا الشيءَ المعينَ[٢].

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الحَمدِ:

إِذَا عَلِمَ العَبدُ أَنَّ الحَمدَ عَلَىٰ الإطلاقِ إِنَّمَا هُوَ للهِ، وَأَنَّهُ يَستَحِقُّ جَمِيعَ المَحَامِدِ بِأَسرِهَا، كَانَ حَرِيّاً بِهِ أَن يَشتَغِلَ بِالثَّنَاءِ وَالمَجدِ لِذِي العُلَىٰ وَالمَجدِ؛ فَإِنَّهُ «سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُ الكَمَالُ المُطلَقُ الَّذِي لا نَقصَ فِيهِ بِوَجهٍ مَا، وَالإِحسَانُ كُلُّهُ لَهُ وَمِنهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهلٌ وَأَحَقُّ بِكُلِّ حَمدٍ، وَبِكُلِّ حُبٍّ مِن كُلِّ جِهَةٍ، فَهُوَ أَهلٌ أَن يُحَبَّ لِذَاتِهِ وَلِصِفَاتِهِ وَلأَفعَالِهِ وَلأَسمَائِهِ وَلإِحسَانِهِ، وَلِكُلِّ مَا صَدرَ مِنهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»[٣].

وَلا تَتَصَوَّرُ القُلُوبُ حَقِيقَةَ نِعمَتِهِ وَإِحسَانِهِ، فَضلاً عَن أَن

---

(١) معارج القبول (١/ ٥٢).

(٢) أحكام القرآن (١/ ١٢)، للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) جلاء الأفهام (ص٣٦٧).

يَقُومَ بِشُكرِهِ[١].

وَلَو استَنفَدَ العَبدُ أَنفَاسَهُ كُلَّهَا في حَمدِهِ عَلَىٰ نِعمَةٍ مِن نِعَمِهِ، كَانَ مَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الحَمدِ وَيَستَحِقُّهُ فَوقَ ذَلِكَ وَأَضعَافَهُ، وَلا يُحصِي أَحَدٌ البَتَّةَ ثَنَاءً عَلَيهِ بِمَحَامِدِهِ.

«وَلَكِنَّ اللهَ سُبحَانَهُ لِكَرَمِهِ، رَضِيَ مِن عِبَادِهِ بِاليَسِيرِ مِن شُكرِهِ، وَأَدَاءِ شُكرِهِ»[٢].

وَفَضَائِلُ الحَمدِ كَثِيرَةٌ في السُّنَّةِ، نَذكُرُ بَعضَهَا:

١ - عَنِ الأَسوَدِ بنِ سَرِيعٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنتُ شَاعِراً، فَأَتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي مَدَحتُ رَبِّي بِمَحَامِدَ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الحَمدَ**»[٣].

فَهُوَ تبارك وتعالى حَمِيدٌ يُحِبُّ الحَمدَ، وَيُحِبُّ مَن يَحمَدُهُ، وَحَمدُهُ لِنَفسِهِ أَعظَمُ مِن حَمدِ العِبَادِ لَهُ، وَيُحِبُّ مَن يُثنِي عَلَيهِ، وَثَنَاؤُهُ عَلَىٰ نَفسِهِ أَعظَمُ مِن ثَنَاءِ العِبَادِ عَلَيهِ.

وَالحَمدُ هُوَ الإِخبَارُ بِمَحَاسِنِ المَحمُودِ عَلَىٰ وَجهِ المُحِبِّ لَهُ. «وَهَذِهِ اللَّفظَةُ لا تَصلُحُ عَلَىٰ هَذَا الوَجهِ، وَلا تَنبَغِي إِلَّا لِمَن هَذَا شَأنُهُ وَهُوَ الحَمِيدُ المَجِيدُ»[٤].

---

(١) جلاء الأفهام (ص٤٦٢).

(٢) المصدر السابق (ص٥٣٤).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٩)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٦٦٠).

(٤) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٥٣٧).

وَمَحَاسِنُ المَحمُودِ تَعَالَىٰ إِمَّا قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، وَإِمَّا ظَاهِرَةٌ في مَخلُوقَاتِهِ.

النَّوعُ الأَوَّلُ: حَمدُ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَهُوَ حَمدٌ يَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَيهِ بِكَمَالِهِ القَائِمِ بِذَاتِهِ، وَعَلَىٰ مَا لَهُ مِنَ الأَسمَاءِ الحُسنَىٰ، وَالصِّفَاتِ الكَامِلَةِ العُليَا، وَالمَدَائِحِ وَالمَحَامِدِ، وَالنُّعُوتِ الجَلِيلَةِ الجَمِيلَةِ.

وَتَفصِيلُ هَذَا مِمَّا لا سَبِيلَ لِلعُقُولِ البَشَرِيَّةِ إِلَىٰ الإِحَاطَةِ بِهِ وَلا إِلَىٰ التَّعبِيرِ عَنهُ، وَلَكِن بِالجُملَةِ فَكُلُّ صِفَةٍ عُليَا وَاسم حَسَنٍ وَثَنَاءٍ جَمِيلٍ، وَكُلُّ حَمدٍ وَتَسبِيحٍ وَتَنزِيهٍ وَتَقدِيسٍ وَجَلالٍ وَإِكرَامٍ، فَهُوَ للهِ ﷻ عَلَىٰ أَكمَلِ الوُجُوهِ وَأَتَمِّهَا وَأَدوَمِهَا، وَجَمِيعُ مَا يُوصَفُ بِهِ وَيُذكَرُ بِهِ وَيُخبَرُ عَنْهُ بِهِ فَهُوَ مَحَامِدُ لَهُ وَثَنَاءٌ وَتَسبِيحٌ وَتَقدِيسٌ، فَسُبحَانَهُ وَبِحَمدِهِ لا يُحصِي أَحَدٌ مِن خَلقِهِ ثَنَاءً عَلَيهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ وَفَوقَ مَا يُثنِي بِهِ عَلَيهِ خَلقُهُ، فَلَهُ الحَمدُ أَولاً وَآخِراً حَمداً كَثيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ، كَمَا يَنبَغِي لِكَرَمِ وَجهِهِ وَعِزِّ جَلالِهِ وَرَفِيعِ مَجدِهِ وَعُلُوِّ جَدِّهِ. فَهَذَا تَنبِيهٌ عَلَىٰ أَحَدِ نَوعَي حَمدِهِ، وَهُوَ حَمدُ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

النَّوعُ الثَّاني: حَمدُ النِّعَمِ وَالآلاءِ، وَهَذَا مَشهُودٌ لِلخَلِيقَةِ بَرِّهَا وَفَاجِرِهَا، مُؤمِنِهَا وَكَافِرِهَا، مِن جَزِيلِ مَوَاهِبِهِ وَسَعَةِ عَطَايَاهُ، وَكَرِيمِ أَيَادِيهِ، وَجَمِيلِ صَنَائِعِهِ، وَحُسنِ مُعَامَلَتِهِ لِعِبَادِهِ، وَسَعَةِ رَحمَتِهِ لَهُم، وَبِرِّهِ وَلُطفِهِ وَحَنَانِهِ، وَإِجَابَتِهِ لِدَعَوَاتِ المُضطَرِّينَ، وَكَشفِ كُرُبَاتِ المَكرُوبِينَ، وَإِغَاثَةِ المَلهُوفِينَ، وَرَحمَتِهِ لِلعَالَمِينَ، وَابتِدَائِهِ بِالنِّعَمِ قَبلَ السُّؤَالِ وَمِن غَيرِ استِحقَاقٍ، بَلِ ابتِدَاءً مِنهُ بِمُجَرَّدِ فَضلِهِ وَكَرَمِهِ وَإِحسَانِهِ، وَدَفعِ المِحَنِ وَالبَلايَا بَعدَ انعِقَادِ أَسبَابِهَا وَصَرفِهَا بَعدَ وُقُوعِهَا[1].

(١) طريق الهجرتين (ص٢٤٢).

٢ ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **وَمَا مِنْ شَيءٍ أَحَبَّ إِلىٰ اللهِ مِنَ الحَمدِ**»[١].

وَحَمدُهُ يَتَضَمَّنُ أَصلَينِ: الإخبَارَ بِمَحَامِدِهِ وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَالمَحَبَّةَ لَهُ عَلَيهَا.

«وَهُوَ سُبحَانَهُ كَمَا يُحِبُّ أَن يُعبَدَ، يُحِبُّ أَن يُحمَدَ وَيُثنَىٰ عَلَيهِ، وَيُذكَرَ بِأَوصَافِهِ العُلَىٰ وَأَسمَائِهِ الحُسنَىٰ»[٢].

٣ ـ عَن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفضَلُ الذِّكرِ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفضَلُ الدُّعَاءِ: الحَمدُ للهِ**»[٣].

قَالَ شَيخُ الإِسلام رحمه الله: فَسَمَّىٰ الحَمدَ للهِ دُعَاءً وَهُوَ ثَنَاءٌ مَحضٌ، لأَنَّ الحَمدَ مُتَضَمِّنٌ الحُبَّ وَالثَّنَاءَ. وَالحُبُّ أَعلَىٰ أَنوَاعِ الطَّلَبِ؛ فَالحَامِدُ طَالِبٌ لِلمَحبُوبِ، فَهُوَ أَحَقُّ أَن يُسَمَّىٰ دَاعِياً مِنَ السَّائِلِ الطَّالِبِ؛ فَنَفسُ الحَمدِ وَالثَّنَاءِ مُتَضَمِّنٌ لأَعظَمِ الطَّلَبِ، فَهُوَ دُعَاءٌ حَقِيقَةً، بَلْ أَحَقُّ أَن يُسَمَّىٰ دُعَاءً مِن غَيرِهِ مِن أَنوَاعِ الطَّلَبِ الَّذِي هُوَ دُونَهُ[٤].

٤ ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَنعَمَ اللهُ عَلَىٰ عَبدٍ نِعمَةً فَقَالَ: الحَمدُ للهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعطَاهُ أَفضَلَ مِمَّا أَخَذَ**»[٥].

---

(١) رواه أبو يعلى (٤٢٥٦)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٧٩٥).
(٢) طريق الهجرتين (ص٤٣١).
(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٩٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١٩/١٥).
(٥) رواه ابن ماجه (٣٨٠٥)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٦٧).

فَإِنَّ حَمدَهُ لِوَلِيِّ النِّعمَةِ نِعمَةٌ أُخرَىٰ هِيَ أَفضَلُ وَأَنفَعُ لَهُ، وَأَجدَىٰ عَائِدَةً مِنَ النِّعمَةِ العَاجِلَةِ، فَإِنَّ أَفضَلَ النِّعَمِ وَأَجَلَّهَا عَلَىٰ الإِطلاقِ، نِعْمَةُ مَعرِفَتِهِ تَعَالَىٰ وَحَمدِهِ وَطَاعَتِهِ(١).

٥ ـ عَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَينٍ ﵁: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ الحَمَّادُونَ**»(٢).

فَقَد دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَى أَنَّ أَفضَلَ العِبَادِ يَومَ المَعَادِ الَّذِينَ يُكثِرُونَ مِن حَمدِ اللهِ في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

وَيَتَأَكَّدُ الحَمْدُ فِي المَوَاضِعِ التَّالِيَةِ:

١ ـ اللِّبَاسُ:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا استَجَدَّ ثَوْباً سَمَّاهُ بِاسمِهِ: إِمَّا قَمِيصاً أَوْ عِمَامَةً، ثُمَّ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ؛ أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**»(٣).

وَعَنْ مُعَاذِ بنِ أَنَسٍ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «... **وَمَنْ لَبِسَ ثَوْباً فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٤).

---

(١) فتيا في صيغة الحمد (ص١٢)، لابن القيم ﵀.

(٢) رواه الطبراني ١٨/رقم (٢٥٤)، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح الجامع» (١٥٧١).

(٣) رواه أبو داود (٤٠٢٠)، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٥٠١).

(٤) رواه أبو داود (٤٠٢٣)، وحسنه الألباني ﵀ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٥٠٢).

٢ ـ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ النَّبيَّ ﷺ، قَالَ: فَانطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَيْهِ؛ قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا، وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَىٰ مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ العُرِي، وَهَدَىٰ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ العَمَىٰ، وَفَضَّلَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**»[١].

قَولُهُ: «**يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ**» أَي يَرزُقُ وَلا يُرزَقُ؛ دَلِيلُهُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٧][٢].

وعَنْ نوفَلَ بنِ مُعَاوِيَةَ الدُّؤْلِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْرَبُ بِثَلَاثَةِ أَنْفَاسٍ، يُسَمِّي اللهَ ﷻ فِي أَوَّلِهِ، وَيَحْمَدُهُ فِي آخِرِهِ[٣].

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ، قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ وَسَقَىٰ، وَسَوَّغَهُ وَجَعَلَ لَهُ مَخْرَجاً**»[٤].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ:

---

(١) رواه ابن حبان (١٣٢٥) «موارد»، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح موارد الظمآن» (١١٣١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٥٦).

(٣) رواه ابن السني في «عمل اليوم وَالليلة» (٤٧٢)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٤٩٥٦).

(٤) رواه أبو داود (٣٨٥١)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٥٨).

«الحَمْدُ للهِ كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ، غَيرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مُوَدَّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا»(١).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: المَخْلُوقُ إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ أَمْكَنَكَ أَنْ تُكَافِئَهُ، وَنِعَمُهُ لَا تَدُومُ عَلَيْكَ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تُوَدِّعَكَ وَيَقْطَعَهَا عَنْكَ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنْهُ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُكَافِئَهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ، وَإِذَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَدَامَ نِعَمَهُ، فَإِنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ، وَلَا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ(٢).

وَعَنْ رَجُلٍ خَدَمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ثَمَانِيَ سِنِينَ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا قُرِّبَ إِلَيهِ طَعَامُهُ، يَقُولُ: «**بِسْمِ اللهِ**» وَإِذَا فَرِغَ مِنْ طَعَامِهِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَطْعَمْتَ وَأَسْقَيْتَ، وَأَغْنَيْتَ وَأَقْنَيْتَ، وَهَدَيْتَ وَأَحْيَيْتَ، فَلَكَ الحَمْدُ عَلَىٰ مَا أَعْطَيْتَ**»(٣).

قَولُهُ: «**أَقنَيتَ**»؛ أَي: مَلَّكْتَ المَالَ وَغَيرَهُ(٤).

قَولُهُ: «**فَلَكَ الحَمْدُ عَلَىٰ مَا أَعْطَيْتَ**» أَي: مَا أَعطَيتَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَالغِنَى وَالقَنَى وَالهِدَايَةِ وَالحَيَاةِ، أَو مَا أَعطَيتَ مُطلَقاً عَلَى وَجهِ العُمُومِ(٥).

وَعَنْ مُعَاذِ بنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَكَلَ طَعَاماً**

---

(١) رواه البخاري (٥٤٥٨).

(٢) فتيا في صيغة الحَمدِ (ص١٨)، لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٦٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٧١).

(٤) السلسلة الصحيحة (١/ ١٥٢).

(٥) العلم الهيِّب (ص٤٦٥).

ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيْهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ...»(١).

وَهَذَا اعْتِرَافٌ بِالعَجزِ وَالتَّقْصِيرِ، وَعَدَم القُدْرَةِ في تَحْصِيلِ هَذا الطَّعَامِ، بَلْ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ، يَرزُقُ عِبَادَهُ، وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ(٢).

٣ ـ عِنْدَ رُؤْيَةِ مَا يَسُرُّهُ وَمَا يَكْرَهُهُ:

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَأَىٰ مَا يُحِبُّ، قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**» وَإِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ، قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ**»(٣).

وَهَذا يَدُلُّ على أَنَّ العَبدَ يَنْبَغِي أَن يَحمَدَ اللهَ تَعَالى في جَمِيعِ الأَحوَالِ، في حَالَةِ السَّرَّاءِ وَحَالَةِ الضَّرَّاءِ.

قَولُهُ: «**بِنعمَتِهِ**» المُرَادُ مِنَ النِّعمَةِ هَاهُنا النِّعمَةُ الخَاصَّةُ، وَهُوَ رُؤيَةُ الشَّيءِ الذي يَسُرُّهُ، وَرُؤيَةُ الشَّخصِ ما يُحِبُّهُ وَيَسُرُّهُ نِعمَةٌ، فَلأَجلِ ذَلِكَ قَالَ: «**بِنعمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»، وَهِيَ تَتَنَاوَلُ كُلَّ شَيءٍ صَالِحٍ مِنَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

قَولُهُ: «**وَإِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ**» أَي: يَكرَهُهُ وَيُبغِضُهُ. قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ**

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٢٣)، وحسنه الألباني ﵀ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٥٠٢).

(٢) العلم الهيِّب (ص٤٦٣).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٠٣)، وحسنه الألباني ﵀ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٨١).

عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ»، يَعنِي: في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالفَرَحِ وَالتَّرَحِ، وَالفَقرِ وَالغِنَى، وَالصِّحَّةِ وَالمَرَضِ، وَجَمِيعِ الأَحوَالِ وَالأَفعَالِ وَالأَوقَاتِ، فَفِي الأَولِ خَصَّ الحَمدَ عَلَى شَيءٍ، وَفِي الثَّاني عَمَّمَهُ، رِعايَةً لِمُقتَضَى المَقَامِ وَالمَقَالِ، فَافهَم[1].

٤ ـ عِنْدَ الاسْتِيْقَاظِ مِنَ النَّوْمِ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا استَيْقَظَ أَحَدُكُمْ فَليَقُلْ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَعَافَانِي فِي جَسَدِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**»[2].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا استَيْقَظَ، قَالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيهِ النُّشُورُ**»[3].

٥ ـ عِنْدَ رُؤْيَةِ المُبْتَلىٰ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ رَأَىٰ مُبْتَلًى فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقَ تَفْضِيلاً، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلَاءُ**»[4].

فَإِذَا رَأَيتَ مُبْتَلًى فَاذْكُرْ تَمَامَ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ، فَتَزْدَادَ شُكْراً وَحَمداً لِرَبِّكَ.

---

(١) العلم الهيِّب (ص٣٧٦).

(٢) رواه النسائي في «عمل اليوم وَالليلة» (٨٦٦)، وَابن السني في «عمل اليوم وَالليلة» (٩) ـ وَاللفظ له ـ. وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٢٩).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٤).

(٤) رواه الترمذي (٣٤٣٢)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤١٤).

٦ ـ عِنْدَ العُطَاسِ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا نَفَخَ اللهُ فِي آدَمَ الرُّوحَ، فَبَلَغَ الرُّوحُ رَأْسَهُ عَطَسَ؛ فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، فَقَالَ لَهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَرْحَمُكَ اللهُ**»[1].

وَعَنْ رِفَاعَةَ بنِ رَافِعٍ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَطَسْتُ؛ فَقُلْتُ: الحَمْدُ للهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً، مُبارَكاً فِيْهِ، مُبارَكاً عَلَيْهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضىٰ؛ فَلَمَّا صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ انصَرَفَ، فَقَالَ: «**مَنِ المُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟**» فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ: «**مَنِ المُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟**» فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ: «**مَنِ المُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟**» فَقَالَ رِفَاعَةُ بنُ رَافِعٍ ابنُ عَفْرَاءَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**كَيفَ قُلْتَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: الحَمْدُ للهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً، مُبارَكاً فِيهِ، مُبارَكاً عَلَيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضىٰ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدِ ابتَدَرَهَا بِضْعَةٌ وَثَلاثُونَ مَلَكاً، أَيُّهُم يَصْعَدُ بِهَا**»[2].

٧ ـ عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فليَقُلْ: أَصْبَحْتُ أُثْنِي عَلَيْكَ حَمْداً، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ثَلاثاً؛ وَإِذَا أَمْسىٰ، فَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ**»[3].

---

(١) رواه ابن حبان (٦١٦٥)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (١٧٤٦).

(٢) رواه الترمذي (٤٠٤)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٢٣٣).

(٣) رواه النسائي في «عمل اليوم وَالليلة» (٥٧١)، وَحسنه المحدِّث الوادعي رحمه الله في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١٣٢٠).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ لِرَجُلٍ: **«كَيفَ أَصبَحتَ يَا فُلانُ؟»** قَالَ: أَحمَدُ اللهَ إِلَيكَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هَذَا الَّذِي أَردتُ مِنكَ»**(١).

قَالَ ابنُ عَبدِ البَرِّ رحمه الله: في هَذَا الخَبَرِ ما يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ المَعْمُولَ بِهَا في المُحَاوَرَةِ لِلسَّائِلِ عَنِ الحَالِ حَمْدُ اللهِ، وَالثَّنَاءُ عَلَيهِ؛ فَإِنَّ المَسؤُولَ عَنْ حَالِهِ لا يَنْفَكُّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ، ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، مِنْ صِحَّةِ جِسْمٍ، وَصَرْفِ بَلاءٍ، وَكَشْفِ كُربَةٍ، وَتَفْرِيجِ غَمٍّ، وَرِزْقٍ يُرْزَقُهُ، وَخَيرٍ يُمْنَحُهُ، ذَكَرَ ذَلِكَ أَو نَسِيَهُ، فَإِذَا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَلْيَحْمَدْ رَبَّهُ، فَلَهُ الحَمْدُ كُلُّهُ عَلى كُلِّ حَالٍ، لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الكَبِيرُ المُتَعَالِ(٢).

٨ ـ عِندَ الرَّفعِ مِنَ الرُّكُوعِ:

عَن أَبي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: **«رَبَّنَا لَكَ الحَمدُ، مِلءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلءَ الأَرضِ، وَمِلءَ مَا شِئتَ مِن شَيءٍ بَعدُ؛ أَهلَ الثَّنَاءِ وَالمَجدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبدٌ؛ اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعطَيتَ، وَلا مُعطِيَ لِمَا مَنَعتَ، وَلا يَنفَعُ ذَا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ»**(٣).

قَولُهُ: **«أَهلَ الثَّنَاءِ وَالمَجدِ»** أَي هُوَ مُستَحِقٌّ لأَن يُثنَىٰ عَلَيهِ وَتُمَجَّدَ نَفسُهُ. وَالعِبَادُ لا يُحصُونَ ثَنَاءً عَلَيهِ، وَهُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٣٧٧)، وَحسنه بشواهده الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٩٥٢).

(٢) الاستذكار (٨/ ٤٦٩).

(٣) رواه مسلم (٤٧٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٢٠).

فَقَولُهُ: «**أَحَقُّ مَا قَالَ العَبدُ**» يَقتَضِي أَن يَكُونَ حَمدُ اللهِ أَحَقَّ الأَقوَالِ بِأَن يَقُولَهُ العَبدُ؛ وَمَا كَانَ أَحَقَّ الأَقوَالِ كَانَ أَفضَلَهَا، وَأَوجَبَهَا عَلَىٰ الإِنسَانِ[١]. فَلَهُ الحَمدُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ؛ لأَنَّهُ لا يَفعَلُ إِلَّا الخَيرَ وَالإِحسَانَ، الَّذِي يَستَحِقُّ الحَمدَ عَلَيهِ ﷻ، وَإِن كَانَ العِبَادُ لا يَعلَمُونَ[٢].

وَقَولُهُ: «**لا مَانِعَ لِمَا أَعطَيتَ، وَلا مُعطِيَ لِمَا مَنَعتَ، وَلا يَنفَعُ ذَا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ**» اعتِرَافٌ بِتَوحِيدِهِ، وَأَنَّ النِّعَمَ كُلَّهَا مِنهُ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أُمُوراً:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ المُنفَرِدُ بِالعَطَاءِ وَالمَنعِ. فَلا يُستَعَانُ إِلَّا بِهِ، وَلا يُطلَبُ إِلَّا مِنهُ.

الثَّاني: أَنَّهُ إِذَا أَعطَىٰ لم يُطِق أَحَدٌ مَنعَ مَنْ أَعطَاهُ، وَإِذَا مَنَعَ لم يُطِق أَحَدٌ إِعطَاءَ مَن مَنَعَهُ.

الثالثُ: أَنَّهُ لا يَنفَعُ عِندَهُ، وَلا يَخلُصُ مِن عَذَابِهِ، وَلا يُدنِي مِن كَرَامَتِهِ، جُدُودُ بَنِي آدَمَ وَحُظُوظُهُم مِنَ المُلكِ وَالرِّيَاسِةِ وَالغِنَىٰ وَطِيبِ العَيشِ وَغَيرِ ذَلِكَ، إِنَّما يَنفَعُهُم عِنْدَهُ التَّقَرُّبُ إِلَيهِ بِطَاعَتِهِ، وَإِيثَارِ مَرضَاتِهِ.

٩ ـ بَعدَ تكبِيرَةِ الإِحرَام:

عَنِ ابنِ عُمَرَ ﭬ قَالَ: بَينَمَا نَحنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذ قَالَ رَجُلٌ في القَومِ: اللهُ أَكبَرُ كَبِيراً، وَالحَمدُ للهِ كَثِيراً، وَسُبحَانَ اللهِ

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٦٥).
(٢) المصدر السابق (١٤/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

بُكرَةً وَأَصِيلاً؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ القَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟**» قَالَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**عَجِبتُ لَهَا، فُتِحَت لَهَا أَبوَابُ السَّمَاءِ**» قَالَ ابنُ عُمَرَ: فَمَا تَرَكتُهُنَّ مُنذُ سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ[1].

وَعَن أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً جَاءَ فَدَخَلَ الصَّفَّ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً، مُبَارَكاً فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاتَهُ قَالَ: «**أَيُّكُمُ المُتَكَلِّمُ بِالكَلِمَاتِ؟**» فَأَرَمَّ القَومُ. فَقَالَ: «**أَيُّكُمُ المُتَكَلِّمُ بِهَا؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأساً**» فَقَالَ رَجُلٌ: جِئتُ وَقَد حَفَزَنِي النَّفَسُ فَقُلتُهَا. فَقَالَ: «**لَقَدْ رَأَيتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكاً يَبْتَدِرُونَهَا، أَيُّهُم يَرْفَعُهَا**»[2].

قَولُهُ: «**وَقَد حَفَزَنِي النَّفَسُ**» أَي ضَغَطَنِي النَّفَسُ وَجَهَدَنِي لِسُرعَةِ مَجِيئِي.

قَولُهُ: «**فَأَرَمَّ**» أَي: سَكَتُوا وَلَم يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ مِنهُم.

قَولُهُ: «**يَبْتَدِرُونَهَا**» أَي: يَسبِقُ بَعضُهُم بَعضاً لِرَفعِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ إِلَى العَلِيِّ الأَعلَى الكَبِيرِ المُتَعَالِ، لِعِظَمِهَا وَعِظَمِ قَدْرِهَا.

١٠ ـ عِندَ السَّحَرِ:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ وَأَسحَرَ؛ يَقُولُ: «**سَمَّعَ سَامِعٌ بِحَمدِ اللهِ وَحُسنِ بَلائِهِ عَلينَا، رَبَّنَا صَاحِبنَا وَأَفضِل عَلينَا، عَائِذاً بِاللهِ مِنَ النَّارِ**»[3].

---

(١) رواه مسلم (٦٠١).

(٢) رواه مسلم (٦٠٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧١٨).

قَولُهُ: «سَمَّعَ سَامِعٌ» أي: شَهِدَ شَاهِدٌ عَلَى حَمدِنَا للهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ وَحُسنِ بَلائِهِ.

قَولُهُ: «وَحُسنِ بَلائِهِ عَلينَا» أَرَادَ بِالبَلاءِ النِّعمَةَ، وَاللهُ ﷻ يَبلُو عِبَادَهُ تَارةً بِالمَضَارِّ لِيَصبِرُوا، وَطَوراً بِالمَسَارِّ لِيَشكُرُوا، فَصَارَتِ المِحنَةُ وَالمِنحَةُ جَمِيعاً بَلاءً، لِمَوقِعِ الاختِبَارِ، وَالمِنحَةُ أَعظَمُ البَلاءَيْنِ، لا سِيَّمَا لِذَوِي النُّفُوسِ الكَامِلَةِ، لأَنَّهَا المُوجِبَةُ لِلقِيَامِ بِحُقُوقِ الشُّكرِ، وَالقِيَامُ بِهَا أَتَمُّ وَأَصْعَبُ، وَأَعلَى وَأَفضَلُ مِنَ القِيَامِ بِحُقُوقِ الصَّبرِ. وَالتَفَتَ إِلَى هَذَا المَعنَى عَبدُ الرحمنِ بنُ عَوفٍ ﵁ في قَولِهِ: «ابتُلِينَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرنَا، ثُمَّ ابتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ بَعدَهُ فَلَم نَصبِر»[١].

قَولُهُ: «رَبَّنَا صَاحِبنَا» أَرَادَ بِهِ: المُصَاحَبَةَ بِالعِنَايَةِ وَالكَلاءَةِ[٢]. فَنَبَّهَ بِهَذَا القَولِ عَلَى حُسنِ الاعتِمَادِ عليهِ، وَكَمَالِ الاكتِفَاءِ بِهِ عنْ كُلِّ صَاحِبٍ سِوَاهُ[٣].

قَولُهُ: «وأَفضِل عَلَينا» أي: أَحسِن إِلَينَا، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ مَعَ مَا ذَكَرَ مِن مَزِيدِ نِعَمِ اللهِ ـ بِحُسنِ بَلائِهِ عَلَيهِ ـ غيرُ مُستَغنٍ عَن فَضلِهِ، بَل هُوَ أَشَدُّ النَّاسِ افتِقَاراً إِلَيهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَن كَانَ استِغنَاؤُهُ بِاللهِ أَكثَرَ، كَانَ افتِقَارُهُ إِلَيهِ أَشَدَّ[٤].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٤)، وصحّح إسناده الألباني ﵀ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٩٣).

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة (٢/ ٥٦٦).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٦٤).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٦٦).

قَوْلُهُ: «**عائذاً بِاللهِ مِنَ النَّارِ**» وَالتَّقديرُ: وَأَنا عَائذٌ بِاللهِ، وَمُتَعَوِّذٌ بِهِ[١].

١١ ـ عِندَ طُلُوعِ الشَّمسِ:

عَن عَمرِو بنِ عبسةَ السُّلَمِيِّ ﵁: عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا تَستَقِلُّ الشَّمسُ فَيَبقَىٰ شَيءٌ مِن خَلقِ اللهِ إِلَّا سَبَّحَ اللهَ وَحَمِدَهُ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الشَّيطَانِ وَأَعتَىٰ بَنِي آدَمَ**»، فَسَأَلتُ عَن أَعتَىٰ بَنِي آدَمَ؟ فَقَالَ: «**شِرَارُ الخَلقِ**، أَو قَالَ: **شِرَارُ خَلقِ اللهِ**»[٢].

١٢ ـ عِندَ فَقدِ الوَلَدِ:

عَن أَبِي مُوسَىٰ الأَشعَرِيِّ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبدِ، قَالَ اللهُ لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضتُم وَلَدَ عَبدِي! فَيَقُولُونَ: نَعَم، فَيَقُولُ: قَبَضتُم ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ! فَيَقُولُونَ: نَعَم؛ فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاستَرجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابنُوا لِعَبدِي بَيتاً فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيتَ الحَمدِ**»[٣].

هَذَا هُوَ حَالُ المؤمِنِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: إِنَّ عَبدِي المُؤمِنَ عِندِي بِمَنزِلَةِ كُلِّ خَيرٍ، يَحمَدُنِي وَأَنَا أَنزِعُ نَفسَهُ مِن بَينِ جَنبَيهِ**»[٤].

---

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة (٢/ ٥٦٦).

(٢) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٤٩)، وحسنه الألباني ﵀ في «الصحيحة» (٢٢٢٤).

(٣) رواه الترمذي (١٠٢١)، وحسنه الألباني ﵀ في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٥٢٠).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٤١)، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح الجامع» (١٩١٠).

١٣ ـ عندَ ركوبِ الدابَّةِ:

عن عَلِيِّ بنِ رَبيعَةَ، قَالَ: شَهِدتُ عَلِيّاً رضي الله عنه ـ وَأُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَركَبَهَا ـ؛ فَلَمَّا وَضَعَ رِجلَهُ في الرِّكَابِ؛ قَالَ: «**بِسمِ اللهِ**»، فَلَمَّا استوَىٰ عَلَىٰ ظَهرِهَا؛ قَالَ: «**الحَمدُ للهِ**»، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٣ ـ ١٤]، ثُمَّ قَالَ: «**الحَمدُ للهِ**» ـ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ـ ثُمَّ قَالَ: «**اللهُ أَكبَرُ**» ـ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ـ، ثُمَّ قَالَ: «**سُبحَانَكَ إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي، فَاغفِر لي فَإِنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ! مِن أَيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟ قَالَ: رَأَيتُ النَّبيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مِنْ أَيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟ قَالَ: «**إِنَّ رَبَّكَ يَعجَبُ مِن عَبدِهِ، إِذَا قَالَ: اغفِر لِي ذُنُوبِي؛ يَعلَمُ أَنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ غَيرِي**»[1].

وَهَذا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ مَوقِعِ هَذا الدُّعَاءِ عِندَ اللهِ، وَكِبَرِهِ لَدَيهِ.

١٤ ـ في دُبُرِ الصَّلاةِ المكتوبةِ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَبَّحَ اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ؛ فَتِلْكَ تِسعٌ وَتِسْعُونَ، ثُمَّ قَالَ تَمَامَ المائَةِ: لا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ، لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ، وَلَهُ الحَمدُ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ؛ غُفِرَت لَهُ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثلَ زَبَدِ البَحرِ**»[2].

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ١٢٣).

(٢) رواه مسلم (٥٩٧).

وَعَن كَعبِ بنِ عجرةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مُعَقِّبَاتٌ لا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ أَو فَاعِلُهُنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ مَكتُوبَةٍ: ثَلاثٌ وَثَلاثُونَ تَسبِيحَةً، وَثَلاثٌ وَثَلاثُونَ تَحمِيدَةً، وَأَربَعٌ وَثَلاثُونَ تَكبِيرَةً**»[1].

وَعَنْ زَيدِ بنِ ثَابِتٍ ﵁ قَالَ: أُمِرُوا أَن يُسَبِّحُوا دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ، وَيَحمَدُوا ثَلاثاً وَثَلاثِينَ، وَيُكَبِّرُوا أَربعاً وَثَلاثِينَ، فَأُتِيَ رَجُلٌ مِنَ الأَنصَارِ فِي مَنَامِهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَرَكُم رَسُولُ اللهِ ﷺ أَن تُسَبِّحُوا دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ، وَتَحمَدُوا ثَلاثاً وَثَلاثِينَ، وَتُكَبِّرُوا أَربَعاً وَثَلاثِينَ؟ قَالَ: نَعَم. قَالَ: فَاجْعَلُوهَا خَمساً وَعِشْرِينَ، وَاجْعَلُوا فِيهَا التَّهلِيلَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ؛ أَتى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذلِكَ لَهُ؛ فَقَالَ: «**اجعَلُوهَا كَذلِكَ**»[2].

وَليَتَأَمَّلِ القَارِئُ اللَّبِيبُ الأَحَادِيثَ التَّالِيَةَ:

١ ـ عَن سَلمَانَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ رَجُلٌ: الحَمدُ للهِ كَثِيراً، فَأَعظَمَها المَلَكُ أَن يَكتُبَهَا، وَرَاجَعَ فِيهَا رَبَّهُ، فَقِيلَ لَهُ: اكتُبهَا كَمَا قَالَ عَبدِي: كَثِيراً**»[3].

عَن أَبي سَعِيدٍ وَأَبي هُرَيرَةَ ﵄ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اصطَفَىٰ مِنَ الكَلامِ أَربَعاً: (سُبحَانَ اللهِ، وَالحَمدُ للهِ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكبَرُ)، فَمَن قَالَ: (سُبحَانَ اللهِ) كَتَبَ اللهُ لَهُ عِشرِينَ حَسَنَةً وَحَطَّ عَنْهُ**

---

(١) رواه مسلم (٥٩٦).

(٢) رواه النسائي (١٣٤٩)، والحاكم (١/ ٢٥٣)، وصححه العلامةُ الألباني ﵀ في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٤٣٤).

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٢٠٨٢)، وحسنه لغيره العلامةُ الألباني ﵀ في «صحيح الترغيب» (١٥٧٧).

عِشرِينَ سَيِّئَةً، وَمَن قَالَ: (اللهُ أَكبَرُ) فَمِثلُ ذَلِك، وَمَن قَالَ: (لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ) فَمِثلُ ذَلِك، وَمَن قَالَ: (الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ) مِن قِبَلِ نَفسِهِ، كُتِبَت لَهُ ثَلاثُون حَسَنَةً وَحُطَّ عَنْهُ ثَلاثُونَ خَطِيئَةً»[١].

فَكَلِمَةُ «**الحَمدُ للهِ**» كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةُ القَدرِ، كَثِيرَةُ النَّفعِ، لَهَا فَضلٌ عَظيمٌ وَثَوَابٌ جَزِيلٌ وَأَجرٌ جَسِيمٌ عِندَ اللهِ. حَيثُ أَعطَى مِنْ فَضلِهِ وَكَرَمِهِ هَذا المِقْدَارَ العَظِيمَ لِقَائِلِ هَذا القَولِ اليَسِيرِ، الذي يُمكِنُ أَن يَقُولَهُ القَائِلُ في جَمِيعِ الأَحوَالِ وَالأَوقَاتِ، مِن غَيرِ تَكَلُّفِ بَدَنٍ وَلا مَالٍ.

عَن أَبي أُمَامَةَ ﵁ قَالَ: رَآني النَّبيُّ ﷺ، وَأَنا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ، فَقَالَ لي: «**بِأَيِّ شَيءٍ تُحرِّكُ شَفَتَيكَ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟**» فَقُلتُ: أَذكُرُ اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**أَلا أَدُلُّك عَلَىٰ ما هُوَ أَكثَرُ مِن ذِكرِكَ اللهَ اللَّيلَ مَعَ النَّهارِ؟ تَقُولُ: الحَمدُ للهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، الحَمدُ للهِ مِلءَ مَا خَلَقَ، الحَمدُ للهِ عَدَدَ مَا في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، الحَمدُ للهِ عَدَدَ مَا أَحصَىٰ كِتَابُهُ، وَالحَمدُ للهِ عَلَىٰ مَا أَحصَىٰ كِتَابُهُ، وَالحَمدُ للهِ عَددَ كُلِّ شَيءٍ، وَالحَمدُ للهِ مِلءَ كُلِّ شَيءٍ، وَتُسَبِّحُ اللهَ مِثلَهُنَّ. تَعَلَّمهُنَّ وَعَلِّمهُنَّ عَقِبَكَ مِن بَعدِكَ**»[٢].

وَمَن نَظَرَ بِعَينِ المَعرِفَةِ في هَذَا، استَكثَرَ مِنهُ طَمَعاً بِالخَيرِ العَظِيمِ وَالأَجرِ الجَسِيمِ، وَالعَطَاءِ الجَلِيلِ، وَالجُودِ الجَمِيلِ.

«فَللَّهِ تَعَالَىٰ الحَمدُ وَالشُّكرُ وَالثَّنَاءُ، حَيثُ أَعطَىٰ العِبَادَ مِن

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٥١٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٧٩٣٠ و٨١٢٢)، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح الجامع» (٢٦١٥).

مَصَالِحِهِم وَمَنَافِعِهِم فَوقَ مَا يَطلُبُونَ، وَأَعلى مَا يَتَمَنَّونَ، وَآتَاهُم مِن كُلِّ مَا سَأَلُوهُ، لا نُحصِي ثَنَاءً عَلَيهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ»[١].

وَمِن أَجَلِّ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ الإِطلَاقِ، الَّتي يَستَحِقُّ عَلَيها الحَمدَ، ما تَعَاقَبَ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ: نِعمَةُ الإِسلامِ. فهيَ النِّعمَةُ الحقيقيةُ الكبيرةُ العظيمةُ على عبادِهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَىٰ حَلقَةٍ في المَسجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجلَسَكُم؟ قَالَوا: جَلَسنَا نَذكُرُ اللهَ، قَالَ: آللهِ مَا أَجلَسَكُم إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَم أَستَحلِفكُم تُهمَةً لَكُم، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنزِلَتِي مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثاً مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَىٰ حَلقَةٍ مِن أَصحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَا أَجلَسَكُم؟**» قَالُوا: جَلَسنَا نَذكُرُ اللهَ وَنَحمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا لِلإِسلامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَينَا؛ قَالَ: «**آللهِ ما أَجلَسَكُم إِلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَم أَستَحلِفكُم تُهمَةً لَكُم، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبرِيلُ فَأَخبَرَنِي: أَنَّ اللهَ يُبَاهِي بِكُمُ المَلائِكَةَ**»[٢].

فَهَؤُلاءِ كَانُوا قَد جَلَسُوا يَحمَدُونَ اللهَ بِذِكرِ أَوصَافِهِ وَآلائِهِ، وَيُثنُونَ عَلَيهِ بِذَلِكَ، وَيَذكُرُونَ حُسنَ الإِسلامِ، وَيَعتَرِفُونَ للهِ بِالفَضلِ العَظِيمِ إِذ هَدَاهُم لَهُ وَمَنَّ عَلَيهِم بِهِ[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠١).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩١).

فَمنَ حَصَلَ لَهُ نَصِيبٌ مِن دِينِ الإِسلامِ فَقَد حَصَلَ لَهُ الفَضلُ العَظِيمُ، وَقَدْ عَظُمَت عَلَيهِ نِعمَةُ اللهِ، فَمَا أَحوَجَهُ إِلىٰ القِيَامِ بِشُكرِ هَذِهِ النِّعمَةِ وَسُؤَالِهِ دَوَامَهَا وَالثَّبَاتَ عَلَيهَا إِلىٰ المَمَاتِ، وَالمَوتَ عَلَيهَا، فَبِذَلِكَ تَتِمُّ النِّعمَةُ[١].

فَالحَمدُ للهِ الَّذِي خَصَّنَا بِهَذِهِ الرَّحمَةِ، وَأَسبَغَ عَلَينَا هَذِهِ النِّعمَةَ، وَأَعطَانَا هَذِهِ الفَضَائِلَ الجَمَّةَ[٢].

الحَمدُ للهِ، ثُمَّ الحَمدُ للهِ تَعَالَىٰ، الَّذِي هَدَانَا لِلإِسلامِ، وَمَا كُنَّا لِنَهتَدِيَ لَولا أَن هَدَانَا اللهُ.

يَا ذا الجَلالِ وَالإِكرَامِ، كَمَا هَدَيتَنَا لِلإِسلامِ، أَسأَلُكَ أَن لا تَنزِعَهُ عَنَّا، حَتَّىٰ تَتَوَفَّانَا عَلىٰ الإِسلامِ[٣].

* * *

---

(١) لطائف المعارف (ص١٦٩ ـ ١٧٠).

(٢) المصدر السابق (ص١٨٠).

(٣) موارد الأمان (ص٤٦٩).

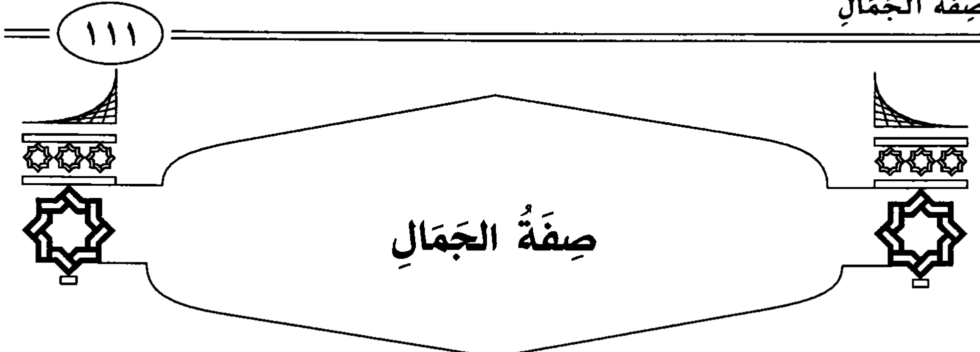

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ جَمَالِهِ: فَهُوَ ﷻ الجَمِيلُ الَّذِي قَد كَمُلَ في جَمَالِهِ، وَجمالُهُ جَلَّ وَعلا لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ، وَجَمَالُهُ «فَوقَ كُلِّ جَمِيلٍ، حَتَّىٰ لَو كَانَ جَمَالُ الخَلائِقِ كُلِّهِم عَلَىٰ شَخصٍ وَاحِدٍ مِنهُم، ثُمَّ أُعطِيَ الخَلقُ كُلُّهُم مِثلَ ذَلِكَ الجَمَالِ، لَكَانَ نِسبَتُهُ إِلَىٰ جَمَالِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دُونَ نِسبَةِ سِرَاجٍ ضَعِيفٍ إِلَىٰ ضَوءِ الشَّمسِ. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. وَالأَمرُ «أَجَلُّ وَأَعَزُّ مِمَّا يَخطُرُ بِالبَالِ، أَو يُعَبِّرُ عَنْهُ المَقَالُ»(١).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ كَيفَ لا	وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكوَانِ
مِن بَعضِ آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا	أَولَىٰ وَأَجدَرُ عِندَ ذِي العِرفَانِ
فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأَوصَافِ وَالـ	أَفعَالِ وَالأَسمَاءِ بِالبُرهَانِ
لا شَيءَ يُشبِهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ	سُبحَانَهُ عَن إِفكِ ذِي البُهتَانِ(٢)

وَيَكفِي فِي جَمَالِهِ: أَنَّهُ لَو كُشِفَ الحِجَابُ عَن وَجهِهِ، لأَحرَقَت سُبُحَاتُهُ ما انتَهَىٰ إِلَيهِ بَصَرُهُ مِن خَلقِهِ.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٣٠٠).

(٢) الكافية الشافية (ص٢٠٧).

وَيَكفِي فِي جَمَالِهِ: أَنَّ كُلَّ جَمَالٍ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ فَهُوَ مِنْ آثَارِ صُنعَتِهِ، فَمَا الظَّنُّ بِمَن صَدَرَ عَنْهُ هَذَا الجَمَالُ؟!

وَيَكفِي فِي جَمَالِهِ: أَنَّهُ لَهُ العِزَّةُ جَمِيعاً ـ وَالقُوَّةُ جَمِيعاً ـ وَالجُودُ كُلُّهُ، وَالإِحسَانُ كُلُّهُ، وَالعِلمُ كُلُّهُ، وَالفَضلُ كُلُّهُ[1].

وَجَمَالُهُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ أَربَعِ مَرَاتِبَ: جَمَالُ الذَّاتِ، وَجَمَالُ الصِّفَاتِ، وَجَمَالُ الأَفعَالِ، وَجَمالُ الأَسمَاءِ؛ فَأَسمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسنَىٰ، وَهِيَ في غَايَةِ الحُسنِ وَالجَمَالِ، فَلا يُسَمَّىٰ إِلَّا بِأَحسَنِ الأَسمَاءِ.

وَذَاتُهُ تَعَالَىٰ أَكمَلُ الذَّوَاتِ وَأَجمَلُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وَلا يُمكِنُ أَن يُعَبَّرَ عَن كُنهِ جَمَالِهِ، كَمَا لا يُمكِنُ التَّعبِيرُ عَن كُنهِ جَلالِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَهلَ الجَنَّةِ مَعَ مَا هُم فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي لا يُوصَفُ، وَالسُّرُورِ وَالأَفرَاحِ وَاللَّذَّاتِ الَّتِي لا يُقَادَرُ قَدرُهَا؛ إِذَا رَأَوا رَبَّهُم وَتَمَتَّعُوا بِجَمَالِهِ، نَسُوا مَا هُم فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، وَتَلاشَىٰ مَا هُم فِيهِ مِنَ الأَفرَاحِ، وَوَدُّوا أَن لَو تَدُومَ لَهُم هَذِهِ الحَالُ الَّتِي هِيَ أَعْلَىٰ نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ، وَاكتَسَبُوا مِن جَمَالِهِ جَمَالاً إِلَىٰ مَا هُم فِيهِ مِنَ الجَمَالِ، وَكَانَت قُلُوبُهُم دَائِماً في شَوقٍ عَظِيمٍ وَنُزُوعٍ شَدِيدٍ إِلَىٰ رُؤيَةِ رَبِّهِم، حَتَّىٰ إِنَّهُم لَيَفرَحُونَ بِيَومِ المَزِيدِ فَرَحاً، تَكَادُ تَطِيرُ لَهُ القُلُوبُ.

عَن صُهَيبٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيئاً أَزِيدُكُم؟ فَيَقُولُونَ: أَلَم تُبَيِّض وُجُوهَنَا؟ أَلَم تُدخِلنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكشِفُ الحِجَابَ فَمَا أُعطُوا شَيئاً أَحَبَّ إِلَيهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِم**». ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ

---

(١) فوائد الفوائد (ص٣٠).

أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][(١)].

وَكَذَلِكَ هُوَ الجَمِيلُ في صِفَاتِهِ، فَإِنَّهَا صِفَاتُ حَمدٍ وَثَنَاءٍ وَمَدحٍ، فَهِيَ أَوسَعُ الصِّفَاتِ وَأَعَمُّهَا وَأَكثَرُهَا تَعَلُّقاً، خُصُوصاً أَوصَافَ الرَّحمَةِ وَالبِرِّ وَالإِحسَانِ وَالجُودِ وَالكَرَمِ، فَإِنَّهَا مِنْ آثَارِ جَمَالِهِ. وَلِذَلِكَ كَانَت أَفعَالُهُ كُلُّهَا جَمِيلَةً، لأَنَّهَا دَائِرَةٌ بَينَ أَفعَالِ البِرِّ وَالإِحسَانِ، الَّتي يُحمَدُ عَلَيهَا وَيُثنَىٰ [بِهِ] عَلَيهَا وَيُشكَرُ عَلَيهَا، وَبَينَ أَفعَالِ العَدلِ الَّتي يُحمَدُ عَلَيهَا، لِمُوَافَقَتِهَا الحِكمَةَ وَالحَمدَ.

فَلَيسَ في أَفعَالِهِ عَبَثٌ، وَلا سَفَهٌ، وَلا ظُلمٌ، بَلْ كُلُّهَا هُدًى وَرَحمَةٌ وَعَدلٌ وَرُشدٌ ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٦].

فَأَفعَالُهُ كُلُّهَا في غَايَةِ الحُسنِ وَالجَمَالِ، وَشَرعُهُ كُلُّهُ رَحمَةٌ وَنُورٌ وَهُدًى وَجَمَالٌ، وَكُلُّ جَمَالٍ في الدُّنيا وَفِي دَارِ النَّعِيمِ، فَإِنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ جَمَالِهِ.

وَهُوَ تَعَالَىٰ لَهُ المَثَلُ الأَعلَىٰ، فَمُعطِي الجَمَالَ أَحَقُّ بِالجَمَالِ، وَكَيفَ يَقدِرُ أَحَدٌ أَن يُعَبِّرَ عَن جَمَالِهِ؟! وَقَدْ قَالَ أَعرَفُ الخَلقِ بِهِ ﷺ: «**لا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثنَيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ**»[(٢)]؛ اعتِرَافاً بِأَنَّ شَأنَهُ وَعَظَمَتَهُ وَنُعُوتَ كَمَالِهِ وَصِفَاتِهِ، أَعظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ أَن يُحصِيَهَا أَحَدٌ مِنَ الخَلقِ، أَو بَلَغَ أَحَدٌ حَقِيقَةَ الثَّنَاءِ عَلَيهِ غَيرُهُ سُبحَانَهُ[(٣)]. فَإِنَّهُ ﷻ فَوقَ مَا يُثنِي عَلَيهِ المُثنُونَ، وَفَوقَ مَا يَحمَدُهُ الحَامِدُونَ، «وَإِنِ استَوعَبُوا جَمِيعَ

---

(١) رواه مسلم (١٨١).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦).

(٣) شفاء العليل (٢/ ٧٤٧).

الأَوقَاتِ بِكُلِّ أَنوَاعِ الثَّنَاءِ ثَنَاءً عَلَيهِ، بَلْ ثَنَاؤُهُ أَعظَمُ مِن ذَلِكَ فَهُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ»[١].

كَمَا قِيلَ:

وَمَا بَلَغَ المُهدُونَ نَحوَكَ مِدحَةً ... وَإِن أَطنَبُوا إِنَّ الَّذِي فِيكَ أَعظَمُ

لَكَ الحَمدُ كُلُّ الحَمدِ لا مَبدَا لَهُ ... وَلا مُنتَهَىٰ وَاللهُ بِالحَمدِ أَعلَمُ[٢]

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الجَمَالِ:

إِنَّ التَّعَبُّدَ بِاسمِهِ الجَمِيلِ يَقتَضِي مَحَبَّتَهُ وَالتَّأَلُّهَ لَهُ، وَأَن يَبذُلَ العَبدُ لَهُ خَالِصَ المَحَبَّةِ وَصَفوَ الوِدَادِ، بِحَيثُ يَسِيحُ القَلبُ فِي رِيَاضِ مَعرِفَتِهِ وَمَيَادِينِ جَمَالِهِ، وَيَبتَهِجُ بِمَا يَحصُلُ لَهُ مِنْ آثَارِ جَمَالِهِ وَكَمَالِهِ، فَإِنَّ اللهَ ذُو الجَلالِ وَالإِكرَامِ[٣].

وَإِذَا عَرَفَ العَبدُ رَبَّهُ بِالجَمَالِ الَّذِي لا يُمَاثِلُهُ فِيهِ شَيءٌ، فَإِنَّهُ «يَعبُدُهُ بِالجَمَالِ الَّذِي يُحِبُّهُ مِنَ الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ وَالأَخلَاقِ، فَيُجَمِّلُ لِسَانَهُ بِالصِّدقِ، وَقَلبَهُ بِالإِخلاصِ وَالمَحَبَّةِ وَالإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ، وَجَوَارِحَهُ بِالطَّاعَةِ، وَبَدَنَهُ بِإِظهَارِ نِعَمِهِ عَلَيهِ فِي لِبَاسِهِ، وَتَطهِيرِهِ لَهُ مِنَ الأَنجَاسِ، وَالأَحدَاثِ، وَالأَوسَاخِ، وَالشُّعُورِ المَكرُوهَةِ، وَالخِتَانِ، وَتَقلِيمِ الأَظفَارِ.

فَيَعرِفُهُ بِالجَمَالِ الَّذِي هُوَ وَصفُهُ، وَيَعبُدُهُ بِالجَمَالِ الَّذِي هُوَ شَرعُهُ وَدِينُهُ»[٤].

---

(١) تهذيب المدارج (ص٩٧٠).

(٢) المصدر السابق (ص٩٣٧).

(٣) المجموعة الكاملة (٣/٢٢٨).

(٤) فوائد الفوائد (ص٣٩).

عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**»(١).

فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: يُشرَعُ الدُّعَاءُ لِلغَيْرِ بِالجَمَالِ، تَأَسِّياً بِالنَّبِيِّ ﷺ. عَن عَمرِو بنِ أَخْطَبَ رضي الله عنه قَالَ: استَسقَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ وَفِيهِ شَعرَةٌ، فَرَفَعتُها فَنَاوَلْتُهُ، فَنَظَرَ إِلَيَّ [رَسُولُ اللهِ] ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ جَمِّلهُ». قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَهُوَ ابنُ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ، وَمَا فِي رَأسِهِ وَلِحْيَتِهِ شَعرَةٌ بَيْضَاءُ(٢).

وَعَنْهُ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَسَحَ وَجْهَهُ، وَدَعَا لَهُ بِالجَمَالِ(٣).

نَسأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلا أَن يُجَمِّلَ قُلُوبَنَا وَأَلسِنَتَنَا وَأَعمَالَنَا.

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٤٠)، وابن حبان (٧١٧٢) ـ واللفظ له ـ. وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (١٩٣١).

(٣) رواه الترمذي (٣٦٢٩)، وابن حبان (٧١٧١) ـ والسِّياق له ـ. وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (١٩٣٢).

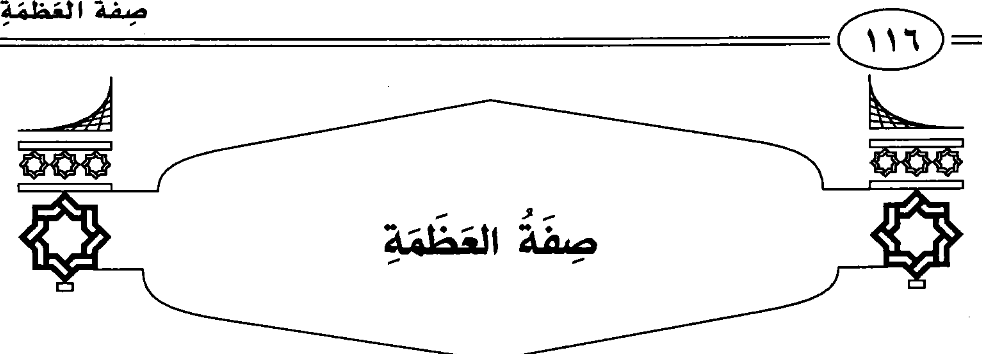

صِفَةُ العَظَمَةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ عَظَمَتِهِ: فَهُوَ العَظِيمُ الَّذِي قَد كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ وَلَهُ «كُلُّ وَصْفٍ وَمَعنًى يُوجِبُ التَّعظِيمَ، فَلَا يَقدِرُ مَخلُوقٌ أَن يُثْنِيَ عَلَيهِ كَمَا يَنبَغِي لَهُ وَلَا يُحْصِيَ ثَنَاءً عَلَيهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ، وَفَوقَ مَا يُثنِي عَلَيهِ عِبَادُهُ»(١). وَنِسبَةُ مَا يَعلَمُ العِبَادُ مِن ذَلِكَ إِلَىٰ مَا لَا يَعلَمُونَهُ، كَنَقرَةِ عُصفُورٍ فِي بَحرٍ(٢). وَالأَمرُ أَجَلُّ مِن ذَلِكَ وَأَعظَمُ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعنًى يُوجِبُ التَّـ عظِيمَ لَا يُحصِيهِ مِن إِنسَانِ(٣)

وَهَلْ تَنْبَغِي العَظَمَةُ إِلَّا لِرَبِّ الأَرْبَابِ. خَضَعَتْ لِعَظَمَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ جَمِيعُ العُظَمَاءِ(٤).

وَاعْلَمْ أَنَّ مَعَانِيَ التَّعظِيمِ الثَّابِتَةَ للهِ نَوعَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مَوصُوفٌ بِكُلِّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَلَهُ مِن ذَلِكَ الكَمَالِ أَكمَلُهُ وَأَعظَمُهُ وَأَوسَعُهُ؛ فَلَهُ العِلمُ المُحِيطُ وَالقُدرَةُ النَّافِذَةُ، وَالكِبرِيَاءُ وَالعَظَمَةُ.

فَالعَظِيمُ مَنِ اتَّصَفَ بِصِفَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ. فَهُوَ عَظِيمٌ

---

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٢٤)، للعلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) طريق الهجرتين (ص٢٥١).

(٣) الكافية الشافية (ص٢٠٧).

(٤) معارج القبول (١/ ٥٠).

فِي ذَاتِهِ، عَظِيمٌ فِي أَسمَائِهِ، عَظِيمٌ فِي صِفَاتِهِ، فَهُوَ عَظِيمٌ فِي سَمعِهِ وَبَصَرِهِ، عَظِيمٌ فِي قُدرَتِهِ وَقُوَّتِهِ، عَظِيمٌ فِي جَمَالِهِ وَعُلُوِّهِ وَقُربِهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ: الكِبرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنهُمَا، قَذَفتُهُ فِي النَّارِ**»[١].

النَّوعُ الثَّانِي مِنْ مَعَانِي عَظَمَتِهِ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ لَا يَستَحِقُّ أَحَدٌ مِنَ الخَلقِ أَنْ يُعَظَّمَ كَمَا يُعَظَّمُ اللهُ. فَيَستَحِقُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُعَظِّمُوهُ بِقُلُوبِهِم وَأَلسِنَتِهِم وَجَوَارِحِهِم، وَذَلِكَ بِبَذْلِ الجُهدِ فِي مَعرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالذُّلِّ لَهُ وَالِانكِسَارِ لَهُ، وَالخُضُوعِ لِكِبرِيَائِهِ وَالخَوفِ مِنْهُ، وَإِعمَالِ اللِّسَانِ بِالثَّنَاءِ عَلَيهِ، وَقِيَامِ الجَوَارِحِ بِشُكرِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ.

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ بِيَدِهِ مُلكَ العَالَمِ العُلوِيِّ وَالسُّفلِيِّ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَيَتَصَرَّفُ فِيهِ بِمَا شَاءَ، مِنَ الأَحكَامِ القَدَرِيَّةِ، وَالأَحكَامِ الدِّينِيَّةِ، التَّابِعَةِ لِحِكمَتِهِ[٢].

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ الخَلقَ ـ مِنْ أَوَّلِهِم إِلَىٰ آخِرِهِم ـ لَوِ اجتَمَعُوا عَلَىٰ أَن يُحِيطُوا بِصِفَةٍ مِن صِفَاتِهِ، لَم يَكُن لَهُم قُدرَةٌ وَلَا وِسعٌ فِي ذَلِكَ؛ فَتَبَارَكَ الرَّبُّ العَظِيمُ، الوَاسِعُ، العَلِيمُ، الحَمِيدُ المَجِيدُ، الشَّهِيدُ المُحِيطُ.

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّهُ لَيسَ أَحَدٌ يَنفَعُ مَدحُهُ وَيَزِينُ، وَيَضُرُّ ذَمُّهُ وَيَشِينُ، إِلَّا اللهَ وَحدَهُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود (٤٠٩٠) ـ والسِّياق له ـ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٢٣٢).

عَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ ﵄ قَالَ: قَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ حَمدِي زَينٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَينٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ذَاكَ اللهُ**»[1].

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ المَخلُوقَاتِ العَظِيمَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الإِتقَانِ وَالكَمَالِ، لَتَدُلُّ دَلَالَةً ظَاهِرَةً عَلَىٰ عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَكَمَالِهِ، وَأَنَّهُ أَتقَنَ كُلَّ شَيءٍ وَأَحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ.

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ الأَرضَ جَمِيعاً بِما فِيهَا مِن بِحَارٍ وَأَنهَارٍ وَجِبَالٍ وَأَودِيَةٍ وَرِمَالٍ وَأَشجَارٍ وَغَيرِ ذَلِكَ، تَكُونُ قَبضَتَهُ يَومَ القِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ عَلَىٰ عِظَمِهَا وَكِبَرِهَا وَسِعَتِهَا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

عَن عُبَيدِ اللهِ بِن مِقسَم، أَنَّهُ نَظَرَ إِلىٰ عَبدِ اللهِ بنِ عَمرَ كَيفَ يَحكِي رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: «**يَأخُذُ اللهُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرضِيهِ بِيَدَيهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ** ـ وَيَقبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبسُطُهَا ـ **أَنَا المَلِكُ**» حَتَّىٰ نَظَرتُ إِلىٰ المِنبَرِ يَتَحَرَّكُ مِن أَسفَلِ شَيءٍ مِنهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟![2]

فَانظُر بَارَكَ اللهُ فِيكَ: كَيفَ أَنَّ المِنبَرَ تَحَرَّكَ مِن عَظَمَةِ اللهِ وَهُوَ جَمَادٌ؟!

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ المَخلُوقَاتِ كُلَّهَا وَإِن عَظُمَت وَشَرُفَت، وَبَلَغَتِ

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٧)، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٣٣).

(٢) رواه مسلم [٢٥ ـ (٢٧٨٨)].

المُنتَهىٰ الَّذِي يَلِيقُ بِهَا مِنَ العَظَمَةِ وَالكَمَالِ اللَّائِقِ بِهَا، فَإِنَّهَا مُضمَحِلَّةٌ فِي جَانِبِ عَظَمَةِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

«لَقَد تَضَاءَلَت لِعَظَمَتِهِ المَخلُوقَاتُ العَظِيمَةُ، وَصَغُرَت لَدَىٰ كِبرِيَائِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبعُ، وَمَن فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبعُ، وَمَن فِيهِنَّ»(١).

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ كُرسِيَّهُ وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ.

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ نَوَاصِيَ العِبَادِ بِيَدِهِ، فَلَا يَتَصَرَّفُونَ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ، وَلَا يَتَحَرَّكُونَ وَيَسكُنُونَ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ.

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ فَضْلَهُ عَظِيمٌ، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ «أي: صاحبُ الفضلِ العظيمِ، العظيم كميةً، والعظيم كيفيةً، والعظيم شمولاً في المكانِ، وشمولاً في الزمانِ»(٢).

وَمِنْ عَظَمَتِهِ: أَنَّ الأَبصارَ تَراهُ وَلَا تُدرِكُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ لِعَظَمَتِهِ وَإِحَاطَتِهِ بِمَا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ أَكبَرُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وَأَنَّهُ وَاسِعٌ فَيُرَىٰ، وَلَا يُحَاطُ بِهِ رُؤيَةً. فَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُرىٰ يَومَ القِيَامَةِ بِالأَبصَارِ عِيَاناً، وَلَكِن يَستَحِيلُ إِدرَاكُ الأَبصَارِ لَهُ وَإِن رَأَتهُ؛ فَإِنَّ الإِدرَاكَ هُوَ الإِحَاطَةُ بِالشَّيءِ، وَهُوَ قَدرٌ زَائِدٌ عَلَىٰ الرُّؤيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١].

فَإِنَّ «العِبَادَ مَعَ رُؤيَتِهِم لَهُ لَا يُحِيطُونَ بِهِ رُؤيَةً، كَمَا أَنَّهُم مَعَ مَعرِفَتِهِ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلماً، وَكَمَا أَنَّهُم مَعَ مَدحِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيهِ، لَا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣١).

(٢) أحكام من القرآن (١/ ٢٨٠)، للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

يُحِيطُونَ ثَنَاءً عَلَيهِ؛ بَلْ هُوَ كَمَا أَثنىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ المُقَدَّسَةِ»[١].

وَإِذَا كَانَت أَبصَارُنَا لَا تَقُومُ لِإِدرَاكِ الشَّمسِ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيهِ، وَإِن رَأَتهَا مَعَ القُربِ الَّذِي بَينَ المَخلُوقِ وَالمَخلُوقِ، فَالتَّفَاوُتُ الَّذِي بَينَ أَبصَارِ الخَلَائِقِ وَذَاتِ الرَّبِّ أَعظَمُ وَأَعظَمُ[٢].

فَسُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ! عَظَمَةٌ عَظِيمَةٌ! لا يُدْرِكُهَا الإِنْسَانُ، لا تَفْكِيراً، وَلا تَصوِيراً.

فَهَذَا مَا فَتَحَ اللهُ العَظِيمُ بِهِ مِن هَذِهِ الكَلِمَاتِ اليَسِيرَةِ النَّزِرَةِ، المُشِيرَةِ إِلىٰ عَظَمَةِ[٣] البَارِي ﷻ.

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ العَظَمَةِ:

مَتَىٰ عَلِمَ العَبدُ أَنَّ اللهَ عَظِيمٌ فِي أَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ وَأَمرِهِ وَنَهيِهِ، فَإِنَّهُ يُعَظِّمُ الرَّبَّ ﷻ فِي الأَحوَالِ كُلِّهَا، «فَالعَظِيمُ الرَّحِيمُ يَستَحِقُّ أَن يُعَظَّمَ وَيُحَبَّ، وَيُعبَدَ وَيُخَافَ وَيُرجَىٰ»[٤]. وَعَلَىٰ قَدرِ المَعرِفَةِ يَكُونُ تَعظِيمُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ فِي القَلبِ، وَأَعرَفُ النَّاسِ بِهِ أَشَدُّهُم لَهُ تَعظِيماً وَإِجلَالاً، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ مَن لَم يُعَظِّمهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وَلَا عَرَفَهُ حَقَّ مَعرِفَتِهِ، وَلَا وَصَفَهُ حَقَّ صِفَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]، أَي: مَا لَكُم لَا تُعَظِّمُونَهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١١).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص١٥٩).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٢٤٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص١٢٥٣).
(٥) تهذيب المدارج (ص٧٨٥).

وَاعلَم «بِأَنَّ مَن عَظَّمَ وَقَارَ اللهِ فِي قَلبِهِ أَن يَعصِيَهُ، وَقَّرَهُ اللهُ فِي قُلُوبِ الخَلقِ أَن يُذِلُّوهُ»[١].

وَمِنْ تَعْظِيمِهِ: أَن يُتَّقَىٰ حَقَّ تُقَاتِهِ، فَيُطَاعَ فَلَا يُعصَىٰ، وَيُذكَرَ فَلَا يُنسَىٰ، وَيُشكَرَ فَلَا يُكفَرَ.

وَمِنْ تَعْظِيمِهِ: «عِبَادَتُهُ حَقَّ العِبَادَةِ، وَتَخصِيصُهُ بِذَلِكَ دُونَ أَن يُشرِكَ مَعَهُ غَيرَهُ، وَدُونَ أَن يُصرَفَ شَيءٌ مِن حَقِّهِ لِغَيرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ تَندِيدٌ وَشِركٌ وَنَقصٌ فِي التَّعظِيمِ»[٢].

وَمِنْ تَعْظِيمِهِ: أَن يُخضَعَ لِأَوَامِرِهِ وَمَا شَرَعَهُ وَحَكَمَ بِهِ، وَأَنْ لَا يُعتَرَضَ عَلَىٰ شَيءٍ مِن مَخلُوقَاتِهِ، أَو عَلَىٰ شَيءٍ مِن شَرعِهِ.

وَمِنْ تَعْظِيمِهِ: أَن يُحلَفَ بِهِ صَادِقاً. عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِي أَن أُحَدِّثَ عَن دِيكٍ: رِجلَاهُ فِي الأَرضِ، وَعُنُقُهُ مَثنِيَّةٌ تَحتَ العَرشِ؛ وَهُوَ يَقُولُ: سُبحَانَكَ مَا أَعظَمَكَ رَبَّنَا! قَالَ: فَيَرُدُّ عَلَيهِ: مَا يَعلَمُ ذَلِكَ مَن حَلَفَ بِي كَاذِباً**»[٣].

وَمِنْ تَعْظِيمِهِ: عَدَمُ النَّظَرِ إِلَىٰ كِبَرِ الذَّنبِ وَصِغَرِهِ فِي نَفسِ العَبدِ، وَلَكِن يَنظُرُ إِلَىٰ قَدرِ مَن عَصَاهُ، وَعَظَمَتِهِ، وَانتِهَاكِ حُرمَتِهِ بِالمَعصِيَةِ[٤].

فَمَن كَمُلَت عَظَمَةُ الحَقِّ تَعَالَىٰ فِي قَلبِهِ عَظُمَت عِندَهُ مُخَالَفَتُهُ، لِأَنَّ مُخَالَفَةَ العَظِيمِ الَّذِي لَا شَيءَ أَعظَمُ مِنهُ، الكَبِيرُ الَّذِي لَا شَيءَ أَكبَرُ مِنهُ،

---

(١) فوائد الفوائد (ص٣٤٦).

(٢) التعليقات الزكية عَلَى العقيدة الواسطية (٢/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٣) رواه الحاكم (٤/ ٢٩٧)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (١٨٣٩).

(٤) انظر: الداء وَالدواء (ص١٩٥).

الجَلِيلُ الَّذِي لَا أَجَلَّ مِنهُ وَلَا أَجمَلَ، المُنعِمُ بِجَمِيعِ أَصنَافِ النِّعَمِ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا، لَيسَت كَمُخَالَفَةِ مَنْ هُوَ دُونَهُ.

«فَيَنبَغِي لِمَن عَرَفَ حَقَّ عَظَمَةِ اللهِ، أَن لَا يَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَكرَهُهَا اللهُ، وَلَا يَرتَكِبَ مَعصِيَةً لَا يَرضَاهَا اللهُ، إِذ هُوَ القَائِمُ عَلَىٰ كُلِّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَت»(١).

فَمَا عَظَّمَ اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ «مَن هَانَ عَلَيهِ أَمرُهُ فَعَصَاهُ، وَنَهيُهُ فَارتَكَبَهُ، وَحَقُّهُ فَضَيَّعَهُ، وَذِكرُهُ فَأَهمَلَهُ، وَغَفَلَ قَلبُهُ عَنهُ، وَكَانَ هَوَاهُ آثَرَ عِنْدَهُ مِن طَلَبِ رِضَاهُ، وَطَاعَةُ المَخلُوقِ أَهَمَّ عِنْدَهُ مِن طَاعَتِهِ، فَلِلَّهِ الفَضلَةُ مِن قَلبِهِ وَقَولِهِ وَعَمَلِهِ، وَسِوَاهُ المُقَدَّمُ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ المُهِمُّ عِنْدَهُ، يَستَخِفُّ بِنَظَرِ اللهِ إِلَيهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيهِ وَهُوَ فِي قَبضَتِهِ، وَنَاصِيَتُهُ بِيَدِهِ، وَيُعَظِّمُ نَظَرَ المَخلُوقِ إِلَيهِ، وَاطِّلَاعَهُ عَلَيهِ بِكُلِّ قَلبِهِ وَجَوَارِحِهِ، يَستَحيِي مِنَ النَّاسِ وَلَا يَستَحيِي مِنَ اللهِ، وَيَخشَىٰ النَّاسَ وَلَا يَخشَىٰ اللهَ، وَيُعَامِلُ الخَلقَ بِأَفضَلِ مَا يَقدِرُ عَلَيهِ، وَإِن عَامَلَ اللهَ عَامَلَهُ بِأَهوَنِ مَا عِنْدَهُ وَأَحقَرِهِ، وَإِن قَامَ فِي خِدمَةِ مَن يُحِبُّهُ مِنَ البَشَرِ قَامَ بِالجِدِّ وَالِاجتِهَادِ وَبَذلِ النَّصِيحَةِ، وَقَدْ فَرَّغَ لَهُ قَلبَهُ وَجَوَارِحَهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِن مَصَالِحِهِ، حَتَّىٰ إِذَا قَامَ فِي حَقِّ رَبِّهِ ـ إِن سَاعَدَهُ القَدَرُ ـ قَامَ قِيَاماً لَا يَرضَاهُ مَخلُوقٌ مِن مَخلُوقٍ مِثلِهِ، وَبَذَلَ لَهُ مِن مَالِهِ مَا يَستَحيِي أَن يُوَاجِهَ بِهِ مَخلُوقاً لِمِثلِهِ»(٢)؛ فَهَل عَظَّمَ اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ مَن هَذَا وَصْفُهُ؟

وَمِنْ تَعْظِيمِهِ: تَعظِيمُ مَا حَرَّمَهُ وَشَرَّعَهُ مِن زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأَعمَالٍ:

---

(١) الحجة (ص٢٠٠).

(٢) الداء والدواء (ص٢١٧).

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

«فَتَعظِيمُ شَعَائِرِ اللهِ صَادِرٌ مِن تَقوَىٰ القُلُوبِ، فَالمُعَظِّمُ لَهَا، يُبَرهِنُ عَلَىٰ تَقواهُ، وَصِحَّةِ إِيمَانِهِ، لِأَنَّ تَعظِيمَهَا، تَابِعٌ لِتَعظِيمِ اللهِ وَإِجلَالِهِ»[1]. فَعَلَيْكَ بِتَعظِيمِ شَعَائِرِ اللهِ فَإِنَّ ذَلِكَ تَقوَىٰ لِقَلبِكَ، وَأَيضاً يَكُونُ خَيراً لَكَ عِنـدَ اللهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

لِأَنَّ تَعظِيمَ حُرُمَاتِ اللهِ، مِنَ الأُمُورِ المَحبُوبَةِ للهِ، المُقَرِّبَةِ إِلَيهِ، الَّتِي مَن عَظَّمَهَا وَأَجَلَّهَا، أَثَابَهُ اللهُ ثَوَاباً جَزِيلاً، وَكَانَت خَيراً لَهُ، فِي دِينِهِ، وَدُنيَاهُ وَأُخرَاهُ، عِندَ رَبِّهِ[2].

وَيَدخُلُ فِي ذَلِكَ تَعظِيمُ حُرمَةِ المُؤمِنِ. عَنْ عَبْدِ اللهِ بن عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَطُوفُ بِالكَعبَةِ وَيَقُولُ: **«مَا أَطيَبَكِ وَأَطيَبَ رِيحَكِ! مَا أَعظَمَكِ وَأَعظَمَ حُرمَتَكِ! وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَحُرمَةُ المُؤمِنِ أَعظَمُ عِندَ اللهِ حُرمَةً مِنكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَن نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيراً»**[3].

وَذِروَةُ تَعظِيمِنَا لِحُرُمَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ: أَن يُوصَفَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ به رَسُولُهُ ﷺ، مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ وَلَا تَمثِيلٍ، بَلْ تُثبَتُ لَهُ الأَسمَاءُ وَالصِّفَاتُ، وَتُنفَىٰ عَنْهُ مُشَابَهَةُ المَخلُوقَاتِ، فَيَكُونُ إِثبَاتُكَ مُنَزَّهاً عَنِ التَّشبِيهِ، وَنَفيُكَ مُنَزَّهاً عَنِ التَّعطِيلِ، فَمَن نَفَىٰ حَقِيقَةَ الاستِوَاءِ فَهُوَ مُعَطِّلٌ، وَمَن شَبَّهَهُ بِاستِوَاءِ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٤).

(٢) المصدر السابق (ص٧٤٤).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٣٢)، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣٤٢٠).

المَخلُوقِ عَلَىٰ المَخلُوقِ فَهُوَ مُمَثِّلٌ، وَمَن قَالَ: استِوَاءٌ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ، فَهُوَ المُوَحِّدُ المُنَزِّهُ[1].

وَمِنْ تَعْظِيمِهِ: أَن لَا يَلتَفِتَ العَبدُ إِلىٰ أَعمَالِهِ. فَمَن «عَرَفَ اللهَ وَحَقَّهُ وَمَا يَنبَغِي لِعَظَمَتِهِ مِنَ العُبُودِيَّةِ تَلَاشَت حَسَنَاتُهُ عِنْدَهُ، وَصَغُرَت جِدّاً في عَينِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهَا لَيسَتْ مِمَّا يَنجُو بِهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَأَنَّ الَّذِي يَلِيقُ بِعِزَّتِهِ، وَيصلُحُ لَهُ مِنَ العُبُودِيَّةِ أَمرٌ آخَرُ. وَكُلَّمَا استَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَقَلَّهَا وَاسْتَصْغَرَهَا، لأَنَّهُ كُلَّمَا اسْتَكْثَرَ مِنْهَا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ المعْرِفَةِ بِاللهِ، وَالقُربِ مِنْهُ، فَشَاهَدَ قَلْبُهُ مِنْ عَظَمَتِهِ سُبحَانَهُ وَجَلالِهِ مَا يَسْتَصْغِرُ مَعَهُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ، وَلَو كَانَت أَعْمَالَ الثَّقَلَينِ»[2]. هَذَا لَوْ كَانَت أَعْمَالُهُ مِنْهُ، فَكَيفَ وَهِيَ مُجَرَّدُ فَضْلِ اللهِ وَمِنَّتِهِ وَإِحسَانِهِ، حيثُ يَسَّرَهَا لَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيهَا، وَهَيَّأَهُ لَهَا وَشَاءَهَا مِنْهُ وَكَوَّنَهَا، وَلَو لم يَفْعَلْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَيهِ، فَحِينَئِذٍ لا يَرَىٰ أَعمَالَهُ مِنْهُ، وَأَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ لَنْ يَقْبَلَ عَمَلاً يَرَاهُ صَاحِبُهُ مِنْ نَفسِهِ حَتَّىٰ يَرَىٰ عَينَ تَوفِيقِ اللهِ لَهُ وَفَضْلَهُ عَلَيهِ وَمِنَّتَهُ، وَأَنَّهُ مِنَ اللهِ لا مِنْ نَفسِهِ، وَأَنَّهُ لَيسَ لَهُ مِنْ نَفسِهِ إِلَّا الشَّرُّ وَأَسبَابُهُ، وَمَا بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ صَدَقَةً تَصَدَّقَ بِهَا عَلَيهِ وَفَضْلاً مِنْهُ سَاقَهُ إِلَيهِ، مِنْ غَيرِ أَنْ يَسْتَحِقَّهُ بِسَبَبٍ وَيَسْتَأهِلَهُ بِوَسِيلَةٍ، فَيَرَىٰ رَبَّهُ وَوَلِيَّهُ وَمَعْبُودَهُ أَهْلاً لِكُلِّ خَيرٍ، وَيَرَىٰ نَفسَهُ أَهلاً لِكُلِّ شَرٍّ، وَهَذَا أَسَاسُ جَمِيعِ الأَعمَالِ الصَّالحةِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَرفَعُهَا وَيَجعَلُهَا في دِيوَانِ أَصحَابِ اليَمِينِ[3].

عَنْ عُتْبَةَ بنِ عبدٍ ﷺ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَو أَنَّ رَجُلاً**

---

(١) تهذيب المدارج (ص٥١٠ ـ ٥١١).

(٢) المصدر السابق (ص٢٤٣).

(٣) الروح (ص٢٩٩).

يُجَرُّ عَلَىٰ وَجهِهِ، مِنْ يَوم وُلِدَ إِلىٰ يَومِ يَمُوتُ؛ هَرِماً في مَرضَاةِ اللهِ، لَحَقَّرَهُ يَومَ القِيامَةِ»[١].

وَلا يَعْرِفُ هَذَا حَقَّ مَعْرِفَتِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ، وَعَرَفَ نَفسَهُ، وَعَرَفَ حُقُوقَهُ عَلَيهِ، وَعَرَفَ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ، وَعَرَفَ نَفسَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفعالَهَا، وَأَنَّ الَّذِي قَامَ بِهِ مِنَ العُبُودِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلىٰ حَقِّ رَبِّهِ عَلَيهِ، كَقَطْرَةٍ في بَحْرٍ، هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنَ الآفَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، فَسُبْحَانَ مَنْ لا يَسَعُ عِبَادَهُ غَيرُ عَفوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَتَغَمُّدِهِ لَهُم بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَيسَ إِلَّا ذَلِكَ أَوِ الهَلاكُ، فَإِنْ وَضَعَ عَلَيهِم عَدْلَهُ، فَعَذَّبَ أَهلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَرضِهِ، عَذَّبَهُم وَهُوَ غَيرُ ظَالِمٍ لَهُم، وَإِنْ رَحِمَهُم فَرَحمَتُهُ خَيرٌ لَهُم مِنْ أَعمَالِهِم، وَلا يُنْجِي أَحداً مِنْهُم عَمَلُهُ[٢].

وَمِنْ تَعْظِيمِهِ: تَمجِيدُهُ وَمَدحُهُ، وَالثَّنَاءُ عَلَيهِ بِاسْمِهِ العَظِيمِ، وَالاسْتِعَاذَةُ بِهِ.

قَالَ تَعالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤] أَي: نَزِّه رَبَّكَ العَظِيمَ، كَامِلَ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ، كَثيرَ الإِحسَانِ وَالخيرَاتِ؛ عَمَّا لا يَلِيقُ بِجَلالِهِ، وَقَدِّسْهُ بِذِكْرِ أَوصَافِ جَلالِهِ، وَجَمَالِهِ، وَكَمَالِهِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا دَخَلَ المسجِدَ قَالَ: «**أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيم، وَبِوَجهِهِ الكَرِيم، وَسُلطَانِهِ القَدِيم، مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ**» قَالَ: «**فَإِذَا قُلْتَ ذَلِك، قَالَ الشَّيطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ اليَومِ**»[٣].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨٥)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٢٤٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٩١ ـ ٥٩٢).

(٣) رواه أبو داود (٤٦٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٤١).

وَوَجهُ اللهِ الكَرِيمِ، أَشرَفُ ما يُتَوَّجَهُ إِليهِ، وَأَكرَمُ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ.
وَأَمَّا اختِصَاصُ وَجهِ اللهِ الكَرِيمِ بِالذِّكرِ عِندَ الاستِعَاذَةِ: هُوَ أَنَّ العَوْذَ إِنَّمَا يَصِحُّ بِمَنِ انتَهَى كَرَمُهُ، وَعَلا شَأنُهُ، وَكَمُلَت قُدرَتُهُ، فَلا يَخْذِلُ المُستَعِيذَ بِهِ، وَلا يُسْلِمُهُ، وَلا يُخَيِّبُ رَجَاءَهُ، وَلا يَعجَزُ عَنْ أَمرِهِ، وَلا يُحِيلُ إِلى غَيرِهِ، وَذَلِكَ مِمَّا لا يُوجَدُ إِلَّا عِنْدَ اللهِ، وَلا يُنَالُ إِلَّا مِنهُ[1].

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ ابنَةَ الجَونِ لَمَّا أُدخِلَت عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَدَنَا مِنْهَا قَالَت: أَعُوذُ بِاللهِ مِنكَ، فَقَالَ لَهَا: «**لَقَد عُذتِ بِعَظِيمٍ، الحَقِي بِأَهلِكِ**»[2].

وعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: لَم يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمسِي وَحِينَ يُصبِحُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ العَفوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنيَايَ وَأَهلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ استُر عَورَاتِي وَآمِنْ رَوعَاتِي، اللَّهُمَّ احفَظنِي مِن بَينِ يَدَيَّ وَمِن خَلفِي، وَعَن يَمِينِي وَعَن شِمَالِي وَمِن فَوقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَن أُغتَالَ مِنْ تَحتِي**»[3].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن عَادَ مَرِيضاً لَمْ يَحضُر أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مِرَارٍ: أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ أَنْ يَشفِيَكَ، إِلَّا عَافَاهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ المَرَضِ**»[4].

---

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة (٢/ ٥٥٩).
(٢) رواه البخاري (٥٢٥٤).
(٣) رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٤٨).
(٤) رواه أبو داود (٣١٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٢٧٦).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِندَ الكَربِ: «**لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمُ، لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرضِ وَرَبُّ العَرشِ الكَرِيمُ**»(١).

وَذَكَرَ العَرشَ مُكَرَّراً؛ لأَنَّهُ هُوَ أَعظَمُهَا، وَأَعلاهَا، تَنبِيهاً عَلَى عَظَمَةِ شَأنِهِ، وَعَلى عِظَمِ خَالِقِه، الذي استَوَى عَلَيهِ استِوَاءً يَلِيقُ بِجَلالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَلَكِنَّ المُشتَغِلِينَ بِعِلم الكَلامِ لا يَعلَمُونَ.

وَعَنْ عَوفِ بنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيلَةً، فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ؛ لا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحمَةٍ، إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ؛ وَلا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ، إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ؛ قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ، وَالكِبرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ**» ثُمَّ سَجَدَ بِقَدرِ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثلَ ذَلِكَ...(٢).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ**»(٣).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلىٰ الرَّحمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ، سُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»(٤).

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البخاري (٦٣٤٦)، وَمسلم (٢٧٣٠).

(٢) رواه أبو داود (٨٧٣)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٤٧).

(٣) رواه مسلم (٤٧٩).

(٤) رواه البخاري (٧٥٦٣)، وَمسلم (٢٦٩٤).

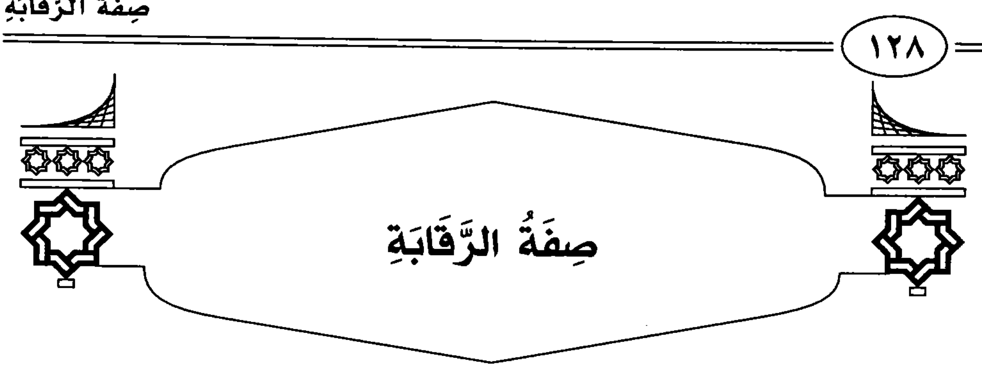

صِفَةُ الرَّقَابَةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ رَقَابَتِهِ: فَهُوَ الرَّقِيبُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي رَقَابَتِهِ، المُطَّلِعُ عَلَىٰ مَا فِي الضَّمَائِرِ، وَأَكَنَّتْهُ السَّرَائِرُ، وَلَحَظَتْهُ العُيُونُ، وَمَا اختَفَىٰ فِي خَبَايَا الصُّدُورِ. فَكَيفَ الأَقوَالُ وَالأفعَالُ الظَّاهِرَةُ؟! «المُطَّلِعُ عَلَىٰ مَا فِي القُلُوبِ، وَمَا حَوتهُ العَوَالِمُ مِنَ الأَسرَارِ وَالغُيُوبِ، المُرَاقِبُ لأَعمَالِ عِبَادِهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ، الَّذِي أَحْصَىٰ كُلَّ شَيءٍ وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ، وَلا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ، وَإِنْ دَقَّ، الَّذِي يَعْلَمُ مَا أَسَرَّتْهُ السَّرَائِرُ، مِنَ النِّيَّاتِ الطَّيِّبَةِ وَالإِرَادَاتِ الفَاسِدَةِ»(١). قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَىٰ الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا حِظِ كَيفَ بِالأَفْعَالِ بِالأَرْكَانِ(٢)

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الرَّقَابَةِ:

مَنْ تَعَبَّدَ اللهَ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ أَورَثَهُ ذَلِكَ المَقَامَ المُستَولِي عَلَىٰ جَمِيعِ المَقَامَاتِ، وَهُوَ مَقَامُ المُرَاقَبَةِ للهِ فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، لأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ رَقِيبٌ عَلَىٰ حَرَكَاتِ قَلبِهِ وَحَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ وَأَلفَاظِهِ السِّرِّيَّةِ وَالجَهرِيَّةِ،

(١) فتح الرحيم الملك العلام (ص٥٢).

(٢) الكافية الشافية (ص٢١٠).

نَاظِرٌ إِلَيهِ، سَامِعٌ لِقَولِهِ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ عَمَلِهِ كُلَّ وَقتٍ وَكُلَّ لَحْظَةٍ، وَكُلَّ نَفَسٍ وَكُلَّ طَرْفَةِ عَينٍ، وَاسْتَدَامَ هَذَا العِلْمَ، فَإِنَّهُ لا بُدَّ أَن يُثْمِرَ لَهُ هَذَا المَقَامَ الجَلِيلَ، وَهَذَا سِرٌّ عَظِيمٌ مِنْ أَسرَارِ المعرِفَةِ بِاللهِ. انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرَاتِهِ وَفَوائِدِهِ العَظِيمَةِ، وَإِصْلاحِهِ لِلشُّؤُونِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ[1].

وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

إِذَا مَا خَلَوتَ الدَّهرَ يوماً فَلا تَقُلْ   خَلَوتُ وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقِيبُ

فَلْيَتَأَمَّلِ المُسلِمُ قَدرَ هَذَا الكَلامِ، وَلْيَتَدَبَّرْهُ حَقَّ تَدَبُّرِهِ، وَيَزِن نَفسَهُ بِهِ، وَيَنظُر أَينَ هُوَ مِنهُ، وَبِاللهِ التَّوفِيقُ.

(١) فتح الرحيم الملك العلام (ص٥٢).

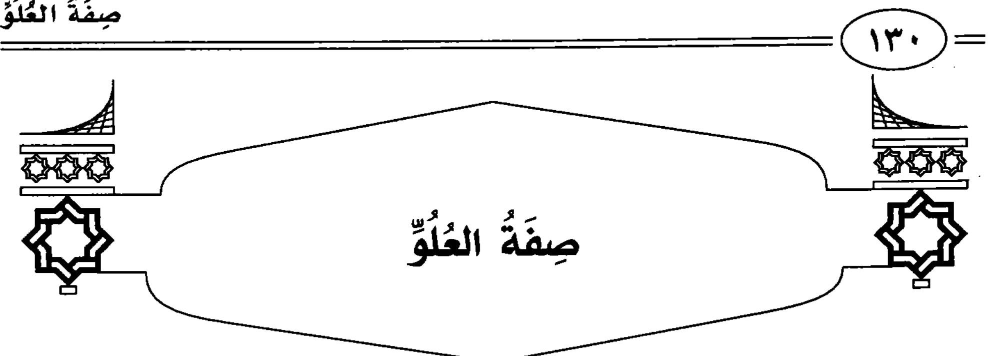

صِفَةُ العُلُوِّ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ عُلُوِّهِ: فَهُوَ العَلِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في عُلُوِّهِ؛ فَلَهُ العُلُوُّ المُطلَقُ بِجَمِيعِ الوُجُوهِ وَالاعْتِبَارَاتِ: عُلُوُّ الذَّاتِ، وَعُلُوُّ القَهْرِ، وَعُلُوُّ القَدْرِ.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ العَلِيُّ فَكُلُّ أَنْوَاعِ العُلُوِّ   لَهُ فَثَابِتَةٌ بِلا نُكْرَانِ[(١)]

وَلَهُ العُلُوُّ مِنَ الوُجُوهِ جَمِيعِهَا   ذَاتاً وَقَهْراً مَعَ عُلُوِّ الشَّانِ[(٢)]

فَعُلُوُّ الذَّاتِ: هُوَ أَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ، فَوقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ، مُبَايِنٌ لَهُم، وَهُوَ مَعَ هَذَا مُطَّلِعٌ عَلَىٰ أَحْوَالِهِم، مُشَاهِدٌ لهُم، مُدَبِّرٌ لأُمُورِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، مُتَكَلِّمٌ بِأَحكَامِهِ القَدَرِيَّةِ وَتَدْبِيرَاتِهِ الكَونِيَّةِ وَبِأَحْكَامِهِ الشَّرعِيَّةِ.

وَالأَدِلَّةُ في ذَلِكَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَكثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَأَجلُّ مِنْ أَنْ تُسْتَقْصَى، وَالفِطَرُ السَّلِيمَةُ، وَالقُلُوبُ المسْتَقِيمَةُ مَجْبُولَةٌ على الإِقرَارِ بِذَلكَ، لا تُنْكِرُهُ[(٣)]. قَالَ ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، أَي: ذَاتُهُ فَوقَ العَرشِ عَالِيَةٌ عَلَيهِ[(٤)].

---

(١) الكافية الشافية (ص٢٠٧).

(٢) المصدر السابق (ص١٠٢).

(٣) معارج القبول (١/ ١٤٧).

(٤) الصواعق (٤/ ١٣٨٥).

وَلِهَذِهِ الآيَةِ شَأنٌ فَوقَ عُقُولِنَا، وَأَجَلُّ مِنْ أَفْهَامِنَا، وَأَعْظَمُ مِمَّا قَالَ فِيهَا المُتَكَلِّمُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوهَا مَعْنَاهَا، وَأَنفُسَهُم كَانُوا يَظْلِمُونَ، تَاللهِ لَقَد غَلُظَ عَنْهَا حِجَابُهُم، وَكَثُفَتْ عَنهَا أَفْهَامُهُم، وَمَنَعَتْهُمُ الوُصُولَ إِلَىٰ المُرَادِ بِهَا أُصُولُهُمُ الَّتي أَصَّلُوهَا، وَقَوَاعِدُهُمُ الَّتي أَسَّسُوهَا[١]. فَسَمَّوا عُلُوَّ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَاستِوَاءَهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ، وَكَونَهُ فَوقَ عِبَادِهِ: تَحَيُّزاً وَتَجسِيماً وَجِهَةً وَمَكَاناً، ثُمَّ تَوَصَّلُوا بِنَفْيِ ذَلِكَ إِلَىٰ نَفْيِ عُلُوِّ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَاستِوَائِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ. وَالعَجَبُ العُجَابُ: أَنَّ التَّوحِيدَ عِنْدَهُم لا يَتِمُّ إِلَّا بِإِنكَارِ اسْتِوائِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ، وَعُلُوِّهِ فَوقَ سَمَاوَاتِهِ. سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

وَأَمَّا عُلُوُّ القَهْرِ: فَهُوَ قَهْرُهُ تَعَالَىٰ لِجَمِيعِ المَخلُوقَاتِ، فَالعَالَمُ العُلْوِيُّ وَالسُّفْليُّ كُلُّهُم خَاضِعُونَ لِعَظَمَتِهِ، مُفْتَقِرُونَ إِلَيهِ في كُلِّ شُؤُونِهِم[٢]. فَجَمِيعُ الخَلقِ نَواصِيهِم بِيَدِهِ: فَلا يَتَحَرَّكُ مِنْهُم مُتَحَرِّكٌ، وَلا يَسْكُنُ سَاكِنٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأ لَمْ يَكُنْ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

وَأَمَّا عُلُوُّ القَدْرِ: فَهُوَ عُلُوُّ صِفَاتِهِ وَعَظَمَتُهَا، وَهِيَ مَا دَلَّ عَلَيهِ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، يَعنِي: أَنَّ صِفَاتِهِ كُلَّهَا عُلْيَا لَيسَ فِيهَا نَقْصٌ بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ. فَهُوَ الأَعلَىٰ، وَوَجهُهُ الأَعلَىٰ، وَكَلامُهُ الأَعلَىٰ، وَسَمعُهُ الأَعلَىٰ، وَبَصرُهُ وَسَائِرُ صِفَاتِهِ عُليَا، وَلَهُ المَثَلُ الأَعلَىٰ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ. «فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ يُوصَفُ مِنْ كُلِّ

---

(١) شفاء العليل (١/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٢) توضيح الكافية الشافية (ص١٨٠ ـ ١٨١).

صِفَةِ كَمَالٍ بِأكمَلِهَا وَأَجَلِّهَا وَأعلاهَا، فَيُوصَفُ مِنَ الإِرَادَةِ بِأكمَلِهَا وَهُوَ الحِكمَةُ وَحُصُولُ كُلِّ مَا يُرِيدُ بِإِرَادَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦]؛ وَبِإِرَادَةِ اليُسرِ لا العُسرِ كَمَا قَالَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَبِإِرَادَةِ الإِحسَانِ وَإِتمَامِ النِّعمَةِ عَلَىٰ عِبَادِهِ كَقَولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧]، وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وَكَذَلِكَ الكَلامُ يَصِفُ نَفْسَهُ مِنهُ بِأَعلَىٰ أنوَاعِهِ كَالصِّدقِ وَالعَدلِ وَالحَقِّ، وَكَذَلِكَ الفِعْلُ يَصِفُ نَفْسَهُ مِنْهُ بِأَكمَلِهِ وَهُوَ العَدلُ وَالحِكمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ وَالنِّعمَةُ. فَسُبحَانَ مَنْ لَهُ الكَمَالُ المُطْلَقُ، مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، الَّذِي لا يَعتَرِيهِ نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ(١).

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ العُلُوِّ:

إِذَا شَهِدَ العِبَادُ مَشْهَدَ عُلُوِّ اللهِ عَلَىٰ خَلقِهِ فَوقَ سَماوَاتِهِ وَأَنَّهُ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّهُم يَرفَعُونَ إِلَيهِ أَيدِيَهُم عِندَ الرَّغَبَاتِ، «يَخَافُونَهُ مِنْ فَوقِهِم وَيَرجُونَ رَحمَتَهُ الَّتِي تَنْزِلُ إِلَيهِم مِن عِندِهِ، فَهِمَمُهُم صَاعِدَةٌ إِلَىٰ عَرشِهِ تَطْلُبُ فَوقَهُ إِلَهاً عَلِيّاً عَظِيماً، قَد اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرشِهِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱل[...] إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ [السجدة: ٥ ـ ٦]»(٢).

[...] الرحمن (ص٦٢).

[...]/ ٨٣٣).

وَمَتَىٰ شَهِدَ العَبدُ عُلُوَّ القَهرِ «وَأَنَّ نَوَاصِيَ العِبَادِ كُلَّهَا بِيَدِ اللهِ وَحدَهُ، يُصَرِّفُهُم كَيفَ يَشَاءُ؛ لَم يَخَفْهُم بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَم يَرجُهُم، وَلَم يُنزِلْهُم مَنزِلَةَ المَالِكِينَ، بَلْ مَنْزِلَةَ عَبِيدٍ مَقْهُورِينَ مَربُوبِينَ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهِم سِوَاهُم، وَالمُدَبِّرُ لَهُم غيرُهُم»[1].

وَمَتَىٰ شَهِدَ العِبَادُ عُلُوَّ الصِّفَاتِ مِنَ المَثَلِ الأَعلَىٰ وَهُوَ «مَا يَقُومُ بِقُلُوبِ عَابِدِيهِ وَمُحِبِّيهِ، وَالمُنِيبِينَ إِلَيهِ»[2] مِن مَعرِفَتِهِ وَالإِقرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَذَاتِهِ، فَهَذَا المَثَلُ الأَعلَىٰ هُوَ الَّذِي آمَنَ بِهِ المُؤمِنُونَ وَأَنِسَ بِهِ العَارِفُونَ، فَعَرَفُوهُ بِهِ «وَعَبَدُوهُ بِهِ وَسَأَلُوهُ بِهِ، فَأَحَبُّوهُ وَخَافُوهُ وَرَجَوهُ وَتَوَكَّلُوا عَلَيهِ، وَأَنَابُوا إِلَيهِ وَاطمَأَنُّوا بِذِكرِهِ، وَأَنِسُوا بِحُبِّهِ»[3]. وَهُوَ البَاعِثُ لَهُم عَلَىٰ العِبَادَةِ وَالمَحَبَّةِ وَالخَشيَةِ وَالإِنَابَةِ، وَتَفَاوُتُهُم فِيهِ لا يَنحَصِرُ طَرَفَاهُ، فَكُلٌّ مِنهُم لَهُ مَقَامٌ مَعلُومٌ لا يَتَعَدَّاهُ[4].

فَإِذَا قَالُوا: يَا اللهُ! «قَامَ بِقُلُوبِهِم: رَبّاً قَيُّوماً قَائِماً بِنَفسِهِ مُستَوِياً عَلَىٰ عرشِهِ مُكَلِّماً، مُتَكَلِّماً، سَامِعاً رَائِياً قَدِيراً مُرِيداً، فَعّالاً لِمَا يَشَاءُ؛ يَسمَعُ دُعَاءَ الدَّاعِينَ، وَيَقْضِي حَوَائِجَ السَّائِلِينَ، وَيُفَرِّجُ عَنِ الْمَكْرُوبِينَ، تُرْضِيهِ الطَّاعَاتُ، وَتُغْضِبُهُ الْمَعَاصِي، تَعْرُجُ المَلائِكَةُ بِالأَمرِ إِلَيهِ، وَتَنزِلُ بِالأَمرِ مِنْ عِندِهِ»[5].

❊ ❊ ❊

---

(١) فوائد الفوائد (ص٥٢).
(٢) تهذيب المدارج (ص٩٣٦).
(٣) الصواعق المرسلة عَلَى الجهمية وَالمعطلة (ص٤٣٢).
(٤) شفاء العليل (٩٣٧).
(٥) الصواعق المرسلة عَلَى الجهمية وَالمعطلة (ص٤٢٩ ـ ٤٣٠).

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ طِيبَتِهِ: فَهُوَ الطَّيِّبُ الَّذِي قَد كَمُلَ في طِيبَتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ طَيِّبٌ، وَكَلامُهُ طَيِّبٌ، وَفِعلُهُ كُلُّهُ طَيِّبٌ وَلا يَصدُرُ مِنْهُ إِلَّا الطَّيِّبُ، وَلا يَتَّصِفُ إِلَّا بِالطَّيِّبِ، فَهُوَ طَيِّبٌ في كُلِّ شَيءٍ؛ في ذَاتِهِ وَأَسمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ.

فَأَسمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسنَىٰ، لَيسَ فِيهَا نَقْصٌ بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ.

وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طَيِّبٌ في صِفَاتِهِ: فَكُلُّ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ طَيِّبَةٌ لَيسَ فِيهَا نَقْصٌ بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، أَي: الوَصفُ الأَعلَىٰ مِنْ كُلِّ وَجهٍ.

كَذَلِكَ أَيضاً هُوَ طَيِّبٌ في أَفْعَالِهِ، فَأَفْعَالُ اللهِ تَعَالَىٰ كُلُّهَا طَيِّبَةٌ، لا يَفْعَلُ إِلَّا خيراً، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ»** أَي لا يُنْسَبُ إِلَيكَ، فَنَفْسُ قَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ لَيسَ فِيهِ شَرٌّ أَبداً، لأَنَّهُ صَادِرٌ عَنْ رَحمَةٍ وَحِكْمَةٍ، «فَأَفعَالُهُ كُلُّهَا خيرٌ وَأَحكَامُهُ كَذَلِكَ كُلُّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِمَصْلَحَةِ العِبَادِ في مَعَاشِهِم وَمَعَادِهِم، وَلِذَا فَهِيَ طَيِّبَةٌ صَالِحَةٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَحَالٍ»(١).

وَلا يُضَافُ إِلَيهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، وَلا يَصْعَدُ إِلَيهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَالطَّيِّبَاتُ

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص١٤٤ ـ ١٤٥)، للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.

كُلُّهَا لَهُ وَمِنهُ وَإِلَيهِ، وَصْفاً وَفِعْلاً وَقولاً وَنِسْبَةً، وَمِنْهُ مَجيؤُهَا وَابتِدَاؤُهَا، وَإِلَيهِ مَصْعَدُهَا وَمُنْتَهَاهَا، فَالكَلِمَاتُ الطَّيِّبَاتُ، وَالأَفْعَالُ الطَّيِّبَاتُ، وَالصِّفَاتُ الطَّيِّبَاتُ، وَالأَسماءُ الطَّيِّبَاتُ، كُلُّهَا لَهُ سُبحَانَهُ، لا يَسْتَحِقُّهَا أَحَدٌ سِوَاهُ، بَلْ مَا طَابَ شَيءٌ قَطُّ إِلَّا بِطِيبَتِهِ سُبحَانَهُ، فَطِيبُ كُلِّ مَا سِوَاهُ مِنْ آثَارِ طِيْبَتِهِ.

وَأَيضاً فَمَعَاني الكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ للهِ وَحْدَهُ، فَإِنَّ الكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ تَتَضَمَّنُ تَسْبِيحَهُ وَتَحمِيدَهُ وَتَكْبِيرَهُ وَتَمجِيدَهُ وَالثَّنَاءَ عَلَيهِ بِآلائِهِ وَأَوصَافِهِ، فَهَذِهِ الكَلِمَاتُ الطَّيِّبَاتُ الَّتي يُثْنَىٰ عَلَيهِ بِهَا وَمَعَانِيهَا لَهُ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُهُ فِيهَا غَيرُهُ، كَـ (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَىٰ جَدُّكَ وَلا إِلٰهَ غَيرُكَ)، وَنَحوِ: (سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمدُ للهِ وَلا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكبَرُ)، وَنَحوِ: (سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ سُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ).

فَكُلُّ طَيِّبٍ فَلَهُ وَعِنْدَهُ وَمِنْهُ وَإِلَيهِ، وَهُوَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَهُوَ إِلَهُ الطَّيِّبِينَ وَلا يُجَاوِرُهُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا الطَّيِّبُونَ. كَمَا يُقَالُ لأَهلِ الجنَّةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فَتَأَمَّلْ أَطيبَ الكَلِمَاتِ بَعْدَ القُرآنِ كَيفَ لا تَنْبَغِي إِلَّا للهِ، وَهِيَ سُبحَانَ اللهِ وَالحَمدُ للهِ وَلا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكبَرُ وَلا حولَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّ سُبْحَانَ اللهِ تَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيبٍ وَسُوءٍ، وَعَنْ خَصَائِصِ المَخْلُوقِينَ وَشَبَهِهِم؛ وَالحَمدُ للهِ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ قَولاً وَفِعلاً وَوَصْفاً عَلَىٰ أَتَمِّ الوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا أَزَلاً وَأَبداً، وَلا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ تَتَضَمَّنُ انفِرَادَهُ بِالإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فَبَاطِلٌ، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ الإِلَهُ الحَقُّ؛ وَأَنَّهُ مَنْ تَأَلَّهَ غَيرَهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مِنِ اتَّخَذَ بَيتاً مِنْ بُيُوتِ العَنْكَبُوتِ

يَأْوِي إِلَيهِ وَيَسْكُنُهُ؛ وَاللهُ أَكبَرُ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَعزُّ وَأَقوىٰ وَأَقدرُ وَأَعلَمُ وَأَحكَمُ، فَهَذِهِ الطَّيِّبَاتُ لا تَصْلُحُ هِيَ وَمَعَانِيهَا إِلَّا للهِ وَحدَهُ[1].

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الطِّيبَةِ:

١ ـ التَّقَرُّبُ إِلىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِالأَعمَالِ وَالأَقوَالِ وَالاعتِقَادَاتِ الطَّيِّبَةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وَقَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَإِلَيهِ يَصعَدُ كُلُّ قَولٍ طَيِّبٍ ... وَإِلَيهِ يُرفَعُ سَعيُ ذي الشُّكرَانِ[2]

عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ مِنْ أَطْيَبِ الكَلامِ، وَهُنَّ مِنَ القُرآنِ؛ لا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأتَ: سُبحَانَ اللهِ، وَالحَمدُ للهِ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكبَرُ**»[3].

وَعَن أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ، لا يَقبَلُ إِلَّا طَيِّباً**»[4].

قَالَ ابنُ رَجَب رَحِمَهُ اللهُ: وَالمَعنَىٰ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ مُقَدَّسٌ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالعُيُوبِ كُلِّهَا، وَهَذَا كَمَا في قَولِهِ: ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]،

---

(١) الكلام علَى مسألة السماع (ص٢٠٨ ـ ٢٠٩)، لابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) الكافية الشافية (ص٥٤).
(٣) رواه أحمد (٥/ ١١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٣٤٦).
(٤) رواه مسلم (١٠١٥).

وَالمُرَادُ: المُنَزَّهُونَ مِنْ أدنَاسِ الفَوَاحِشِ وَأَوضَارِهَا. لا يَقْبَلُ مِنَ الأَعمَالِ إِلَّا مَا كَانَ طَيِّباً طَاهِراً مِنَ المُفسِدَاتِ كُلِّهَا كَالرِّيَاءِ وَالعُجْبِ، وَلا مِنَ الأَموَالِ إِلَّا مَا كَانَ طَيِّباً حَلَالاً، فَإِنَّ الطَّيِّبَ تُوصَفُ بِهِ الأَعمَالُ وَالأَحوَالُ وَالاعتِقَادَاتُ، فَكُلُّ هَذِهِ تَنقَسِمُ إِلىٰ طَيِّبٍ وَخَبِيثٍ.

وَعَنْ عَدِيٍّ بنِ حَاتم ﵁: عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ النَّارَ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، وَأَشَاحَ بِوَجهِهِ ثَلاثَ مِرَارٍ، ثُمَّ قَالَ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِن لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»[١].

وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ تَشْمَلُ النَّصِيحَةَ لِلْخَلْقِ بِتَعلِيمِهِم مَا يَجهَلُونَ، وَإِرشَادِهِم إِلىٰ مَصَالِحِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنيَوِيَّةِ.

وَتَشمَلُ الكَلامَ المُسِرَّ لِلْقُلُوبِ، الشَّارِحَ لِلْصُّدُورِ، المُقَارِنَ لِلبَشَاشَةِ وَالبِشرِ.

وَتَشمَلُ الذِّكرَ للهِ وَالثَّنَاءَ عَلَيهِ، وَذِكْرَ أَحكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ.

فَكُلُّ كَلَامٍ يُقَرِّبُ إِلىٰ اللهِ وَيحصُلُ بِهِ النَّفعُ لِعِبَادِ اللهِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ[٢].

وَعَنْ جُندَبِ بنِ عَبدِ اللهِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **مَنِ استَطَاعَ مِنكُم أَن لا يُدخِلَ بَطنَهُ إِلَّا طَيِّباً، فَإِنَّ أَوَّلَ ما يُنتِنُ مِنَ الإِنسَانِ بَطنُهُ**»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٣)، ومسلم [٦٨ ـ (١٠١٦)] ـ والسياق له ـ.

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص١٥١).

(٣) رواه الطبراني (١٦٦٢)، وصححه لغيره الألباني ﵀ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٤٤).

وَعَن أَبي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الأَكْثَرُونَ هُمُ الأَسْفَلُونَ يَومَ القِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ بِالمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا، وَكَسَبَهُ مِن طَيِّبٍ**»(١).

وَعَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلا يَصْعَدُ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُم فَلُوَّهُ، حَتَّىٰ تَكُونَ مِثلَ الجَبَلِ**»(٢).

أَي: أَنَّ اللهَ تَعَالى يَقبَلُهَا مِنْ صَاحِبِهَا، فَيَأْخُذُهَا بِيَدِهِ اليُمنَى، وَكِلتَا يَدَيهِ يَمِينٌ، فَيُنَمِّيهَا لِصَاحِبِهَا، وَيُبَارِكُ فِيهَا، وَيَعتَنِي بِهَا عِنَايَةً بَالِغَةً، كَمَا يَعتَنِي أَحَدُنا بِأَغلَى مَا لَدَيهِ مِنَ المَالِ، وَأَنفَسِهِ، وَهُوَ وَلَدُ الفَرَسِ، الَّذِي يُعَدُّ لِمُدَافَعَةِ الأَعدَاءِ وَقِتَالِهِم، وَحِمَايَةِ الأَعرَاضِ، وَالنُّفُوسِ، وَالأَموَالِ، حَتَّى يَصِيرَ مَا هُوَ بِقَدرِ التَمرَةِ - لِشِدَّةِ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى بِهِ - مِثلَ الجَبَلِ(٣).

وَإِذَا كَانَ اللهُ طَيِّباً وَلا يَقبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَالطَّيِّبُ مِنْ كلِّ شَيءٍ هُوَ مُختَارُهُ تَعَالَىٰ: فَلا بُدَّ لِلمُؤمِنِ أَن يَكُونَ طَيِّباً.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ ﷺ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ المُؤمِنَ لَكَمَثَلِ النَّحلَةِ: أَكَلَت طَيِّباً،**

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٣٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٤٩).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣٨٤).

وَوَضَعَت طَيِّباً»[١].

شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ المُؤمِنَ بِالنَّحْلَةِ لِكَثرَةِ مَنَافِعِهِ وَخَيرِهِ، وَلِكَثرَةِ مَا أَودَعَ اللهُ فِيهِ مِنَ الإِيمَانِ وَالهُدَىٰ وَالنُّورِ وَالتَّقوَىٰ، وَالخَيرِ وَالبَرَكَةِ وَالرَّحمَةِ وَاللِّينِ، وَالعَدلِ وَالإِحسَانِ وَالنُّصحِ، وَسَائِرِ أَنوَاعِ البِرِّ وَالخَيرِ، الَّتِي وَضَعَهَا اللهُ في قَلبِ المُؤمِنِ. فَقَلبُهُ مِنْ أَطيَبِ القُلُوبِ. «فَإِنَّهُ لَيسَ في الدُّنيَا أَكْثَرُ وَلا أَعظَمُ خَيراً مِنْ قَلْبِ المُؤمِنِ»[٢].

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: الكَرمُ، فَإِنَّما الكَرمُ قَلبُ المُؤمِنِ»**[٣].

فَلِلمُؤمِنِ مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ الَّذِي لا يَصعَدُ إِلىٰ اللهِ إِلَّا هُوَ، فَيَنْفِرُ مِنَ الفُحشِ في المَقَالِ وَالتَّفَحُّشِ في اللِّسَانِ وَالنِّدَاءِ، وَالكَذِبِ وَالنَّمِيمَةِ، وَالبُهْتَانِ، وَقَولِ الزُّورِ وَكُلِّ كَلامٍ خَبِيثٍ. وَفي الحَدِيثِ: **«لَيسَ المُؤمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ، وَلا الفَاحِشِ وَلا البَذِيءِ»**[٤].

«وَكَذَلِكَ لا يَألَفُ مِنَ الأَعمَالِ إِلَّا أَطيَبَهَا، وَهِيَ الأَعمَالُ الَّتِي اجتَمَعَت [فِيْهَا] عَلَىٰ حُسنِهَا الفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ مَعَ الشَّرَائِعِ النَّبَوِيَّةِ، وَزَكَّتْهَا العُقُولُ الصَّحِيحَةُ، فَاتَّفَقَ عَلَىٰ حُسْنِهَا الشَّرْعُ وَالعَقْلُ وَالفِطرَةُ، مِثْلَ أَن يَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ لا يُشرِكُ بِهِ شَيئاً، وَيُؤثِرَ مَرضَاتَهُ عَلَىٰ هَوَاهُ، وَيَتَحَبَّبَ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٩٩)، وَحسنه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٢٢٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٩٤).

(٣) رواه البخاري (٦١٨٣)، وَمسلم [٩ ـ (٢٢٤٧)] ـ وَاللفظ له ـ.

(٤) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٧٠).

إِلَيهِ جهدَهُ وَطَاقَتَهُ، وَيُحسِنَ إِلىٰ خَلْقِهِ مَا استَطَاعَ، فَيَفْعَلَ بِهِم مَا يُحِبُّ أَن يَفْعَلُوهُ بِهِ، وَيُعَامِلَهُم بِهِ، وَيَدَعَهُم مِمَّا يُحِبُّ أَن يَدَعُوهُ مِنهُ، وَيَنصَحَهُم بِمَا يَنصَحُ بِهِ نَفْسَهُ، وَيَحْكُمَ لَهُم بِمَا يُحِبُّ أَن يُحكَمَ لَهُ بِهِ، وَيَحمِلَ أَذَاهُم وَلا يُحَمِّلَهُم أَذَاهُ، وَيَكُفَّ عَن أَعرَاضِهِم وَلا يُقَابِلَهُم بِمَا نَالُوا مِن عِرضِهِ، وَإِذَا رَأَىٰ لَهُم حَسَناً أَذَاعَهُ، وَإِذَا رَأَىٰ لَهُم سَيِّئاً كَتَمَهُ، وَيُقِيمَ أَعذَارَهُم مَا استَطَاعَ فِيمَا لا يُبطِلُ شَرِيعَةً، وَلا يُنَاقِضُ للهِ أَمراً وَلا نَهياً.

وَلَهُ أَيضاً مِنَ الأَخلاقِ أَطيَبُهَا وَأَزكَاهَا، كَالحِلمِ، وَالوَقَارِ، وَالسَّكِينَةِ، وَالرَّحمَةِ، وَالصَّبرِ، وَالوَفَاءِ، وَسُهُولَةِ الجَانِبِ، وَلِينِ العَرِيكَةِ، وَالصِّدقِ، وَسَلامَةِ الصَّدرِ مِنَ الغِلِّ وَالغِشِّ وَالحِقْدِ وَالحَسَدِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَخَفضِ الجَنَاحِ لأَهلِ الإِيمَانِ وَالعِزَّةِ وَالغِلظَةِ عَلَىٰ أَعدَاءِ اللهِ، وَصِيَانَةِ الوَجهِ عَنْ بَذْلِهِ وَتَذَلُّلِهِ لِغَيرِ اللهِ، وَالعِفَّةِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ، وَالمُرُوءَةِ، وَكُلِّ خُلُقٍ اتفقَتْ عَلَىٰ حُسنِهِ الشَّرَائِعُ وَالفِطَرُ وَالعُقُولُ.

وَكذَلِكَ لا يَختَارُ مِنَ المَطَاعِمِ إِلَّا أَطْيَبَهَا، وَهُوَ الحَلالُ الهَنِيءُ المَرِيءُ الَّذِي يُغَذِّي البَدَنَ وَالرُّوحَ أَحسَنَ تَغْذِيَةٍ، مَعَ سَلامَةِ العَبدِ مِنْ تَبِعَتِهِ.

وَكَذَلِكَ لا يَختَارُ مِنَ المَنَاكِحِ إِلَّا أَطيَبَهَا وَأَزكَاهَا، وَمِنَ الرَّائِحَةِ إِلَّا أَطْيَبَهَا وَأَزكَاهَا، وَمِنَ الأَصْحَابِ وَالعُشَرَاءِ إِلَّا الطَّيِّبِينَ مِنهُم، فَرُوحُهُ طَيِّبٌ، وَبَدَنُهُ طَيِّبٌ، وَخُلُقُهُ طَيِّبٌ، وَعَمَلُهُ طَيِّبٌ، وَكَلامُهُ طَيِّبٌ، وَمَطْعَمُهُ طَيِّبٌ، وَمَشرَبُهُ طَيِّبٌ، وَمَلبَسُهُ طَيِّبٌ، وَمَنكِحُهُ طَيِّبٌ، وَمَدخَلُهُ

طَيِّبٌ، وَمَخرَجُهُ طَيِّبٌ، وَمُنقَلَبُهُ طَيِّبٌ، وَمَثوَاهُ كُلُّهُ طَيِّبٌ. فَهَذَا مِمَّن قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢]، وَمِنَ الَّذِينَ يَقُولُ لَهُم خَزَنَةُ الجَنَّةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. وَهَذِهِ الفَاءُ تَقتَضِي السَّبَبِيَّةَ، أي: بِسَبَبِ طِيبِكُم ادخُلُوهَا»[١].

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الميِّتُ تَحضُرُهُ المَلائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالحاً، قَالُوا: اخرُجِي أَيَّتُهَا النَّفسُ الطَّيِّبَةُ كَانَت في الجَسَدِ الطَّيِّبِ. اخرُجِي حَمِيْدَةً وَأَبشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيحَانٍ وَرَبٍّ غَيرِ غَضبَانَ. فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ، حَتَّىٰ تَخرُجَ، ثُمَّ يُعرَجُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَيُفتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلانٌ. فَيُقَالُ: مَرحَباً بِالنَّفسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ في الجَسَدِ الطَّيِّبِ. ادخُلِي حَمِيدَةً وَأَبشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيحَانٍ وَرَبٍّ غَيرِ غَضْبَانَ. فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ يُنتَهَىٰ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ»**[٢].

فَالَّذِينَ طَابَتْ قُلُوبُهُم وَأَقوَالُهُم وَأَفعَالُهُم، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُثِيبُهُم ثَوَاباً جَزِيلاً، وَأَجراً عَظِيماً، وَعَطَاءً جَسِيماً، وَخَيراً غَزِيراً، وَفَوزاً دَائِماً.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٦٥ ـ ٦٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٦٤)، وَابن ماجه (٤٢٦٢)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٧).

صِفَةُ البَصَرِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ بَصَرِهِ ﷻ: فَهُوَ البَصِيرُ جلَّ جلالُهُ الَّذِي قَد كَمُلَ في بَصَرِهِ؛ «أَحَاطَ بَصَرُهُ بِجَمِيعِ المُبْصِرَاتِ في أَقْطَارِ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، حَتَّىٰ أَخفَىٰ مَا يَكُونُ فِيهَا: فَيَرىٰ دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوداءِ عَلَىٰ الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ في اللَّيلَةِ الظَّلمَاءِ، وَجَميعَ أَعضَائِهَا البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ وَسَرَيانَ القُوتِ في أَعضَائِهَا الدَّقِيقَةِ، وَيَرَىٰ سَرَيَانَ المياهِ في أَغصَانِ الأَشجَارِ وَعُرُوقِهَا، وَجَميعَ النَّبَاتَاتِ عَلَىٰ اختِلافِ أَنوَاعِهَا وَصِغَرِهَا وَدِقَّتِهَا، وَيَرَىٰ نِيَاطَ عُرُوقِ النَّملَةِ وَالنَّحلَةِ وَالبَعُوضَةِ وَأَصغَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَيَرَىٰ خِيَانَاتِ الأَعيُنِ وَتَقَلُّبَاتِ الأَجفَانِ، وَحَرَكَاتِ الجَنَانِ»[1]. وَيَرَىٰ ما تحتَ الأَرَضِينَ السَّبعِ، كَمَا يَرَىٰ ما فَوقَ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ.

وَأَلطَفُ مِن ذَلِكَ رُؤيتُهُ لِتَقَلُّبِ عَبدِهِ، وَمُشَاهَدَتُهُ لاختِلافِ أَحوَالِهِ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ ؒ:

وَهُوَ البَصِيرُ يَرَىٰ دَبِيبَ النَّملَةِ السَّـ ... ـودَاءِ تَحتَ الصَّخرِ وَالصَّوَّانِ

وَيَرَىٰ مَجَارِيَ القُوتِ في أَعضَائِهَا ... وَيَرَىٰ عُرُوقَ بَيَاضِهَا بِعِيَانِ

وَيَرَىٰ خِيَانَاتِ العُيُونِ بِلَحظِهَا ... وَيَرَىٰ كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجفَانِ[2]

---

(١) موارد الأمان (ص٢٧).

(٢) الكافية الشافية (ص٢٠٧).

○ **الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ البَصَرِ:**

إِذَا آمَنَّا بِأَنَّ اللهَ بَصِيرٌ، حَمَلَنَا ذَلِكَ عَلَىٰ حِفظِ الجَوَارِحِ وَخَطَرَاتِ القُلُوبِ، عَنْ كُلِّ مَا لا يُرضِي اللهَ. وَحَمَلَنَا أَيضاً عَلَىٰ «خَشيَتِهِ في السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ، في الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ؛ لأَنَّهُ يَرَانَا عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، فَكَيفَ نَعصِيهِ مَعَ عِلمِنَا بِاطِّلاعِهِ عَلَينَا، وَأَنَّهُ يَرَانَا سُبحَانَهُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢١٩]»[1].

---

(١) التعليقات الزكية عَلَى العقيدة الواسطية (١/ ٨٢).

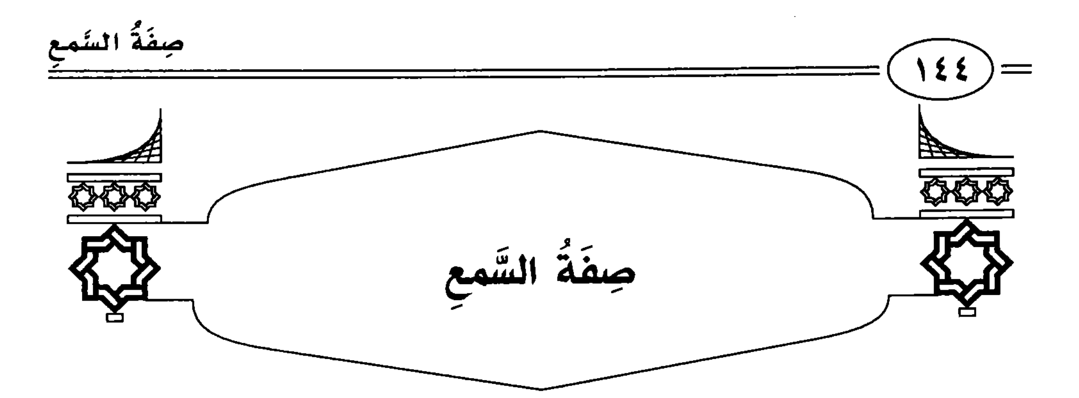

صِفَةُ السَّمعِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ سَمعِهِ ﷻ: فَهُوَ السَّمِيعُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سَمْعِهِ؛ فَاسْتَوَىٰ فِي سَمْعِهِ سِرُّ القَولِ وَجَهْرُهُ، وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ فَلا تَخْتَلِفُ عَلَيهِ أَصْوَاتُ الخَلْقِ وَلا تَشْتَبِهُ عَلَيهِ وَلا يَشْغَلُهُ مِنْهَا سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلا تُغَلِّطُهُ المَسَائِلُ، وَلا يَتَبَرَّمُ بِإِلحَاحِ المُلِحِّينَ عَلَىٰ الدَّوَامِ، يَسْمَعُ ضَجِيجَ الأَصوَاتِ، بِاخْتِلافِ اللُّغَاتِ، عَلَىٰ تَفَنُّنِ الحَاجَاتِ. «بَلْ هِيَ عِنْدَهُ كُلُّهَا كَصَوتٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّ خَلْقَ الخَلْقِ جَمِيعِهِم وَبَعْثَهُم عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»[١].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَضَجِيجُ أَصْوَاتِ العِبَادِ بِسَمْعِهِ ... وَلَدَيهِ لا يَتَشَابَهُ الصَّوتَانِ[٢]

فَفِي اللَّحظَةِ الوَاحِدَةِ يَسْمَعُ دُعَاءَ الدَّاعِينَ، وَقِرَاءَةَ القَارِئِينَ، وَبُكَاءَ البَاكِينَ، لا يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَىٰ وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا ... فِي الكَونِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلانِ

وَلِكُلِّ صَوتٍ مِنهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ ... فَالسِّرُّ وَالإِعلانُ مُسْتَوِيَانِ

---

(١) طريق الهجرتين (ص٧٦).

(٢) الكافية الشافية (ص٧١).

وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الأَصْوَاتِ لا يَخفَىٰ عَلَيهِ بَعِيدُهَا وَالدَّانِي[(١)]

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: الحَمدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ؛ لَقَد جَاءَتِ المُجَادِلَةُ إِلىٰ النَّبيِّ ﷺ - وَأَنا في نَاحِيَةِ البَيتِ - تَشكُو زَوجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ؛ فَأَنزَلَ اللهُ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١][(٢)]، اللهُ تَعَالَىٰ سَمِعَهَا مِنْ عَلَىٰ عَرْشِهِ، وَبَينَهُ وَبَينَهَا مَا لا يَعْلَمُ مَدَاهُ إِلَّا اللهُ عز وجل[(٣)].

وَسَمْعُهُ تَعَالَىٰ نوعَانِ: أَحَدُهُمَا: سَمْعُهُ لِجَمِيعِ الأَصْوَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، الخَفِيَّةِ وَالجَلِيَّةِ، وَإِحَاطَتُه التَّامَّةُ بِهَا.

الثَّاني: سَمْعُ الإِجَابَةِ مِنْهُ لِلسَّائِلِينَ وَالدَّاعِينَ وَالعَابِدِينَ فَيُجِيبُهُم وَيُثِيبُهُم، وَمِنْهُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]؛ أَي مُجِيبُ الدُّعَاءِ، وَمِنْهُ قَولُ المُصَلِّي: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» أَي: أَجَابَ اللهُ حمدَ مَنْ حَمِدَهُ وَدُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا قَالَ** (يَعْنِي: الإِمَامُ): **سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، يَسْمَعُ اللهُ لَكُم**»[(٤)]. أَي يُجِيبُكُم. فَالسَّمَاعُ هُنَا بِمَعْنَىٰ الإِجَابَةِ وَالقَبُولِ. وَفِي الحَدِيثِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُعَاءٍ لا يُسْمَعُ**»[(٥)].

---

(١) الكافية الشافية (ص٢٠٧).

(٢) علَّقهُ البخاري قبل الحديث (٧٣٨٦). ووصلهُ ابن ماجه (١٨٨) - والسِّياق له -، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٦).

(٣) شرح الواسطية (ص٨٣).

(٤) رواه مسلم (٤٠٤)، ضمن حديث طويل.

(٥) رواه أبو داود (١٥٤٨)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٤٢٤).

أَي لا يُسْتَجابُ، وَلا أَدْرِي أَنَحْنُ نُدْرِكُ مَعْنىٰ مَا نَقُولُهُ في صَلاتِنَا، أَو أَنَنَا نَقُولُهُ تَعَبُّداً وَلا نَدْرِي مَا المَعنَىٰ؟!

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ السَّمْعِ:

١ ـ إِنَّ العَبدَ إِذَا اعتَقَدَ أَنَّ رَبَّهُ يَسْمَعُ كُلَّ شَيءٍ، لا تَخفَىٰ عَلَيهِ خَافِيَةٌ، فَيَسْمَعُ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، حَمَلَهُ ذَلِكَ الاعْتِقَادُ عَلَىٰ المُرَاقَبَةِ للهِ سُبحَانَهُ في جَمِيعِ الأَحْوَالِ وَفي جَمِيعِ الأَمْكِنَةِ وَالأَزمِنَةِ، فَيَقُولُ: كَيفَ أَنْطِقُ بِكَذَا وَهُوَ يَسْمَعُنِي؟! وَكَيفَ أَتَكَلَّمُ بِمَا يُسْخِطُهُ وَهُوَ يَسْمَعُنِي وَلا تَخفىٰ عَلَيهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَمْرِي؟[1] فَيكُونُ اعْتِقَادُهُ ذَلِكَ رَادِعاً وَزَاجِراً لَهُ عَنِ الوُقُوعِ فِيمَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ[2].

٢ ـ إِنَّ العَبْدَ إِذَا دَعَا رَبَّهُ فَسَمِعَ دُعَاءَهُ سَمَاعَ إِجَابَةٍ، وَأَعْطَاهُ مَا سَأَلَهُ، عَلَىٰ حَسَبِ مُرَادِهِ وَمَطْلَبِهِ، أَو أَعْطَاهُ خَيراً مِنْهُ، حَصَلَ لَهُ بذَلِكَ سُرُورٌ يَمْحُو مِنْ قَلْبِهِ آثَارَ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنْ وَحْشَةِ البُعْدِ، فَإِنَّ لِلعَطَاءِ وَالإِجَابَةِ سُرُوراً وَأُنْساً وَحَلاوَةً، وَلِلْمَنْعِ وَحْشَةً وَمَرَارَةً، فَإِذَا تَكَرَّرَ مِنْهُ الدُّعَاءُ، وَتَكَرَّرَ مِنْ رَبِّهِ سَمَاعٌ وَإِجَابَةٌ لِدُعَائِهِ، مَحَا عَنْهُ آثَارَ الوَحْشَةِ، وَأَبْدَلَهُ بِهَا أُنْساً وَحَلاوَةً[3].

* * *

(١) التعليقات الزكية عَلَى العقيدة الواسطية (١/ ١٢٩).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٨٧).
(٣) تهذيب المدارج (ص٩٠١).

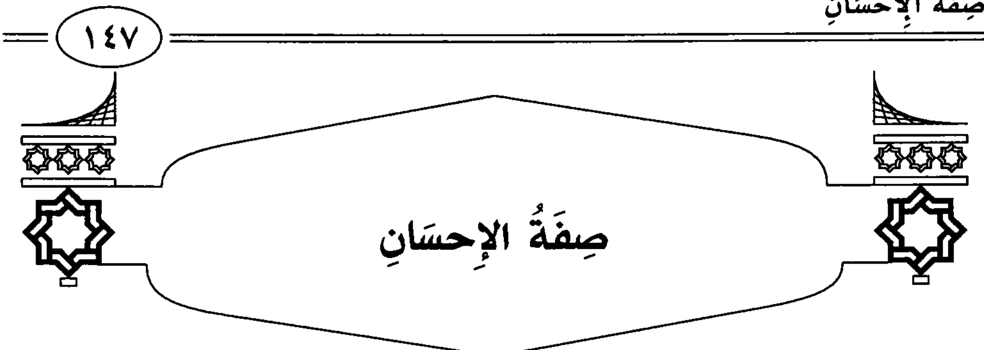

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ إِحسَانِهِ: فَهُوَ مُحسِنٌ عَظِيمُ الإحسَانِ، وَالإحسَانُ وَصفٌ لازِمٌ لَهُ لا يَخلُو مَوجُودٌ عَنْ إِحسَانِهِ طَرفَةَ عَينٍ، فَلا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْ إِحسَانِهِ إِلَيهِ بِنِعمَةِ الإِيجَادِ وَنِعمَةِ الإِمدَادِ.

وَالمُحسِنُ بِمَعنَىٰ إِتقَانِ العَمَلِ، وَأَفعَالُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي غَايَةِ الإِتقَانِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧] «أَي: كُلُّ مَخلُوقٍ خَلَقَهُ اللهُ، فَإِنَّ اللهَ أَحسَنَ خَلْقَهُ، وَخَلَقَهُ خَلْقاً يَلِيقُ بِهِ، وَيُوَافِقُهُ»(١).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [غافر: ٦٤]. «فَلَيسَ فِي جِنسِ الحَيَوَانَاتِ، أَحْسَنُ صُورَةً مِن بَنِي آدَمَ. وَإِذَا أَرَدتَ أَن تَعرِفَ حُسنَ الآدَمِيِّ وَكَمَالَ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَانظُر إِلَيهِ، عُضواً عُضواً، هَل تَجِدُ عُضواً مِنْ أَعضَائِهِ، يَلِيقُ بِهِ وَيَصلُحُ أَن يَكُونَ فِي غَيرِ مَحَلِّهِ؟ وَانظُر أَيضاً، إِلىٰ المَيلِ الَّذِي فِي القُلُوبِ، بَعضُهُم لِبَعضٍ، هَل تَجِدُ ذَلِكَ فِي غَيرِ الآدَمِيِّينَ؟ وَانظُر إِلىٰ مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنَ العَقلِ وَالإِيمَانِ، وَالمَحَبَّةِ وَالمَعرِفَةِ، الَّتِي هِيَ أَحسَنُ الأَخْلاقِ المُنَاسِبَةِ لأَجمَلِ الصُّوَرِ»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٩١٥).

(٢) المصدر السابق (ص١٠٤٢).

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]. فَالإِنسَانُ، أَحسَنُ المَخلُوقَاتِ صُورَةً، وَأَبهَاهَا مَنظَراً[١]. وَقَالَ تَعَالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. فَخَلقُهُ كُلُّهُ حَسَنٌ، وَالإِنسانُ مِنْ أَحسَنِ مَخلُوقَاتِهِ، بَلْ هُوَ أَحسَنُهَا عَلَىٰ الإِطلاقِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التِّين: ٤] أي في أَحسَنِ صُورَةٍ وَشَكلٍ وَاعتِدَالٍ، مُعتَدِلُ القَامَةِ، مُستَوِي الخِلقَةِ، كَامِلُ الصُّورَةِ، أَحسَنُ مِنْ كُلِّ حَيوانٍ سِوَاهُ، وَالتَّقوِيمُ تَصيِيرُ الشَّيءِ عَلَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ في التَّألِيفِ وَالتَّعدِيلِ، وَذَلِكَ صُنعَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»[٢].

رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ المُحسِنُ الَّذِي غَمَرَ الخَلقَ جَمِيعاً بِأَنوَاعِ الإِحسَانِ وَالإِنعَامِ وَالأَرزَاقِ وَالعَطَايَا. وَهُوَ سُبحَانَهُ كَثِيرُ الإِحسَانِ، فَلا نِهَايَةَ لإِحسَانِهِ. وَلا غِنَىٰ لَهُم عَنْهُ طَرفَةَ عَينٍ، وَلا قِيَامَ لَهُم وَلا بَقَاءَ إِلَّا بِهِ سُبحَانَهُ وَبِجُودِهِ وَإِنعَامِهِ.

يَكفِيكَ مَنْ لَم تَخلُ مِنْ إِحسَانِهِ   فِي طَرفَةٍ بِتَقَلُّبِ الأَجفَانِ[٣]

فَمَا طَابَ العَيشُ إِلَّا بِإِحسَانِهِ، وَكُلُّ نِعمَةٍ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، فَهِيَ إِحْسَانٌ مِنْهُ بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ.

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الإِحسَانِ:

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ التَّعَبُّدَ بِمَعَانِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَهُوَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، مُحْسِنٌ يُحِبُّ الإِحسَانَ، وَلِذَا كَتَبَ الإِحسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٢٢٠).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص٣١).
(٣) الكافية الشافية (ص٢٨٧).

عَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الإِحْسَانَ، فَإِذَا حَكَمْتُم فَاعْدِلُوا، وَإِذَا قَلْتُم فَأَحسِنُوا**»[١].

وَعَن شَدَّادِ بنِ أَوسٍ ﷺ قَالَ: حَفِظتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اثنَتَينِ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الإحسَانَ، فَإِذَا قَتَلتُم فَأَحسِنُوا القِتلَةَ؛ وَإِذَا ذَبَحْتُم فَأَحسِنُوا الذَّبْحَ، وَلِيُحِدَّ أَحَدُكُم شَفْرَتَهُ، ثُمَّ لِيُرِح ذَبِيحَتَهُ**»[٢].

فَإِذَا كَانَ العَبدُ مَأمُوراً بِالإِحسَانِ إِلىٰ مَنِ استَحَقَّ القَتلَ مِنَ الآدَمِيِّينَ، وَبِإِحسَانِ ذِبحَةِ ما يُرَادُ ذَبحُهُ مِنَ الحَيَوانِ، فَكَيفَ بِغَيرِ هَذِهِ الحَالَةِ؟[٣]

عَن كُلَيبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ يُحِبُّ مِنَ العَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحسِنَ**»[٤].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَاللهُ لا يَرضىٰ بِكَثرَةِ فِعلِنَا ... لَكِن بِأَحسَنِهِ مَعَ الإِيمَانِ
فَالعَارِفُونَ مُرَادُهُم إِحسَانُهُ ... وَالجَاهِلُونَ عَمُوا عَنِ الإِحسَانِ[٥]

وَالإِحسَانُ هُوَ غَايَةُ الوُجُودِ الإِنسانِيِّ. قَالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٤٦٩).

(٢) رواه الطبراني (٧١٢١)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (١٨٢٤).

(٣) بهجة قلوب الأبرار (ص١١٩).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣١٥)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (١٨٩١).

(٥) الكافية الشافية (ص٧٠).

عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]. وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، (وَلم يَقُل: أَكثرُ عَملاً، فَإِذَا عَرَفَ العبدُ أَنَّهُ خُلِقَ لأَجلِ أَن يُختَبَرَ في إِحسَانِ العَمَلِ، كَانَ حَرِيصاً عَلَىٰ الحَالةِ الَّتي يَنجَحُ بِهَا في هَذَا الاختِبَارِ؛ لأَنَّ اختِبَارَ رَبِّ العَالَمِينَ يَومَ القِيَامَةِ، مَنْ لم يَنجَحْ فِيهِ جُرَّ إِلىٰ النَّارِ، فَعَدَمُ النَّجَاحِ فِيهِ مَهلَكَةٌ، وَقَدْ أَرَادَ جِبرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَن يُنَبِّهَ أَصحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ عِظَم هَذِهِ المَسأَلَةِ وَشِدَّةِ تَأَكُّدِهَا، فَقَالَ لِلنَّبيِّ ﷺ في حَدِيثِهِ المَشهُورِ: يَا مُحَمَّدُ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ ـ أَخبِرني عَنِ الإِحسَانِ؟ أَي: وَهُوَ الَّذِي خُلِقَ الخَلقُ مِنْ أَجلِ الاختِبَارِ فِيهِ، فَبَيَّنَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ طُرُقَهُ الوَحِيدةَ هِيَ هَذَا الوَاعِظُ الأَكبَرُ وَالزَّاجِرُ الأَعظَمُ، الَّذِي هُوَ طَرِيقُ المُرَاقَبَةِ وَالعِلم فَقَالَ: «**الإِحسَانُ أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَراهُ، فَإِن لَم تَكُن تَراهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»)[1].

وَالإِحسَانُ نَوعَانِ: إِحسَانٌ في عِبَادَةِ اللهِ وَهُوَ «**أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». فَهَذَانِ مَقَامَانِ: **أَحَدُهُمَا**: مَقَامُ المُرَاقَبَةِ، وَهُوَ أَن يَستَحضِرَ العَبدُ قُربَ اللهِ مِنْهُ وَاطِّلاعَهُ عَلَيهِ؛ فَيَتَخَايَلَ أَنَّهُ لا يَزالُ بَينَ يَدَي اللهِ، فَيُرَاقِبَهُ في حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَسِرِّهِ وَعَلانِيَتِهِ، فَهَذَا مَقَامُ المُرَاقِبِينَ المُخلِصِينَ، وَهُوَ أَدنىٰ مَقَام الإِحسَانِ.

وَالثَّاني: أَن يَشهَدَ العَبدُ بِقَلبِهِ ذَلِكَ شَهَادَةً، فَيَصِيرَ كَأَنَّهُ يَرَىٰ اللهَ وَيُشَاهِدُهُ، وَهَذَا نِهَايَةُ مَقَامِ الإِحسَانِ، وَهُوَ مَقَامُ العَارِفِينَ.

فَمَنْ وَصَلَ إِلىٰ هَذَا المقَامِ، فَقَد وَصَلَ إِلىٰ نِهَايَةِ الإِحسَانِ، وَصَارَ

---

(١) العذب النَّمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٥/ ٢٠٠).

الإِيمَانُ لِقَلبِهِ بِمَنزِلَةِ العَيَانِ، فَعَرَفَ رَبَّهُ وَأَنِسَ بِهِ فِي خَلوَتِهِ، وَتَنَعَّمَ بِذِكرِهِ وَمُنَاجَاتِهِ وَدُعَائِهِ[(١)].

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُنَاسٌ مِنْ أَهلِ البَدوِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! قَدِمَ عَلَينَا أُنَاسٌ مِن قَرَابَتِنَا، فَزَعَمُوا أَنَّهُ لا يَنفَعُ عَمَلٌ دُونَ الهِجرَةِ وَالجِهَادِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حَيثُما كُنتُم، فَأَحسِنُوا عِبَادَةَ اللهِ، وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ**»[(٢)].

وَالإِحسَانُ إِلَىٰ المخلُوقِينَ «هُوَ بَذْلُ المعرُوفِ القَولِيِّ وَالفِعلِيِّ وَالمالِيِّ إِلَىٰ الخَلقِ. فَأَعظَمُ الإِحسَانِ تَعلِيمُ الجَاهِلِينَ، وَإِرشَادُ الضَّالِّينَ، وَالنَّصِيحَةُ لِجَمِيعِ العَالَمِينَ.

وَمِنَ الإِحسَانِ: إِعَانَةُ المُحْتَاجِينَ، وَإِغَاثَةُ المَلهُوفِينَ، وَإِزَالَةُ ضَرَرِ المُضطَرِّينَ، وَمُسَاعَدَةُ ذَوِي الحَوَائِجِ عَلَىٰ حَوَائِجِهِم، وَبَذلُ الجَاهِ وَالشَّفَاعَةِ لِلنَّاسِ فِي الأُمُورِ الَّتِي تَنفَعُهُم.

وَمِنَ الإِحسَانِ المَالِيِّ: جَمِيعُ الصَّدَقَاتِ المَالِيَّةِ، سَوَاءٌ كَانَت عَلَىٰ المُحتَاجِينَ، أَو عَلَىٰ المشَارِيعِ الدِّينِيَّةِ العَامِّ نَفعُهَا.

وَمِنَ الإِحسَانِ: الهَدَايَا وَالهِبَاتُ لِلأَغنِيَاءِ وَالفُقَرَاءِ، خُصُوصاً لِلأَقَارِبِ وَالجِيرَانِ، وَمَنْ لَهُم حَقٌّ عَلَىٰ الإِنسَانِ مِنْ صَاحِبٍ وَمُعَامِلٍ وَغَيرِهِم.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَنوَاعِ الإِحسَانِ: العَفوُ عَنِ المُخطِئِينَ المُسِيئِينَ، وَالإِغضَاءُ عَن زَلَّاتِهِم، وَالعَفوُ عَن هَفَوَاتِهِم»[(٣)].

---

(١) فتح الباري (١/ ٢١١ ـ ٢١٣)، لابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) أخرجه البيهقي (٩/ ١٧)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٣١٤٦).

(٣) فتح الرحيم الملك العلام (ص١١٢ ـ ١١٣).

وَمَن كَانَت طَرِيقَتُهُ الإِحسَانَ، أَحسَنَ اللهُ جَزَاءَهُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝﴾ [الرحمن: ٦٠]، وَهَذَا استِفهَامٌ بِمَعنىٰ التَّقرِيرِ؛ أَي: هَل جَزَاءُ مَن أَحسَنَ في عِبَادَةِ اللهِ وَإِلىٰ عِبَادِ اللهِ إِلَّا أَن يُحسِنَ اللهُ جَزَاءَهُ. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فَالحُسنىٰ: الجَنَّةُ، وَالزيَادَةُ: النَّظَرُ إِلىٰ وَجهِ اللهِ الكَرِيمِ. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] وَمَحَبَّةُ اللهِ هِيَ أَعْلَىٰ[(١)] ما تَمَنَّاهُ المؤمِنُونَ، وَأَفضَلُ مَا سَأَلَهُ السَّائِلُونَ، وَسَبَبُهَا مِنَ العَبدِ أَن يَكُونَ مِنَ المُحسِنِينَ في عِبَادَتِهِ وَإِلىٰ عِبَادِهِ، فَيَنَالَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَحمَتِهِ بِحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِنَ الإِحسَانِ[(٢)].

وَمَحَبَّتُهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ لِعَبدِهِ المُؤمِنِ شَيءٌ فَوقَ إِنعَامِهِ، وإِحسَانِهِ، وَعَطَائِهِ، وإِثَابَتِهِ، فَإِنَّ هَذا أَثَرُ المَحَبَّةِ وَمُوجِبُهَا، أَمَّا هِيَ فَأَعظَمُ مِنْ ذَلِكَ وأَشرَفُ[(٣)].

❁ ❁ ❁

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام (ص١١١ ـ ١١٢).

(٢) مجموع الفوائد (ص٢١٥).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٥٩/١).

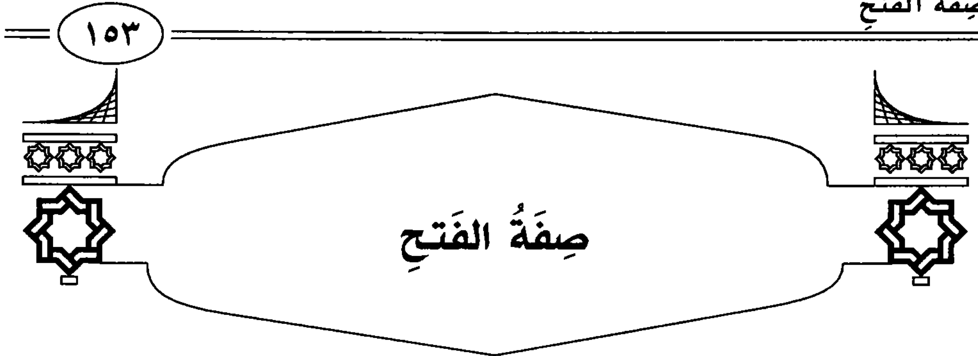

صِفَةُ الفَتحِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ فَتحِهِ: فَهُوَ الفَتَّاحُ، الذي قَدْ كَمُلَ في فَتْحِهِ، وَهُوَ خَيرُ الفَاتِحِينَ. «الذي يَفْتَحُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، بِمَا يَشَاءُ مِنْ فَضْلِهِ العَمِيم»(١).

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَكَذَلِكَ الفَتَّاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالفَتحُ في أَوصَافِهِ أمرَانِ
فَتحٌ بِحُكمٍ وَهُوَ شَرعُ إِلَهِنَا ... وَالفَتْحُ بِالأَقدَارِ فَتحٌ ثَانِي
وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَينِ كِلَيهِمَا ... عَدلاً وَإِحسَاناً مِنَ الرَّحمَنِ(٢)

وَلِلفَتَّاحِ مَعنيَانِ:

أَحَدُهُمَا: يَرجِعُ إِلىٰ مَعْنىٰ الحَكَمِ الَّذِي يَفْتَحُ بَينَ عِبَادِهِ، وَيَحْكُمُ بَينَهُم بِشَرْعِهِ، وَيَحْكُمُ بَينَهُم بِإِثَابَةِ الطَّائِعِينَ وَعُقُوبَةِ العَاصِينَ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦]، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. فَالآيَةُ الأُولىٰ فَتحُهُ بَينَ العِبَادِ يَومَ القِيَامَةِ، وَهَذَا في الدُّنيَا بِأَنْ يَنْصُرَ الحَقَّ وَأَهْلَهُ، وَيُذِلَّ البَاطِلَ وَأَهلَهُ، وَيُوقِعَ بِهِمُ العُقُوبَاتِ.

---

(١) معارج القبول (١/٤٨).

(٢) الكافية الشافية (ص٢١٢ ـ ٢١٣).

المَعنىٰ الثَّاني: فَتحُهُ لِعِبَادِهِ جَمِيعَ أَبوَابِ الخَيرَاتِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]. يَفْتَحُ لِعِبَادِهِ مَنَافِعَ الدُّنيَا وَالدِّينِ، فَيَفْتَحُ لِمَنِ اختَصَّهُم بِلُطْفِهِ وَعِنَايَتِهِ أَقْفَالَ القُلُوبِ، وَيُدِرُّ عَلَيهَا مِنَ المعَارِفِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالحَقَائِقِ الإِيمَانِيَّةِ مَا يُصلِحُ أَحْوَالَهَا وَتَسْتَقِيمُ بِهِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَأَخَصُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَفْتَحُ لأَربَابِ مَحَبَّتِهِ وَالإِقبَالِ عَلَيهِ عُلُوماً رَبَّانِيَّةً، وَأَحْوَالاً رُوحَانِيَّةً، وَأَنوَاراً سَاطِعَةً، وَفُهُوماً وَأَذْوَاقاً صَادِقَةً.

وَيَفْتَحُ أَيضاً لِعِبَادِهِ أَبوَابَ الأَرزَاقِ وَطُرُقَ الأَسبَابِ، وَيُهَيِّئُ لِلمُتَّقِينَ مِنَ الأَرزَاقِ وَأَسبَابِهَا مَا لا يَحْتَسِبُونَ، وَيُعْطِي المُتَوَكِّلِينَ فَوقَ مَا يَطلُبُونَ وَيُؤَمِّلُونَ، وَيُيَسِّرُ لَهُمُ الأُمُورَ العَسِيرَةَ، وَيَفْتَحُ لَهُمُ الأَبوَابَ المُغْلَقَةَ(١).

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا يَفْتَحُ اللهُ ﷻ، عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ يومَ القِيَامَةِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ: «**ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيهِ، شَيئاً لَم يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلي؛ ثُمَّ يُقَالُ: يا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأسَكَ، سَل تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّع**»(٢).

وَمِنْ ذَلِكَ: فَتحُهُ سُبحَانَهُ بَاباً لِلتوبَةِ.

عنْ صَفْوانَ بنِ عَسَّالٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ قِبَلِ مَغرِبِ الشَّمسِ بَاباً مَفتُوحاً، عَرضُهُ سَبعُونَ سَنَةً، فَلا يَزالُ ذَلِك البَابُ مَفتُوحاً لِلتَّوبَةِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمسُ مِنْ نَحْوِهِ، فَإِذَا طَلَعَت مِنْ نَحوِهِ، لَم**

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام (ص٤٢).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢)، وَمسلم (١٩٤).

يَنْفَعُ نَفساً إِيمَانُهَا، لَم تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَو كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيراً»(١).

وَمِنْ ذَلِكَ: ما يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ العَبدِ المُؤمِنِ، قَبلَ موتِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ.

عَنْ أَبي عِنَبَةَ الخَولانِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدٍ خَيراً عَسَلَهُ**» قِيلَ: وَمَا عَسَلَهُ؟ قَالَ: «**يَفْتَحُ اللهُ لَهُ عَمَلاً صَالحاً قَبلَ مَوتِهِ، ثُمَّ يَقبِضُهُ عَلَيهِ**»(٢).

وَمِن ذَلِكَ: فَتحُهُ سُبحَانَهُ أَبوَابَ السَّماءِ لِنُزُولِ البَرَكَاتِ وَإِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

عَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا قَالَ عَبْدٌ: لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ قَطُّ مُخلِصاً، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبوَابُ السَّماءِ، حَتَّىٰ تُفضِيَ إِلىٰ العَرشِ، ما اجتَنَبَ الكَبائِرَ**»(٣).

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا كَانَ ثُلُثُ**

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٥)، وَابن ماجه (٤٠٧٠) ـ وَاللفظ له ـ. وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٠٥).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٠٠)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٠٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٩٠)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٣٩).

اللَّيلِ البَاقِي يَهبِطُ اللهُ إِلىٰ السَّماءِ الدُّنيَا ثُمَّ تُفتَحُ أَبوَابُ السَّماءِ، ثُمَّ يَبسُطُ يَدَهُ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعطَىٰ سُؤلَهُ؟ فَلا يَزالُ كَذلِكَ حَتَّىٰ يَطلُعَ الفَجرُ»[١].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ السَّائِبِ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي أَربَعاً بَعدَ أَن تَزُولَ الشَّمسُ قَبلَ الظُّهرِ، فَقَالَ: «**إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفتَحُ فِيهَا أَبوَابُ السَّماءِ، وَأُحِبُّ أَن يَصعَدَ لي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ**»[٢].

وَعَن أَبي أَيُّوبَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعٌ قَبْلَ الظُّهْرِ، لَيْسَ فِيهِنَّ تَسْلِيمٌ، تُفْتَحُ لهُنَّ أَبْوَابُ السَّماءِ**»[٣].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما قَالَ: صَلَّينَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَغرِبَ، فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، وَعَقَّبَ مَن عَقَّبَ؛ فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسرِعاً، قَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، وَقَدْ حَسَرَ عَنْ رُكبَتَيهِ؛ فَقَالَ: «**أَبشِرُوا، هَذَا رَبُّكُم قَد فَتَحَ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ السَّماءِ، يُبَاهِي بِكُمُ المَلائِكَةَ! يَقُوْلُ: انظُرُوا إِلىٰ عِبَادِي، قَد قَضَوا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخرَىٰ**»[٤].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا نُودِيَ بِالصَّلاةِ،**

---

(١) رواه ابن خزيمة (٨٩)، وأحمد (١/ ٣٨٨ و٤٠٣ و٤٤٦)، وَالآجُرِّيُّ (٣١٢) بسندٍ صحيحٍ.

(٢) رواه الترمذي (٤٧٨)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣٩٦).

(٣) رواه أبو داود (١٢٧٠)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٣٤٨).

(٤) رواه ابن ماجه (٨٠١)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٦٦٠).

فُتِحَت أَبوَابُ السَّماءِ، وَاستُجِيبَ الدُّعَاءُ»[١].

وَعَن سَهلِ بنِ سَعدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«سَاعَتَانِ تُفتَحُ فِيهِمَا أَبوَابُ السَّماءِ: عِندَ حُضُورِ الصَّلاةِ، وَعِندَ الصَّفِّ في سَبِيلِ اللهِ»**[٢].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإيمَانِ بِصِفَةِ الفَتحِ:

١ ـ إِنَّ الفَتحَ وَالنَّصرَ لا يَكُونُ إِلَّا مِنَ اللهِ تبارك وتعالى، فَهُوَ يَفْتَحُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَيَخذُلُ مَنْ يَشَاءُ. وَقَدْ نَسَبَ اللهُ الفُتُوحَ لنَفسِهِ لِيُنَبِّهَ عِبادَهُ عَلَىٰ طَلَبِ النَّصرِ وَالفَتْحِ مِنْهُ لا مِنْ غيرِهِ، وَأَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ وَيَنالُوا مَرْضَاتَهُ لِيَفْتَحَ عَلَيهِم وَيَنْصُرَهُم عَلَىٰ أعدَائِهِم. قَالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١] وَهُوَ خِطَابٌ لِرَسُولِهِ الأَمِينِ ﷺ، وَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢]، وَقَالَ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ [الصف: ١٣]. وَمِنْ ذَلِكَ: مَا هَيَّأَ اللهُ تَعالَىٰ لِلمُسلِمِينَ مِنْ أَسبَابِ النَّصرِ، وَالعِزِّ وَالمَنَعَةِ يومَ خَيبَرَ.

عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَومَ خَيبَرَ: **«لأُعطِيَنَّ هٰذِهِ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً، يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»**[٣].

---

(١) رواه أبو يَعلَى (٤٠٧٢)، وَصححه الألباني رحمه الله بمجموع طرقه في «الصحيحة» (١٤١٣).

(٢) رواه ابن حبان (١٧٢٠)، وَصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (٢٥٦).

(٣) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّكُم مَنصُورُونَ، وَمُصِيبُونَ، وَمَفْتُوحٌ لَكُم...**»[١].

٢ ـ وَقَدْ يَفْتَحُ اللهُ سُبحَانَهُ أَنْوَاعَ النِّعَمِ وَالخَيرَاتِ عَلَىٰ النَّاسِ استِدْرَاجاً لَهُم، إِذَا تَرَكُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، وَوَقَعُوا فِيمَا نُهُوا عَنْهُ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا رَأَيتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنيَا، عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّما هُوَ استِدرَاجٌ**» ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤][٢].

٣ ـ وَمِمَّا يَفْتَحُهُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنَ الحِكْمَةِ وَالعِلْمِ وَالفِقْهِ في الدِّينِ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ التَّقوَىٰ وَالإِخلاصِ وَالصِّدْقِ، وَلِذَا نَجِدُ أَنَّ فَهمَ السَّلَفِ أَعمَقُ وَعِلمَهُم أَوسَعُ بِمَرَاحِلَ مِمَّن جَاءَ بَعدَهُم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢][٣].

فَالرَّبُّ تَعَالَىٰ هُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ الَّذِي يَفْتَحُ لِعِبَادِهِ الطَّائِعِينَ خَزَائِنَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٥٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٠٣).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٥٦١).

(٣) منهج الإمام ابن قيم الجوزية (ص٣٢٥).

جُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَيَفْتَحُ عَلَىٰ أعدَائِهِ ضِدَّ ذَلِكَ، وَذَلِكَ بِفَضْلِهِ وَعَدْلِهِ.

٤ ـ مَفَاتِيحُ كُلِّ شَيءٍ بيَدِ الفَتَّاحِ جَلَّ وَعَلا، فَعَلى المُؤمِنِ أَن يَطلُبَ مِنَ اللهِ أَن يَفتَحَ عَلَيهِ أَبوَابَ رَحمَتِهِ.

عَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المسجِدَ فَلْيُسَلِّم عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَليُسَلِّم عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ**»(١).

وَفي خِتَامِ الكَلامِ عَلَى اسمِ اللهِ الفَتَّاحِ، نُوصِي المُسلِمَ بِأَن يَكُونَ مِفتَاحاً لِلْخيرِ مِغلاقاً لِلشَّرِّ، يَفتَحُ عَلَيهِ الفَتَّاحُ بَأَكثَرَ مِمَّا فَتَحَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ.

عَن أَنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلخَيرِ، مَغَالِيقَ للشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ للشَّرِّ، مَغَالِيقَ للخَيرِ، فَطُوبَى لِمَن جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الخَيرِ عَلَى يَدَيهِ، وَوَيلٌ لِمَن جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيهِ**»(٢).

(١) رواه ابن ماجه (٧٧٣)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٦٢٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٣٧)، وحسنه الألباني رحمه الله بمجموع طرقه في «الصحيحة» (١٣٣٢).

صِفَةُ البَـرَكَـةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ بَرَكَاتِهِ: فَهُوَ المُتَبَارِكُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في بَرَكَاتِهِ «تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَبَارَكَتْ أَوصَافُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَفْعَالُهُ، وَتَبَارَكَتْ ذَاتُهُ»[(١)].

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨]، وَفي حَدِيثِ الاسْتِفْتَاحِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَىٰ جَدُّكَ، وَلا إِلَٰهَ غَيرُكَ**»[(٢)]، أَي البَرَكَةُ في اسْمِكَ وَفِيمَا سُمِّيَ عَلَيهِ؛ «فَلا يُذْكَرُ عَلَىٰ قَلِيلٍ إِلَّا كَثَّرَهُ، وَلا عَلَىٰ خيرٍ إِلَّا أَنْمَاهُ وَبَارَكَ فِيهِ، وَلا عَلَىٰ آفَةٍ إِلَّا أَذْهَبَهَا، وَلا عَلَىٰ شَيطَانٍ إِلَّا رَدَّهُ خَاسِئاً دَاحِراً»[(٣)]؛ وَلا عِنْدَ خَوْفٍ إِلَّا أَزَالَهُ، وَلا عِنْدَ كَرْبٍ إِلَّا كَشَفَهُ، وَلا عِنْدَ هَمٍّ وَغَمٍّ إِلَّا فَرَّجَهَ، وَلا عِنْدَ ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ، وَلا تَعَلَّقَ بِهِ ضَعِيفٌ إِلَّا أَفَادَهُ القُوَّةَ، وَلا ذَلِيلٌ إِلَّا أَنَالَهُ العِزَّةَ، وَلا فَقِيرٌ إِلَّا أَصَارَهُ غَنِيّاً، وَلا مُسْتُوحِشٌ إِلَّا آنَسَهُ، وَلا مَغْلُوبٌ إِلَّا أَيَّدَهُ وَنَصَرَهُ، وَلا مُضطَرٌّ إِلَّا كَشَفَ ضُرَّهُ، وَلا شَرِيدٌ إِلَّا آوَاهُ.

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٥٢١).

(٢) رواه أبو داود (٧٧٦)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢٢٢).

(٣) الصلاة وَحكم تاركها (ص٢٠١).

«وَإِذَا كَانَ هَذَا التَّبَارُكُ مَنْسُوباً إِلىٰ اسْمِهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِذَاتِهِ سُبحَانَهُ؟»(١). وَلِهَذَا كَانَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾ [الحاقة: ٥٢]، دَلِيلاً عَلَىٰ الأَمْرِ بِتَسْبِيحِ الرَّبِّ بِطَرِيقِ الأَولىٰ، فَإِنَّ تَنزِيه الِاسمِ مِنْ تَوَابعِ تَنْزِيهِ المُسَمَّىٰ.

وَكِلْتَا يَدَيهِ ﷻ يَمِينٌ مُبارَكَةٌ، وَالبَرَكَةُ كُلُّها لَهُ وَمِنْهُ.

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَكِلْتَا يَدَي رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ»**(٢).

وَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: **«البَرَكَةُ مِنَ اللهِ»**(٣).

و«تَبَارَكَ» هَذِهِ اللَّفْظَةُ لا يُوصَفُ بِهَا إِلَّا اللهُ جَلَّ جَلالُهُ. وَجَاءَت عَلَىٰ بِنَاءِ السَّعَةِ وَالمُبَالَغَةِ، كَتَعَالَىٰ وَتَعَاظَمَ وَنَحوِهِ، فَجَاءَ بِنَاءُ «تَبَارَكَ» عَلَىٰ بِنَاءِ «تَعَالَىٰ» الَّذِي هُوَ دَالٌّ عَلَىٰ كَمَالِ العُلُوِّ وَنِهَايَتِهِ، فَكَذَلِكَ «تَبَارَكَ» دَالٌّ عَلَىٰ كَمَالِ بَرَكَتِهِ وَعِظَمِهَا وَسَعَتِهَا وَكَثْرَةِ أَوصَافِهِ، وَكَثْرَةِ خَيرَاتِهِ وَإِحسَانِهِ.

وَحَقِيقَةُ اللَّفْظَةِ: أَنَّ البَرَكَةَ كَثْرَةُ الخَيرِ وَدَوَامُهُ، وَلا أَحَدَ أَحَقُّ بِذَلِكَ وَصْفاً وَفِعْلاً مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فَتَبَارُكُهُ سُبحَانَهُ يَجْمَعُ: دَوَامَ جُودِهِ، وَكَثْرَةَ خَيرِهِ، وَمَجْدَهُ وَعُلُوَّهُ،

---

(١) فتح البيان (١٣/ ٣٥١).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٦٨)، وَصححه الألباني ﵀ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٨١).

(٣) رواه البخاري (٥٦٣٩)، وَفيهِ قصة.

وَعَظَمَتَهُ وَتَقَدُّسَهُ، وَمَجيءَ الخَيرَاتِ كُلِّهَا مِنْ عِنْدِهِ، وَتَبريكَهُ عَلَىٰ مَن شَاءَ مِنْ خَلقِهِ: بِإِحلالِ الخَيرِ الجَزيلِ، وَالبِرِّ الكَثِيرِ.

فَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَيهِ فَهُوَ مُبارَكٌ، وَكِتَابُهُ مُبَارَكٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُسَمَّىٰ مُبارَكاً مِنْ كُلِّ شَيءٍ، لِكَثْرَةِ خَيرِهِ وَمَنَافِعِهِ، وَوُجُوهِ البَرَكَةِ فِيهِ. مُبَارَكٌ في ثَوَابِهِ وَفي تَأْثِيرِهِ وَفي آثَارِهِ. مُبَارَكٌ في تِلاوَتِهِ وَمَعْنَاهُ، وَالعَمَلِ بِهِ. مَنْ قَرَأَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشرُ حَسَناتٍ، وَمَنْ تَدَبَّرَ مَعْنَاهُ تَيَسَّرَ لَهُ الوُصُولُ إِلىٰ رِضوَانِ اللهِ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَعِدَ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ. وَعَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مُبارَكٌ، كَمَا قَالَ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فَمَنْ بَارَكَ فِيهِ وَعَلَيهِ فَهُوَ المُبَارَكُ، وَعَبْدُهُ المُؤمِنُ النَّافِعُ لِخَلْقِهِ مُبارَكٌ، وَبَيتُهُ مُبَارَكٌ، وَالأَزْمِنَةُ وَالأَمْكِنَةُ الَّتي شَرَّفَهَا وَاخْتَصَّهَا عَنْ غَيرِهَا مُبَارَكَةٌ، فَلَيلَةُ القَدْرِ مُبارَكَةٌ، وَمَا حَولَ المَسجِدِ الأَقْصَىٰ مُبارَكٌ، وَأَرْضُ الشَّام وَصَفَهَا بِالبَرَكَةِ. فَلا مُبارِكَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ. فَهُوَ المُتَبارِكُ في ذَاتِهِ، الَّذِي يُبارِكُ فِيمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَلَيهِ فَيَصِيرُ بِذَلِكَ مُبَارَكاً.

وَبِالجُملَةِ: فَكُلُّ خَيرٍ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ مِنْ بَرَكَةِ اللهِ، فَلا غِنَىٰ لأَحدٍ عَنْ بَرَكَاتِهِ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

«وَهَذَا لا يَفهَمُهُ كُلُّ أَحدٍ، وَلا يُدرِكُهُ إِلَّا مَنْ مَنَحَهُ اللهُ فَهْماً مِنْ عِندِهِ، فَلَهُ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ»[1].

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤٢).

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ البَرَكَةِ:

١ ـ الثَّنَاءُ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ الكَلامِ إِلىٰ اللهِ أَنْ يَقُولَ العَبدُ: سُبحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَىٰ جَدُّكَ، وَلا إِلَٰهَ غَيرُكَ**»[١].

قَولُهُ: «**سُبحَانَكَ**» أَي: أُسَبِّحُكَ تَسْبِيحاً: بِمعنى أُنَزِّهُكَ تَنزِيهاً مِنْ كُلِّ النَّقَائِصِ.

«**وَبِحَمدِكَ**» أَي: وَنَحنُ مُتَلَبِّسُونَ بِحَمدِكَ.

قَولُهُ: «**وَتَبَارَكَ اسْمُكَ**» هُوَ تَفَاعُلٌ مِنَ البَرَكَةِ، وَهِيَ الكَثرَةُ وَالاتِّسَاعُ، وَمَعنَاهُ: تَعَالَى وَتَعَظَّمَ، وَكَثُرَت بَرَكَاتُهُ في السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ، إِذ بِهِ تَقُومُ، وَبِهِ تُستَنْزَلُ الخيرَاتُ[٢]. وَوُجِدَ كُلُّ خَيرٍ مِن ذِكرِ اسمِكَ. وَكُلُّ ذَلِكَ تَنبِيهٌ عَلَى اختِصَاصِهِ سُبحانَهُ بِالخَيرَاتِ وَالبَرَكَاتِ المُتَوَالِيَةِ.

قَولُهُ: «**وَتَعَالَىٰ جدُّكَ**»، أي: عَلَا جَلَالُكَ، وَعَظَمَتُكَ[٣].

وَعَنْ ثَوبَانَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاثاً، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ، وَمِنْكَ السَّلامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ**»[٤].

---

(١) رواه النسائي في «عمل اليوم وَالليلة» (٨٤٩) بسند صحيح.
(٢) العلم الهيِّب (ص٢٦٢).
(٣) المصدر السابق (ص٢٨٩).
(٤) رواه مسلم (٥٩١).

قَولُهُ: «**تبَارَكتَ**» يَعنِي: تَعَاليتَ وَتعَاظَمتَ، وَأَصلُ المَعنَى: كَثُرَت خَيرَاتُكَ الإِلَهِيَّةُ[١].

وَعَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلىٰ الصَّلاةِ قَالَ: «**وَجَّهْتُ وَجهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ حَنِيفاً وَمَا أَنا مِنَ المُشرِكِينَ، إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرتُ وَأَنَا أَولُ المُسلِمِينَ. اللَّهُمَّ! أَنتَ المَلِكُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ، أَنتَ رَبِّي وَأَنَا عَبدُكَ، ظَلَمتُ نَفسِي، وَاعتَرَفتُ بِذَنبِي، فَاغفِر لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً؛ إِنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنتَ، وَاهدِنِي لأَحسَنِ الأَخلاقِ؛ لا يَهدِي لأَحسَنِهَا إِلَّا أَنتَ، وَاصرِف عَنِّي سَيِّئَهَا؛ لا يَصرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنتَ، لَبَّيكَ وَسَعدَيكَ، وَالخَيرُ كُلُّهُ في يَدَيكَ، وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ، أَنا بِكَ وَإِلَيكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيكَ**»[٢].

وَعَنِ الحَسَنِ بنِ عَليٍّ رضي الله عنهما قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ في قُنُوتِ الوِتْرِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعطَيتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَىٰ عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيتَ، وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيتَ**»[٣].

وَعَنْ عليِّ بنِ أَبي طَالِبٍ رضي الله عنه: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا

---

(١) العلم الهيِّب (ص٣١٥).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

(٣) رواه أبو داود (١٤٢٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٣٩٢).

سَجَدَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ**»[1].

٢ ـ الدُّعَاءُ بِالبَرَكَةِ:

يَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤمِنٍ أَنْ يَدْعُوَ بِالبَرَكَةِ في رِزْقِهِ وَطَعَامِهِ، وَعُمُرِهِ وَعَمَلِهِ، وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ.

«فَإِنَّ نِعَمَ اللهِ وَعَطَايَاهُ إِنْ لم يُبَارَكْ لِلْعَبْدِ فِيهَا، كَانَتْ نَاقِصَةً وَقَلِيلَةَ الجَدْوَىٰ عَلَىٰ العَبْدِ، وَاللَّومُ كُلُّ اللَّوم عَلَيهِ... وَلِهَذَا يَحِقُّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ بِقُوَّةِ إِيمَانٍ وَصِدْقٍ: «**اللَّهُمَّ! بَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيتَ**»؛ فَيَكُونُ دَاعِياً للهِ بِدَوَامِ النِّعَمِ، وَبَرَكَتِهَا وَالمَزِيدِ مِنْهَا»[2].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ بُسرٍ ﵄ قَالَ: نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ أَبِي، قَالَ: فَقَرَّبْنَا إِلَيهِ طَعَاماً وَوَطَبَةً، فَأَكَلَ مِنْهَا؛ ثُمَّ أُتِيَ بِتَمْرٍ فَكَانَ يَأْكُلُهُ، وَيُلْقِي النَّوَىٰ بَينَ إِصْبَعَيهِ، وَيَجمَعُ السَّبَّابَةَ وَالوُسْطَىٰ؛ ثُمَّ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ؛ قَالَ: فَقَالَ أَبِي ـ وَأَخَذَ بِلِجَام دَابَّتِهِ ـ: ادعُ اللهَ لَنَا، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُم في مَا رَزَقْتَهُم، وَاغْفِر لَهُم وَارْحَمْهُم**»[3].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَامِرٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُم مِنْ أَخِيهِ، أَو مِنْ نَفْسِهِ، أَو مِنْ مَالِهِ مَا يُعجِبُهُ، فَلْيُبَرِّكْهُ؛ فَإِنَّ**

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) مجموع الفوائد (ص١٩٢).

(٣) رواه مسلم (٢٠٤٢).

العَينَ حَقٌّ»[١].

كَأَن يَقُولَ مَثَلاً: اللَّهُمَّ بَارِك فِيهِ، تَبَارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ.

وَعَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِر لِي ذَنْبِي، وَوَسِّع لِي في دَارِي، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَني**»[٢].

وَعَنْ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ ابسُط عَلَينَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ**»[٣].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا اشْتَرَىٰ أَحَدُكُمُ الجَارِيَةَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك خَيرَهَا وَخَيرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيهِ، وَلْيَدْعُ بِالبَرَكَةِ؛ وَإِذَا اشْتَرَىٰ أَحَدُكُم بَعِيراً فَلْيَأخُذْ بِذِروَةِ سِنَامِه، وَلْيَدْعُ بِالبَرَكَةِ، وَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ**»[٤].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللهِ، خَادِمُكَ أَنَسٌ ادعُ اللهَ لَهُ؟ قَالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيتَهُ**»[٥].

وَعَنْ صَخرٍ الغَامِدِيِّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ بَارِك لأُمَّتِي**

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٤٧)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٥٧٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٢٦٥).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٥٤١).

(٤) رواه ابن ماجه (٢٢٥٢)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٤١).

(٥) رواه البخاري (٦٣٤٤)، ومسلم (٢٤٨٠).

في بُكُورِهَا» وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَو جَيشاً، بَعَثَهُم مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ؛ وَكَانَ صَخرٌ رَجُلاً تَاجِراً، وَكَانَ يَبعَثُ تِجَارَتَهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، فَأَثرَىٰ وَكَثُرَ مَالُهُ[1].

وَعَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَّأَ الإِنسَانَ إِذَا تَزَوَّجَ، قَالَ: **«بَارَكَ اللهُ لَكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَينَكُمَا في خَيرٍ»**[2].

وَجَاءَ في حَدِيثِ أَبي مَحْذُورَةَ رضي الله عنه في الأَذَانِ، قَولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ: **«بَارَكَ اللهُ لَكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ»**[3].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُم طَعَاماً فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيراً مِنْهُ؛ وَإِذَا سُقِيَ لَبَناً فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيسَ شَيءٌ يُجزِىءُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنَ»**[4].

وَعَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَينٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيكُم؛ فَرَدَّ عَلَيهِ السَّلامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: **«عَشرٌ»** ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحْمَةُ اللهِ؛ فَرَدَّ عَلَيهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: **«عِشرُونَ»** ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ؛ فَرَدَّ

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٦)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ١٢٤).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٠)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٥٩٣).

(٣) رواه ابن ماجه (٧٠٨)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٥٨٧).

(٤) رواه أبو داود (٣٧٣٠)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٨١).

عَلَيهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «ثَلاثُونَ»[١].

وَبَرَكَاتُهُ وَهِيَ: الزِّيَادَةُ مِنْ خَيرِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَحُلُولُ الخَيرِ الإِلَهِيِّ[٢].

٣ ـ الصَّلاةُ عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ «سَبَبٌ لِلْبَرَكَةِ في ذَاتِ المُصَلِّي وَعَمَلِهِ وَعُمُرِهِ، وَأَسبَابِ مَصَالِحِهِ، لأَنَّ المُصَلِّيَ دَاعٍ رَبَّهُ أَنْ يُبَارِكَ عَلَيهِ وَعَلَىٰ آلِهِ، وَهَذَا الدُّعَاءُ مُسْتَجَابٌ، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ»[٣].

٤ ـ وَيَنْبَغِي عَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ بِأَنْ «يَجْعَلَهُ مُبَارَكاً أَينَمَا كَانَ. فَإِنَّ بَرَكَةَ الرَّجُلِ تَعلِيمُهُ لِلْخَيرِ حَيثُ حَلَّ، وَنُصْحُهُ لِكُلِّ مَنِ اجْتَمَعَ بِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ـ إِخبَاراً عَنِ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]؛ أَي مُعَلِّماً لِلْخَيرِ، دَاعِياً إِلَىٰ اللهِ، مُذَكِّراً بِهِ، مُرَغِّباً في طَاعَتِهِ، فَهَذَا مِنْ بَرَكَةِ الرَّجُلِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَعْلِيمَ الرَّجُلِ الخَيرَ هُوَ البَرَكَةُ الَّتي جَعَلَهَا اللهُ فِيهِ، فَإِنَّ البَرَكَةَ حُصُولُ الخَيرِ وَنَمَاؤُهُ وَدَوَامُهُ»[٤]. وَمَنْ خَلا مِنْ هَذَا فَقَدْ خَلا مِنَ البَرَكَةِ، وَمُحِقَت بَرَكَةُ لِقَائِهِ وَالاجتِمَاعِ بِهِ، بَلْ تُمْحَقُ بَرَكَةُ مَنْ لَقِيَهُ وَاجْتَمَعَ بِهِ، فَإِنَّهُ يُضَيِّعُ الوَقْتَ، وَيُفْسِدُ القَلْبَ. وَكُلُّ آفَةٍ تَدْخُلُ عَلَىٰ العَبْدِ، فَسَبَبُهَا ضَيَاعُ الوَقْتِ وَفَسَادُ القَلْبِ[٥].

---

(١) رواه أبو داود (٥١٩٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٧٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٢٦).

(٣) جلاء الأفهام (ص٥٢٤ ـ ٥٢٥).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٢٤).

(٥) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص٣).

٥ ـ عَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ الَّتي تُقَرِّبُ مِنَ اللهِ، وَكُلِّ مَا كَانَ قَرِيباً مِنْ ذَلِكَ؛ فَفِيهِ مِنَ البَرَكَةِ عَلَىٰ حَسَبِ قُرْبِهِ مِنْهُ.

٦ ـ البُعدُ عَنِ المعَاصِي لأَنَّهَا «مُمْحِقَةٌ بَرَكَةَ العُمُرِ، وَبَرَكَةَ الرِّزقِ، وَبرَكَةَ العِلْمِ، وبَرَكَةَ العَمَلِ، وبرَكَةَ الطَّاعَةِ.

وَبِالجُمْلَةِ تَمْحَقُ بَرَكَةَ الدِّينِ وَالدُّنيا، فَلا تَجِدُ أَقَلَّ بَرَكَةً في عُمُرِهِ وَدِينِهِ وَدُنيَاهُ مِمَّنْ عَصَىٰ اللهَ، وَمَا مُحِقَتِ البَرَكَةُ مِنَ الأَرْضِ إِلَّا بِمَعَاصِي الخَلْقِ. قَالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

وَلَيسَت سَعَةُ الرِّزْقِ وَالعَمَلِ بِكَثْرَتِهِ، وَلا طُولُ العُمُرِ بِكَثْرَةِ الشُّهُورِ وَالأَعوَامِ، وَلَكِنْ سَعَةُ الرِّزْقِ بَالبَرَكَةِ فِيهِ.

وَإِنَّمَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللهِ سَبَباً لِمَحْقِ بَرَكَةِ الرِّزْقِ وَالأَجلِ، لأَنَّ الشَّيطَانَ مُوَكَّلٌ بِهَا وَبِأَصْحَابِهَا؛ فَسُلْطَانُهُ عَلَيهِم، وَكُلُّ شَيءٍ يَتَّصِلُ بِهِ الشَّيطَانُ وَيُقَارِنُهُ فَبَرَكَتُهُ مَمْحُوقَةٌ، وَكُلُّ شَيءٍ لا يَكُونُ للهِ فَبَرَكَتُهُ مَنْزُوعَةٌ»[١].

فَكُلُّ زَمَانٍ شَغَلَهُ المُؤمِنُ بِطَاعَةِ اللهِ، فَهُوَ زَمَانٌ مُبَارَكٌ عَلَيهِ، وَكُلُّ زَمَانٍ شَغَلَهُ العَبْدُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ مَشْؤُومٌ عَلَيهِ. فَالشُّؤمُ في الحَقِيقَةِ هُوَ مَعْصِيَةُ اللهِ تَعالَىٰ[٢]. وَاليُمْنُ وَالبَرَكَةُ هُوَ طَاعَةُ اللهِ وَتَقْوَاهُ.

---

(١) الداء والدواء (ص١٣١ ـ ١٣٢).

(٢) لطائف المعارف (ص١٥١).

٧ ـ وَمِنَ الأَشْيَاءِ الَّتي جَعَلَ اللهُ فِيهَا البَرَكَةَ:

مَاءُ زَمْزَمَ:

عَنْ أَبي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، وَهِيَ طَعَامُ طُعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ**»(١).

شَجَرَةُ الزَّيتُونِ:

عَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُوا الزَّيتَ وَادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ**»(٢).

الحِجَامَةُ:

عَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الحِجَامَةُ عَلَىٰ الرِّيقِ أَمثَلُ، وَفِيهِ شِفَاءٌ وَبَرَكَةٌ؛ وَتَزِيدُ في العَقْلِ وَفِي الحِفْظِ، فَاحْتَجِمُوا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ يَومَ الخَمِيسِ**»(٣).

مَاءُ السَّمَاءِ:

عَنِ المقدَادِ بنِ الأَسوَدِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذِهِ بَرَكَةٌ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ...**»(٤).

شَجَرُ النَّخِيلِ:

عَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكَتُهُ**

---

(١) رواه الطيالسي (٤٥٧)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٢٤٣٥).

(٢) رواه الترمذي (١٨٥١)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣١٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٤٨٧)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٨٢٥).

(٤) رواه مسلم (٢٠٥٥)، وَأحمد (٦/ ٢) وَاللفظ له ـ وَفي الحديث قصة ـ.

كَبَرَكَةِ المُسْلِمِ، هِيَ النَّخْلَةُ»(١).

السَّلامُ عَلَىٰ الأَهْلِ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يا بُنَيَّ! إِذَا دَخَلْتَ عَلَىٰ أَهْلِكَ فَسَلِّمْ، يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَهْلِ بَيتِكَ**»(٢).

الأَكلُ مِنْ جَانِبِ القَصْعَةِ:

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا وُضِعَ الطَّعَامُ، فَخُذُوا مِنْ حَافَتِهِ وَذَرُوا وَسطَهُ، فَإِنَّ البَرَكَةَ تَنْزِلُ في وَسَطِهِ**»(٣).

البَرَكَةُ في ثَلاثَةٍ:

عَنْ سَلمَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**البَرَكَةُ في ثَلاثَةٍ: في الجَمَاعَةِ وَالثَّرِيدِ وَالسُّحُورِ**»(٤).

شَهرُ رَمَضَانَ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَاكُم رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ، فَرَضَ اللهُ عَلَيكُم صِيَامَهُ؛ تُفْتَحُ فِيهِ أَبوَابُ السَّمَاءِ، وَتُغلَقُ فِيهِ أَبوَابُ الجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ؛ للهِ فِيهِ لَيلَةٌ خَيرٌ مِنْ أَلفِ شَهرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيرَهَا فَقَد حُرِمَ**»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٥٤٤٤) بهَذَا اللفظ، وَمسلم (٢٨١١).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٩٨)، وَقوَّاهُ الألباني - تبعاً لابن حجر - في التعليق عَلَى «هداية الرواة» (٤/ ٣١٦).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٢٧٧)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٦٨).

(٤) رواه الطبراني (٦١٢٧)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٨٨٢).

(٥) رواه النسائي (٢١٠٥)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٩٣).

السُّحُورُ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً**»[١].

وَعَنِ المِقْدَامِ بنِ مَعدِ يَكرِبَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**عَلَيكُم بِغَدَاءِ السُّحُورِ، فَإِنَّهُ هُوَ الغَدَاءُ المُبَارَكُ**»[٢].

سُورَةُ البَقَرَةِ:

عَنْ أَبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سِمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ: فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسرَةٌ، وَلا يَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ**» قَالَ مُعَاوِيَةُ - يَعْنِي ابنَ سَلَّامٍ -: بَلَغَنِي أَنَّ البَطَلَةَ السَّحَرَةُ[٣].

لَعْقُ الأَصَابِعِ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُم فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي فِي أَيَّتِهِنَّ البَرَكَةُ**»[٤].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمُ الطَّعَامَ، فَلا يَمْسَحْ يَدَهُ حَتَّىٰ يَلعَقَهَا أَو يُلْعِقَهَا؛ وَلا يَرفَعِ الصَّحْفَةَ حَتَّىٰ يَلعَقَهَا أَو يُلعِقَهَا، فَإِنَّ آخِرَ الطَّعَامِ فِيهِ بَرَكَةٌ**»[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٣)، وَمسلم (١٠٩٥).

(٢) رواه النسائي (٢١٦٣)، وَصحَّحَ إسناده الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١٠٨/٢).

(٣) رواه مسلم (٨٠٤).

(٤) رواه مسلم (٢٠٣٥).

(٥) رواه مسلم (٢٠٣٣)، وَالنسائي في «الكبرى» (٦٧٦٧) - واللفظ له -.

الطَّعَامُ البَارِدُ:

عَنْ أَسْمَاءَ بِنتِ أَبي بَكْرٍ ﵄: أَنَّهَا كَانَت إِذَا ثَرَدَت غَطَّتهُ شَيئاً حَتَّىٰ يَذْهَبَ فَورُهُ، ثُمَّ تَقُولُ: إِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّهُ أَعْظَمُ لِلْبَرَكَةِ**»[1].

الأَكَابِرُ:

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﵄: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**البَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُم**»[2].

* * *

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٥٠)، وَصححه الألباني ﵀ في «الصحيحة» (٣٩٢).

(٢) رواه ابن حبان (٥٥٩)، وَصححه الألباني ﵀ في «صحيح موارد الظمآن» (١٦٠٥).

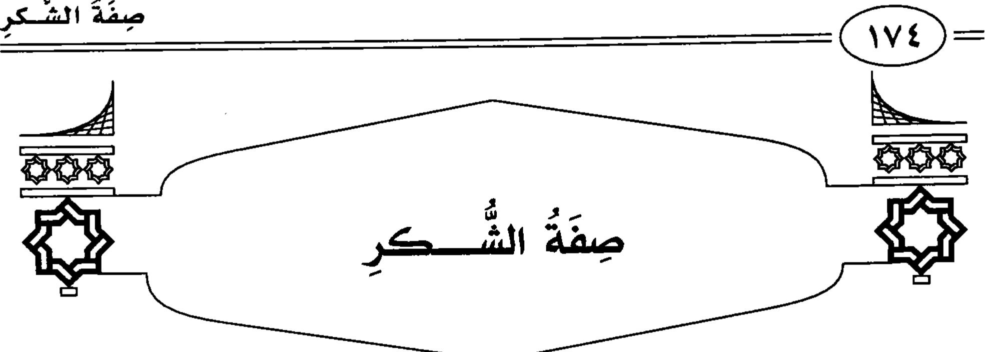

صِفَةُ الشُّــكرِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ شُكرِهِ: فَهُوَ صِفَةُ الرَّبِّ وَفِعلُهُ، فَإِنَّهُ سَمَّىٰ نَفْسَهُ بِالشَّكُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. فَهُوَ ﷻ يَرضَىٰ بِاليَسِيرِ مِنَ الشُّكرِ، مَعَ إِنعَامِهِ الكَثِيرَ.

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّهُ يَغفِرُ الكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، وَيَقْبَلُ اليَسِيرَ مِنْ صَالِحِ العَمَلِ، فَيُضَاعِفَهُ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً بِغَيرِ عَدٍّ وَلَا حِسَابٍ، وَيُثِيبَ عَلَيهِ الثَّوَابَ الجَلَلَ، وَكُلُّ هَذا لأَهْلِ التَّوحِيدِ، أَمَّا الشِّركُ فَلا يَغْفِرُهُ وَلا يَقْبَلُ مَعَهُ مِنَ العَمَلِ مِنْ قَلِيلٍ وَلا كَثِيرٍ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، «وَلَم يَذكُر جَزَاءَهُم، لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ كَثرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَلِيُعلَمَ أَنَّ الجَزَاءَ، عَلَىٰ قَدْرِ الشُّكرِ، قِلَّةً وَكَثرَةً، وَحُسناً»(١).

قَالَ ﷻ فِي شَأنِ المُنفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وَكَمْ تَكُونُ هَذِهِ المُضَاعَفَةُ؟ إِنَّهَا مُضَاعَفَةٌ بِلا حُدُودٍ وَلا قُيُودٍ؛ لأَنَّ فَضْلَ اللهِ العَظِيمَ لا يَتَنَاهَى، وَثَوَابُهُ غَيرُ مَقْطُوعٍ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٨٣).

وَمِن شُكرِهِ: مَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ رَجُلاً رَأَىٰ كَلباً يَأكُلُ الثَّرَىٰ مِنَ العَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ فَجَعَلَ يَغرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّىٰ أَروَاهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَأَدخَلَهُ الجَنَّةَ»**(١).

فَهَذَا لِمَا حَصَلَ فِي قَلبِهِ مِن حُسنِ النِّيَّةِ، وَالرَّحمَةِ إِذ ذَاكَ.

وَمِن شُكرِهِ: مَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«بَينَمَا رَجُلٌ يَمشِي بِطَرِيقٍ، وَجَدَ غُصنَ شَوكٍ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»**(٢).

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّهُ يَجزِي بِالحَسَنَةِ عَشَرَةَ أَمثَالِهَا، إِلَىٰ سَبعِمَائَةِ ضِعفٍ إِلَىٰ أَضعَافٍ كَثِيرَةٍ. «بِحَسَبِ حَالِهَا وَنَفعِهَا، وَحَالِ صَاحِبِهَا، إِخلَاصاً وَمَحبَّةً وَكَمالاً»(٣).

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَروِي عَنْ رَبِّهِ قَالَ: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَن هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَم يَعمَلهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً؛ فَإِن هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشرَ حَسَنَاتٍ، إِلَىٰ سَبعِمِئَةِ ضِعفٍ، إِلَىٰ أَضعَافٍ كَثِيرَةٍ؛ وَمَن هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَم يَعمَلهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً؛ فَإِن هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»**(٤).

وَما كانَ عندَ اللهِ فَهُوَ عَظيمٌ، والشيءُ يَعْظُمُ بِعَظَمَةِ مَنْ أُضيفَ إليهِ. وَهذا تَفَضُّلٌ مِنَ اللهِ تَعالَى الكَرِيمِ المَنَّانِ عَلَى عِبادِهِ، فَلَهُ الحَمدُ

---

(١) رواه البخاري (١٧٣)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٢١).

(٤) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

وَالمِنَّةُ، فَأَيُّ كَرَمٍ أَعظَمُ مِن هَذا. فَالحَمدُ للهِ ذِي الطَّولِ وَالكَرَمِ[1].

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّ العَبدَ إِذَا قَامَ بِأَوَامِرِهِ، وَامتَثَلَ طَاعَتَهُ أَعَانَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَثنَىٰ عَلَيهِ وَمَدَحَهُ، وَجَازَاهُ فِي قَلبِهِ نُوراً وَإِيماناً، وَسَعَةً فِي بَدَنِهِ، وَقُوَّةً وَنَشَاطاً فِي جَمِيعِ أَحوَالِهِ، وَزِيَادَةَ بَرَكَةٍ وَنَمَاءٍ، وَفِي أَعمَالِهِ زِيادةَ تَوفِيقٍ. ثُمَّ بَعدَ ذَلِكَ، يَقدُمُ عَلَىٰ الثَّوَابِ الآجِلِ عِندَ رَبِّهِ كَامِلاً مُوَفَّراً، لم تَنقُصهُ هَذِهِ الأُمُورُ.

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّ مَنْ تَرَكَ شَيئاً للهِ، عَوَّضَهُ اللهُ خيراً مِنْهُ، وَمَنْ فَعَلَ لِأَجلِهِ [شَيئاً]، أَعْطَاهُ فَوقَ المَزِيدِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ شِبراً، تَقَرَّبَ مِنهُ ذِراعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعاً، تَقَرَّبَ مِنهُ بَاعاً، وَمَنْ أَتَاهُ يَمشِي، أَتَاهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ عَامَلَهُ، رَبِحَ عَلَيهِ أَضعَافاً مُضَاعَفَةً.

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّهُ يُعطِي المُتَحَمِّلِينَ لأَجلِهِ الأَثقَالَ، الدَّائِبِينَ فِي الأَعمَالِ؛ جَزِيلَ الثَّوَابِ وَوَاسِعَ الإِحسَانِ[2].

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّهُ أَزَاحَ عَنِ العَبدِ العِلَلَ، وَوَعَدَهُ أَن يَشكُرَ لَهُ القَلِيلَ مِنَ العَمَلِ، وَيَغفِرَ لَهُ الكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغفُورٌ شَكُورٌ[3].

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّهُ يُعطِي العَبدَ «مَا يُشكَرُ عَلَيهِ، ثُمَّ يَشكُرُهُ عَلَىٰ إِحسَانِهِ إِلىٰ نَفسِهِ لَا عَلَىٰ إِحسَانِهِ إِلَيهِ، وَوَعَدَهُ عَلَىٰ إِحسَانِهِ لِنَفسِهِ أَن يُحسِنَ جَزَاءَهُ وَيُقَرِّبَهُ لَدَيهِ، إِنَّ رَبَّنَا لَغفُورٌ شَكُورٌ»[4]. ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٦٧).

(٣) عدة الصابرين (ص٣٣٨).

(٤) المصدر السابق (ص٣٣٩).

جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ [الإنسان: ٢٢]. سُبحَانَ اللهِ، يَمُنُّ عَلَينَا بِالسَّعيِ وَيُوَفِّقُنَا لَهُ، وَيُعِينُنَا عَلَيهِ ثُمَّ يَشكُرُنَا عَلَيهِ، هَذا وَاللهِ هُوَ غَايَةُ الفَضلِ وَالإِحسَانِ، فَلَهُ الحَمدُ وَالشُّكرُ(١).

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّهُ يَشكُرُ «لِلقَلِيلِ مِن جَمِيعِ خَلقِهِ؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيهِ بِمِثقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الخَيرِ، شَكَرَهَا وَحَمِدَهُ؛ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»(٢).

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّهُ «إِذَا رَضِيَ مِنَ العَبدِ عَمَلاً مِنْ أَعمَالِهِ نَجَّاهُ، وَأَسعَدَهُ بِهِ، وَثَمَّرَهُ لَهُ، وَبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَأَوصَلَهُ بِهِ إِلَيهِ، وَأَدخَلَهُ بِهِ عَلَيهِ، وَلَم يَقطَعهُ بِهِ عَنهُ»(٣).

عَن مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ قَالَ: كُنتُ مَعَ مَعقِلٍ المُزَنِيِّ، فَأَمَاطَ أَذًى عَنِ الطَّرِيقِ، فَرَأَيتُ شَيئاً فَبَادَرتُهُ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ما صَنَعتَ يَا ابنَ أَخِي؟ قَالَ: رَأَيتُكَ تَصْنَعُ شَيئاً فَصَنَعتُهُ، فَقَالَ: أَحسَنتَ يَا ابنَ أَخِي! سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ أَمَاطَ أَذًى عَنْ طَرِيقِ المُسلِمِينَ، كُتِبَت لَهُ حَسَنَةٌ، وَمَنْ تُقُبِّلَت لَهُ حَسَنَةٌ دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٤).

وَمِن شُكرِهِ: أَنَّهُ جَلَّ وَعَلا يَبذُلُ نِعَمَهُ لِعِبَادِهِ بِمَا لا يُحصُونَهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، لِكَثرَتِهَا وَعِظَمِهَا، وَيَطلُبُ مِنهُمُ الثَّنَاءَ بِهَا، وَذِكرَهَا، وَالحَمدَ عَلَيهَا، وَيَرضَىٰ مِنهُم بِذَلِكَ شُكراً عَلَيهَا، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ فَضلِهِ عَلَيهِم، وَهُوَ غَيرُ

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ١٩٥).
(٢) عدة الصابرين (ص٣٣٩).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣١١).
(٤) رواه البخاري فِي «الأدب المفرد» (٥٩٣)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح الأدب المفرد» (٤٦١).

مُحتَاجٍ إِلَىٰ شُكرِهِم، لَكِنَّهُ يُحِبُّ ذَلِكَ مِن عِبَادِهِ[١].

فَسُبحَانَ مَن وَفَّقَ عِبَادَهُ المُؤمِنِينَ لِمَرضَاتِهِ، ثُمَّ شَكَرَهُم عَلَىٰ ذَلِكَ بِحُسنِ ثَوابِهِ وَجَزِيلِ عَطَائِهِ، مِنَّةً مِنهُ وَتَفَضُّلاً، لا حَقّاً عَلَيهِ وَاجِباً، بَلْ هُوَ الَّذِي أَوجَبَهُ عَلَىٰ نَفسِهِ جُوداً وَكَرَماً[٢].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الشَّكُورُ فَلَن يُضَيِّعَ سَعيَهُم ... لَكِن يُضَاعِفُهُ بِلا حُسبَانِ

مَا لِلعِبَادِ عَلَيهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... هُوَ أَوجَبَ الأَجرَ العَظِيمَ الشَّانِ

كَلَّا وَلا عَمَلٌ لَدَيهِ ضَائِعٌ ... إِن كَانَ بِالإِخلاصِ وَالإِحسَانِ

إِن عُذِّبوا فَبِعَدلِهِ أَو نُعِّمُوا ... فَبِفَضلِهِ وَالحَمدُ لِلرَّحمَنِ[٣]

فَمَا أَصَابَ العِبَادَ مِنَ النِّعَمِ وَدَفعِ النِّقَمِ، فَإِنَّهُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ فَضلاً مِنهُ وَكَرَماً، وَإِن نَعَّمَهُم فَبِفَضلِهِ وَإِحسَانِهِ، وَإِن عَذَّبَهُم فَبِعَدلِهِ وَحِكمَتِهِ، وَهُوَ المَحمُودُ عَلَىٰ جَمِيعِ ذَلِكَ[٤].

فَلِلَّهِ الحَمدُ عَلَىٰ فَضلِهِ، الَّذِي لا نَبلُغُ لَهُ عَدّاً، فَضلاً عَنِ القِيَامِ بِشُكرِهِ[٥].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الشُّكرِ:

أَوَّلاً: إِنَّ العَبدَ مِنْ حِينِ استَقَرَّ فِي الرَّحِمِ إِلَىٰ وَقتِهِ، يَتَقَلَّبُ فِي

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٨٣).
(٢) شرح النونية (ص٩٨).
(٣) الكافية الشافية (ص٢١١).
(٤) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٧).

نِعَم اللهِ ظَاهِراً وَبَاطِنَاً لَيلاً وَنَهَاراً، وَيَقَظَةً وَمَنَاماً، سِرّاً وَعَلانِيَةً[(١)]، في كُلِّ الآنَاتِ، وَفِي جَمِيعِ اللَّحظَاتِ. وَتَوَاتُرُ إِحسَانِ اللهِ إِلَيهِ عَلَىٰ مَدىٰ الأَنفَاسِ.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

يَكفِيكَ رَبٌّ لَم تَزَلْ في فَضلِهِ   مُتَقَلِّباً في السِّرِّ وَالإِعلانِ[(٢)]

جَلَّ وَعَلا لا تَنفَدُ عَطَايَاهُ، وَلا تَنقَطِعُ آلاؤُهُ، وَلا تَنتَهِي نَعمَاؤُهُ، قَالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. وَالنِّعَمُ الظَّاهِرةُ بَعضُهَا وَقَعَ، وَبَعضُهَا مُنتَظَرٌ وُقُوعُهُ. وَالنِّعَمُ البَاطِنَةُ بَعضُهَا نَعلَمُهُ، وَبَعضُهَا نُحَاوِلُ أَن نَعلَمَهُ، وَبَعضُها لا نَعلَمُهُ أَبَداً.

فَلَوِ اجتَهَدَ العَبدُ في إِحصَاءِ أَنوَاعِ النِّعَمِ لَمَا قَدِرَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] «أي وَإِن تَتَعَرَّضُوا لِتَعدَادِ النِّعَمِ الَّتي أَنعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا عَلَيكُم إِجمَالاً، فَضلاً عَنِ التَّفصِيلِ، لا تُطِيقُوا إِحصَاءَهَا بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وَلا تَقُومُوا بِحَصرِهَا عَلَىٰ حَالٍ مِنَ الأَحوَالِ.

وَمِنَ المَعلُومِ أَنَّهُ لَو رَامَ فَردٌ مِنْ أَفرَادِ العِبَادِ أَن يُحصِيَ مَا أَنعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيهِ في خَلقِ عُضوٍ مِنْ أَعضَائِهِ أَو حَاسَّةٍ مِنْ حَوَاسِّهِ لم يَقدِر عَلَىٰ ذَلِكَ قَطُّ، وَلا أَمكَنَهُ أَصلاً، فَكَيفَ بِمَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ في جَمِيعِ مَا خَلَقَهُ اللهُ في بَدَنِهِ؟! فَكَيفَ بِمَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ الوَاصِلَةِ إِلَيهِ في كُلِّ

(١) الروح (ص٢٩٨).

(٢) الكافية الشافية (ص٢٨٧).

وَقتٍ عَلَىٰ تَنوِيعِهَا وَاختِلافِ أَجنَاسِهَا؟![1]

وَإِنَّ «كُلَّ جُزءٍ مِن أَجزَاءِ الإِنسَانِ لَو ظَهَرَ فِيهِ أَدنَىٰ خَلَلٍ وَأَيسَرُ نَقصٍ، لَنَغَّصَ النِّعَمَ عَلَىٰ الإِنسَانِ وَتَمَنَّىٰ أَن يُنفِقَ الدُّنيَا لَو كَانَت في مُلكِهِ حَتَّىٰ يَزُولَ عَنْهُ ذَلِكَ الخَلَلُ، فَهُوَ سُبحَانَهُ يُدَبِّرُ هَذَا الإِنسَانَ عَلَىٰ الوَجهِ المُلائِمِ لَهُ، مَعَ أَنَّ الإِنسَانَ لا عِلمَ لَهُ بِوُجُودِ ذَلِكَ، فَكَيفَ يُطِيقُ حَصرَ بَعضِ نِعَمِ اللهِ عَلَيهِ أَو يَقدِرُ عَلَىٰ إِحصَائِهَا أَو يَتَمَكَّنُ مِن شُكرِ أَدنَاهَا؟[2] وَأَيُّ شُكرٍ يُقَابِلُ هَذَا الإِنعَامَ؟ «فَمَا الظَّنُّ بِمَا فَوقَ ذَلِكَ وَأَعظَمُ مِنهُ، هَذَا إِلَىٰ مَا يُصرَفُ عَنْهُ مِنَ المَضَرَّاتِ وَأَنوَاعِ الأَذىٰ الَّتِي تَقصِدُهُ، وَلَعَلَّهَا تُوَازِنُ النِّعَمَ في الكَثرَةِ، وَالعَبدُ لا شُعُورَ لَهُ بِأَكثَرِهَا أَصلاً، وَاللهُ سُبحَانَهُ يَكلَؤُهُ مِنهَا بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، فَهُوَ سُبحَانَهُ مُنعِمٌ عَلَيهِم بِكَلَاءَتِهِم وَحِفظِهِم وَحِرَاسَتِهِم مِمَّا يُؤذِيهِم بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَحدَهُ، لا حَافِظَ لَهُم غَيرُهُ. هَذَا مَعَ غِنَاهُ التَّامِّ عَنهُم وَفَقرِهِمُ التَّامِّ إِلَيهِ مِنْ كُلِّ وَجهٍ»[3].

وَلَو عَمِلَ العَبدُ مِنَ الصَّالِحَاتِ أَعمَالَ الثَّقَلَينِ، فَإِنَّ نِعَمَ اللهِ عَلَيهِ أَكثَرُ، وَأَدنَىٰ نِعمَةٍ مِن نِعَمِ اللهِ تَستَغرِقُ جَمِيعَ أَعمَالِهِ.

مَا ثَمَّ إِلَّا العَجزُ عَن شُكرِ رَبِّنَا ... كَمَا يَنبَغِي سُبحَانَهُ مُتَفَضِّلاً[4]

---

(١) فتح البيان (٧/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

(٣) طريق الهجرتين (ص٥٧٠).

(٤) مجالس في تفسير قَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (ص٤٦٨).

فَيَنبَغي عَلَىٰ العَبدِ أَن يَكُونَ عَبداً شَكُوراً يَشكُرُ اللهَ عَلَى وَافِرِ نِعَمِهِ، وَجَمِيلِ إِحسَانِهِ، وَيُبَالِغُ في الشُّكرِ، «عَلَىٰ النِّعَم الدُنيَوِيَّةِ، كَصِحَّةِ الجِسمِ وَعَافِيَتِهِ، وَحُصُولِ الرِّزقِ وَغَيرِ ذَلِكَ. وَيَشكُرُهُ وَيُثنِي عَلَيهِ، بِالنِّعَمِ الدِّينِيَّةِ، كَالتَّوفِيقِ لِلإِخلاصِ، وَالتَّقوَىٰ، بَلْ نِعَمُ الدِّينِ، هِيَ النِّعَمُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ»(١). فَلِلَّهِ الحَمدُ وَالمِنَّةُ، الَّذِي أَنعَمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتي لا يَقدِرُونَ لَهَا، عَلَىٰ جَزَاءٍ وَلا شُكُورٍ(٢).

فَعَلَىٰ العَبدِ أَن يُكثِرَ مِنَ الشُّكرِ، بِالقَلبِ وَاللِّسَانِ، وَالعَمَلِ بِالجَوَارِحِ. لَعَلَّهُ يَشكُرُ اللهَ عَلَىٰ بَعضِ مِنَنِهِ العَظِيمَةِ، وَآلائِهِ الجَسِيمَةِ، وَإِحسَانِهِ التَّامِّ، وَخَيرِهِ المِدرَارِ، وَعَطَائِهِ العَظِيمِ، وَإِكرَامِهِ الجَلِيلِ.

فَالشُّكرُ بِالقَلبِ: الاعتِرَافُ بِالنِّعَمِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ لِلمُنعِمِ، وَأَنَّهَا مِنهُ وَبِفَضلِهِ. وَأَنَّهَا وَصَلَت إِلَيهِ مِن غَيرِ ثَمَنٍ بَذَلَهُ فِيهَا وَلا وَسِيلَةٍ مِنهُ تَوَسَّلَ بِهَا إِلَيهِ وَلا استِحقَاقٍ مِنهُ لَهَا، وَأَنَّهَا للهِ في الحَقِيقَةِ لا لِلعَبدِ(٣)، قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

أَي مَا يُلابِسُكُم مِنَ النِّعَمِ عَلَىٰ اختِلافِ أَنوَاعِهَا فَهِيَ مِنهُ سُبحَانَهُ، وَالنِّعمَةُ إِمَّا دِينِيَّةٌ وَهِيَ مَعرِفَةُ الحَقِّ لِذَاتِهِ وَمَعرِفَةُ الخَيرِ لأَجلِ العَمَلِ بِهِ، وَإِمَّا دُنيَوِيَّةٌ(٤). فَمَا «طَابَ العَيشُ إِلَّا بِمِنَّتِهِ، وَكُلُّ نِعْمَةٍ مِنهُ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، فَهِيَ مِنَّةٌ يَمُنُّ بِهَا عَلَىٰ مَنْ أَنعَمَ عَلَيهِ»(٥).

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٢٣).
(٢) المصدر السابق (ص١٣١١).
(٣) الفوائد (ص١٦٧).
(٤) فتح البيان (٧/ ٢٥٧).
(٥) التبيان في أقسام القرآن (ص٣٣).

فَأَشرَفُ النَّاسِ مَنزِلَةً: أَعرَفُهُم بِهَذِهِ المِنَّةِ، وَأَعظَمُهُم إِقراراً بِهَا، وَذِكراً لَهَا، وَشُكراً عَلَيهَا، وَمَحَبَّةً للهِ لأَجلِهَا، فَهَل يَتَقَلَّبُ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا فِي مِنَّتِهِ؟

وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ مَا يُبَيِّنُ عَظَمَةَ تَذَكُّرِ النِّعمَةِ وَالاعتِرَافِ بِهَا، وَهُوَ قَولُهُ ﷺ: «**سَيِّدُ الاستِغفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقتَنِي وَأَنَا عَبدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهدِكَ وَوَعدِكَ مَا استَطَعتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنبِي، فَاغفِر لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِناً بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَومِهِ قَبلَ أَن يُمسِيَ فَهُوَ مِن أَهلِ الجَنَّةِ، وَمَن قَالَهَا مِنَ اللَّيلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبلَ أَن يُصبِحَ، فَهُوَ مِن أَهلِ الجَنَّةِ**»[١].

وَيُكَرِّرُ ﷺ الاعتِرَافَ بِالنِّعمَةِ فِي أَدبَارِ الصَّلَوَاتِ فِي قَولِهِ: «**لا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ لا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، وَلا نَعبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ**»[٢].

فَلِلَّهِ النِّعمَةُ الظَّاهِرَةُ وَالبَاطِنَةُ، وَلَهُ الفَضلُ فِي كُلِّ شَيءٍ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فَالعَبدُ لا خُرُوجَ لَهُ عَنْ نِعمَتِهِ وَفَضلِهِ وَمَنِّهِ وَإِحسَانِهِ طَرفَةَ عَينٍ، لا فِي الدُّنيَا وَلا فِي الآخِرَةِ[٣]. فَهُوَ المَانُّ بِهِدَايَتِهِ لِلإِيمَانِ، وَتَيسِيرِهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦ و٦٣٢٣). واللفظ للرواية الأولى.

(٢) رواه مسلم (٥٩٤).

(٣) شفاء العليل (١/ ١٥٣).

لِلأَعْمَالِ، وَإِحسَانِهِ بِالجَزَاءِ، كُلُّ ذَلِكَ مُجَرَّدُ مِنَّتِهِ وَفَضْلِهِ ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧][١]. فَإِيجَادُهُم نِعْمَةٌ مِنْهُ، وَجَعْلُهُم أَحيَاءً نَاطِقِينَ نِعْمَةٌ مِنْهُ، وَإِعْطَاؤُهُمُ الأَسْمَاعَ وَالأَبْصَارَ وَالعُقُولَ نِعْمَةٌ مِنْهُ، وَإِدْرَارُ الأَرزَاقِ عَلَيهِم عَلَىٰ اختِلافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا نِعْمَةٌ مِنْهُ، وَتَعْرِيفُهُم نَفْسَهُ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ نِعْمَةٌ مِنْهُ، وَإِجْرَاءُ ذِكْرِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِم وَمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ عَلَىٰ قُلُوبِهِم نِعْمَةٌ مِنْهُ، وَحِفْظُهُم بَعْدَ إِيجَادِهِم نِعْمَةٌ مِنْهُ، وَقِيامُهُ بِمَصَالِحِهِمْ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا نِعْمَةٌ مِنْهُ، وَهِدَايَتُهُم إِلَىٰ أَسبَابِ مَصَالِحِهِم وَمَعَاشِهِم نِعمَةٌ مِنهُ. وَذِكرُ نِعَمِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّفصِيلِ لا سَبِيلَ إِلَيهِ، وَلا قُدرَةَ لِلبَشَرِ عَلَيهِ[٢].

وَالشُّكرُ بِاللِّسانِ: الثَّنَاءُ بِالنِّعَمِ، وَذِكرُها، وَتِعدادُها، وَإِظهَارُها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحىٰ: ١١].

وَعَنِ النُّعمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ المِنْبَرِ: «**مَنْ لَم يَشكُرِ القَلِيلَ، لَم يَشكُرِ الكَثِيرَ؛ وَمَنْ لَم يَشكُرِ النَّاسَ، لم يَشكُرِ اللهَ. التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ**»[٣].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ**»[٤].

وَعَنْ أَبِي الأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوبٍ

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥١٥).

(٢) شفاء العليل (١/ ٣٤٥).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨)، وَحسَّنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٦٦٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٨١٩)، وَقَالَ المحدث الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٦٠): «حسن صحيح».

دُونٍ[١]، فَقَالَ: «**أَلَكَ مَالٌ؟**»، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**مِنْ أَيِّ المَالِ؟**» قَالَ: قَدْ آتَانِي اللهُ مِنَ الإِبِلِ وَالغَنَمِ وَالخَيْلِ وَالرَّقِيقِ. قَالَ: «**فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالاً، فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ**»[٢].

فَإِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ بِمَالٍ فَلْيَكُنْ عَلَيْكَ أَثَرُ هَذَا المَالِ في لِبَاسِكَ، في بَيتِكَ، في مَرْكُوبِكَ، في صَدَقَاتِكَ، في نَفَقَاتِكَ؛ لِيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ في هَذَا المَالِ. وَإِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ بِعِلْمٍ فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ هَذَا العِلْمِ مِنْ تَعْلِيمِهِ وَنَشْرِهِ بَينَ النَّاسِ، وَالدَّعوَةِ إِلىٰ اللهِ، وَغيرِ ذَٰلِكَ[٣].

وَالشُّكرُ بِالجَوَارِحِ: أَنْ لا يُستَعانَ بِالنِّعَمِ إِلَّا عَلَىٰ طَاعةِ اللهِ، وَأَن يَحذَرَ مِنَ استِعمَالِهَا في شَيءٍ مِنْ مَعَاصِيهِ.

قَالَ ﷻ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

وَكَانَ النَّبيُّ ﷺ يَقُومُ حَتَّىٰ تَتَفَطَّرَ قَدمَاهُ وَيقولُ: «**أَفَلا أُحِبُّ أَن أَكُونَ عَبداً شَكُوراً؟!**»[٤].

فَسَمَّىٰ الأَعمَالَ شُكراً، وَأَخبرَ أَنَّ شُكرَهُ قِيَامُهُ بِهَا وَمُحَافَظَتُهُ عَلَيهَا[٥].

العَجَبُ مِمَّن يعلمُ أَنَّ كلَّ ما بِهِ مِنَ النِّعَمِ مِنَ اللهِ، ثُمَّ لا يَستَحِي مِنَ الاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَىٰ ارْتِكَابِ مَا نَهَاهُ!

---

(١) أي دنيء غير لائق بحالي مِنَ الغنى.
(٢) رواه أبو داود (٤٠٦٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٢٨).
(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٥٢٤).
(٤) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).
(٥) طريق الهجرتين (ص٦٢١).

وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ:

أَنالَكَ رِزقَهُ لِتَقُومَ فِيهِ بِطَاعَتِهِ وَتَشكُرَ بَعضَ حَقِّهِ
فَلَم تَشكُر لِنِعمَتِهِ وَلَكِن قَوِيتَ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ بِرِزقِهِ

وَمَنْ كَثُرَت عَلَيهِ النِّعَمُ فَلْيُقَيِّدهَا بِالشُّكرِ، وَإِلَّا ذَهَبَت.

إِذَا كُنتَ فِي نِعمَةٍ فَارعَهَا فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَم
وَحَافِظ عَلَيهَا بِشُكرِ الإِلَه فَشُكْرُ الإِلَهِ يُزِيلُ النِّقَم

وَلَو لَم يَكُن مِن فَضلِ الشُّكرِ إِلَّا أَنَّ النِّعَمَ بِهِ مَوصُولَةٌ، وَالمَزِيدَ لَهَا مُرتَبِطٌ بِهِ؛ لَكَانَ كَافِياً، فَهُوَ حَافِظٌ لِلْمَوجُودِ مِنَ النِّعَمِ، جَالِبٌ لِلمَفقُودِ مِنْهَا بِالمَزِيدِ. قَالَ ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، نِعمَةً إِلَىٰ نِعمَةٍ تَفَضُّلاً مِنَ الكَرِيمِ المَنَّانِ.

فَلَنْ يَنْقَطِعَ المزيدُ مِنَ اللهِ تعالى، حتَّى يَنْقَطِعَ الشُّكرُ مِنَ العَبدِ.

«فَمَن شَكَرَ اللهَ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُ وَسَّعَ اللهُ عَلَيهِ في الرِّزقِ، وَمَن شَكَرَ اللهَ عَلَىٰ مَا أَقدَرَهُ عَلَيهِ مِن طَاعَتِهِ، زَادَهُ مِن طَاعَتِهِ، وَمَن شَكَرَهُ عَلَىٰ مَا أَنعَمَ مِنَ الصِّحّةِ، زَادَهُ اللهُ صِحَّةً إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ»[١].

فَبِالشُّكرِ تَثبُتُ النِّعَمُ وَلا تَزُولُ، وَيَبلُغُ الشَّاكِرُ مِنَ المَزِيدِ فَوقَ المَأمُولِ. فَمَتَىٰ لَم تَرَ حَالَكَ في مَزِيدٍ، فَاستَقبِلِ الشُّكرَ.

وَإِذَا وَفَّقَكَ اللهُ لِلشُّكرِ، فَهَذِهِ نِعمَةٌ تَحتَاجُ إِلَىٰ شُكرٍ جَدِيدٍ؛ فَإِن شَكَرتَ، فَإِنَّهَا نِعمَةٌ تَحتَاجُ إِلَىٰ شُكرٍ ثَانٍ، وَهَلُمَّ جرًّا. فَلا يَقدِرُ العِبَادُ عَلَىٰ القِيَامِ بِشُكرِ النِّعَمِ. وَحَقِيقَةُ الشُّكرِ الاعتِرَافُ بِالعَجزِ عَنِ الشُّكرِ، كَمَا قِيلَ:

(١) فتح البيان (٧/٨٨ ـ ٨٩).

إِذَا كَانَ شُكرِي نِعمْةَ اللهِ نِعمَةً عَلَيَّ لَهُ في مِثلِهَا يَجِبُ الشُّكرُ
فَكَيفَ بُلُوغُ الشُّكرِ إِلَّا بِفَضلِهِ وَإِن طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمُرُ

وَلِهَذا نَقُولُ: سبحانَكَ لا نُحصِي ثَناءً عليكَ، أنتَ كَمَا أَثْنَيتَ على نَفْسِكَ.

وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعطِي مَعَ استِغنَائِهِ عَنِ العَبدِ، وَالعَبدُ يَشكُرُ مَعَ افتِقَارِهِ إِلىٰ الرَّبِّ. فَهَل يُكَافِىءُ شُكرُ المُحتَاجِ الفَقِيرِ عَطاءَ الغَنِيِّ الكَرِيمِ؟!

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى رَضِيَ مِنَّا بِشُهُودِ المِنَّةِ وَرُؤيَةِ التَّقصِيرِ في القِيَامِ بِشُكرِهِ، كَمَا في حَدِيثِ سَيِّدِ الاستِغفَارِ: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِك عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنبِي**»[(١)].

وَالمعنَىٰ: أُقِرُّ لَكَ، وَأَلتَزِمُ بِنِعمَتِكَ عَلَيَّ، وَأُقِرُّ وَأَلتَزِمُ بِذَنبِي، فَمِنكَ النِّعمَةُ وَالإِحسَانُ وَالفَضلُ، وَمِنِّي الذَّنبُ وَالإِسَاءَةُ.

فَالعَبدُ دَائِماً بَينَ نِعمَةٍ مِنَ اللهِ يَحتَاجُ فِيهَا إِلَىٰ الشُّكرِ، وَذَنبٍ مِنْهُ يَحتَاجُ فِيهِ إِلَىٰ الاستِغفَارِ، وَكُلٌّ مِن هَذَينِ مِنَ الأُمُورِ اللازِمَةِ لِلْعَبدِ دَائِماً، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِ اللهِ وَآلائِهِ، وَلَا يَزَالُ مُحتَاجاً إِلَىٰ التَّوبَةِ وَالاستِغفَارِ.

وَالشَّاكِرُونَ «هُمُ الأَقَلُّونَ عَدَداً، الأَعظَمُونَ عِنْدَ اللهِ قَدراً. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]»[(٢)] الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِنعمَةِ رَبِّهِم، وَيَخضَعُونَ للهِ، وَيُحِبُّونَهُ، وَيَصرِفُونَهَا في طَاعَةِ مَولاهُم وَرِضَاهُ[(٣)]. وَقَالَ

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦ و٦٣٢٣). وَاللفظ للرواية الأولى.
(٢) المجموعة الكاملة (٥/ ٤٢٨)، للعلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٤١).

سُبحَانَهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]؛ فَضلَهُ وَإنعَامَهُ، وَلا يَعرِفُونَ حَقَّ إحسَانِهِ «فَأَكثَرُ الخَلقِ مُنحَرِفُونَ عَن شُكرِ المُنعِمِ، مُشتَغِلُونَ بِاللَّهوِ وَاللَّعِبِ، قَد رَضُوا لأَنْفُسِهِم بِأَسَافِلِ الأَمرِ، وَسَفَاسِفِ الأَخلاقِ»(١). فَأَكثَرُهُم لَم يَشكُرُوا اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا أَولاهُم مِنَ النِّعَمِ، وَدَفَعَ عَنهُم مِنَ النِّقَمِ(٢).

ثانياً: وَمِمَّا يَنبَغِي أَن يُعلَمَ بِأَنَّ «مَنفَعَةَ الشُّكرِ تَرجِعُ إلَىٰ العَبدِ دُنياً وَآخِرَةً، لا إلَىٰ اللهِ، وَالعَبدُ هُوَ الَّذِي يَنتَفِعُ بِشُكرِهِ، لأَنَّ نَفعَ ذَٰلِكَ وَثَوَابَهُ رَاجِعٌ إلَيهِ وَفَائِدَتَهُ حَاصِلَةٌ لَهُ، إذ بِهِ تُستَبقَىٰ النِّعمَةُ، وَبِسَبَبِهِ يُستَجلَبُ المَزِيدُ لَهَا مِنَ اللهِ سُبحَانَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان: ١٢]، غَنِيٌّ عَن أَعمَالِهِ، «غَنِيٌّ عَن شُكرِهِ غَيرُ مُحتَاجٍ إلَيهِ، حَمِيدٌ مُستَحِقٌّ لِلحَمدِ مِن خَلقِهِ، لإنعَامِهِ عَلَيهِم بِنِعَمِهِ الَّتِي لا يُحَاطُ بِقَدرِهَا، وَلا يُحصَرُ عَدَدُهَا، وَإن لَم يَحمَدهُ أَحَدٌ مِن خَلقِهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَوجُودٍ نَاطِقٌ بِحَمدِهِ بِلِسَانِ الحَالِ»(٣).

فَشُكرُ العَبدِ إحسَانٌ مِنْهُ إلَىٰ نَفسِهِ دُنيَا وَأُخرَىٰ، فَإِنَّهُ إنَّمَا هُوَ مُحسِنٌ إلَىٰ نَفسِهِ بِالشُّكرِ، لا أَنَّهُ مُكَافِىءٌ بِهِ لِنِعَمِ الرَّبِّ، فَالرَّبُّ تَعَالَىٰ لا يَستَطِيعُ أَحَدٌ أَن يُكَافِىءَ نِعَمَهُ أَبداً، وَلا أَقَلَّهَا، وَلا أَدنَىٰ نِعمَةٍ مِن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٣١٠).

(٢) المصدر السابق (ص٩٤٦).

(٣) فتح القدير (٤/٣٣٨).

نِعَمِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ المُنعِمُ المتَفَضِّلُ، الخَالِقُ لِلشُّكرِ وَالشَّاكِرِ وَمَا يُشكَرُ عَلَيهِ، فَلا يَستَطِيعُ أَحَدٌ أَن يُحصِيَ ثَنَاءً عَلَيهِ، فَإِنَّهُ هُوَ المُحسِنُ إِلَىٰ عَبدِهِ بِنِعَمِهِ، وَأَحسَنَ إِلَيهِ بِأَن أَوزَعَهُ شُكرَهَا.

وَمِن تَمَامِ نِعمَتِهِ سُبحَانَهُ، وَعَظِيمِ بِرِّهِ وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ، مَحَبَّتُهُ لَهُ عَلَىٰ هَذَا الشُّكرِ، وَرِضَاهُ مِنْهُ بِهِ، وَثَنَاؤُهُ عَلَيهِ بِهِ، وَمَنفَعَتُهُ وَفَائِدَتُهُ مُختَصَّةٌ بِالعَبدِ، لا تَعُودُ مَنفَعَتُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَهَذَا غَايَةُ الكَرَمِ الَّذِي لا كَرَمَ فَوقَهُ، يُنعِمُ عَلَيْكَ ثُمَّ يُوزِعُكَ شُكرَ النِّعمَةِ، وَيَرضَىٰ عَنكَ، ثُمَّ يُعِيدُ إِلَيكَ مَنفَعَةَ شُكرِكَ، وَيَجعَلُهُ سَبَباً لِتَوَالِي نِعَمِهِ وَاتِّصَالِهَا إِلَيكَ، وَالزِّيَادَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْهَا[1].

وَتَأَمَّل قَولَهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧].

كَيفَ تَجِدُ في ضِمنِ هَذَا الخِطَابِ أَنَّ شُكرَهُ تَعَالَىٰ يَأبَىٰ تَعذِيبَ عِبَادِهِ بِغَيرِ جُرمٍ، كَمَا يَأبَىٰ إِضَاعَةَ سَعيِهِم بَاطِلاً، فَالشَّكُورُ لا يُضِيعُ أَجرَ مُحسِنٍ، وَلا يُعَذِّبُ غَيرَ مُسِيءٍ[2].

ثالثاً: عَلَىٰ العَبدِ أَن يَشكُرَ مَنْ أَجرَىٰ اللهُ سُبحَانَهُ النِّعمَةَ عَلَىٰ يَدِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فَأَمَرَ بِشُكرِهِ ثُمَّ بِشُكرِ الوَالِدَينِ إِذ كَانَا سَبَبَ وُجُودِهِ في الدُّنيَا، وَسَهرَا وَتَعِبَا في تَربِيَتِهِ وَتَغذِيَتِهِ، فَيُحسِنَ إِلَيهِم بِالقَولِ الكَرِيمِ، وَالخِطَابِ اللَّطِيفِ، وَالفِعلِ الجَمِيلِ، وَالتَّوَاضُعِ لَهُمَا، وَإِكرَامِهِمَا، وَإِجلالِهِمَا، وَالقِيَامِ

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص٦١٥ ـ ٦١٦).

(٢) عدة الصابرين (ص٣٣٦).

بِمؤُونَتِهِمَا، وَاجتِنَابِ الإِسَاءَةِ إِلَيهِمَا مِن كُلِّ وَجهٍ، بِالقَولِ وَالفِعلِ. فَمَن عَقَّهُمَا أَو أَسَاءَ إِلَيهِمَا فَمَا شَكَرَهُمَا عَلَىٰ صَنِيعِهِمَا، بَلْ جَحَدَ أَفضَالَهُمَا عَلَيهِ، وَمَن لَم يَشكُرهُمَا فَإِنَّهُ لَم يَشكُرِ اللهَ الَّذِي أَجرَىٰ تِلكَ النِّعَمَ عَلَىٰ أَيدِيهِمَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا يَشكُرُ اللهَ، مَن لا يَشكُرُ النَّاسَ**»(١).

أَي: مَن كَانَ مِن طَبعِهِ كُفرانُ نِعمَةِ النَّاسِ، وَتَركُ الشُّكرِ لِمَعرُوفِهِم «فَلَن يَكُونَ شَاكِراً للهِ، وَلا يُوَفَّقُ لِذَلِكَ، وَمَن عَجزَ عَنِ القَلِيلِ عَجِزَ عَنِ الكَثِيرِ مِن بَابِ أَولىٰ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فَكَيفَ يُؤَدِّي العَاجِزُ شُكرَ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لا تُحصَىٰ؟! إِذَا لَم يُؤَدِّ القَلِيلَ»(٢).

فَلا بُدَّ مِنْ مُكَافَأَةِ المُحسِنِ وَشُكْرِهِ عَلَىٰ صَنِيعِهِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبي رَبِيعَةَ المَخزُومِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ استَلَفَ مِنْهُ - حِينَ غَزَا حُنيناً - ثَلاثِينَ أَو أَربَعِينَ أَلفاً، فَلَمَّا قَدِمَ قَضَاهَا إِيَّاهُ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ في أَهلِكَ وَمَالِكَ؛ إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الوَفَاءُ وَالحَمدُ**»(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيكُم مَعرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِن لم تَجِدُوا ما تُكَافِئُونَهُ فَادعُوا لَهُ، حَتَّىٰ تَروا**

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١١)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٨٢).

(٢) شرح صحيح الأدب المفرد (١/ ٢٥٥).

(٣) رواه النسائي (٤٦٩٧)، وَابن ماجه (٢٤٢٤) - وَاللفظ له -. وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٨٣).

أَنَّكم قَد كَافأْتُمُوهُ»(١).

قوله: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيكُم مَعرُوفاً فَكَافِئوُهُ**» بِأنْ أعْطَاكَ شيئاً مِنَ المَالِ، أو أكْرَمَكَ، أو أعَانَكَ على شيءٍ تَحْتَاجُ إليهِ، هذا مَعْرُوفٌ؛ لأنَّهُ غيرُ وَاجِبٍ عَليهِ، وَإنَّما بَذَلَهُ مَعْروفاً وَإحْساناً.

قوله: «**فَكَافِئوُهُ**» بِأنْ تَصنَعَ إليهِ مَعروفاً مِثْلَ مَعروفِهِ، مِن بابِ المُكافَئَةِ، فَالمؤمِنُ يَكُونُ كَريماً يُكَافئُ على المَعروفِ وَلا يَجحَدُهُ وَلا يُنْكِرُهُ، بَلْ يُكَافئُ عليهِ، وَاللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فَإذا لَم تَجد شيئاً تُكافِئُهُ بِهِ عَنْ مَعْرُوفِهِ، فَعَليكَ بِالدُّعاءِ لَهُ «**فادعُوا لَهُ**»، فَادعُوا اللهَ لَهُ بِالخَيرِ عَلى مَعْرُوفِهِ وَإحسَانِهِ إليكَ(٢).

عن أسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ صُنِعَ إليهِ مَعروفٌ، فقالَ لِفَاعِلِهِ: جَزاكَ اللهُ خيراً، فقد أبلغَ في الثناءِ**»(٣).

وَهَذَا لا يَعنِي أَن يَنسَىٰ العَبدُ المُعطِيَ الأَوَّلَ، «لأَنَّ النِّعَمَ كُلَّهَا للهِ تَعَالَىٰ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]؛ فَاللهُ سُبحَانَهُ هُوَ المُعطِي عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الأَرزَاقَ وَقَدَّرَهَا، وَسَاقَهَا إِلىٰ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ؛ فَالمُعطِي هُوَ الَّذِي أَعطَاهُ، وَحَرَّكَ قَلبَهُ

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٢)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٤٦٤).

(٢) تسهيل الإلمام بفقه الأحاديث من بلوغ المرام (٦/ ١٩٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٠٣٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٩٢).

لِعَطَاءِ غَيرِهِ، فَهُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ»[١].

فَمَن سَلَكَ هَذَا المَسلَكَ العَظِيمَ استَرَاحَ مِن عُبُودِيَّةِ الخَلقِ وَنَظَرِهِ إِلَيهِم، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِن لَومِهِ وَذَمِّهِ إِيَّاهُم، وَتَجَرَّدَ التَّوحِيدُ في قَلبِهِ، فَقَوِيَ إِيمَانُهُ وَانشَرَحَ صَدرُهُ، وَتَنَوَّرَ قَلبُهُ، وَمَن تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسبُهُ[٢].

رابعاً: يَنبَغِي عَلَىٰ العَبدِ «أَن يَتَدَبَّرَ نِعَمَ اللهِ عَلَيهِ، وَيَستَبصِرَ فِيهَا، وَيَقِيسَهَا بِحَالِ عَدَمِهَا. فَإِنَّهُ إِذَا وَازَنَ بَينَ حَالَةِ وُجُودِهَا، وَبَينَ حَالَةِ عَدَمِهَا، تَنَبَّهَ عَقلُهُ لِمَوضِعِ المِنَّةِ. بِخِلافِ مَن جَرىٰ مَعَ العَوَائِدِ، وَرَأَىٰ أَنَّ هَذَا أَمرٌ لَم يَزَل مُستَمِرّاً، وَلا يَزَالُ. وَعَمِيَ قَلبُهُ عَنِ الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ، بِنِعَمِهِ، وَرُؤيَةِ افتِقَارِهِ إِلَيهِ في كلِّ وَقتٍ. فَإِنَّ هَذَا لا يُحدِثُ لَهُ فِكرَةَ شُكرٍ»[٣].

وَإِنَّ خَصلَةً تَكُونُ لَهَا كُلُّ هَذِهِ القِيمَةِ، وَتَكُونُ فِيهَا كُلُّ هَذِهِ الفَائِدَةِ، لَحَقِيقٌ أَن يُتَمَسَّكَ بِهَا مِن غَيرِ إِغفَالٍ بِحَالٍ.

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَشكُرُكَ عَلَىٰ كُلِّ نِعمَةٍ أَنعَمتَ بِهَا عَلَينَا مِمَّا لا يَعلَمُهُ إِلَّا أَنْتَ، وَمِمَّا عَلِمنَاهُ، شُكراً لا يُحِيطُ بِهِ حَصرٌ وَلا يَحصُرُهُ عَدٌّ، وَعَدَدَ مَا شَكَرَكَ الشَّاكِرُونَ بِكُلِّ لِسَانٍ في كُلِّ زَمَانٍ»[٤].

فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: يُشرَعُ سُجُودُ الشُّكرِ عِندَ النِّعَمِ المُتَجَدِّدَةِ، «شُكراً للهِ

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٢).
(٢) المصدر السابق (١/ ٩٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٧٢).
(٤) فتح البيان (٧/ ١٢٠).

عَلَيهَا، وَخُضُوعاً لَهُ، وَذُلّاً، في مُقَابَلَةِ فَرحَةِ النِّعَم وَانبِساطِ النَّفسِ لَها، وَذَلِكَ مِنْ أَكبَرِ أدوَائِهَا، فَإِنَّ اللهَ سُبحَانَهُ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ وَلا الأَشِرِينَ، فَكَانَ دَوَاءُ هَذَا الدَّاءِ الخُضُوعَ وَالذُّلَّ وَالانكِسَارَ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَكَانَ في سُجُودِ الشُّكرِ مِن تَحصِيلِ هَذَا المَقصُودِ ما لَيسَ في غَيرِهِ»[1].

عَن أَبي بَكرةَ رضي الله عنه: عَنِ النبيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إذا جَاءَهُ أَمرُ سُرُورٍ، أَو بُشِّرَ بِهِ، خَرَّ سَاجِداً شَاكِراً للهِ[2].

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٤٤٩).
(٢) رواه أبو داود (٢٧٧٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ١٨٠).

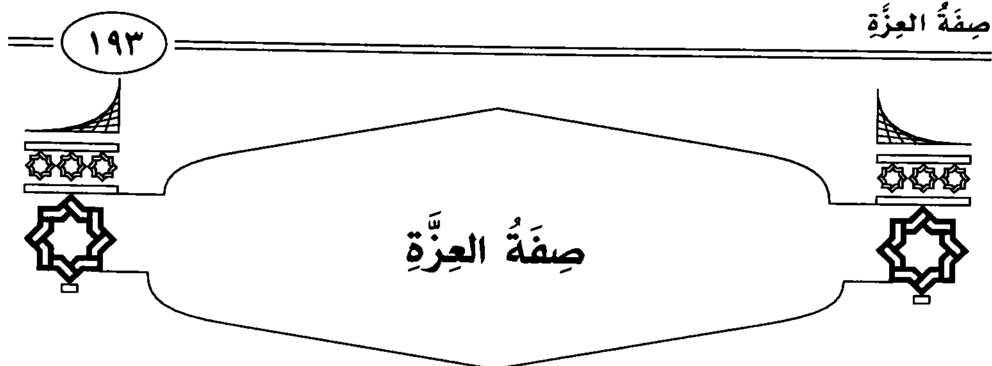

صِفَةُ العِزَّةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ عِزَّتِهِ: فَهُوَ العَزِيزُ الَّذِي قَد كَمُلَ في عِزَّتِهِ. «العِزَّةُ كُلُّهَا لَهُ وَصفاً وَمُلكاً، وَهُوَ العَزِيزُ الَّذِي لا شَيءَ أَعَزُّ مِنْهُ، وَمَنْ عَزَّ مِنْ عِبَادِهِ فَبِإِعزَازِهِ لَهُ»(١).

قَالَ ﷻ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء: ٩]، وَقَالَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]. وَأَمَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ أَن نَعلَمَ وَنَستَيقِنَ بِأَنَّه عَزِيزٌ، فَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، وَقَالَ: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وَهُوَ جَلَّ وَعَلا رَبُّ العِزَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: ١٨٠] أَي: «صَاحِبُ العِزَّةِ؛ كَمَا يُقَالُ: رَبُّ الدَّارِ، أَي: صَاحِبُ الدَّارِ»(٢).

وَلَهُ ﷻ جَمِيعُ مَعَانِي العِزَّةِ. قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]. فَلَهُ عِزَّةُ القَدرِ، وَعِزَّةُ القَهرِ، وَعِزَّةُ الامتِنَاعِ.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٨٢).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص١١٣)، للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ العَزِيزُ فَلَن يُرَامَ جَنَابُهُ ... أَنَّىٰ يُرامُ جَنَابُ ذي السُّلطَانِ

وَهُوَ العزيزُ القَاهِرُ الغَلَّابُ لَم ... يَغلِبهُ شَيءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ

وَهُوَ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصفُهُ ... فَالعِزُّ حِينَئِذٍ ثَلاثُ مَعَانِي

وَهِيَ الَّتي كَمُلَت لَهُ سُبحَانَهُ ... مِنْ كُلِّ وَجهٍ عَادِمِ النُّقصَانِ[1]

فَعِزَّةُ القَدرِ: أَي أَنَّهُ ﷻ عَظِيمُ القَدرِ. «يَعنِي الشَّرَفَ وَالسِّيَادَةَ وَالفَضلَ، مِثلَ أَن تَقُولَ: هَذَا الشَّيءُ عَزِيزٌ وُجُودُهُ، يَعنِي أَنَّهُ مُنفَرِدٌ في الصِّفَاتِ الكَامِلَةِ عَن غَيرِهِ»[2].

أَمَّا عِزَّةُ القَهرِ: فَمَعنَاهَا الغَلَبَةُ؛ أَي أَنَّهُ ﷻ غَالِبٌ لا يُغَالِبُهُ شَيءٌ. وَمِنْهُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]. أَي: غَلَبَنِي فِيهِ «فَهُوَ العَزِيزُ الَّذِي لا يُغلَبُ، فَمَا مِنْ جُمُوعٍ وَلا أَجنَادٍ وَلا قُوَّةٍ إِلَّا وَهِيَ ذَلِيلَةٌ أَمَامَ عِزَّةِ اللهِ؛ ذَلَّت لِعِزَّتِهِ الصِّعَابُ، وَلانَت لِقُوَّتِهِ الشَّدَائِدُ الصِّلابُ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]»[3]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ﴾ - يَعنِي المنَافِقِينَ - ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فَسَلَّمَ اللهُ لَهُم ذَلِكَ أَنَّ الأَعَزَّ يُخرِجُ الأَذَلَّ وَلَكِن لِمَنِ العِزَّةُ؟ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ إِذَن عِزَّةُ القَهرِ تَعنِي الغَلَبَةَ أَنَّهُ غَالِبٌ، غَالِبُ كُلِّ شَيءٍ، وَمِنَ الشِّعرِ الجَاهِلِيِّ:

---

(١) الكافية الشافية (ص٢٠٨).

(٢) تفسير سورة آل عمران (٢/ ١٣٩).

(٣) الضياء اللامع (١/ ٨٥).

أَيـنَ الـمـفـرُّ وَالإِلَـهُ الـطَّـالِـبُ وَالأَشرَمُ المَغلُوبُ لَيسَ الغَالِبُ[١]

وَأَمَّا عِزَّةُ الامتِنَاع: فَمَعنَاهَا أَنَّهُ يَمتَنِعُ أَن يَنَالَهُ السُّوءُ ﷻ أَوِ النَّقصُ. وَمِنهُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾ [فاطر: ١٦ ـ ١٧]، أي: بِمُمتَنِعٍ.

هَذِهِ مَعَانِي العِزَّةِ الَّتِي أَثبَتَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِنَفسِهِ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ قَهرِهِ وَسُلطَانِهِ، وَعَلَىٰ كَمَالِ صِفَاتِهِ، وَعَلَىٰ تَمَامِ تَنَزُّهِهِ عَنِ النَّقصِ.

وَعِزَّتُهُ سُبحَانَهُ مَقرُونَةٌ بِالحِكمَةِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. وَقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]. وَقَالَ مُخَاطِباً مُوسىٰ عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل: ٩]. «وَكُلُّ عَزِيزٍ إِذَا اقتَرَنَ فِي عِزَّتِهِ الحِكمَةُ وَالحُكمُ كَمُلَت عِزَّتُهُ»[٢].

وَقَرَن ﷻ عِزَّتَهُ بِالرَّحمَةِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء: ٩]، وَقَولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ [السجدة: ٦]. وَقَالَ: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس: ٥].

وَمِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ: أَنَّ نَوَاصِيَ الخَلقِ بِيَدِهِ، وَأَنَّهُ لا يَتَحَرَّكُ مُتَحَرِّكٌ، وَلا يَسكُنُ سَاكِنٌ، إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَم يَشَأ لَم يَكُن.

وَمِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ: أَن يُمسِكَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ أَن تَزُولا.

---

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ١٣٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٦١).

وَمِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ: أَنَّهُ يَبعَثُ الخَلقَ كُلَّهُم، أَوَّلَهُم وَآخِرَهُم بِصَيحَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَمِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ: أَنَّهُ أَهلَكَ الجَبابِرَةَ، وَالأُمَمَ العَاتِيَةَ، بِشَيءٍ يَسِيرٍ، وَسَوطٍ مِن عَذَابِهِ[١].

وَمِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ: أَنَّ «مَا فِي العَالَمِ العُلوِيِّ وَالسُّفليِّ مِنَ القُوَّةِ، إِلَّا وَهِيَ مِنْهُ، هُوَ الَّذِي أَعطَاهَا لِلْخلقِ، فَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ»[٢].

وَبِعِزَّتِهِ قَهَرَ الخَلقَ كُلَّهُم، وَتَصَرَّفَ فِيهِم، وَدَبَّرَهُم[٣].

وَمِنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ: أَنَّهُ يُعِزُّ مَن يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَن يَشَاءُ. فَكَم مِنْ إِنسَانٍ عَزِيزٍ يَرَىٰ أَنَّهُ غَالِبٌ لِكُلِّ أَحدٍ، فَيكُونُ أَذَلَّ عِبَادِ اللهِ بَينَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا. وَكَمْ مِنْ إِنسَانٍ ذَلِيلٍ، يَكُونُ عَزِيزاً بَينَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا. قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

فَهُوَ الَّذِي يَمنَحُ العِزَّةَ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَكَيفَ شَاءَ، وَمَتَى شَاءَ.

فَمَن أَعَزَّهُ فَلا مُذِلَّ لَهُ، وَمَنْ أَذَلَّهُ فَلا مُعِزَّ لَهُ.

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ العِزَّةِ:

١ - إِنَّ الإِنسانَ مَتَى آمَنَ بِأَنَّ اللهَ عَزِيزٌ، فَسَوفَ يَخشى عِقَابَهُ،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٥٧).

(٢) المصدر السابق (ص٩١٢).

(٣) المصدر السابق.

وَيَرجُو ثَوابَهُ؛ لأنَّ مِنْ مَعْنَى العَزِيزِ: الغَالبَ الذي لا يُغْلَبُ، القَاهِرَ الذي لا يُقْهَرُ، المُجِيرَ الذي لا يُجَارُ عليهِ»[١].

٢ ـ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ «لَهُ العِزَّةُ جَمِيعاً، وَجَمِيعُ أَنواعِ العِزَّةِ وَأَفرَادُهَا مُختَصَّةٌ بِاللهِ سُبحَانَهُ وَتَعالَىٰ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ، وَلا يَنالُهَا إِلَّا أَولِيَاؤُهُ الَّذِينَ كَتَبَ لَهُمُ العِزَّةَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا مَعَ غَيرِهِ فَهُوَ مِن فَضلِهِ وَتَفَضُّلِهِ، كَمَا في قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وَهَذَا يَقتَضِي بُطلانَ التَّعَزُّزِ بِغَيرِهِ سُبحَانَهُ وَاستِحَالَةَ الانتِفَاعِ بِهِ، وَعِزَّةُ الكُفَّارِ لَيسَ مُعتَدّاً بِهَا بِالنِّسبَةِ إِلىٰ عِزَّةِ المؤمِنِينَ؛ لأَنَّهُ لا يُعَزُّ إِلَّا مَنْ أَعَزَّهُ اللهُ»[٢].

٣ ـ إِذَا عَلِمنَا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ فَإِنَّ العِزَّةَ لا تُطلَبُ إِلَّا مِنْهُ، وَلا تُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبحَانَهُ العِزَّ قَرِينَ طَاعَتِهِ، وَالذُّلَّ قَرِينَ مَعصِيَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فَلِلْعَبْدِ مِنَ العِزَّةِ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ، فَإِذَا فَاتَهُ حَظٌّ مِنَ العِزَّةِ، فَفِي مُقَابَلَةِ مَا فَاتَهُ مِنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ، عِلماً وَعَمَلاً ظَاهِراً وَبَاطِناً[٣].

وَالإِيمَانُ قَولٌ وَعَمَلٌ، ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]؛ «أَي: مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ وَيطلُبُهَا فَليَطلُبهَا مِنَ اللهِ، فَلِلَّهِ العِزَّةُ

---

(١) فتح البيان (٣/ ٢٦٧).
(٢) إغاثة اللَّهفان (ص٥٥١).
(٣) فتح البيان (١١/ ٢٢٧).

جَميعاً لَيسَ لِغَيرِهِ مِنْهَا شَيءٌ، فَتَشمَلُ الآيَةُ كُلَّ مَنْ طَلَبَ العِزَّةَ، وَيَكُونُ المقصُودُ بِهَا التَّنبيهَ لِذَوِي الأَقدَارِ وَالهِمَمِ مِنْ أَينَ تُنَالُ العِزَّةُ وَتُستَحَقُّ، وَمِنْ أَيِّ جِهَةٍ تُطلَبُ»[١] فَمَن «كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ، فَليَطلُبهَا بِطَاعَةِ اللهِ وَذِكرِهِ، مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ»[٢].

فَإِنَّ المُطِيعَ للهِ عَزِيزٌ، وَإِن كَانَ فَقِيراً لَيسَ لَهُ أَعوَانٌ[٣]. وَكُلَّمَا كَانَت هَذِهِ الصِّفَةُ فِيهِ أَكْمَلَ، كَانَ أَشَدَّ عِزَّةً وَأَكمَلَ رِفعَةً.

وَفي دُعَاءِ القُنُوتِ: «**إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَن وَالَيتَ، وَلا يَعِزُّ مَن عَادَيتَ**»، وَمَنْ أَطَاعَ اللهَ فَقَد وَالاهُ فِيمَا أَطَاعَهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ العِزِّ بِحَسَبِ طَاعَتِهِ، وَمَن عَصَاهُ فَقَد عَادَاهُ فِيمَا عَصَاهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الذُّلِّ بِحَسَبِ مَعصِيَتِهِ[٤].

قَالَ النَّبيُّ ﷺ لِلأَنصَارِ: «**يَا مَعشَرَ الأَنصَارِ! أَلَم تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللهُ؟**» قَالُوا: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ[٥].

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه لأَبِي عُبَيدَةَ بنِ الجَرَّاحِ رضي الله عنه: «إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَومٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسلَامِ، فَمَهمَا نَطلُبِ العِزَّ بِغَيرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ، أَذَلَّنَا اللهُ»[٦].

فَصَاحِبُ الطَّاعَةِ عَزِيزٌ، بِعِزَّةِ اللهِ، قَوِيٌّ، وَلَو لَم يَكُن لَهُ

---

(١) الداء والدواء (ص٢٧٧).

(٢) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٥٨).

(٣) الداء والدواء (ص٢٧٧).

(٤) المصدر السابق (ص٢٧٧).

(٥) رواه أحمد (٣/ ٥٧)، وإسناده صحيح.

(٦) رواه الحاكم (١/ ٦١ ـ ٦٢)، بسندٍ صحيحٍ.

أَنصَارٌ إِلَّا اللهُ، مَحمُودٌ في أُمُورِهِ، حَسَنُ العَاقِبَةِ. وَصَاحِبُ المَعصِيَةِ ذَلِيلٌ، فَلا عِزَّ لَهُ، وَلا قَائِمَةَ تَقُومُ لَهُ. وَلِذَلِكَ يَقُولُ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَن خَالَفَ أَمرِي**»[١].

قَالَ الشَّاعِرُ:

رَأَيتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَد يُورِثُ الذُّلَّ إِدمَانُهَا
وَتَركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيرٌ لِنَفسِكَ عِصيَانُهَا

وَالعَاقِلُ مِنَ النَّاسِ مَنْ عَرَفَ مَوَاطِنَ العِزَّةِ فَتَحَرَّاهَا، وَمَوَاطِنَ الذُلِّ فَتَوَقَّاهَا.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ المُعِزُّ لأَهلِ طَاعَتِهِ وَذَا ... عِزٌّ حَقِيقِيٌّ بِلا بُطلانِ
وَهُوَ المُذِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ بِذِلَّةِ الـ ... ـدَّارَينِ ذُلُّ شَقَاءٍ وَذُلُّ هَوَانِ[٢]

وَفي هَذِهِ الأَيَّام! النَّاسُ يَتَعَرَّفُونَ إِلَىٰ مُلُوكِهِم وَكُبَرَائِهِم، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيهِم لِينَالُوا بِهِمُ العِزَّةَ وَالرِّفعَةَ، فَتَعَرَّف أَنتَ إِلَىٰ اللهِ، وَتَوَدَّد إِلَيهِ: تَنَلْ بِذَلِكَ غَايَةَ العِزِّ وَالرِّفعَةِ.

وَبِالجُملَةِ: فَمَنْ طَلَبَ العِزَّةَ مِنَ اللهِ، وَصَدَقَ في طَلَبِهَا بِافْتِقَارٍ وَذُلٍّ، وَسُكُونٍ وَخُضُوعٍ، وَجَدَهَا عِندَهُ. وَمَنْ طَلَبَهَا مِنْ غَيرِهِ، وَكَلَهُ إِلى مَنْ طَلَبَهَا عِنْدَهُ ـ مِمَّن لا يَملِكُ لِنَفسِهِ نَفعاً، وَلا ضَرّاً، وَلَيسَ يَملِكُ مِنهَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ!! ـ. وَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَينِ فَلْيُطِعِ العَزِيزَ. وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ

---

(١) قطعة من حديث رواه أحمد (٢/ ٥٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٢٨٣١).

(٢) الكافية الشافية (ص٢١٣).

العِزَّةَ لِيَنَالَ الفوزَ الكَبِيرَ، فَليَقصِد بِالعِزَّةِ اللهَ سُبحَانَهُ والاعتِزازَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اعتَزَّ بِالعَبدِ أَذَلَّهُ اللهُ، وَمَنِ اعتَزَّ بِاللهِ أَعَزَّهُ اللهُ.

٣ ـ مِن أَسبَابِ العِزَّةِ العَفوُ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا نَقَصت صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبداً بِعَفوٍ إِلَّا عِزّاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[١].

العَفوُ عَن كُلِّ مَن أَسَاءَ إِلَيكَ بِقَولٍ، أَو فِعلٍ. وَالعَفوُ تَركُ المُؤَاخَذَةِ، مَعَ السَّمَاحَةِ عَنِ المُسِيءِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّن تَحَلَّىٰ بِالأَخلاقِ الجَمِيلَةِ، وَتَخَلَّىٰ عَنِ الأَخلاقِ الرَّذِيلَةِ، وَمِمَّن تَاجَرَ مَعَ اللهِ، وَعَفَا عَن عِبَادِ اللهِ، رَحمَةً بِهِم، وَإِحسَاناً إِلَيهِم، وَكَرَاهَةً لِحُصُولِ الشَّرِّ عَلَيهِم، وَلِيَعفُوَ اللهُ عَنهُ، وَيَكُونَ أَجرُهُ عَلَىٰ رَبِّهِ الكَرِيمِ، لا عَلَىٰ العَبدِ الفَقِيرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠][٢]. أَي يَأجُرُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ، وَأَبهَمَ الأَجرَ تَعظِيماً لِشَأنِهِ، وَتَنبِيهاً عَلَىٰ جَلالَتِهِ[٣].

وَيَنبَغِي أَن يُعلَمَ بِأَنَّ الإِنسَانَ إِذَا عَفَا عَمَّن ظَلَمَهُ، فَقَد تَقُولُ لَهُ نَفْسُهُ: إِنَّ هَذَا ذُلٌّ وَخُضُوعٌ وَخُذلانٌ، «فَهَذَا مِن خِدَاعِ النَّفسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ وَنَهيِهَا عَنِ الخَيرِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُثِيبُكَ عَلَىٰ عَفوِكَ هَذا عِزّاً وَرِفعَةً في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ»[٤]. وَتَنَالُ مِنَ الكَرِيمِ الوَهَّابِ، جَمِيلَ الأَجرِ، وَجَزِيلَ الثَّوَابِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٧٩).

(٣) فتح البيان (١٢/ ٣١٣).

(٤) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٤).

٤ ـ العِزَّةُ مَطلَبٌ لِكُلِّ نَفسٍ أَبِيَّةٍ، وَعِزَّةُ المُؤمِنِ أَن يَيأَسَ عَمَّا في أَيدِي النَّاسِ.

عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ جِبرِيلُ [عَلَيهِ السَّلامُ] إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ! عِش ما شِئتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعمَل ما شِئتَ فَإِنَّكَ مَجزِيٌّ بِهِ، وَأَحبِب مَن شِئتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعلَم أَنَّ شَرَفَ المُؤمِنِ قِيَامُ اللَّيلِ، وَعِزَّهُ استِغنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**»[١].

٥ ـ إِنَّ العَزِيزَ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ هُوَ مَن أَعَزَّهُ اللهُ. وَإِيمَانُ العَبدِ بِعِزَّةِ اللهِ يُثَبِّتُ في قَلبِهِ أَنَّ النَّصرَ وَالغَلَبَةَ مِن عِندِ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وَقَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ٣]، ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] أَي: كَامِلُ القُوَّةِ، عَزِيزٌ لا يُرَامُ، قَد قَهَرَ الخَلائِقَ، وَأَخَذَ بِنَوَاصِيهِم، «وَمَشِيئَتُهُ نَافِذَةٌ فِيهِم. وَقَدْ تَكَفَّلَ بِنَصرِ دِينِهِ وَعِبَادِهِ المُؤمِنِينَ، وَلَو تَخَلَّلَ ذَلِكَ بَعضُ الامتِحَانِ لِعِبَادِهِ المؤمِنِينَ، وَإِدَالَةُ العَدُوِّ عَلَيهِم، إِدَالَةً غَيرَ مُستَمِرَّةٍ، فَإِنَّ العَاقِبَةَ وَالاستِقرَارَ لِلمُؤمِنِينَ»[٢]. فَأَبشِرُوا يَا مَعشَرَ المُسلِمِينَ، فَإِنَّكُم، وَإِن ضَعُفَ عَدَدُكُم، وَعُدَدُكُم، وَقَوِيَ عَدَدُ عَدُوِّكُم، فَإِنَّ رُكنَكُمُ القَوِيُّ العَزِيزُ، وَمُعتَمَدَكُم عَلَىٰ مَن خَلَقَكُم وَخَلَقَ مَا تَعمَلُونَ، فَاعمَلُوا بِالأَسبَابِ المَأمُورِ بِهَا، ثُمَّ

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٨)، وَحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٦٤).

اطلُبُوا مِنْهُ نَصرَكُم، فَلا بُدَّ أَن يَنصُرَكُم[١].

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ، أَعَزَّ جُندَهُ، وَنَصَرَ عَبدَهُ؛ وَغَلَبَ الأَحزَابَ وَحدَهُ، فَلا شَيءَ بَعدَهُ**»[٢].

٦ ـ ثَبَتَ في السُّنَّةِ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ سَأَلَ اللهَ بِعِزَّتِهِ وَتَعَوَّذَ بِعِزَّتِهِ.

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسلَمتُ، وَبِكَ آمَنتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلتُ، وَإِلَيكَ أَنبتُ، وَبِكَ خَاصَمتُ؛ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَن تُضِلَّنِي؛ أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنسُ يَمُوتُونَ**»[٣].

وَعَنْ عُثْمانَ بنِ أَبِي العَاصِ رضي الله عنه: أَنَّهُ أَتىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ ـ قَالَ عثُمَانُ رضي الله عنه: وَبِي وَجَعٌ، قَد كَادَ يُهلِكُني ـ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**امسَحهُ بِيَمِينِكَ سَبعَ مَرَّاتٍ، وَقُل: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدرَتِهِ مِن شَرِّ مَا أَجِدُ**» قَالَ: فَفَعَلتُ ذَلِكَ، فَأَذهَبَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ مَا كَانَ بي، فَلَم أَزَل آمُرُ بِهَا أَهلِي وَغَيرَهُم[٤].

فَفِي هَذا العِلاجِ مِن ذِكرِ اللهِ، وَالتَّفوِيضِ إِلَيهِ، وَالاستِعَاذَةِ بِعِزَّتِهِ وَقُدرَتِهِ مِن شَرِّ الأَلَم مَا يَذهَبُ بِهِ، وَتِكرَارُهُ لِيَكُونَ أَنجعَ وَأَبلَغَ، كَتِكرَارِ الدَّوَاءِ لإِخرَاجِ المَادَّةِ، وَفي السَّبعِ خَاصِّيَّةٌ لا تُوجَدُ في غَيرِهَا[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٨).

(٢) رواه البخاري (٤١١٤)، وَمسلم (٢٧٢٤).

(٣) رواه البخاري (٧٣٨٣)، وَمسلم (٢٧١٧) ـ والسِّياق له ـ.

(٤) رواه مالكٌ (١٧٠٩)، وَمسلم (٢٢٠٢).

(٥) زاد المعاد (٤/ ١٨٨).

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا تَضَوَّرَ مِنَ اللَّيلِ قَالَ: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَينَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ**»[1].

وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن قَالَ إِذَا أَوَىٰ إِلىٰ فِراشِهِ: الحَمدُ للهِ الَّذِي كَفَانِي وَآوَانِي، الحَمدُ للهِ الَّذِي أَطعَمَنِي وَسَقَانِي، الحَمدُ للهِ الَّذِي مَنَّ عَليَّ فَأَفضَلَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أَن تُنَجِّيَنِي مِنَ النَّارِ؛ فَقَد حَمِدَ اللهَ بِجَمِيعِ مَحَامِدِ الخَلقِ كُلِّهِم**»[2].

فَلِلَّهِ الحَمدُ، وَالثَّنَاءُ الحَسَنُ، كَمَا يَنبَغِي لِجَلَالِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَكَمَالِهِ، وَسِعَةِ إِحسَانِهِ[3].

وَعَنْ سَعدٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ أَعرَابِيٌّ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: عَلِّمنِي كَلاماً أَقُولُهُ، قَالَ: «**قُل: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، اللهُ أَكبَرُ كَبِيراً، وَالحَمدُ للهِ كَثِيراً، وَسُبحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لا حَولَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ**»[4].

* * *

---

(١) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٦٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٠٦٦).

(٢) رواه الحاكم (١/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣٤٤٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥١١).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٦).

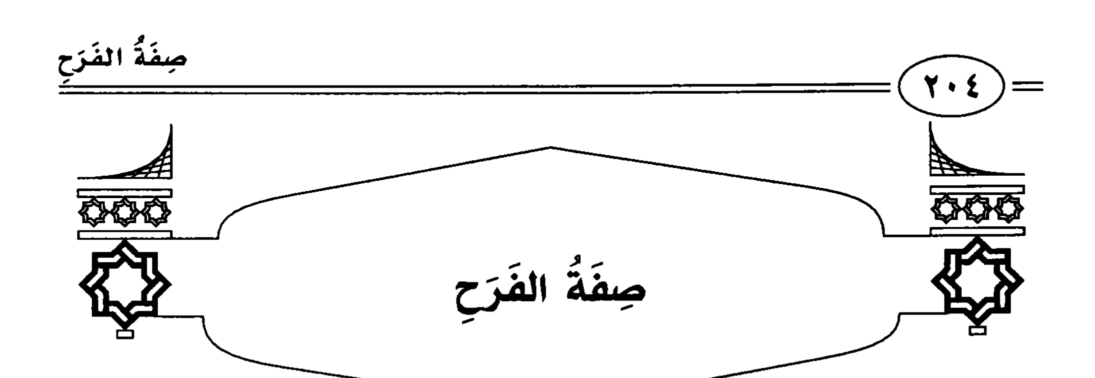

صِفَةُ الفَرَحِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ فَرَحِهِ جَلَّ وَعَلا: فَإِنَّهُ يَفرَحُ فَرَحاً يَلِيقُ بِجَلالِهِ وَكَمَالِهِ.

«فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ أَفرَحُ بِتَوبَةِ عَبدِهِ مِنَ الفَاقِدِ الوَاجِدِ، وَالعَقِيمِ الوَالِدِ، وَالظَّمآنِ الوَارِدِ»[١]. الَّذِي هُوَ أَشَدُّ فَرَحٍ يَعلَمُهُ العِبَادُ[٢].

وَهَذَا فَرَحُ مُحسِنٍ بَرٍّ لَطِيفٍ جَوَادٍ غَنِيٍّ حَمِيدٍ، لا فَرَحُ مُحتَاجٍ[٣] إِلىٰ تَوبَةِ عَبدِهِ، مُنتَفِعٍ بِهَا[٤]. وَهَذَا الفَرَحُ هُوَ دَلِيلُ غَايَةِ الكَمَالِ وَالغِنَىٰ وَالمَجدِ[٥].

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبدِهِ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيهِ، مِنْ أَحَدِكُم كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرضِ فَلاةٍ، فَانفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا. فَأَتَىٰ شَجَرَةً، فَاضطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَد أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبَينَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنتَ عَبدِي وَأَنَا رَبُّكَ،**

---

(١) فوائد الفوائد (ص٢٢٨).

(٢) تهذيب المدارج (ص٨٢٢).

(٣) طريق الهجرتين (ص٤٣٤).

(٤) تهذيب مدارج السالكين (ص١٩٨).

(٥) طريق الهجرتين (ص٤٣٤).

أَخطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ»[١].

وَهَل تَجِدُونَ فَرحاً أَعظَمَ وَأَكمَلَ مِن هَذا؟ لا ، لأَنَّهُ لا فَرَحَ أَشَدُّ مِن حَيَاةٍ بَعدَ الإِشرَافِ عَلَىٰ المَوتِ «وَلَو كَانَ في الوُجُودِ فَرَحٌ أَعظَمُ مِن هَذَا لَمَثَّلَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، وَمَعَ هَذَا فَفَرَحُ اللهِ بِتَوبَةِ عَبدِهِ إِذَا تَابَ إِلَيهِ، أَعظَمُ مِن فَرَحِ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ»[٢].

فَلِلَّهِ الحَمدُ وَالثَّنَاءُ، وَصَفوُ الوِدَادِ، مَا أَعظَمَ بِرَّهُ وَأَكثَرَ خَيرَهُ، وَأَغزَرَ إِحسَانَهُ، وَأَوسَعَ امتِنَانَهُ!![٣]

وَهَذَا «الفَرَحُ مِنَ اللهِ بِتَوبَةِ عَبدِهِ ـ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأتِ نَظِيرُهُ في غَيرِهَا مِنَ الطَّاعَاتِ ـ دَلِيلٌ عَلَىٰ عِظَمِ قَدرِ التَّوبَةِ وَفَضلِهَا عِندَ اللهِ، وَأَنَّ التَّعَبُّدَ لَهُ بِهَا مِنْ أَشرَفِ التَّعَبُّدَاتِ»[٤].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الفَرَحِ:

١ ـ كَمَالُ رَحمَتِهِ جَلَّ وَعَلا وَرَأفَتِهِ بِعِبَادِهِ؛ حَيثُ يُحِبُّ رُجُوعَ العَاصِي إِلَيهِ هَذِهِ المَحَبَّةَ العَظِيمَةَ، هَارِبٌ مِنَ اللهِ، ثُمَّ وَقَفَ وَرَجَعَ إِلىٰ اللهِ، يَفرَحُ اللهُ بِهِ هَذَا الفَرَحَ العَظِيمَ.

«وَهَذَا أَمرٌ عَظِيمٌ إِلىٰ الغَايَةِ، فَإِذَا كَانَتِ التَّوبَةُ بِهَذِهِ المَنزِلَةِ، كَيفَ لا يَكُونُ صَاحِبُهَا مُعَظَّماً عِندَ اللهِ؟!»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٧).
(٢) طريق الهجرتين (ص٤٣٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص١٢٩٥).
(٤) طريق الهجرتين (ص٤٢٣ ـ ٤٢٤).
(٥) شرح حديث أبي بكر (ص٥٣)، لشيخ الإسلام رحمه الله.

وَيُفِيدُنَا أَن نَحرِصَ عَلَىٰ التَّوبَةِ غَايَةَ الحِرصِ، كُلَّمَا فَعَلنَا ذَنباً؛ تُبنَا إِلَىٰ اللهِ.

فَأَنْتَ إِذَا عَلِمتَ أَنَّ اللهَ يَفرَحُ بِتَوبَتِكَ هَذَا الفَرَحَ الَّذِي لا نَظِيرَ لَهُ؛ لا شَكَّ أَنَّكَ سَوفَ تَحرِصُ غَايَةَ الحِرصِ عَلَىٰ التَّوبَةِ[1].

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٤٠٥).

صِفَةُ الحِفظِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حِفظِهِ: فَهُوَ الحَفِيظُ الَّذِي قَد كَمُلَ في حِفظِهِ. قَالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]، وَقَالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هُود: ٥٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١].

وَمِنْ كَمَالِ حِفْظِهِ: أَنَّهُ يَحفَظُ السَّمَاوَاتِ السَّبعَ أَن تَقَعَ عَلَىٰ الأَرضِ، كَمَا في قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] أَي: كَالسَّقفِ عَلَىٰ البَيتِ، وَهُوَ كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وَمِنْ كَمَالِ حِفْظِهِ: أَنَّهُ تَكَفَّلَ بِحِفظِ كِتَابِهِ مِنَ التَّحرِيفِ وَالتَّغيِيرِ وَالتَّبدِيلِ، عَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ وَالدُّهُورِ، قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. «أَي: في حَالِ إِنزَالِهِ، وَبَعدَ إِنزَالِهِ، فَفِي حَالِ إِنزَالِهِ حَافِظُونَ لَهُ، مِنَ استِرَاقِ كُلِّ شَيطَانٍ رَجِيمٍ. وَبَعدَ إِنزَالِهِ أَودَعَهُ اللهُ في قَلبِ رَسُولِهِ وَاستَودَعَهُ في قُلُوبِ أُمَّتِهِ، وَحَفِظَ اللهُ أَلفَاظَهُ مِنَ التَّغيِيرِ فِيهَا، وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقصِ، وَمَعَانِيهِ مِنَ التَّبدِيلِ، فَلا يُحَرِّفُ مُحَرِّفٌ مَعنًىٰ مِنْ مَعَانِيهِ، إِلَّا وَقَيَّضَ اللهُ لَهُ مَن يُبَيِّنُ الحَقَّ المُبِينَ، وَهَذَا مِنْ أَعظَمِ آيَاتِ اللهِ وَنِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ المُؤمِنِينَ، وَمِنْ حِفظِهِ: أَنَّ اللهَ يَحفَظُ أَهلَهُ مِنْ أَعدَائِهِم، وَلا يُسَلِّطُ عَدُوّاً

يَجتَاحُهُم»[١].

وَمِنْ كَمَالِ حِفْظِهِ: حِفظُهُ عَلَىٰ العِبَادِ جَمِيعَ مَا عَمِلُوهُ بِعِلمِهِ وَكِتَابَتِهِ، وَأَمرُهُ الكِرَامَ الكَاتِبِينَ بِحِفظِهِ[٢]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وَمِنْ كَمَالِ حِفْظِهِ: أَنَّهُ إِذَا اسْتُودِعَ شَيئاً حَفِظَهُ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا استُودِعَ اللهُ شَيئاً حَفِظَهُ**»[٣].

وَعَنْ قَزعَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابنُ عُمَرَ: هَلُمَّ أُوَدِّعُكَ، كَمَا وَدَّعَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَستَودِعُ اللهَ دِينَكَ، وَأَمَانَتَكَ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**»[٤].

وعَنِ الحَسَنِ بنِ ثَوبَانَ، أَنَّهُ سَمِعَ مُوسَىٰ بنَ وَردَانَ يَقُولُ: أَتيتُ أَبَا هُرَيرَةَ أُوَدِّعُهُ لِسَفَرٍ أَردتُهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيرَةُ ﵁: أَلا أُعَلِّمُكَ يَا ابنَ أَخِي شَيئاً عَلَّمَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَقُولُهُ عِندَ الوَدَاعِ؟ قُلتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «**قُل: أَستَودِعُكُمُ اللهَ، الَّذِي لا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ**»[٥].

وَعَن أَبي هُرَيرَةَ ﵁: عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ: **أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِن بَنِي**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٩٠).

(٢) المجموعة الكاملة (٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣).

(٣) رواه ابن حبان (٢٦٩٣)، وَصححه الألباني ﵀ في «صحيح موارد الظمآن» (٢٠١٦).

(٤) رواه أبو داود (٢٦٠٠)، وَصححه الألباني ﵀ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ١٢٢).

(٥) رواه ابن السني في «عمل اليوم وَالليلة» (٥٠٥)، وَصححه الهلالي في «تخريج الأذكار» (٥٩٤).

إِسرَائِيلَ سَأَلَ بَعضَ بَنِي إِسرَائِيلَ أَن يُسلِفَهُ أَلفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشهِدْهُم، فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيداً، قَالَ: فَأتِنِي بِالكَفِيلِ، قَالَ: كَفَىٰ بِاللهِ كَفِيلاً، قَالَ: صَدَقتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيهِ عَلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ؛ فَخَرَجَ فِي البَحرِ فَقَضَىٰ حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَمَسَ مَركِباً يَركَبُهَا يَقدَمُ عَلَيهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَم يَجِد مَركِباً، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدخَلَ فِيهَا أَلفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوضِعَهَا، ثُمَّ أَتَىٰ بِهَا إِلَىٰ البَحرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعلَمُ أَنِّي كُنتُ تَسَلَّفتُ فُلاناً أَلفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلتُ: كَفَىٰ بِاللهِ كَفِيلاً، فَرَضِيَ بِكَ؛ وَسَأَلَنِي شَهِيداً، فَقُلتُ: كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً، فَرَضِيَ بِذَلِكَ، وَإِنِّي جَهَدتُ أَن أَجِدَ مَركِباً أَبعَثُ إِلَيهِ الَّذِي لَهُ، فَلَم أَقدِر، وَإِنِّي أَستَودِعُكَهَا. فَرَمَىٰ بِهَا فِي البَحرِ حَتَّىٰ وَلَجَت فِيهِ، ثُمَّ انصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلتَمِسُ مَركِباً يَخرُجُ إِلَىٰ بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسلَفَهُ يَنظُرُ لَعَلَّ مَركِباً قَد جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهلِهِ حَطَباً، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسلَفَهُ، فَأَتَىٰ بِالأَلفِ دِينَارٍ؛ فَقَالَ: وَاللهِ مَا زِلتُ جَاهِداً فِي طَلَبِ مَركِبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدتُ مَركِباً قَبلَ الَّذِي أَتَيتُ فِيهِ، قَالَ: هَل كُنتَ بَعَثتَ إِلَيَّ بِشَيءٍ؟ قَالَ: أُخبِرُكَ أَنِّي لَم أَجِد مَركِباً قَبلَ الَّذِي جِئتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَد أَدَّىٰ عَنكَ الَّذِي بَعَثتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانصَرِف بِالأَلفِ الدِّينَارِ رَاشِداً»[١].

وَمِنْ كَمَالِ حِفْظِهِ: أَنَّهُ يَحفَظُ مَنْ حَفِظَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) رواه البخاري (٢٢٩١)، معلقاً مجزوماً به. وَوصله أحمد (٢/٣٤٨ ـ ٣٤٩)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٢٨٤٥).

«احفَظِ اللهَ يَحفَظْكَ»(١). كَلِمَةٌ جَلِيلَةٌ عَظِيمَةٌ.

يَعنِي: أَنَّ مَن حَفِظَ حُدُودَ اللهِ، وَرَاعَىٰ حُقُوقَهُ، حَفِظَهُ اللهُ.

وَحِفظُ اللهِ لِعَبدِهِ، يَدخُلُ فِيهِ نَوعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حِفظُهُ لَهُ في مَصَالِحِ دُنيَاهُ، كَحِفظِهِ في بَدَنِهِ وَوَلَدِهِ، وَأَهلِهِ وَمَالِهِ.

عَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: لَم يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤلاءِ الدَّعَوَاتِ، حِينَ يُمسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ العَافِيَةَ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ العَفوَ وَالعَافِيَةَ في دِينِي وَدُنيَايَ وَأَهلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ استُر عَورَاتِي وَآمِنْ رَوعَاتِي، اللَّهُمَّ احفَظنِي مِن بَينِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلفِي، وَعَن يَمِينِي وَعَن شِمَالِي وَمِنْ فَوقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَن أُغتَالَ مِنْ تَحتِي»**(٢).

وَمِنْ حِفْظِ اللهِ لِلْعَبْدِ: أَن يَحفَظَهُ في صِحَّةِ بَدَنِهِ وَقُوَّتِهِ، وَعَقلِهِ وَمَالِهِ.

وَقَدْ يَحفَظُ اللهُ العَبدَ بِصَلاحِهِ في وَلَدِهِ وَوَلَدِ وَلَدِهِ، كَمَا قِيلَ في قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]: إِنَّهما حُفِظَا بِصَلاحِ أَبِيهِمَا.

وَمَتَىٰ كَانَ العَبدُ مُشتَغِلاً بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَحفَظُهُ في تِلكَ الحَالِ.

---

(١) قطعة من حديث رواه الترمذي (٢٥١٦)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٦١٠).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٤٨).

عَن حُمَيدٍ ـ يَعنِي: ابنَ هِلالٍ ـ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الطَّفَاوَةِ طَرِيقُهُ عَلَينَا، فَأَتىٰ عَلَىٰ الحَيِّ فَحَدَّثَهُم قَالَ: قَدِمتُ المَدِينَةَ في عِيرٍ لَنَا، فَبعنَا بِضَاعَتَنَا ثُمَّ قُلتُ: لَأَنطَلِقَنَّ إِلَىٰ هَذَا الرَّجُلِ، فَلَآتِيَنَّ مَنْ بَعدِي بِخَبَرِهِ، قَالَ: فَانتَهَيتُ إِلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يُرِينِي بَيتاً. قَالَ: «**إِنَّ امرَأَةً كَانَت فِيهِ** (يَعنِي بَيتاً في المدِينَةِ)، **فَخَرَجَت في سَرِيَّةٍ مِنَ المُسلِمِينَ، وَتَرَكَت ثِنتَي عَشرَةَ عَنزاً لَهَا وَصِيصَتَهَا؛ كَانَت تَنسُجُ بِهَا، قَالَ: فَفَقَدَت عَنزاً مِن غَنَمِهَا وَصِيصَتَهَا، فَقَالَت: يَا رَبِّ! إِنَّكَ قَد ضَمِنتَ لِمَنْ خَرَجَ في سَبِيلِكَ أَن تَحفَظَ عَلَيهِ، وَإِنِّي قَد فَقَدتُ عَنزاً مِنْ غَنَمِي وَصِيصَتِي، وَإِنِّي أَنشُدُكَ عَنزِي وَصِيصَتِي**»، قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَذكُرُ شِدَّةَ مُنَاشَدَتِهَا لِرَبِّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَصبَحَت عَنزُهَا وَمِثلُهَا، وَصِيصَتُها وَمِثلُهَا، وَهَاتِيكَ فَائتِهَا فَاسأَلهَا إِن شِئتَ**»؛ قَالَ: قُلتُ: بَلْ أُصَدِّقُكَ[1].

وَمِنْ أَنواعِ حِفظِ اللهِ لِمَن حَفِظَهُ في دُنيَاهُ: أَن يَحفَظَهُ مِنْ شَرِّ كُلِّ مَنْ يُرِيدُهُ بِأَذَىٰ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وَكَتَبَت عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنهَا إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «إِنِ اتَّقَيتَ اللهَ كَفَاكَ النَّاسَ، وَإِنِ اتَّقَيتَ النَّاسَ لَم يُغنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيئاً»[2].

وَقَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

يَكفِيكَ رَبٌّ لَم تَزَل في حِفظِهِ ... وَوِقَايَةٍ مِنْهُ مَدَىٰ الأَزمَانِ[3]

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٦٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٢٩٣٥).

(٢) رواه ابن المُبَارَك في «الزهد» (١٩١)، وَابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٧١٧) بسند صحيح.

(٣) الكافية الشافية (ص٢٨٧).

وَمِنْ عَجِيبِ حِفظِ اللهِ تَعَالَىٰ لِمَن حَفِظَهُ: أَن يَجعَلَ الحَيَوَانَاتِ المُؤذِيَةَ بِالطَّبعِ حَافِظَةً لَهُ مِنَ الأَذَىٰ وَسَاعِيَةً في مَصَالِحِهِ، كَمَا جَرَىٰ لِسَفِينَةَ مَولَىٰ النَّبِيِّ ﷺ.

عَن سَفِينَةَ مَولَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: رَكِبتُ البَحرَ فَانكَسَرَت سَفِينَتِي الَّتِي كُنتُ فِيهَا، فَرَكِبتُ لَوحاً مِنْ أَلوَاحِهَا، فَطَرَحَنِي اللَّوحُ في أَجَمَةٍ فِيهَا الأَسَدُ؛ فَأَقبَلَ إِلَيَّ يُرِيدُنِي، فَقُلتُ: يَا أَبَا الحَارِثِ، أَنَا مَولَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَطَأْطَأَ رَأسَهُ وَأَقبَلَ إِلَيَّ، فَدَفَعَنِي بِمَنكِبِهِ حَتَّىٰ أَخرَجَنِي مِنَ الأَجَمَةِ؛ وَوَضَعَنِي عَلَىٰ الطَّرِيقِ وَهَمْهَمَ، فَظَنَنتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ عَهدِي بِهِ[(١)].

فَمَن حَفِظَ اللهَ حَفِظَهُ مِنَ الحَيَوَانَاتِ المُؤذِيَةِ بِالطَّبعِ، وَجَعَلَ تِلكَ الحَيَوَانَاتِ حَافِظَةً لَهُ.

النَّوعُ الثَّانِي مِنَ الحِفظِ: وَهُوَ أَشرَفُهُمَا وَأَفضَلُهُمَا؛ حِفظُ اللهِ لِلعَبدِ في دِينِهِ، فَيَحفَظُ عَلَيهِ دِينَهُ وَإِيمَانَهُ في حَيَاتِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ المُردِيَةِ وَالبِدَعِ المُضِلَّةِ، وَالشَّهَوَاتِ المُحَرَّمَةِ، وَيَحفَظُ عَلَيهِ دِينَهُ عِندَ مَوتِهِ، فَيَتَوَفَّاهُ عَلَىٰ الإِسلَامِ.

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُم إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنفُض فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لا يَدرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيهِ؛ ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعتُ جَنبِي، وَبِكَ أَرفَعُهُ، إِن أَمسَكتَ نَفسِي فَارحَمهَا، وَإِن أَرسَلتَهَا فَاحفَظهَا بِمَا تَحفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»[(٢)].

---

(١) رواه الحاكم (٣/٦٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في التعليق عَلَى «هداية الرواة» (٥/٣٦٢).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٠)، وَمسلم (٢٧١٤).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهُ أَمَرَ رَجُلاً، إِذَا أَخَذَ مَضجَعَهُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ! خَلَقتَ نَفسِي وَأَنْتَ تَتَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحيَاهَا. إِن أَحْيَيتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِن أَمَتَّهَا فَاغْفِر لَهَا. اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسأَلُكَ العَافِيَةَ**» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَسَمِعتَ هَذَا مِن عُمَرَ؟ فَقَالَ: مِنْ خَيرٍ مِن عُمَرَ، مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

وَفِي الجُملَةِ: فَمَنْ حَفِظَ حُدُودَ اللهِ وَرَاعَىٰ حُقُوقَهُ، تَوَلَّىٰ اللهُ حِفظَهُ فِي أُمُورِ دِينِهِ وَدُنياهُ، وَفي دُنيَاهُ وَآخِرَتِهِ. وَتَكَفَّلَ لَهُ بِالقِيَامِ بِجَمِيعِ مَصَالِحِهِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، فَمَنْ أَرَادَ أَن يَتَوَلَّىٰ اللهُ حِفظَهُ وَرِعَايَتَهُ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا، فَليُرَاعِ حُقُوقَ اللهِ عَلَيهِ، وَمَن أَرَادَ أَلَّا يُصِيبَهُ شَيءٌ مِمَّا يَكرَهُ، فَلا يَأتِ شَيئاً مِمَّا يَكرَهُهُ اللهُ مِنْهُ.

فَإِذَا قُمتَ بِمَا عَلَيْكَ للهِ مِن حُقُوقِ التَّقوَىٰ، فَلا تَهتَمَّ بَعدَ ذَلِكَ بِمَصَالِحِكَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ أَعلَمُ بِهَا مِنكَ، وَهُوَ يُوصِلُهَا إِلَيكَ عَلَىٰ أَتَمِّ الوُجُوهِ، مِن غَيرِ اهتِمَامٍ مِنكَ بِهَا.

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَن يَعلَمَ مَا لَهُ عِندَ اللهِ، فَلْيَعلَم مَا للهِ عِنْدَهُ**»(٢).

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ عَلَىٰ قَدرِ اهتِمَامِ العَبدِ بِحُقُوقِ اللهِ وَبِأَدَاءِ حُقُوقِهِ، وَمُرَاعَاةِ حُدُودِهِ وَاعتِنَائِهِ بذَلِكَ وَحِفظِهِ لَهُ، يَكُونُ اعتِنَاؤُهُ بِهِ وَحِفظُهُ لَهُ، فَمَن كَانَ غَايَةُ هَمِّهِ رِضَا اللهِ عَنْهُ وَطَلَبَ قُربَهُ وَمَعرِفَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٢).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٧٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٠٠٦).

وَخِدمَتَهُ، فَإِنَّ اللهَ يَكُونُ لَهُ عَلَىٰ حَسَبِ ذَلِكَ(١).

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الحَفِيظُ عَلَيهِم وَهُوَ الكَفِيـ ـلُ بِحِفظِهِم مِن كُلِّ أَمرٍ عَانِي(٢)

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الحِفظِ:

إِنَّ التَّعَبُّدَ بِاسمِ اللهِ الحَفِيظِ يَقتَضِي مِنَ العَبدِ أَن يَحفَظَ حُدُودَهُ وَحُقُوقَهُ وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيهِ، وَحِفظُ ذَلِكَ: هُوَ الوُقُوفُ عِندَ أَوَامِرِهِ بِالامتِثَالِ، وَعِندَ نَوَاهِيهِ بِالاجتِنَابِ، وَعِندَ حُدُودِهِ، فَلا يَتَجَاوَزُ مَا أَمَرَ بِهِ، وَأَذِنَ فِيهِ، إِلَىٰ مَا نَهَىٰ عَنهُ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنَ الحَافِظِينَ لِحُدُودِ اللهِ الَّذِينَ مَدَحَهُمُ اللهُ فِي كِتَابِهِ، قَالَ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣٢ ـ ٣٣]؛ وَفُسِّرَ الحَفِيظُ هَاهُنَا بِالحَافِظِ لأَوَامِرِ اللهِ، وَبِالحَافِظِ لِذُنُوبِهِ لِيَتُوبَ مِنْهَا.

وَمِنْ أَعظَمِ مَا يَجِبُ حِفظُهُ مِنْ أَوَامِرِ اللهِ: الصَّلاةُ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيهَا فَقَالَ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وَمَدَحَ المُحَافِظِينَ عَلَيهَا بِقَولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ [المعارج: ٣٤].

وَكَذَلِكَ الطَّهَارَةُ، فَإِنَّهَا مِفتَاحُ الصَّلاةِ. عَنْ ثَوبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**استَقِيمُوا وَلَن تُحصُوا، وَاعلَمُوا أَنَّ خَيرَ أَعمَالِكُم**

---

(١) نور الاقتباس (ص٦٤ ـ ٦٥).

(٢) الكافية الشافية (ص٢١٠).

الصَّلاةُ، وَلا يُحَافِظُ عَلَىٰ الوُضُوءِ إِلَّا مُؤمِنٌ»(١).

فَإِنَّ العَبدَ تَنتَقِضُ طَهَارَتُهُ وَلا يَعلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا اللهُ، فَالمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الوُضُوءِ لِلصَّلاةِ، دَلِيلٌ عَلَىٰ ثُبُوتِ الإِيمَانِ فِي القَلبِ.

وَمِمَّا يُؤمَرُ بِحِفظِهِ الأَيمَانُ، قَالَ اللهُ: ﴿**وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ**﴾ [المائدة: ٨٩]، فَإِنَّ الأَيمَانَ يَقَعُ النَّاسُ فِيهَا كَثِيراً، وَيُهمِلُ كَثِيرٌ مِنْهُم مَا يَجِبُ بِهَا، فَلا يَحفَظُهُ، وَلا يَلتَزِمُهُ.

فَمَن حَفِظَ أَيمَانَهُ، دَلَّ عَلَىٰ دُخُولِ الإِيمَانِ فِي قلبِهِ.

وَقَدْ وَرَدَ التَّشدِيدُ العَظِيمُ فِي الحَلِفِ الكَاذِبِ، وَلا يَصدُرُ كَثرَةُ الحَلِفِ بِاللهِ إِلَّا مِنَ الجَهلِ بِاللهِ، وَقِلَّةِ هَيبَتِهِ فِي الصُّدُورِ.

وَمِمَّا يَلزَمُ المُؤمِنَ حِفظُهُ: رَأسُهُ وَبَطنُهُ. عَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**استَحيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**» قَالَ: قُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَستَحْيِي وَالحَمدُ للهِ؛ قَالَ: «**لَيسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاستِحيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ: أَن تَحفَظَ الرَّأسَ وَمَا وَعَىٰ، وَالبَطنَ وَمَا حَوَىٰ، وَلتَذكُرِ المَوتَ وَالبِلىٰ؛ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ، تَرَكَ زِينَةَ الدُّنيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدِ استَحيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»(٢).

وَحِفْظُ الرَّأسِ وَمَا وَعَىٰ: يَدخُلُ فِيهِ حِفظُ السَّمعِ وَالبَصَرِ وَاللِّسَانِ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَحِفظُ البَطنِ وَمَا حَوَىٰ: يَتَضَمَّنُ حِفظَ القَلبِ عَنِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٧٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٩٠).

الإِصرَارِ عَلَىٰ مُحَرَّمٍ. قَالَ اللهُ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ ذَلِكَ كُلَّهُ في قَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وَيَدخُلُ في حِفظِ البَطنِ وَمَا حَوَىٰ: حِفظُهُ مِنْ إِدخَالِ الحَرَامِ إِلَيهِ، مِنَ المَأكُولاتِ وَالمَشرُوبَاتِ.

وَمِمَّا يَجِبُ حِفظُهُ مِنَ المَنهِيَّاتِ: حِفظُ اللِّسَانِ وَالفَرْجِ.

عَنْ أَبي مُوسىٰ الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن حَفِظَ مَا بَينَ فَقمَيهِ وَفَرجَهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١).

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِحِفظِ الفُرُوجِ خَاصَّةً، وَمَدَحَ الحَافِظِينَ لَهَا، فَقَالَ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

* * *

(١) رواه أحمد (٤/٣٩٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٦٠).

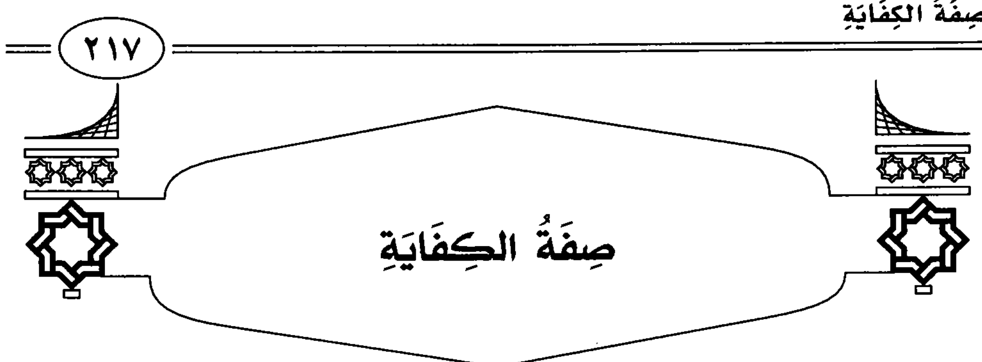

صِفَةُ الكِفَايَةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ كِفَايَتِهِ: فَهُوَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكَافِي عِبَادَهُ جَمِيعَ مَا يَحتَاجُونَ وَيَضطَرُّونَ إِلَيهِ رِزقاً وَمَعَاشاً وَقُوتاً، وَحِفظاً وَكَلاءَةً، وَنَصراً وَعِزّاً، الدَّافِعُ عَنهُم كُلَّ مَا يَكرَهُونَ، وَالَّذِي يُكتَفَىٰ بِمَعُونَتِهِ عَمَّن سِوَاهُ.

وَلَقَدْ كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَقُولُ إِذَا أَوَىٰ إِلىٰ فِرَاشِهِ: «**الحَمدُ للهِ الَّذِي أَطعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَم مِمَّن لا كَافِيَ لَهُ وَلا مُؤوِيَ**»(١).

قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

أَي: أَلَيسَ مِن كَرَمِهِ وَجُودِهِ، وَعِنَايَتِهِ بِعَبْدِهِ الَّذِي قَامَ بِعُبُودِيَّتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَامتَثَلَ أَمرَهُ مُخلِصاً وَمُقتَدِياً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاجتَنَبَ مَا نَهَىٰ عَنْهُ خَوفاً مِنْهُ وَإِجْلالاً وَمَحَبَّةً، فَإِنَّ اللهَ سَيَكفِيهِ في أَمرِ دِينِهِ وَدُنيَاهُ، وَيَدفَعُ عَنْهُ مَنْ نَاوَأَهُ بِسُوءٍ. وَلا يَحتَاجُ العَبدُ في كِفَايَةِ اللهِ إِلىٰ غَيرِهِ.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الحَسِيبُ كِفَايَةً وَحِمَايَةً ... وَالْحَسْبُ كَافِي العَبدِ كُلَّ أَوَانِ(٢)

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أَي: كَافِيهِ كُلَّ أُمُورِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنيَوِيَّةِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥١).

(٢) النونية (٢/ ٢٣٣).

وَالتَّوَكُّلُ: هُوَ الاعتِمَادُ عَلَىٰ اللهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حُصُولِ المَطلُوبِ، وَدَفعِ المَكرُوهِ، مَعَ الثِّقَةِ بِهِ وَفِعلِ الأَسبَابِ المَأذُونِ فِيهَا[١].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: جَعَلَ اللهُ ـ تَعَالَىٰ ـ لِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءً مِنْ جِنْسِهِ، وَجَعَلَ جَزَاءَ التَّوَكُّلِ عَلَيهِ نَفْسَ كِفَايَتِهِ لِعَبْدِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: نُؤتِهِ كَذَا وَكَذَا مِنَ الأَجرِ، كَمَا قَالَ في الأَعمَالِ، بَلْ جَعَلَ نَفْسَهُ سُبحَانَهُ كَافِيَ عَبدَهُ المُتوَكِّلَ عَلَيهِ وَحسبَهُ وَوَاقِيَهُ، فَلَو تَوَكَّلَ العَبدُ عَلَىٰ[٢] رَبِّهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ، بِأَنِ اعتَمَدَ بِقَلبِهِ عَلَىٰ رَبِّهِ اعتِمَاداً قَوِيّاً كَامِلاً في تَحصِيلِ مَصَالِحِهِ وَدَفعِ مَضَارِّهِ، وَقَوِيَت ثِقَتُهُ وَحَسُنَ ظَنُّهُ بِربِّهِ، حَصَلَت لَهُ الكِفَايَةُ التَّامَّةُ، وَأَتَمَّ اللهُ لَهُ أَحوَالَهُ وَسَدَّدَهُ في أَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ، وَكَفَاهُ هَمَّهُ وَجَلا غَمَّهُ[٣].

فَهُنَاكَ لا تَسأَلُ عَن كُلِّ أَمرٍ يَتَيَسَّرُ، وَصَعبٍ يَتَسَهَّلُ، وَخُطُوبٍ تَهُونُ، وَكُرُوبٍ تَزُولُ، وَأَحوَالٍ وَحَوَائِجَ تُقْضَىٰ، وَبَرَكَاتٍ تَنزِلُ، وَنِقَمٍ تُدْفَعُ، وَشُرُورٍ تُرفَعُ[٤].

فَإِن قُلتَ: فَمَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ؟

قُلتُ: هُوَ حَالٌ لِلقَلبِ يَنشَأُ عَن مَعرِفَتِهِ بِاللهِ، وَالإِيمَانِ بِتَفَرُّدِهِ بِالخَلقِ، وَالتَّدبِيرِ وَالضَّرَرِ وَالنَّفعِ، وَالعَطَاءِ وَالمَنعِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَإِن لَم يَشَإِ النَّاسُ، وَمَا لَم يَشَأ لَم يَكُن، وَإِن شَاءَهُ النَّاسُ.

(١) القول المفيد عَلَى كتاب التوحيد (٢/ ٦٦٦).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧٦٦ ـ ٧٦٧).
(٣) فتح الرحيم الملك العلام (ص٥٣ ـ ٥٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص٩٢٠).

فَيُوجِبُ لَهُ هَذا اعتِمَاداً عَلَيهِ، وَتَفوِيضاً إِلَيهِ، وَطُمَأنِينَةً بِهِ، وَثِقَةً بِهِ، وَيَقِيناً بِكِفَايَتِهِ لِمَا تَوَكَّلَ عَلَيهِ فِيهِ.

فَتُشبِهُ حَالَتُهُ حَالَةَ الطِّفلِ[1] الرَّضِيعِ فِي اعْتِمَادِهِ، وَسُكُونِهِ، وَطُمَأنِينَتِهِ بِثَدي أُمِّهِ لا يَعرِفُ غَيرَهُ، وَلَيسَ في قَلبِهِ التِفَاتٌ إِلىٰ غَيرِهِ، كَمَا قَالَ بَعضُ العَارِفِينَ: المُتَوَكِّلُ كَالطِّفلِ، لا يَعرِفُ شَيئاً يَأوِي إِلَيهِ إِلَّا ثَديَ أُمِّهِ، كَذَلِكَ المُتَوَكِّلُ لا يَأوِي إِلَّا إِلىٰ رَبِّهِ سُبحَانَهُ[2]. جَلَّ فِي عُلَاهُ.

وَمَن كَانَ هَكَذَا مَعَ اللهِ، فَاللهُ كَافِيهِ ـ وَلا بُدَّ ـ الكِفَايَةَ التَّامَّةَ.

«فَمَتىٰ عَلِمَ العَبدُ أَنَّهُ لا حَولَ لأَحَدٍ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَاعتَمَدَ كُلَّ الاعتِمَادِ عَلَىٰ رَبِّهِ في جَلبِ مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنيَاهُ، وَفي استِدفَاعِ المَضَارِّ وَالمَكَارِهِ وَاثِقاً بِمَولاهُ، عَالِماً أَنَّهُ النَّافِعُ الضَّارُّ، وَأَنَّهُ الوَاقِي لِلشُّرُورِ الجَالِبُ لِلمَحَابِّ وَالمَسَارِّ؛ وَأَنَّ الخَلقَ كُلَّهُم في غَايَةِ الاضطِرَارِ إِلىٰ رَبِّهِم وَنِهَايَةِ الافتِقَارِ، فَقَطَعَ رَجَاءَهُ وَتَعَلُّقَهُ بِالمَخلُوقِينَ، وَأَنزَلَ حَوَائِجَهُ وَشُؤُونَهُ كُلَّهَا بِاللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَليُبشِر بِالكِفَايَةِ التَّامَّةِ وَتَيسِيرِ الأُمُورِ. وَيَا قُرَّةَ عَينِهِ بِالحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ في كُلِّ مَا يَجرِي بِهِ المَقْدُورُ»[3].

فَإِذَا حَقَّقتَ هَذَا في قَلبِكَ، فَاعتَمِد عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ اعتِمَادَ الغَرِيقِ، الَّذِي لا يَعلَمُ لَهُ سَبَبَ نَجَاةٍ غَيرَ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَنسأَلُهُ تَعَالَىٰ العَافِيَةَ، وَأَن يَتَفَضَّلَ عَلَينَا بِقُوَّةِ القَلبِ وَثَبَاتِهِ،

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (١/ ٩٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٤٠).

(٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ٩٨).

وَبِالتَّوَكُّلِ الكَامِلِ الَّذِي تَكَفَّلَ اللهُ لأَهلِهِ بِكُلِّ خَيرٍ، وَدَفعِ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَضَيرٍ.

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الكِفَايَةِ:

إِذَا عَلِمَ العَبدُ أَنَّ اللهَ هُوَ الكَافِي عِبَادَهُ رِزقاً وَمَعَاشاً وَقُوتاً، وَحِفظاً وَكَلَاءَةً، وَنَصراً وَعِزّاً، اكتَفَىٰ بِمَعُونَتِهِ عَمَّن سِوَاهُ.

عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَنِ اسْتَكْفَىٰ كَفَاهُ اللهُ ﷻ**»[1].

فَمَنْ وَقَعَ فِي شِدَّةٍ وَضَائِقَةٍ، فَلْيَطْلُبْ مِنَ اللهِ الكِفَايَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ يَكْفِيهِ.

فَإِنَّ الغُلامَ المُؤمِنَ[2] لَمَّا أَبَىٰ أَن يَرجِعَ عَن دِينِهِ، دَفَعَهُ المَلِكُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصحَابِهِ ـ أَي جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ ـ وَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، جَبَلٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُم شَاهِقٌ رَفِيعٌ؛ وَقَالَ لَهُم: إِذَا بَلَغُوا ذِروَتَهُ فَاطْرَحُوهُ يَعنِي عَلَىٰ الأَرضِ، لِيَقَعَ مِنْ رَأسِ الجَبَلِ فَيَمُوتَ، بَعدَ أَن تَعرِضُوا عَلَيهِ أَن يَرجِعَ عَن دِينِهِ، فَإِن رَجَعَ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ.

فَلَمَّا بَلَغُوا قِمَّةَ الجَبَلِ فَطَلَبُوا مِنْهُ أَن يَرجِعَ عَن دِينِهِ أَبَىٰ، لأَنَّ الإِيمَانَ قَد وَقَرَ فِي قَلبِهِ وَلا يُمكِنُ أَن يَتَحَوَّلَ أَو يَتَزَحزَحَ؛ فَلَمَّا هَمُّوا أَن يَطرَحُوهُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِم بِمَا شِئتَ**» دَعوَةُ مُضطَرٍّ مُؤمِنٍ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِم بِمَا شِئتَ**» أَي: بِالَّذِي تَشَاءُ وَلَمْ يُعَيِّن، فَرَجَفَ اللهُ بِهِمُ الجَبَلَ

---

(١) رواه النسائي (٢٥٩٤)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٢٢٧).

(٢) انظر قصة الغلام المؤمن في «صحيح مسلم» (٣٠٠٥).

فَسَقَطُوا وَهَلَكُوا. وَجَاءَ الغُلامُ إِلَىٰ المَلِكِ فَقَالَ: مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ أَينَ أَصحَابُكَ؟ فَقَالَ: قَد كَفَانِيهِمُ اللهُ، ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَىٰ جَمَاعَةٍ آخَرِينَ وَأَمَرَهُم أَن يَركَبُوا البَحرَ في قُرقُورٍ ـ أَي سَفِينَةٍ ـ؛ فَإِذَا بَلَغُوا لُجَّةَ البَحرِ عَرَضُوا عَلَيهِ أَن يَرجِعَ عَن دِينِهِ، فَإِن لَمْ يَفعَلْ رَمَوهُ في البَحرِ.

فَلَمَّا تَوَسَّطُوا مِنَ البَحرِ عَرَضُوا عَلَيهِ أَن يَرجِعَ عَن دِينِهِ ـ وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ ـ فقَالَ: لا! فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِم بِمَا شِئتَ**» فَانْقَلَبَتِ السَّفِينَةُ وَغَرِقُوا وَأَنجَاهُ اللهُ [(١)].

وَمَن كَانَ عَلَيهِ دَينٌ، فَلْيَتَضَرَّع إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لِيَكفِيَهُ هَمَّ الدَّينِ.

عَن عَليٍّ ﷺ: أَنَّ مُكَاتِباً جَاءَهُ، فَقَالَ: إِنِّي قَد عَجَزتُ عَن كِتَابَتِي؛ فَأَعِنِّي، قَالَ: أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لَو كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ صِيرٍ دَيناً؛ أَدَّاهُ اللهُ عَنكَ؟! قَالَ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ! اكفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**»[(٢)].

فَنسأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ، وَهُوَ خَيرُ مَسؤُولٍ، أَن يَكفِيَنَا وَإِيَّاكُم هَمَّ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، فَإِنَّهُ الكَافِي لِكُلِّ مُهِمٍّ، وَبِيَدِهِ الخَلْقُ وَالأَمرُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٢ ـ ١٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٦٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٦٤).

صِفَةُ الحِلمِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حِلْمِهِ: فَهُوَ الْحَلِيمُ الَّذِي قَد كَمُلَ في حِلمِهِ، فَلَهُ الحِلمُ الكَامِلُ الَّذِي وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ. وَسِعَ حِلمُهُ أَهلَ الكُفرِ وَالفُسُوقِ وَالعِصيَانِ، حَيثُ أَمهَلَهُم وَلَم يُعَاجِلهُم بِالعُقُوبَةِ، بَلْ يُعَافِيهِم وَيُمهِلُهُم لِيَتُوبُوا فَيَتُوبَ عَلَيهِم، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. وَهُوَ يَتَحَبَّبُ إِلَيهِم بِالنِّعَمِ مَعَ كَمَالِ غِنَاهُ، وَلَو شَاءَ لأَخَذَهُم بِذُنُوبِهِم فَورَ صُدُورِهَا مِنْهُم، وَلَكِنَّ حِلْمَهُ سُبحَانَهُ هُوَ الَّذِي اقْتَضَىٰ إِمْهَالَهُم. قَالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤٥].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُوَ الْحَلِيمُ فَلا يُعَاجِلُ عَبدَهُ   بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ[1]

وَلَولَا حِلْمُهُ وَمَغفِرَتُهُ، لَزُلزِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرضُ مِنْ مَعَاصِي العِبَادِ. فَقَد قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

فَتَأَمَّل خَتمَ هَذِهِ الآيَةِ بِاسمَينِ مِنْ أَسمَائِهِ وَهُمَا (الْحَلِيمُ)

(١) الكافية الشافية (ص٢٠٩).

وَ(الغَفُورُ)، كَيفَ تَجِدُ تَحتَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَولَا حِلمُهُ عَنِ الجُنَاةِ وَمَغفِرَتُهُ لِلعُصَاةِ، لَمَا استَقَرَّتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرضُ؟

«وَفِي الآيَةِ إِشعَارٌ بِأَنَّ السَّماواتِ وَالأَرضَ تَهُمُّ وَتَستَأذِنُ بِالزَّوَالِ؛ لِعِظَمِ مَا يَأتِي بِهِ العِبَادُ، فَيُمسِكُهُمَا بِحِلمِهِ، وَمَغفِرَتِهِ»[١].

وَقَدْ أَخبَرَ سُبحَانَهُ عَن بَعضِ كُفرِ عِبَادِهِ أَنَّهُ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٩٠][٢].

وَمِنْ حِلمِهِ تَعَالَىٰ: أَنَّ العَبدَ يُسرِفُ عَلَىٰ نَفسِهِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَد أَرخَىٰ عَلَيهِ حِلمَهُ[٣]، وَيَدعُوهُ إِلَىٰ الإِنَابَةِ إِلَيهِ، وَالإِقبَالِ عَلَيهِ. ثُمَّ إِن تَابَ وَأَنَابَ قَبِلَ مِنْهُ، وَصَيَّرَهُ كَأَن لَم يَجْرِ مِنْهُ ذَنبٌ، وَلَم يَصدُر عَنْهُ عَيبٌ، فَلِلَّهِ الحَمدُ عَلَىٰ إِحسَانِهِ[٤].

مَا أَحلَمَ اللهَ عَنِّي حَيثُ أَمهَلَنِي ... وَقَدْ تَمَادَيتُ فِي ذَنبِي وَيَستُرُنِي

وَمِنْ كَمَالِ حِلمِهِ: مَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيسَ أَحَدٌ - أَو: لَيسَ شَيءٌ - أَصبَرَ عَلَىٰ أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ؛ إِنَّهُم لَيَدعُونَ لَهُ وَلَداً، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِم وَيَرزُقُهُم**»[٥].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: كَذَّبَنِي ابنُ آدَمَ وَلَم يَكُن لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَم يَكُن لَهُ ذَلِك. فَأَمَّا تَكذِيبُهُ إِيَّايَ،**

---

(١) عدة الصابرين (ص٢٣٧).
(٢) الداء وَالدواء (ص١٣٨).
(٣) فتح الرحيم الملك العلام (ص٥٢).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص١٨٦).
(٥) رواه البخاري (٦٠٩٩)، وَمسلم (٢٨٠٤).

فَقَولُهُ: لَن يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيسَ أَوَّلُ الخَلقِ بِأَهوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ؛ وَأَمَّا شَتمُهُ إِيَّايَ، فَقَولُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَم أَلِد وَلَم أُولَد، وَلَم يَكُن لِي كُفُواً أَحَدٌ»[1].

وَهُوَ سُبحَانَهُ ـ أَعظَمُ العُظَمَاءِ، وَمَلِكُ المُلُوكِ، وَأَكرَمُ الأَكرَمِينَ، وَإِحسَانُهُ فَوقَ كُلِّ إِحسَانٍ ـ مَعَ هَذَا الشَّتْمِ لَهُ وَالتَّكذِيبِ، يَرزُقُ الشَّاتِمَ المُكَذِّبَ وَيُعَافِيهِ وَيَدفَعُ عَنهُ، وَيَدعُوهُ إِلَىٰ جَنَّتِهِ، وَيَقبَلُ تَوبَتَهُ إِذَا تَابَ إِلَيهِ وَيُبَدِّلُهُ بِسَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَيَتَلَطَّفُ بِهِ فِي جَمِيعِ أَحوَالِهِ، وَيُؤَهِّلُهُ لإِرسَالِ رُسُلِهِ إِلَيهِ، وَيَأمُرُهُم بِأَن يُلَيِّنُوا لَهُ القَولَ وَيَرفُقُوا بِهِ[2]. فَأَيُّ حِلْمٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟!

فَسُبحَانَ الحَلِيمِ، الَّذِي لا يُعَاجِلُ العَاصِينَ بِالعُقُوبَةِ، بَلْ يُعَافِيهِم وَيَرزُقُهُم، كَأَنَّهُم مَا عَصَوهُ مَعَ قُدرَتِهِ عَلَيهِم[3].

وَقَدْ قَرَنَ سُبحَانَهُ حِلمَهُ بِالغِنَىٰ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، لِلدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّ حِلمَهُ لم يَكُن عَن حَاجَةٍ، فَهُوَ مَعَ حِلمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، غَنِيٌّ عَنهُم غَيرُ مُحتَاجٍ إِلَيهِم.

كَمَا قَرَنَ حِلمَهُ بِالعِلمِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]، وَقَولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]؛ «فَمَا قُرِنَ شَيءٌ، أَحسَنَ مِنْ حِلْمٍ إِلَىٰ عِلمٍ»[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٥٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص١١١٣).

(٤) بدائع الفوائد (١/ ١٤٠).

كَمَا قَرَنَ سُبحَانَهُ حِلمَهُ بِالمَغفِرَةِ: كَمَا في قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. وَقَولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وَقَولِهِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. يَعنِي: «لَولا مَغفِرَتُهُ وَحِلمُهُ لَعَنِتُّم غَايَةَ العَنَتِ، فَإِنَّهُ سُبحَانَه مُطَّلِعٌ عَلَيكُم، يَعلَمُ مَا في قُلُوبِكُم، وَيَعلَمُ مَا تَعمَلُونَ، فَإِن وَقَعتُم في شَيءٍ مِمَّا نَهَاكُم عَنهُ، فَبَادِرُوا إِلَيهِ بِالتَّوبَةِ وَالاستِغفَارِ؛ فَإِنَّهُ الغَفُورُ الْحَلِيمُ»[١].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الحِلم:

١ ـ إذا عَلِمْنَا أنَّهُ حليمٌ ﷻ: فَإِنَّنا نُؤَمِّلُ منهُ الخيرَ، ولا نَيْأسُ، وَنَسْتَعْتِبُ منهُ تباركَ وتعالَى: نَسْألهُ أنْ يَعْذُرَنا، وأنْ يَعفُوَ عَنَّا.

٢ ـ الحِلمُ خَصلَةٌ مِنَ الخِصَالِ العَظِيمَةِ الَّتي يَنبَغِي لِلمُؤمِنِينَ أن يَأخُذُوا بِحَظِّهِم مِنْهَا.

فَإِنَّ هَذَا خُلُقٌ مَن ظَفِرَ بِهِ وَحَازَهُ فَقَد فَازَ بِالحَظِّ العَظِيمِ، وَإِنَّ لِصَاحِبِهِ عِندَ اللهِ المَقَامَاتِ العَالِيَةَ وَالنَّعِيمَ المُقِيمَ[٢].

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذَا المَقَامِ الجَلِيلِ: أَنَّ صَاحِبَهُ مُستَرِيحُ القَلبِ، مُطمَئِنُّ النَّفسِ، قَد وَطَّنَ نَفسَهُ عَلَىٰ مَا يُصِيبُهُ مِنَ النَّاسِ مِنَ الأَذَىٰ، وَقَدْ وَطَّنَ نَفسَهُ أَيضاً عَلَىٰ إِيصَالِ النَّفعِ إِلَيهِم بِكُلِّ مَقدُورِهِ، وَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْ إِرضَاءِ الكَبِيرِ وَالصَّغيرِ وَالنَّظِيرِ، وَقَدْ تَحَمَّلَ مَن لا تَحمِلُهُ مِن ثِقَلِهِ

---

(١) جلاء الأفهام (ص١٨٨).

(٢) قصص الأنبياء (ص١٥٠)، للسعدي.

الجِبَالُ، وَقَدْ خَفَّت عَنْهُ الأثقَالُ، وَقَدِ انقَلَبَ عَدُوُّهُ صَدِيقاً حَمِيماً، وَقَدْ أَمِنَ مِن فَلَتَاتِ الجَاهِلِينَ وَمَضَرَّةِ الأعدَاءِ أَجمَعِينَ، وَقَدْ سَهُلَ عَلَيهِ مَطلُوبُهُ مِنَ النَّاسِ، وَتَيَسَّرَ لَهُ نُصحُهُم وَإرشَادُهُم[1].

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلأَشَجِّ - أَشَجِّ عَبدِ القَيسِ -: «**إِنَّ فِيكَ لَخَصلَتَينِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمَ وَالأَنَاةَ**»[2].

وَهَذِهِ فَضِيلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمَثُوبَةٌ جَلِيلَةٌ، تَقْتَضِي مِنْ كُلِّ رَاغِبٍ في ثَوَابِ اللهِ، وَطَامِعٍ فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الخَيرِ، أَن يَتَّصِفَ بِالحِلمِ وَيَزِمَّ نَفْسَهُ بِزِمَامِهِ، وَيُقَيِّدَهَا بِقَيدِهِ.

وَلا يَصِحُّ الحِلمُ أَبداً إِلَّا مَعَ الأَنَاةِ، وَالأَنَاةُ تَركُ العَجَلَةِ.

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا العِلمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الحِلمُ بِالتَّحَلُّمِ؛ وَمَن يَتَحَرَّ الخَيرَ يُعطَهُ، وَمَن يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوْقَهُ**»[3].

فَمِنَ الوَاجِبِ عَلَىٰ مَن عَرَفَ أَنَّ رَبَّهُ حَلِيمٌ عَلَىٰ مَنْ عَصَاهُ، أَن يَحلُمَ هُوَ عَلَىٰ مَن خَالَفَ أَمرَهُ فَذَاكَ بِهِ أَولىٰ؛ وَيَتَعَوَّدَ الصَّفحَ حَتَّىٰ يَعُودَ الحِلمُ لَهُ سَجِيَّةً، لأَنَّهُ مُتَعَبِّدٌ بِالحِلمِ مُثَابٌ عَلَيهِ.

* * *

---

(١) مجموع الفوائد (ص١١٣).

(٢) رواه مسلم [٢٥ ـ (١٧)].

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/١٢٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٣٢٨).

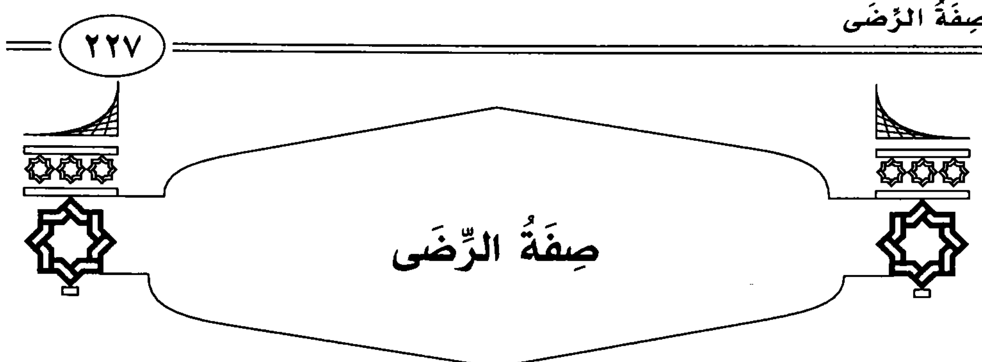

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ رِضوَانِهِ: فَهُوَ يَرضَىٰ لا كَأَحَدٍ مِنَ الوَرَىٰ. فَهُوَ جَلَّ وَعَلا مَوصُوفٌ بِصِفَةِ الرِّضَى، عَلَى مَنْ وُجِدَ مِنْهُ مُقْتَضَى الرِّضَى:

١ ـ فَيَرضَى عَنِ العَمَلِ. قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

٢ ـ وَيَرضَى عَنِ العَامِلِ. قَالَ سُبحانَهُ وتَعالَى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٣ ـ عَن مِحجَنَ بنِ الأَدرَعِ الأَسلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَضِيَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ اليُسرَ، وَكَرِهَ لَهَا العُسرَ**» قَالَها ثَلاثاً[(١)].

٤ ـ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرضَىٰ لَكُم ثَلاثاً وَيَكرَهُ لَكُم ثَلاثاً: فَيَرضَىٰ لَكُم أَن تَعبُدُوهُ وَلا تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً، وَأَن تَعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا، وَيَكرَهُ لَكُم قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ**»[(٢)].

فَالرِّضَى صِفَةٌ مِن صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى حَقِيقِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَشِيئَتِهِ، فَهِيَ مِنَ الصِّفَاتِ الفِعلِيَّةِ لِوُقُوعِهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى.

---

(١) رواه الطبراني ٢٠/رقم (٧٠٧)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٧٦٩).

(٢) رواه مسلم (١٧١٥).

وَإِذَا رَضِيَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنِ العَبدِ، قَبِلَ اليَسِيرَ مِن عَمَلِهِ وَنَمَّاهُ، وَغَفَرَ الكَثِيرَ مِن زَلَلِهِ وَمَحَاهُ.

وَالرِّضَا مِنْهُ سُبحَانَهُ هُوَ أَرفَعُ دَرَجَاتِ النَّعِيمِ، وَأَعلَىٰ مَنَازِلِ الكَرَامَةِ(١)، وَأَعظَمُ وَأَكبَرُ وَأَجَلُّ مِنَ الجِنَانِ وَمَا فِيهَا؛ لأَنَّ الرِّضَا صِفَةُ اللهِ وَالجَنَّةَ خَلقُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. فَأَيسَرُ يَسِيرٍ مِنْ رِضوَانِهِ ـ وَلا يُقَالُ لَهُ: يَسِيرٌ ـ أَكبَرُ مِنَ الجَنَّاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ المَسَاكِنِ الطَّيِّبَةِ، وَمَا حَوَتْهُ مِنَ النَّعِيمِ. كَمَا قِيلَ:

قَلِيلٌ مِنكَ يُقنِعُنِي وَلَكِن ... قَلِيلُكَ لا يُقَالُ لَهُ قَلِيلُ

فَلا شَيءَ مِنَ النِّعَمِ ـ وَإِن جَلَّت وَعَظُمَت ـ يُمَاثِلُ رِضوَانَ اللهِ سُبحَانَهُ.

وَلِهَذَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهلِ الجَنَّةِ: يَا أَهلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ وَسَعدَيكَ، وَالخَيرُ فِي يَدَيكَ؛ فَيَقُولُ: هَل رَضِيتُم؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرضَىٰ يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعطَيتَنَا مَا لَمْ تُعطِ أَحَداً مِن خَلقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَلا أُعطِيكُم أَفضَلَ مِن ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيءٍ أَفضَلُ مِن ذَلِكَ؟! فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيكُم رِضوَانِي، فَلا أَسخَطُ عَلَيكُم بَعدَهُ أَبَداً**»(٢).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

أَوَ مَا عَلِمتَ بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ ... حَقّاً يُكَلِّمُ حِزبَهُ بِجِنَانِ

---

(١) فتح البيان (٤/ ٩٤).

(٢) رواه البخاري (٧٥١٨)، وَمسلم (٢٨٢٩).

فَيَقُولُ جل جلاله هَل أَنتُمُ ... رَاضُونَ قَالُوا نَحنُ ذُو رِضوَانِ
أَم كَيفَ لا نَرضَىٰ وَقَدْ أَعطَيتَنَا ... مَا لَمْ يَنَلْهُ قَطُّ مِنْ إِنسَانِ
هَل ثَمَّ شَيءٌ غَيرُ ذَا فيَكُونُ أَفـ ... ـضَلَ مِنْهُ نَسأَلُهُ مِنَ المَنَّانِ
فَيَقُولُ أَفضَلُ مِنْهُ رِضوَانِي فَلا ... يَغشَاكُمُ سَخَطٌ مِنَ الرَّحمَنِ[1]

وَالعَبدُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللهَ قَد رَضِيَ عَنْهُ، كَانَ أَتَمَّ لِسُرُورِهِ وَأَعظَمَ لِفَرَحِهِ[2].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الرِّضىٰ:

أ ـ الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ تَعَالَى:

عنْ جُوَيرِيَةَ رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِها بُكرةً حين صلَّى الصُّبحَ وَهيَ في مسجدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أن أضحى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فقالَ: **«ما زلتِ على الحَالِ التي فارقْتُكِ عليها؟»** قالَت: نَعم. قالَ النبيُّ ﷺ: **«لَقَدْ قُلْتُ بَعدكِ أربَعَ كلِماتٍ، ثلاثَ مَرَّاتٍ، لو وُزِنَت بما قُلْتِ منذُ اليومِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سبحانَ اللهِ وَبحمدِهِ عددَ خلقِه، وَرضا نفسِه، وزنةَ عَرْشِهِ، وَمدادَ كلماتِه»**[3].

وَمعنى (سبحانَ اللهِ) تَنْزِيهُهُ، التسبيحُ: هوَ التنزيهُ، أي أُنَزِّهُ اللهَ جلَّ وعلا عن كلِّ ما لا يليقُ بهِ منَ النقائصِ والعيوبِ.

(وبحمدِه) الحمدُ: هوَ الثناءُ على اللهِ بنِعَمِهِ سبحانه وتعالى.

(عددَ خلقِه) عددَ ما خَلَقَ جَلَّ وعلا في السماواتِ والأرضِ وما

---

(١) الكافية الشافية (ص٣٢٥).
(٢) فتح البيان (٢/ ٢٠١).
(٣) رواه مسلم (٢٧٢٦).

بينَهُما من المخلوقاتِ تُسَبِّحُهُ وتَحمدُهُ، ومن يُحصِي مخلوقاتِ اللهِ عَجَّلَ؟

(ورضا نفسِه) حتَّى يرضَى اللهُ تَعَالَى، فَهَذا وَصْفُ اللهِ جَلَّ وَعلا بالرِّضا، وأنَّهُ يُرضيهِ التسبيحُ والذكرُ، وهذا فيه فضلُ هذا الذكرِ؛ لأنَّهُ يُكْسِبُ العبدَ أنَّ اللهَ يرضَى عنهُ سبحانَهُ وتعالَى.

(وزنةَ عرشِه) العرشُ: هو أعظمُ المخلوقاتِ وأعلَى المخلوقاتِ، واللهُ جلَّ وَعلا مستوياً على العرشِ فوقَ مخلوقاتِهِ، فالعرشُ أعظمُهَا، (زنةَ عرشِه) أي: سبحانَ اللهِ وبحمدِه زِنَةَ عرشِه، وماذا يوازنُ العرشَ على كِبَرِهِ وَضَخَامَتِهِ؟ فَهَذِهِ الكَلِمَةُ تَعْدِلُ زِنَةَ العَرشِ من فَضْلِهَا وَعَظَمَتِهَا[١]. فَهَذا يُبَيِّنُ أنَّ زِنَةَ العَرْشِ أثْقَلُ الأوزانِ[٢].

(ومدادَ كلماتِه) المِدادُ: هوَ الحِبْرُ الذي يُكْتَبُ بِهِ، وَكَلِمَاتُ اللهِ: كلامُ اللهِ جَلَّ وعلا، لا يعلمُهُ إلَّا هُوَ، ولا يُحصيهِ إلَّا هوَ، لأنَّهُ يتكلَّمُ جَلَّ وعلا وَيَأمرُ وينهى ويخلقُ، وَما زالَ يتكلَّمُ تَعَالَى بأوامرِه ونواهِيهِ الكونيةِ والشرعيةِ، قالَ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقالَ جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧]، كلامُ اللهِ لا يحصيهِ إلا اللهُ جلَّ وعلا. فَهَذِهِ الكلمةُ تعادلُ المدادَ الذي يُكتَبُ بِهِ كلامُ اللهِ، فَدَلَّ على فضلِها ومكانتِها عندَ اللهِ تَعَالَى، ينبغِي للعبدِ

---

(١) تسهيل الإلمام بفقه الأحاديث من بلوغ المرام (٦/ ٣١٧ ـ ٣١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٥٣).

أنْ يَلْهَجَ بِهَا وَيُكثِرَ منها[١].

ب ـ الاستِعَاذَةُ بِرِضَىٰ اللهِ سُبحَانَهُ وَتعَالَىٰ:

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَت: فَقَدتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيلَةً مِنَ الفِرَاشِ، فَالتَمَستُهُ فَوَقَعَت يَدِي عَلَىٰ بَطنِ قَدَمِهِ، وَهُوَ في المَسجِدِ، وَهُمَا مَنصُوبَتَانِ؛ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِن سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِن عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنكَ، لا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثنيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ**»[٢].

قَولُهُ: «**أَنْتَ كَمَا أَثنيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ**» اعتِرَافٌ بِالعَجزِ عَنْ تَفصِيلِ الثَّناءِ، وَأَنَّهُ لا يَقدِرُ على بُلُوغِ حَقِيقَتِهِ، فَكَمَا أَنَّهُ لا نِهَايَةَ لِصِفَاتِهِ، فَكَذَلِكَ لا نِهَايَةَ لِلثَّنَاءِ عَلَيهِ؛ لأَنَّ الثَّنَاءَ تَابِعٌ لِلمُثنَى عَلَيهِ، فَكُلُّ ثَنَاءٍ أُثْنِيَ بِهِ عَلَيهِ ـ وَإِنْ كَثُرَ، وَطَالَ، وَبَالَغَ فِيهِ ـ فَقَدرُ اللهِ أَعظَمُ، وَسُلطَانُهُ أَعزُّ، وَصِفَاتُهُ أكثَرُ وَأَكبَرُ، وَفَضلُهُ وَإِحسَانُهُ أَوسَعُ وَأَسبَغُ[٣].

ج ـ إِذَا عَلِمَ العَبدُ بِأَنَّ رِضَىٰ اللهِ أَعظَمُ العَطَايَا، وَأَفضَلُ المَوَاهِبِ، وَأَعلَىٰ المَطَالِبِ وَأَسنَىٰ الرَّغَائِبِ، فَإِنَّهُ يَلزَمُ مَا جَعَلَ اللهُ رِضَاهُ فِيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١ ـ حِفظُ كِتَابِ اللهِ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَجِيءُ القُرآنُ يَومَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ! فَيُلبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدهُ!**

---

(١) تسهيل الإلمام بفقه الأحاديث من بلوغ المرام (٦/ ٣١٧ ـ ٣١٨).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦).

(٣) العلم الهيِّب (ص٢٩٥).

فَيُلبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارضَ عَنهُ! فَيَرضَىٰ عَنهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقرَأ وَارقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً»(١).

٢ ـ المُبَادَرَةُ إِلىٰ فِعلِ كُلِّ مَا يُقَرِّبُ مِنَ الرَّحمَنِ عَلَىٰ الفَورِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، استِعجَالاً لِلوُصُولِ إِلىٰ غَايَةِ المُنىٰ.

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قالَتْ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَىٰ اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَرْضَىٰ النَّاسَ عَنْهُ؛ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَىٰ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»(٢).

واعلَم أنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا رَضِيَ عنِ الْعَبدِ أَرضَىٰ النَّاسَ عنهُ، وإِذَا سَخِطَ عَلَىٰ الْعَبدِ أَسخَطَ النَّاسَ عَلَيهِ، فإِذَا كُنتَ تُرِيدُ أَن يَرضَىٰ النَّاسُ عَنكَ فَاتَّبِـع رِضَا اللهِ؛ ولَكِن لَا تَتَّبع رِضَا اللهِ مِن أَجلِ أَن يَرضَى النَّاسُ عَنكَ، فَتَطلُبَ الأَعلَىٰ لِلأَدنَىٰ، وَلَكِنِ اجْعَلْ رِضَا اللهِ هُوَ الأَصلَ، وَثِقْ بِأَنَّ اللهَ إِذَا رَضِيَ عَنْكَ رَضِيَ عَنْكَ النَّاسُ، وَلَكِن إِيَّاكَ أَن تَنوِيَ بِطَلَبِ رِضَا اللهِ رِضَا النَّاسِ فَتَكُونَ مُتَوَسِّلاً بِالأَعْلَىٰ إِلَىٰ الأَدنَىٰ؛ لأَنَّهُ رُبَّمَا إِذَا نَوَيتَ هَذِهِ النِّيَّةَ لَا يَرضَىٰ اللهُ عَنْكَ، وَحِينَئِذٍ يَفُوتُكَ مَقصُودُكَ مَعَ ضَعْفِ مَقْصُودِكَ(٣).

٣ ـ السِّوَاكُ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**السِّوَاكُ مَطهَرَةٌ لِلفَمِ، مَرضَاةٌ**

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٥)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٨).

(٢) رواه ابن حبان (٢٧٦)، وصححه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح موارد الظمآن» (١٢٨٢).

(٣) شرح العقيدة السَّفارينيَّة (ص٨٦).

لِلرَّبِّ»[١]. أَي أَنَّهُ مِن أَسبَابِ رِضَا اللهِ عَنِ العَبدِ أَن يَتَسَوَّكَ[٢].

٤ ـ الحَمدُ عِندَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ:

عَن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرضَى عَنِ العَبدِ أَنْ يَأكُلَ الأَكلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيهَا، أَو يَشْرَبَ الشُّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيهَا**»[٣].

وَهَذَا تَنوِيهٌ عَظِيمٌ بِمَقَامِ الحَمدِ، حَيثُ رَتَّبَ هَذَا الجَزَاءَ العَظِيمَ ـ الذي هُوَ أَكبَرُ أَنوَاعِ الجَزَاءِ ـ في مُقَابَلَةِ شُكرِهِ بِالحَمدِ.

٥ ـ الكَلِمَةُ مِن رِضوَانِ اللهِ تَعَالَىٰ:

عَن عَلقَمَةَ بنِ وَقَّاصٍ؛ قَالَ: سَمِعتُ بِلَالَ بنَ الحَارِثِ المُزَنِيَّ، صَاحِبَ رَسولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُم لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن رِضوَانِ اللهِ، مَا يَظُنُّ أَن تَبلُغَ مَا بَلَغَت، فَيَكتُبُ اللهُ عز وجل لَهُ بِهَا رِضوَانَهُ إِلَىٰ يومِ القِيَامَةِ، وَإِنَّ أَحَدَكُم لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن سُخطِ اللهِ، مَا يَظُنُّ أَن تَبلُغَ مَا بَلَغت، فَيَكتُبُ اللهُ عز وجل عَلَيهِ بِهَا سُخطَهُ إِلَىٰ يَومِ يَلقَاهُ**». قَالَ عَلقَمَةُ: فَانظُر، وَيحَكَ! مَاذَا تَقُولُ، وَمَاذَا تَكَلَّمُ بِهِ؟ فَرُبَّ كَلَامٍ، قَد مَنَعَنِي أَن أَتكَلَّمَ بِهِ، مَا سَمِعتُ مِن بِلَالِ بنِ الحَارِثِ[٤].

قَولُهُ: «**مِن سَخَطِ اللهِ**» أَي: مِمَّا يُسخِطُ اللهَ، وَذَلِكَ بِأَن يَكُونَ

---

(١) رواه النسائي (٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١/ ١٤).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٥٦).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٤) رواه ابن ماجه (٣٩٦٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٠٥).

كِذبَةً، أَو غِيبَةً، أَو بُهتَاناً، أَو بَخساً، أَو بَاطِلاً يُضحِكُ بِهِ النَّاسَ[١]، كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَيلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكذِبُ لِيُضحِكَ بِهِ القَومَ، وَيلٌ لَهُ، وَيلٌ لَهُ**»[٢]. وَهَذَا وَعِيدٌ عَلَىٰ أَمرٍ سَهلٍ عِندَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ[٣].

وَمَا أَكثَرَ الكَلِمَاتِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا الإِنسَانُ غَيرَ مُبَالٍ بِهَا، وَغَيرَ مُهتَمٍّ بِمَدلُولِهَا، فَتُردِيهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ[٤]. وَرُبَّ كَلِمَةٍ جَرَىٰ بِهَا اللِّسَانُ، هَلَكَ بِهَا الإِنسَانُ.

وَمَعنَى الحَدِيثِ: «أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةِ الحَقِّ يَظُنُّهَا قَلِيلَةً، وَهِيَ عِندَ اللهِ جَلِيلَةٌ، فَيَحصُلُ لَهُ رِضوَانُ اللهِ. وَقَدْ يَتَكَلَّمُ بِسُوءٍ وَلا يَعلَمُ أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَهُوَ عِندَ اللهِ ذَنبٌ عَظِيمٌ، فَيَحصُلُ لَهُ السُّخطُ مِنَ اللهِ»[٥].

وَهَذَا الحَدِيثُ فِيهِ مِنَ الفِقهِ: وَجُوبُ التَّثَبُّتِ عِندَ الأَقوَالِ وَالأَفعَالِ، وَتَحرِيمُ التَّسَاهُلِ فِي شَيءٍ مِنَ الصَّغَائِرِ، وَمُلازَمَةُ الخَوفِ، وَالحَذَرُ عِندَ كُلِّ قَولٍ وَفِعلٍ[٦].

نَسأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الثَّبَاتَ عَلَىٰ الحَقِّ، وَالسَّلامَةَ مِنَ الإِثمِ[٧].

---

(١) انظر: المفهم (٦/ ٦١٦ ـ ٦١٧).
(٢) رواه أبو داود (٤٩٩٠)، وَالترمذي (٢٣١٥) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه. وَحسنه الألباني رحمه الله فِي «صحيح سنن أبي داود» (٤١٧٥).
(٣) شرح رياض الصَّالحين (١/ ٢٠١).
(٤) المصدر السابق (١/ ٤٧٦).
(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ١٣٦).
(٦) المفهم (٦/ ٦١٧).
(٧) شرح رياض الصَّالحين (١/ ٤٧٧).

٦ ـ رِضَىٰ الوَالِدِ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**رِضَىٰ الرَّبِّ في رِضىٰ الوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ في سَخَطِ الوَالِدِ**»[1].

هَذَا الحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَىٰ فَضلِ برِّ الوَالِدِ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِرِضىٰ اللهِ تَعَالَىٰ. وَدَلِيلٌ عَلَىٰ التَّحذِيرِ مِن عُقُوقِ الوَالِدِ وَتَحرِيمِهِ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِسَخَطِ اللهِ.

٧ ـ الصَبرُ عِندَ البَلاءِ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوماً ابتَلاهُم؛ فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[2].

٨ ـ خَشيَةُ اللهِ في السِّرِّ وَالعَلَنِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وَمَقَامُ «الخَشيَةِ» جَامِعٌ لِمَقَام المَعرِفَةِ بِاللهِ، وَالمَعرِفَةِ بِحَقِّ عُبُودِيَّتِهِ، فَمَتَىٰ عَرَفَ اللهَ، وَعَرَفَ حَقَّهُ، اشتَدَّت خَشيَتُهُ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨] «العَالِمُونَ بِهِ، وَبِمَا يَلِيقُ بِهِ مِن صِفَاتِهِ الجَلِيلَةِ، وَأَفعَالِهِ الجَمِيلَةِ»[3]، قَالَ النَّبيُّ ﷺ:

---

(١) رواه الترمذي (١٨٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٤٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٦٤).

(٣) فتح البيان (١١/ ٢٤٥).

«إِنِّي لأَعلَمُهم بِاللهِ، وَأَشَدُّهم لَهُ خَشيَةً»[١].

«وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ فَضِيلَةِ العِلم وَأَنَّهُ مِن أَسبَابِ خَشيَةِ اللهِ، وَالإِنسَانُ إِذَا وُفِّقَ لِلخَشيَةِ عُصِمَ مِنَ الذُّنُوبِ؛ وَإِن أَذنَبَ استَغفَرَ وَتَابَ إِلىٰ اللهِ، لأَنَّهُ يَخشَىٰ اللهَ، يَخَافُهُ يُعَظِّمُهُ»[٢].

٩ ـ الصِّدقُ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

الصِّدقُ دَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ وَحِليَةٌ سَنِيَّةٌ جَلِيلَةٌ وَهُوَ أَصلٌ لِكُلِّ حَالٍ، وَأُسٌّ لِكُلِّ مَقَامٍ. وَمَا «أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ بَعْدَ الإِسلامِ، بِنِعْمَةٍ أَفْضَلَ مِنَ الصِّدقِ، الَّذِي هُوَ غِذَاءُ الإِسلَامِ وَحَيَاتُهُ»[٣]. فَكُلُّ مَن صَدَقَ وَتَحَقَّقَ فِي صِدقِهِ فَقَد نَجَا، وَرَضِيَ عَنْهُ المَلِكُ الوَهَّابُ، بِمَا يُعطِيهِ «مِنْ أَنوَاعِ الكَرَامَاتِ، وَوَافِرِ المَثُوبَاتِ، وَجَزِيلِ الهِبَاتِ، وَرَفِيعِ الدَّرَجَاتِ»[٤].

١٠ ـ الدُّعَاءُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»**[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٩٧).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٥٩١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص١١٩٥).

(٥) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وحسنّه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٦).

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ رِضَاءَهُ في سُؤَالِهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِذَا رَضِيَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَكُلُّ خَيرٍ في رِضَاهُ، كَمَا أَنَّ كُلَّ بَلاءٍ وَمُصِيبَةٍ في غَضَبِهِ وَمَعصِيَتِهِ[1].

فَشَتَّانَ بَينَ مَنْ يَغْضَبُ إِنْ سَأَلتَهُ، وَبَينَ مَنْ يَغْضَبُ إِنْ لَم تَسْأَلْهُ.

وَلَقَد أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

فَاجْعَلْ سُؤَالَكَ لِلإِلهِ فَإِنَّمَا ... فِي فَضْلِ نِعْمَةِ رَبِّنَا نَتَقَلَّبُ

١١ ـ الشُّكْرُ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، فَقَد دَلَّت هَذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ رِضَا الرَّبِّ عَن عَبدِهِ بِالشُّكرِ. «وَإِنَّمَا رَضِيَ لَهُم سُبحَانَهُ الشُّكرَ، لأَنَّهُ سَبَبُ سَعَادَتِهِم في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ»[2].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ ثَلاثَةً في بَنِي إِسرَائِيلَ، أَبرَصَ وَأَقرَعَ وَأَعمَىٰ، فَأَرَادَ اللهُ أَن يَبتَلِيَهُم، فَبَعثَ إِلَيهِم مَلَكاً، فَأَتَىٰ الأَبرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: لَونٌ حَسَنٌ وَجِلدٌ حَسَنٌ وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعطِيَ لَوناً حَسَناً وَجِلداً حَسَناً، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ ـ أَو قَالَ: البَقَرُ ـ إِلَّا أَنَّ الأَبرَصَ أَوِ الأَقرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الإِبِلُ، وَقَالَ الآخَرُ: البَقَرُ؛ قَالَ: فَأُعطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا،**

---

(١) الداء والدواء (ص٢٤).

(٢) فتح البيان (١٢/ ٨٥).

قَالَ: فَأَتَىٰ الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: شَعرٌ حَسَنٌ وَيَذهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَني النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، قَالَ: وَأُعطِيَ شَعراً حَسَناً، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: البَقَرُ، فَأُعطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، قَالَ: بَارَكَ اللهُ تَعَالَىٰ لَكَ فِيهَا؛ قَالَ: فَأَتَىٰ الأَعمَىٰ فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: أَن يَرُدَّ اللهُ إِليَّ بَصَرِي فَأُبصِرَ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ، فَأُعطِيَ شَاةً وَالِداً، فَأُنتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَىٰ الأَبرَصَ في صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسكِينٌ، قَدِ انقَطَعَت بِي الحِبَالُ في سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ اليَومَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسأَلُكَ بِالَّذِي أَعطَاكَ اللَّونَ الحَسَنَ وَالجِلدَ الحَسَنَ وَالمَالَ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ عَلَيهِ في سَفَرِي؛ فَقَالَ: الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعرِفُكَ، أَلَم تَكُن أَبرَصَ يَقذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيراً فَأَعطَاكَ اللهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وُرِّثتُ هَذَا المَالَ كَابِراً عَن كَابِرٍ، فَقَالَ: إِن كُنتَ كَاذِباً، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلىٰ مَا كُنتَ.

قَالَ: وَأَتَىٰ الأَقرَعَ في صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيهِ مِثلَ مَا رَدَّ عَلَىٰ هَذَا، فَقَالَ: إِن كُنتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلىٰ مَا كُنتَ.

قَالَ: وَأَتَىٰ الأَعمَىٰ في صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسكِينٌ وَابنُ سَبِيلٍ، انقَطَعَت بِيَ الحِبَالُ في سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ اليَوم إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا في سَفَرِي؛ فَقَالَ: قَد كُنتُ أَعمَىٰ فَرَدَّ اللهُ إِليَّ بَصَرِي، فَخُذ مَا شِئتَ، وَدَع مَا شِئتَ، فَوَاللهِ! لا أَجهَدُكَ اليَومَ شَيئاً أَخَذتَهُ للهِ، فَقَالَ: أَمسِك مَالَكَ، فَإِنَّما ابتُلِيتُم، فَقَد

رُضِيَ عَنكَ، وَسُخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيكَ»[١].

فَأَظهَرَ الِابتِلَاءُ حقَائِقَهُمُ الَّتِي كَانَت في عِلمِهِ، قَبلَ أَن يَخلُقَهُم، فَأَمَّا الأَعمَىٰ فَاعتَرَفَ بِإِنعَامِ اللهِ عَلَيهِ وَأَنَّهُ كَانَ أَعمَىٰ فَقِيراً، فَأَعطَاهُ اللهُ البَصَرَ وَالغِنَىٰ، وَبَذَلَ لِلسَّائِلِ مَا طَلَبَهُ شُكراً للهِ، وَأَمَّا الأَقرَعُ وَالأَبرَصُ فَكِلاهُمَا جَحَدَ مَا كَانَ عَلَيهِ قَبلَ ذَلِكَ مِن سُوءِ الحَالِ وَالفَقرِ، وَقَالَ في الغِنَىٰ: إِنَّما أُوتِيتُهُ كَابِراً عَن كَابِرٍ.

وَهَذَا حَالُ أَكثَرِ النَّاسِ، لا يَعتَرِفُ بِمَا كَانَ عَلَيهِ أَوَّلاً مِن نَقصٍ أَو جَهلٍ أَو فَقرٍ وَذُنُوبٍ، وَأَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ نَقَلَهُ مِن ذَلِكَ إِلىٰ ضِدِّ مَا كَانَ عَلَيهِ، وَأَنْعَمَ بذَلِكَ عَلَيهِ[٢].

فَهَذَا الأَعمَىٰ فَازَ بِرِضىٰ اللهِ بِسَبَبِ شُكرِهِ لِنِعمَةِ اللهِ، فَحَصَلَ عَلَىٰ الرُّتَبِ الفَاخِرَةِ، وَجُمِعَت لَهُ نِعَمُ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ. أَمَّا أُولَئِكَ فَعَاقَبَهُمُ اللهُ وَسَخِطَ عَلَيهِم، وَهَذَا عَامٌّ في كُلِّ مَن كَفَرَ نِعمَةَ اللهِ.

١٢ ـ المَوتُ على عَمَلٍ صَالِحٍ:

عَنْ عَمرِو بنِ الحَمِقِ الخُزَاعِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خيراً؛ عَسَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**». قِيلَ: وَمَا عَسَلَهُ قَبْلَ موتِهِ؟ قَالَ: «**يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَينَ يَدَي مَوْتِهِ؛ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ**»[٣].

أسأَلُ اللهَ الحَيَّ القَيُّومَ ذَا الجَلالِ وَالإِكرَامِ، أَن يَتَوَفَّانَا وَهُوَ رَاضٍ عَنَّا.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤)، وَمسلم (٢٩٦٤) ـ وَاللفظ له ـ.

(٢) شفاء العليل (٢/ ١٥١).

(٣) رواه ابن حبان (١٨٣٢) «موارد»، وَصححه الألباني ﵀ في «صحيح موارد الظمآن» (١٥٣٠).

١٣ ـ الإِخلَاصُ:

مَنْ عَمِلَ لِوَجهِ اللهِ الكَرِيمِ، نَالَ الرِّضَىٰ مِنْهُ جَلَّ وَعَلا، قَالَ تَبارَكَ وَتَـعَـالَـىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢١].

فَهُوَ «إِذَا أَحسَنَ إِلىٰ النَّاسِ، فَإِنَّما يُحسِنُ إِلَيهِمُ ابتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِ الأَعلَىٰ؛ وَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ قَدْ مَنَّ عَلَيهِ بِأَنْ جَعَلَهُ مُحسِناً، فَيَرَىٰ أَنَّ عَمَلَهُ للهِ وَبِاللهِ؛ فَلا يَطلُبُ مِمَّنْ أَحسَنَ إِلَيهِ جَزَاءً وَلا شُكُوراً؛ وَلا يَمُنُّ عَلَيهِ بذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ هُوَ المَانُّ عَلَيهِ، إِذِ استَعمَلَهُ في الإِحسَانِ؛ فَعَلَيهِ أَن يَشكُرَ اللهَ إِذ يَسَّرَهُ لِليُسرَىٰ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ الشَّخصِ أَن يَشكُرَ اللهَ إِذ يَسَّرَ لَهُ مَا يَنفَعُهُ»[١]. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلَسَوفَ يَرضَىٰ عَنْهُ رَبُّ العَالَمِينَ، بِمَا يُعطِيهِ «مِنَ الكَرَامَةِ وَالجَزَاءِ العَظِيمِ، وَهُوَ وَعدٌ مِنَ الكَرِيمِ تَعَالَىٰ، عَلَىٰ أَكمَلِ الوُجُوهِ وَأَجَلِّهَا»[٢].

وَكَمَا أَنَّ هَذِهِ الغَايَةَ أَعلَىٰ الغَايَاتِ، وَهَذَا المَطلُوبُ أَشرَفُ المَطَالِبِ؛ فَهَذَا الطَّرِيقُ أَقصَدُ الطُّرُقِ إِلَيهِ، وَأَقربُهَا وَأَقومُهَا. وَبِاللهِ التَّوفِيقُ[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢١) و(١٤/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

(٢) فتح البيان (١٥/ ٢٧٢).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص٤٧).

صِفَةُ العَفوِ

وَإنْ سَألْتَ عَنْ عَفوِهِ: فَهُوَ العَفُوُّ الذي قَد كَمُلَ في عَفوِهِ «يَعفُو عَنِ المُذنِبينَ، فَلا يُعَاجِلُهُم بِالعُقُوبَةِ، وَيَغفِرُ ذُنُوبَهُم، فَيُزِيلُهَا، وَيُزِيلُ آثَارَهَا عَنهُم. فَاللهُ هَذَا وَصفُهُ المُستَقِرُّ اللَّازِمُ الذَّاتِيُّ، وَمُعَامَلَتُهُ لِعِبَادِهِ في جَمِيعِ الأَوقَاتِ بِالعَفوِ، وَالمَغفِرَةِ»(١).

فَلَولا عَفوُهُ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهرِهَا مِن دَابَّةٍ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ العَفُوُّ فَعَفوُهُ وَسِعَ الوَرَىٰ ... لَولاهُ غَارَ الأرضُ بِالسُّكَّانِ(٢)

وَمِنْ كَمَالِ عَفوِهِ: أَنَّ المُسرِفِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم إِذَا تَابُوا إِلَيهِ يَصفَحُ عَنهُم، وَيَمحُو عَنهُم أَخطَاءَهُم وَزَلَّاتِهِم وَيُعَافِيهِم، وَمِنْهُ قَولُ بَعضِهِم:

رَبِّ اعفُ عَنْهُ وَعَافِهِ ... فَلَأَنتَ أَولَىٰ مَن عَفَا

بِمَعنىٰ: تَجَاوَزْ وَاصفَحْ.

وَاللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُعَاقِبَ، لَكِنَّهُ يَعفُو سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَعَ القُدرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٥٢).

(٢) الكافية الشافية (ص٢١٠).

○ الآثَارُ المَسْلَكِيَّةُ لِلإيمَانِ بِصِفَةِ العَفوِ:

١ ـ إنَّ الله تَعَالَىٰ عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفوَ مِن عِبَادِهِ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفوَ**، ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]»[١].

وَقَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ: ٤٠] «يَجزِيهِ أَجراً عَظِيماً، وَثَوَاباً كَثِيراً. وَشَرَطَ اللهُ في العَفوِ الإصلاحَ فِيهِ، لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ إذَا كَانَ الجَانِي لا يَلِيقُ بِالعَفوِ عَنهُ، وَكَانَتِ الْمَصلَحَةُ الشَّرعِيَّةُ تَقتَضِي عُقُوبَتَهُ، فَإنَّهُ في ـ هَذِهِ الحَالِ ـ لا يَكُونُ مَأمُوراً بِهِ. وَفي جَعلِ أَجرِ العَافِي عَلَىٰ اللهِ، مَا يُهَيِّجُ عَلَىٰ العَفوِ، وَأَن يُعَامِلَ العَبدُ الخَلقَ بِمَا يُحِبُّ أَن يُعَامِلَهُ اللهُ بِهِ. كَمَا يُحِبُّ أَن يَعفُوَ اللهُ عَنهُ، فَليَعفُ عَنهُم، وَكَمَا يُحِبُّ أَن يُسَامِحَهُ اللهُ، فَليُسَامِحهُم، فَإنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنسِ العَمَلِ»[٢].

وَمَن وَصَلَ إلىٰ هَذِهِ الحَالَةِ؛ فَليَحمَدِ اللهَ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعمَةِ الكُبرَىٰ، وَعَلَىٰ رَاحَةِ الضَّمِيرِ، وَعَلَىٰ كَثرَةِ مَا يَجنِي مِنَ الخَيرِ، وَعَلَىٰ مَا يُرجَىٰ لَهُ مِن جَزَاءِ رَبِّهِ لَهُ وَمُعَامَلَتِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ يُرجَىٰ أَن يُكَمِّلَ اللهُ لَهُ النَّوَاقِصَ، وَيَعفُوَ عَمَّا مَزَجَ فِيهِ العَبدُ أَغرَاضَهُ وَشَهَوَاتِهِ النَّفسِيَّةَ مَعَ دَاعِي الإخلاصِ، وَيُستَثنَىٰ مِن هَذَا الأَصلِ: العَفوُ عَنِ المُجرِمِ المُفسِدِ المُتَمَرِّدِ، الَّذِي

---

(١) قطعة من حديث: رواه أحمد (١/ ٤٣٨)، وَحسنه بشواهده الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٦٣٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٦٩).

العَفوُ عَنْهُ مِمَّا يَزِيدُهُ في عُتُوِّهِ وَتَمَرُّدِهِ؛ فَالوَاجِبُ في مِثلِ هَذَا: الرَّدعُ وَالزَّجرُ بِكُلِّ مُمكِنٍ، وَلَعَلَّ هَذَا يُؤخَذُ مِنَ القَيدِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ بِقَولِهِ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]؛ فَشَرَطَ اللهُ أَن يَكُونَ العَفوُ فِيهِ صَلاحٌ، فَأَمَّا العَفوُ الَّذِي لا صَلاحَ فِيهِ، بَلْ فِيهِ ضِدُّهُ؛ فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنهُ[1].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلىٰ النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَم نَعفُو عَنِ الخَادِمِ؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيهِ الكَلامَ، فَصَمَتَ، فَلَمَّا كَانَ في الثَّالِثَةِ؛ قَالَ: «**اعفُوا عَنهُ** (يَعنِي: الخَادِمَ)، **في كُلِّ يَومٍ سَبعِينَ مَرَّةً**»[2].

٢ ـ سُؤَالُ اللهِ العَفوَ:

١ ـ عَنْ رِفَاعَةَ بنِ رَافِعٍ قَالَ: قَامَ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ عَلَىٰ المِنبَرِ، ثُمَّ بَكَىٰ، فَقَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامَ الأَوَّلِ عَلَىٰ المِنبَرِ، ثُمَّ بَكَىٰ، فَقَالَ: «**سَلُوا اللهَ العَفوَ وَالعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَداً لَم يُعطَ بَعدَ اليَقِينِ خَيراً مِنَ العَافِيَةِ**»[3].

٢ ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَىٰ النَّبيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَفضَلُ؟ قَالَ: «**سَلِ اللهَ العَفوَ وَالعَافِيَةَ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ**». ثُمَّ أَتَاهُ الغَدَ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ! أَيُّ الدُّعَاءِ أَفضَلُ؟ قَالَ: «**سَلِ اللهَ العَفوَ وَالعَافِيَةَ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ...**»[4].

---

(١) مجموع الفوائد (ص٦٣ ـ ٦٤).

(٢) رواه أبو داود (٥١٦٤)، وَصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٤٨٨).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٥٨)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢١).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٧)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٤٩٦). وَللحديث تتمة: ضعفها العلامة الألباني رحمه الله.

٣ ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إن عَلِمتُ أيَّ لَيلَةٍ لَيلَةَ القَدرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفوَ، فَاعفُ عَنِّي**»(١).

فَعَلَينَا أَن نَستَكثِرَ مِنَ الدُّعَاءِ بِالعَفوِ: لأَنَّ العُمدَةَ الكُبرَىٰ في نَيلِ السَّعَادَةِ الأُخرَوِيَّةِ، هِيَ مَغفِرَةُ الذُّنُوبِ وَعَفوُ اللهِ عَنهَا.

وَهَذِهِ الكَلِمَةُ ـ كَمَا تَرَىٰ ـ فِيهَا مَا يَبعَثُ رَغَبَاتِ الرَّاغِبِينَ، إِلَىٰ إِدَامَةِ الطَّلَبِ مِن رَبِّ العَالَمِينَ أَن يَعفُوَ.

فَمَن مَنَّ اللهُ عَلَيهِ بِالعَفوِ فَقَد أَفْلَحَ وَفَازَ، وَرَبِحَ أَعظَمَ الرِّبحِ، وَأُوتِيَ الخَيرَ بِحَذَافِيرِهِ.

وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

العَفوُ يُرجَىٰ مِن بَنِي آدَمَ ... فَكَيفَ لا يُرجَىٰ مِنَ الرَّبِّ(٢)

وَرَحِمَ اللهُ القَائِلَ:

يَا رَب إِن عَظُمَت ذُنُوبِي كَثرَةً ... فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ
إِن كَانَ لا يَرجُوكَ إِلَّا مُحسِنٌ ... فَمَنِ الَّذِي يَرجُو وَيَدعُو المُجرِمُ
مَا لي إِلَيكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسلِمُ(٣)

❊ ❊ ❊

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٤٦).

(٢) فتح البيان (٧/ ٢٢٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٧).

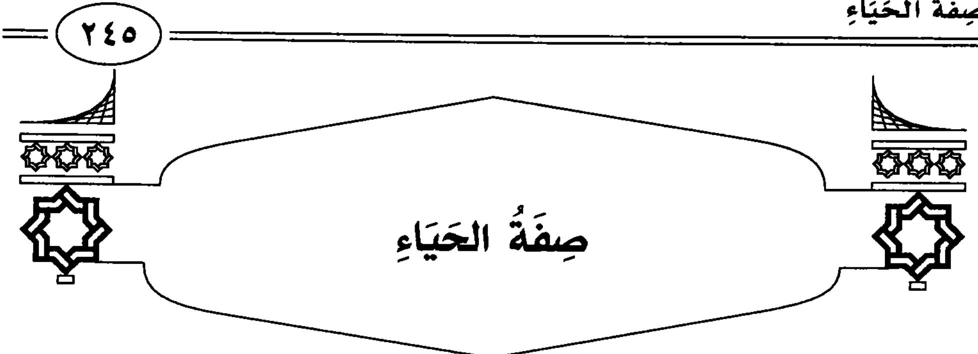

صِفَةُ الحَيَاءِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حَيَائِهِ: فَهُوَ الحَيِيُّ ـ كَثِيرُ الحَيَاءِ ـ الَّذِي قَد كَمُلَ في حَيَائِهِ. وَحَيَاؤُهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «لا تُدرِكُهُ الأَفهَامُ، وَلا تُكَيِّفُهُ العُقُولُ، فَإِنَّهُ حَيَاءُ كَرَمٍ وَبِرٍّ وَجُودٍ وَجَلالٍ»(١).

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الحَيِيُّ فَلَيْسَ يَفضَحُ عَبدَهُ ... عِندَ التَّجَاهُرِ مِنْهُ بِالعِصيَانِ
لَكِنَّهُ يُلقِي عَلَيهِ سَترَهُ ... فَهُوَ السِّتِّيرُ وَصَاحِبُ الغُفرَانِ(٢)

وَهَذَا مِن رَحمَتِهِ وَكَرَمِهِ وَكَمَالِهِ وَحِلمِهِ: أَنَّ العَبدَ يُجَاهِرُهُ بِالمَعَاصِي مَعَ فَقرِهِ الشَّدِيدِ إِلَيهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لا يُمكِنُهُ أَن يَعصِيَ إِلَّا أَن يَتقَوَّىٰ عَلَيهَا بِنِعَمِ رَبِّهِ، وَالرَّبُّ مَعَ كَمَالِ غِنَاهُ عَنِ الخَلقِ كُلِّهِم: مِنْ كَرَمِهِ يَستَحِي مِن هَتكِهِ وَفَضِيحَتِهِ وَإِحلَالِ العُقُوبَةِ بِهِ، فَيَستُرُهُ بِمَا يُقَيِّضُ لَهُ مِنْ أَسبَابِ السَّترِ، وَيَعفُو عَنْهُ وَيَغفِرُ لَهُ، فَهُوَ يَتَحَبَّبُ إِلَىٰ عِبَادِهِ بِالنِّعَمِ، وَهُم يَتَبَغَّضُونَ إِلَيهِ بِالمَعَاصِي.

وَيَستَحِي تَعَالَىٰ مِمَّن يَمُدُّ يَدَيهِ إِلَيهِ، أَن يَرُدَّهُما صِفراً، وَيَدعُو عِبَادَهُ إِلَىٰ دُعَائِهِ وَيَعِدُهُم بِالإِجَابَةِ.

---

(١) تهذيب المدارج (ص٦٢١).
(٢) الكافية الشافية (ص٢٠٩).

عَن سَلمَانَ الفَارِسِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَستَحيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيهِ يَدَيهِ، أَن يَرُدَّهُمَا صِفراً خَائِبَتَينِ**»(١).

وَهُوَ الحَيِيُّ السِّتِّيرُ، يُحِبُّ أَهلَ الحَيَاءِ وَالسَّترِ.

عَن يَعلَىٰ بنِ أُمَيَّةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَىٰ رَجُلاً يَغتَسِلُ بِالبَرَازِ بِلا إِزَارٍ، فَصَعِدَ المِنبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثنَىٰ عَلَيهِ؛ ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عز وجل حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّترَ، فَإِذَا اغتَسَلَ أَحَدُكُم فَليَستَتِر**»(٢).

○ الآثَارُ المَسْلَكِيَّةُ لِلإِيمَانِ بِصِفَةِ الحَيَاءِ:

اعْلَمْ ـ بَارَكَ اللهُ فِيكَ ـ بِأَنَّ أَعظَمَ الحَيَاءِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، الَّذِي نَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِهِ وَإِحسَانِهِ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ، وَلا نَستَغنِي عَنْهُ طَرفَةَ عَينٍ، وَنَحنُ تَحتَ سَمعِهِ وَبَصَرِهِ، لا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ حَالِنَا وَقَولِنَا وَفِعلِنَا شَيءٌ. فَهُوَ الَّذِي خَلَقَنَا وَهُوَ الَّذِي رَزَقَنَا، فَنَطْعَمُ مِنْ خَيرِهِ، وَنَتَنَفَّسُ فِي جَوِّهِ، وَنَعِيشُ عَلَىٰ أَرضِهِ، وَنَستَظِلُّ بِسَمَائِهِ، وَآلاؤُهُ غَمَرَتنَا مِنَ المَهْدِ إِلَىٰ اللَّحدِ وَإِلَىٰ مَا بَعدَ ذَلِكَ مِن خُلُودٍ طَوِيلٍ فِي الجَنَّةِ إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ. فَكَيفَ لا نَستَحِي مِنْهُ؟ وَكَيفَ نُقَابِلُ كُلَّ هَذِهِ النِّعَمِ بِالإِسَاءَةِ؟!

وَيَتَوَلَّدُ الحَيَاءُ مِنَ «المَعرِفَةِ بِعَظَمَةِ اللهِ وَجَلالِهِ وَقُدرَتِهِ، لأَنَّهُ إِذَا ثَبَتَ تَعظِيمُ اللهِ فِي قَلبِ العَبدِ، أَورَثَهُ الحَيَاءَ مِنَ اللهِ وَالهَيبَةَ لَهُ، فَغَلَبَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٥٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٠١٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٩٧).

عَلَىٰ قَلبِهِ ذِكرُ اطِّلاعِ اللهِ العَظِيمِ إِلَىٰ مَا فِي قَلبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَذِكرُ المَقَامِ غَداً بَينَ يَدَيهِ، وَسُؤَالُهُ إِيَّاهُ عَنْ جَمِيعِ أَعمَالِ قَلبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَذِكرُ دَوَامِ إِحسَانِهِ إِلَيهِ، وَقِلَّةُ الشُّكرِ مِنْهُ لِرَبِّهِ، فَإِذَا غَلَبَ ذِكرُ هَذِهِ الأُمُورِ عَلَىٰ قَلبِهِ، هَاجَ مِنْهُ الحَيَاءُ مِنَ اللهِ، فَاستَحيَىٰ مِنَ اللهِ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَهُوَ مُعتَقِدٌ لِشَيءٍ مِمَّا يَكرَهُ، أَو عَلَىٰ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ، يَتَحَرَّكُ بِمَا يَكرَهُ، فَطَهَّرَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ مَعصِيَةٍ، وَمَنَعَ جَوَارِحَهُ مِنْ جَمِيعِ مَعَاصِيهِ»[١].

فَمَنِ استَحيَىٰ مِنْ رَبِّهِ حَقَّ الحَيَاءِ، حَفِظَ القَلبَ وَمَا وَعَىٰ، وَالرَّأسَ وَمَا حَوَىٰ. وَعَرَفَ مَا خُلِقَ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، فَآثَرَ مَا يَبقَىٰ عَلَىٰ مَا يَفنَىٰ[٢].

عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدِ الأَنصَارِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَوصِنِي، قَالَ: «**أُوصِيكَ أَن تَستَحِيَ اللهَ عز وجل، كَمَا تَستَحِي رَجُلاً صَالِحاً مِن قَومِكَ**»[٣].

فَقُل لِنَفسِكَ: لَو كَانَ رَجُلٌ مِنْ صَالِحِي قَومِي يَرَانِي، أَو يَسمَعُ كَلَامِي، لاستَحَيتُ مِنْهُ، فَكَيفَ لَا أَستَحِي مِن رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ لَا آمَنُ تَعجِيلَ عُقُوبَتِهِ وَكَشفَ سَترِهِ؟!

فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ يَرَاهُ حَيثُ كَانَ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَاستَحضَرَ ذَٰلِكَ فِي خَلَوَاتِهِ، أَوجَبَ لَهُ ذَٰلِكَ تَركَ المَعَاصِي فِي السِّرِّ.

---

(١) تعظيم قدر الصَّلاة (٢/ ٨٢٦).

(٢) المجموعة الكاملة (٦/ ٤٥)، للعلامة السعدي رحمه الله.

(٣) أخرجه أحمد فِي «الزهد» (ص٥٩)، وَصححه الألباني رحمه الله فِي «صحيح الجامع» (٢٥٤١).

قَالَ القَحطَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

وَإِذَا خَلَوتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلمَةٍ   وَالنَّفسُ دَاعِيَةٌ إِلَىٰ الطُّغيَانِ
فَاستَحِي مِن نَظرِ الإِلٰهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ   الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي[1]

وَكَانَ ابنُ السَّمَّاكِ يُنشِدُ:

يَا مُدمِنَ الذَّنبِ أَمَا تَستَحِي وَاللهُ   فِي الخَلوَةِ ثَانِيكَا

عَن مُعَاوِيةَ بنِ حَيدةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قُلتُ: يَا رَسولَ اللهِ، عَورَاتُنَا مَا نَأتِي مِنهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: «**احفَظ عَورَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوجَتِكَ، أَو مَا مَلَكَت يَمِينُكَ**» قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا كَانَ القَومُ بَعضُهُم فِي بَعضٍ؟ قَالَ: «**إِنِ استَطَعتَ أَن لا يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ، فَلا يَرَينَّهَا**» قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا كَانَ أَحدُنَا خَالِياً؟ قَالَ: «**اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُستَحيَىٰ مِنْهُ مِنَ النَّاسِ**»[2].

فَقَد «أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ الرَّجُلَ: أَن يَستُرَ عَورَتَهُ، وَإِن كَانَ خَالِياً لا يَرَاهُ أَحَدٌ، أَدَباً مَعَ اللهِ، عَلَىٰ حَسَبِ القُربِ مِنْهُ، وَتَعظِيمِهِ وَإِجلالِهِ، وَشِدَّةِ الحَيَاءِ مِنْهُ، وَمَعرِفَةِ وَقَارِهِ»[3].

فَإِنَّ أَصلَ أَعمَالِ القُلُوبِ الحَيَاءُ، فَمَنِ «اتَّصَفَ بِالحَيَاءِ مِنَ اللهِ، فَقَدِ انصَبَغَ قَلبُهُ بِمَعرِفَةِ اللهِ وَحُبِّهِ، وَخَوفِهِ وَرَجَائِهِ، وَالتَّحَبُّبِ إِلَيهِ مَهمَا أَمكَنَ»[4].

* * *

(١) نونية القحطاني (ص٩٠).
(٢) رواه أبو داود (٤٠١٧)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٩٩).
(٣) تهذيب المدارج (ص٧١١).
(٤) المجموعة الكاملة (٥/ ٦٧)، للعلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ كَرَمِهِ: فَهُوَ الكَرِيمُ، الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي كَرَمِهِ. «وَاللهُ سُبحَانَهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالكَرَمِ، فَإِنَّ الكَرِيمَ هُوَ البَهِيُّ الكَثِيرُ الخَيرِ العَظِيمُ النَّفعِ، الَّذِي مِنْ شَأنِهِ أَن يُعطِيَ الكَثِيرَ بِسُهُولَةٍ وَيُسرٍ»[1]. فَهُوَ الَّذِي عَمَّ الجَمِيعَ بِعَطَائِهِ، وَبِكَرَمِهِ.

وَكَمَا أَنَّهُ هُوَ الكَرِيمُ، فَهُوَ أَيضاً الأَكرَمُ الَّذِي لا أَكرَمُ مِنْهُ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق: ٣ ـ ٤]، أَي: كَثِيرُ الصِّفَاتِ وَاسِعُهَا، كَثِيرُ الكَرَمِ وَالإِحسَانِ، وَاسِعُ الجُودِ، الَّذِي مِنْ كَرَمِهِ أَنْ عَلَّمَ أَنوَاعَ العُلُومِ.

فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ أَخرَجَ الإِنسَانَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، لا يَعْلَمُ شَيئاً، وَجَعَلَ لَهُ السَّمعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ، وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَ العِلْمِ. فَعَلَّمَهُ القُرآنَ، وَعَلَّمَهُ الحِكمَةَ، وَعَلَّمَهُ بِالقَلَمِ، الَّذِي بِهِ تُحفَظُ العُلُومُ، وَتُضبَطُ الحُقُوقُ، وَتَكُونُ رُسُلاً لِلنَّاسِ، تَنُوبُ مَنَابَ خِطَابِهِم. فَلِلَّهِ الحَمدُ وَالمِنَّةُ، الَّذِي أَنعَمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لا يَقدِرُونَ لَهَا عَلَىٰ جَزَاءٍ وَلا شُكُورٍ[2].

فَإِنَّ قَولَهُ: «**الأَكرَمُ**» يَقتَضِي أَنَّهُ أَفضَلُ مِن غَيرِهِ فِي الكَرَمِ، وَالكَرَمُ اسمٌ جَامِعٌ لِجَمِيعِ المَحَاسِنِ. فَيَقتَضِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِجَمِيعِ المَحَامِدِ، وَالمَحَامِدُ

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص١٤٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٣١١).

هِيَ صِفَاتُ الكَمَالِ، فَيقتَضِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِالإحسَانِ إِلىٰ الخَلقِ وَالرَّحمَةِ، وَأَحَقُّ بِالحِكمَةِ، وَأَحَقُّ بِالقُدرَةِ وَالعِلمِ وَالحَيَاةِ، وَغَيرِ ذَلِكَ»(١).

وَهُوَ سُبحَانَهُ أَخبَرَ أَنَّهُ «الأَكرَمُ؛ وَهُوَ الأَفعَلُ مِنَ الكَرَمِ ـ وَهُوَ كَثرَةُ الخَيرِ ـ وَلا أَحَدَ أَولىٰ بِذَلِكَ مِنْهُ سُبحَانَهُ؛ فَإِنَّ الخَيرَ كُلَّهُ بِيَدَيهِ، وَالخَيرُ كُلُّهُ مِنْهُ، وَالنِّعَمُ كُلُّهَا هُوَ مولاهَا، وَالكَمَالُ كُلُّهُ وَالمَجدُ كُلُّهُ لَهُ، فَهُوَ الأَكرَمُ حَقّاً»(٢).

فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ الأَكرَمُ وَحدَهُ، بِخِلافِ مَا لَو قَالَ «وَرَبُّكَ أَكرَمُ»، فَإِنَّهُ لا يَدُلُّ عَلَىٰ الحَصْرِ، وَقَولُهُ: (الأَكرَمُ) يَدُلُّ عَلَىٰ الحَصْرِ. وَلَم يَقُلْ: «الأَكرَمُ مِن كَذَا»، بَلْ أَطلَقَ الِاسمَ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ الأَكرَمُ مُطلَقاً غيرَ مُقَيَّدٍ. فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِغَايَةِ الكَرَمِ في نَفسِهِ الَّذِي لا شَيءَ فَوقَهُ وَلا نَقصَ فِيهِ؛ وَأَنَّهُ مُحسِنٌ إِلىٰ عِبَادِهِ، فَهُوَ مُستَحِقٌّ لِلحَمدِ لِمَحَاسِنِهِ وَإِحسَانِهِ.

قَالَ بَعضُ السَّلَفِ: لا يَهدِيَنَّ أَحَدُكُم للهِ مَا يَستَحِي أَن يُهدِيَهُ لِكَرِيمِهِ، فَإِنَّ اللهَ أَكرَمُ الكُرَمَاءِ. أَي هُوَ أَحَقُّ مِنْ كُلِّ شَيءٍ بِالإِكرَامِ، إِذ كَانَ أَكرَمَ مِن كُلِّ شَيءٍ.

وَهُوَ سُبحَانَهُ ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]؛ فَهُوَ المُستَحِقُّ لأَنْ يُجَلَّ، وَلأَن يُكرَمَ. وَالإِجلالُ يَتَضَمَّنُ التَّعظِيمَ، وَالإِكرَامُ يَتَضَمَّنُ الحَمدَ وَالمَحَبَّةَ(٣). فَلَهُ «الجَلالُ البَاهِرُ، وَالمَجدُ الكَامِلُ»(٤). الَّذِي يُعَظَّمُ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٦٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٩٣ ـ ٢٩٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص١١٧٢).

وَيُبَجَّلُ، وَيُجَلُّ لأَجلِهِ، وَالإِكرَامُ الَّذِي هُوَ سَعَةُ الفَضْلِ وَالجُودِ الَّذِي يُكرِمُ به أَولِيَاءَهُ، وَخَوَاصَّ خَلقِهِ الَّذِيْنَ يُجِلُّونَهَ، وَيُعَظِّمُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ، وَيُنِيبُونَ إِلَيهِ وَيَعبُدُونَهُ[(١)].

وَهُوَ سُبحَانَهُ يُجِلُّ نَفْسَهُ وَيُكْرِمُ نَفْسَهُ، وَالعِبَادُ لا يُحصُونَ إِجلَالَهُ وَإِكرَامَهُ[(٢)].

وَكَرَمُهُ سُبحَانَهُ لَيسَ لَهُ حُدُودٌ، وَهُوَ فوقَ كُلِّ كَرَمٍ، يُسأَلُ فَيُعطِي، كَمَا يُعطِي مِن غَيرِ سُؤَالٍ. فَهُوَ الكَرِيمُ بِجَزِيلِ عَطَائِهِ وَهِبَاتِهِ، فَيَدُهُ لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ تَفَضَّلَ عَلَينَا، فَكَرَّمَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ خَلقِهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] «وَهَذَا مِن كَرَمِهِ عَلَيهِم وَإِحسَانِهِ، الَّذِي لا يُقَادَرُ قَدرُهُ، حَيثُ كَرَّمَ بَنِي آدَمَ بِجَمِيعِ وُجُوهِ الإِكرَامِ، فَكَرَّمَهُم بِالعِلمِ وَالعَقلِ، وَإِرسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنزَالِ الكُتُبِ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الأَولِيَاءَ وَالأَصفِيَاءَ، وَأَنْعَمَ عَلَيهِم بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ[(٣)]. وَأَعظَمُ خِصَالِ التَّكرِيمِ العَقلُ، فَإِنَّ بِهِ تَسَلَّطُوا عَلَىٰ سَائِرِ الحَيَوَانَاتِ، وَمَيَّزُوا بَينَ الحَسَنِ وَالقَبِيحِ، وَتَوَسَّعُوا فِي المَطَاعِمِ وَالمَشَارِبِ، وَكَسَبُوا الأَموَالَ الَّتِي تَسَبَّبُوا بِهَا إِلَىٰ تَحصِيلِ أُمُورٍ لا يَقدِرُ عَلَيهَا الحَيَوَانُ، وَبِهِ قَدِرُوا عَلَىٰ تَحصِيلِ الأَبنِيَةِ الَّتِي تَمنَعُهُم مِمَّا يَخافُونَ، وَعَلَىٰ تَحصِيلِ الأَكسِيَةِ الَّتِي تَقِيهِمُ الحَرَّ وَالبَردَ»[(٤)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١١٦٨)، بتصرف.
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٢٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٨).
(٤) فتح القدير (٣/ ٣٥٠).

وَلَكِنَّ أَكثَرَ بَنِي آدَمَ غَرَّهُم كَرَمُ اللهِ، فَلَم يَقُومُوا بِحَقِّ التَّكرِيمِ، وَكَانَ حَقُّهُ أَن يَعبُدُوهُ وَيُطِيعُوهُ، فَإِذَا هُم يَعصُونَهُ وَيَكفُرُونَ بِهِ.

وَمِنْ كَرَمِهِ: أَنَّهُ يَغفِرُ لِلتَّائِبِينَ، وَيُعطِيهِم كَأَنَّهُم لَمْ يَعصُوهُ.

وَمِنْ كَرَمِهِ: أَنْ يُقَابِلَ الإِسَاءَةَ بِالإِحسَانِ، وَالذَّنبَ بِالغُفرَانِ، وَيَقبَلَ التَّوبَةَ، وَيَعفُوَ عَنِ التَّقصِيرِ[1].

وَمِنْ كَرَمِهِ: أَنَّهُ يُعطِي العَبدَ مَا سَأَلَهُ، وَيُعطِيهِ مَا لَمْ يَسأَلهُ.

وَمِنْ كَرَمِهِ: مَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَن تَوَضَّأَ في بَيتِهِ فَأَحسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَىٰ المَسجِدَ، فَهُوَ زَائِرُ اللهِ؛ وَحَقٌّ عَلَىٰ المَزُورِ، أَن يُكرِمَ الزَّائِرَ**»[2].

وَأَيُّ كَرَمٍ أَجَلُّ، وَأَكبَرُ، وَأَعظَمُ، مِنْ كَرَمِ الكَرِيمِ الوَهَّابِ المَنَّانِ، أَكرَمِ الأَكرَمِينَ!!

مَا أَجَلَّ هَذَا الكَرَمَ وَأَجمَلَهُ، وَأَدوَمَهُ، وَأَكمَلَهُ!!

وَمِنْ كَرَمِهِ: أَنَّهُ يَنزِلُ بِنفسِهِ «كُلَّ لَيلَةٍ إِلَىٰ السَّماءِ الدُّنيَا حِينَ يَبقَىٰ ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، وَيَسأَلُ عَن عِبَادِهِ وَيَستَعرِضُ حَوَائِجَهُم بِنَفسِهِ وَيَدعُوهُم إِلَىٰ سُؤَالِهِ، فَيَدعُو مُسِيئَهُم إِلَىٰ التَّوبَةِ، وَمَرِيضَهُم إِلَىٰ أَنْ يَسأَلَهُ أَن يَشفِيَهُ، وَفَقِيرَهُم إِلَىٰ أَنْ يَسأَلَهُ غِنَاهُ، وَذَا حَاجَتِهِم يَسْأَلُهُ قَضَاءَهَا»[3]. فَتَبَارَكَ الكَرِيمُ الوَهَّابُ.

---

(١) معارج القبول (١/ ٥١).

(٢) رواه الطبراني (٦١٣٩)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب» (٣٢٢).

(٣) طريق الهجرتين (ص٥٥٩).

وَمِنْ كَرَمِهِ: أَنَّهُ يَكسُو المُؤمِنَ ـ إِذَا عَزَّىٰ أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ ـ مِن حُلَلِ الكَرَامَةِ يَومَ القِيَامَةِ.

عَن عَمرِو بنِ حَزم رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ؛ إِلَّا كَسَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ مِنْ حُلَلِ الكَرَامَةِ يَومَ القِيَامَةِ**»(١).

وَمِنْ كَرَمِهِ: مَا قَالَهُ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَستَحيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيهِ يَدَيهِ، أَن يَرُدَّهُمَا صِفراً خَائِبَتَينِ**»(٢).

وَهَذَا فَضلٌ عَظِيمٌ، وَثَوَابٌ جَلِيلٌ، يَقتَضِي مِنْ كُلِّ رَاغِبٍ في الثَّوَابِ، وَطَامِعٍ فِيمَا عِندَ الكَرِيمِ الوَهَّابِ مِنَ الخَيرِ، أَن يَتَضَرَّعَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَيُلِحَّ بِالدُّعَاءِ، لِيَفُوزَ بِالأَجرِ العَظِيمِ، وَيَظفَرَ بِالخَيرِ الخَطِيرِ.

هَذَا هُوَ الإِفضَالُ وَالعَطَاءُ الفَيَّاضُ، هَذَا هُوَ الجُودُ وَالكَرَمُ.

فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ، وَأَجوَدُ الأَجوَدِينَ، وَأَكرَمُ الأَكرَمِينَ، الَّذِي لا نِهَايَةَ لِكَرَمِهِ، وَلا حَدَّ لِجُودِهِ، «البَرُّ اللَّطِيفُ، المُتَوَدِّدُ إِلَىٰ عِبَادِهِ بِأَنوَاعِ الإِحسَانِ، وَإِيصَالِهِ إِلَيهِم مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ بِكُلِّ نَوعٍ، لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحمَنُ الرَّحِيمُ»(٣) الَّذِي لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، وَصِفَاتِ أَفعَالِهِ، وَآثَارِ تِلكَ النُّعُوتِ، وَعَظَمَةِ المُلكِ وَالمَلَكُوتِ(٤).

---

(١) رواه ابن ماجه (١٦٠١)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣١١).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٩).

(٣) تهذيب المدارج (ص٢٧٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٠٤).

○ الآثَارُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإيمَانِ بِصِفَةِ الكَرَمِ:

١ ـ إنَّ اللهَ كَريمٌ يُكرِمُ من يستحِقُّ الإكرامَ منَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ، مُكْرَمٌ من قِبَلِ هؤلاءِ العِبادِ الخُلَّصِ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصَّالحينَ[١].

٢ ـ إنَّ المُؤمِنَ عِندَمَا يُدرِكُ اتِّصافَهُ تَعالَىٰ بِصِفَةِ الكَرَمِ، فَإنَّهُ يُنزِلُ حَوَائِجَهُ بِخَالِقِهِ وَمَولاهُ، لأَنَّهُ تَعَالَىٰ كَريمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ، كَثِيرُ الخَيرِ وَالعَطَاءِ؛ يَعُمُّ عَطَاؤُهُ المُحتَاجِينَ وَغيرَهُم، يُعطِي قَبلَ السُّؤَالِ، لا يُبَالِي مَنْ أَعطىٰ، وَلا إِلىٰ مَنْ أَحسَنَ، لِعَظِيمِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ.

وَإِذَا عَلِمَ العَبدُ بِأَنَّ رَبَّهُ كَرِيمٌ بَلْ أَكرَمُ الأَكرَمِينَ، فَيسأَلُهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كُلَّ شَيءٍ.

ثُمَّ يَجِبُ عَلَيهِ أَن يَتَّصِفَ بِالكَرَمِ، لأَنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الكُرَمَاءَ؛ وَلأَنَّ المُؤمِنَ كَرِيمٌ.

عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخلاقِ، وَيَكرَهُ سِفسَافَهَا**»[٢].

وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**المُؤمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، وَالفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ**»[٣].

وَذَلِكَ بِأَن يُعَوِّدَ نَفْسَهُ السَّخَاءَ، وَيَدَهُ العَطَاءَ، وَخُلُقَهُ المَكَارِمَ

---

(١) شرح العقيدة السفارينية (ص٢٨٦).
(٢) رواه الطبراني (٥٩٢٨)، وصححه الألباني ﵀ في «صحيح الجامع» (١٨٠١).
(٣) رواه أبو داود (٤٧٩٠)، وحسنه الألباني ﵀ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٧٦).

فَيسعىٰ في مَعَالِيهَا. فيُقَابِلَ المُحسِنَ بِأَكثَرَ مِنْ إِحسَانِهِ، وَإِذَا أَسدَىٰ إِلىٰ أَحَدٍ مَعرُوفاً صَغُرَ في نَفسِهِ، وَإِذَا أُسدِيَ إِلَيهِ كَبُرَ عِنْدَهُ، فَذَلِكَ رُكنٌ عَظِيمٌ مِن مَكَارِمِ الأَخلاقِ، وَبَابٌ لَطِيفٌ مِنَ الشُّكرِ.

٣ ـ أَعظَمُ أَسبَابِ الكَرَمِ التَّقوىٰ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

مَا أَنفَعَ هَذِهِ الآيَةَ وَأَجلَّ فَائِدَتَهَا! لِمَن كَانَ لَهُ قَلبٌ، أَو أَلقىٰ السَّمعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لا أَرَىٰ أَحداً يَعمَلُ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فَيَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ: أَنا أَكرَمُ مِنكَ! فَلَيسَ أَحَدٌ أَكرَمَ مِنْ أَحدٍ إِلَّا بِتَقوىٰ اللهِ»(١).

الكَرِيمُ حَقّاً هُوَ الكَرِيمُ عِندَ اللهِ وَأَكرَمُهُم عِندَ اللهِ أَتقَاهُم، وَهُوَ أَكثَرُهُم طَاعَةً، وَانكِفَافاً عَنِ المَعَاصِي، لا أَكثَرُهُم قَرَابَةً وَقَوماً، وَلا أَشرَفُهُم نَسَباً(٢).

فَإِنَّ ذَلِكَ لا يُوجِبُ كَرَماً، وَلا يُثبِتُ شَرَفاً، وَلا يَقتَضِي فَضلاً(٣).

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَكرَمُ النَّاسِ؟

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٩٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٦٩٣).

(٢) طريق الهجرتين (ص٢٨٠).

(٣) المصدر السابق.

قَالَ: «أَتقَاهُم»[١].

أَي: أَكرَمُ النَّاسِ أَتقَاهُم للهِ. وَهَذَا الجَوَابُ مُطَابِقٌ تَمَاماً لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فَاللهُ سُبحَانَهُ لا يَنظُرُ إِلىٰ النَّاسِ مِن حَيثُ النَّسَبِ، وَلا مِن حَيثُ الحَسَبِ، وَلا مِن حَيثُ المَالِ، وَلا مِن حَيثُ الجَمَالِ، وَإِنَّمَا يَنظُرُ سُبحَانَهُ إِلىٰ الأَعمَالِ.

«فَإِن كُنتَ تُرِيدُ أَن تَكُونَ كَرِيماً عِندَ اللهِ وَذَا مَنزِلَةٍ، فَعَلَيْكَ بِالتَّقوَىٰ. فَكُلَّمَا كَانَ الإِنسَانُ للهِ أَتقَىٰ، كَانَ عِنْدَهُ أَكْرَمَ. أَسأَلُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي وَإِيَّاكُم مِنَ المُتَّقِينَ»[٢].

وَعَن سَمُرَةَ بنِ جُندَبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الحَسَبُ: المَالُ، وَالكَرَمُ: التَّقوَىٰ**»[٣].

وَالمَعنىٰ: الحَسَبُ يَنحَصِرُ في المَالِ، وَهَذَا عِندَ النَّاسِ، إِذ لَا حَسَبَ لِلفَقِيرِ عِنْدَهُم، وَإِن بَلَغَ في الكَمَالِ أَيَّ مَبلَغٍ.

وَالكَرَمُ مُنحَصِرٌ في التَّقوىٰ، وَهَذَا عِندَ اللهِ، وَمَا عِندَ اللهِ خَيرٌ لِلأَبرَارِ، وَمَا عِندَ النَّاسِ يُعَدُّ مِنَ التَّفَاخُرِ في الأَشرَارِ[٤].

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَومَ فَتحِ مَكَّةَ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَد أَذهَبَ عَنكُم عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣١) (٩٥٦٤) وَاللفظ له، وَالبخاري (٣٣٥٣)، وَمسلم (٢٣٧٨).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٨٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٢٧١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٣٥).

(٤) طريق الهجرتين (ص٢٨٠).

وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، النَّاسُ رَجُلانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَىٰ اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَىٰ اللهِ. وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِن تُرَابٍ، قَالَ اللهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]»[1].

فَلا تَسأَل بَعدَ هَذا عَن ما يَحصُلُ لِلمُتَّقِينَ مِنَ الكَرِيمِ، وَمَا يَنالُهُم مِنَ الفوزِ وَالتَّكرِيمِ.

«وَمَا كانَ من عندِ اللهِ فَهوَ من عندِ الكريمِ العظيمِ، وَعطاءُ الكريمِ العظيمِ يكونُ عطاءً عظيماً»[2].

٤ ـ أَكرَمُ عِبادَةٍ عَلَىٰ اللهِ الدُّعَاءُ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَيسَ شَيءٌ أَكرَمَ عَلَىٰ اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ»**[3].

أَي: أَكثَرَ كَرامَةً، وَأَعلَىٰ قَدراً، وَأَرفَعَ دَرَجَةً، فَهُوَ أَحرَىٰ بِالاستِجَابَةِ وَالقَبُولِ.

فَقَد دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَىٰ كَرَمِ الدُّعَاءِ، وَعِظَمِ مَكَانَتِهِ عِندَ اللهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ، وَهُوَ لُبُّهَا وَرُوحُهَا، وَالعِبَادَةُ هِيَ الغَايَةُ الَّتِي خُلِقَ الخَلقُ لأَجلِهَا، وَأُوجِدُوا لِتَحقِيقِهَا، وَهِيَ المُوصِلَةُ إِلَىٰ كُلِّ خَيرٍ وَفَلاحٍ وَصَلاحٍ، وَسَعَادَةٍ دُنيَوِيَّةٍ وَأُخرَوِيَّةٍ. وَهِيَ أَشرَفُ عَطَايَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٧٠)، وَصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٠٨).

(٢) أحكام من القرآن الكريم (١/ ١٨٩)، للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٤٨).

الكَرِيم لِعِبَادِهِ. وَهِيَ أَشرَفُ اللَّذَّاتِ عَلَىٰ الإطلَاقِ. وَهِيَ إِن فَاتَت، فَاتَ كُلُّ خيرٍ، وَحَضَرَ كُلّ شَرٍّ. وَأَكرَمُهَا عِندَ اللهِ هُوَ الدُّعَاءُ.

٥ ـ الحُبُّ في اللهِ سَبَبٌ لإكرَامِ اللهِ:

عَن أَبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَحَبَّ عَبدٌ عَبداً للهِ عز وجل، إِلَّا أَكرَمَ رَبَّهُ عز وجل**»[(١)].

فَمَنْ أَحَبَّ عَبداً للهِ عز وجل، فَقَد عَظَّمَ اللهَ وَأَجَلَّهُ.

٦ ـ كَثرَةُ كَرَمِ اللهِ «تَستَدعِي الجِدَّ في طَاعَتِهِ، لا الانهِمَاكَ في عِصيَانِهِ اغتِرَاراً بِكَرَمِهِ»[(٢)]. فَمَن أَصَرَّ عَلَىٰ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، فَقَد هَانَ عَلَىٰ رَبِّهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨] «وَإِذَا هَانَ العَبدُ عَلَىٰ اللهِ، لَم يُكرِمهُ أَحَدٌ»[(٣)].

إِذَا كَانَ هَذا فِعلَ عَبدٍ بِنَفسِهِ ... فمن ذا لهُ مِن بَعدِ ذَلِكَ يُكرِمُ[(٤)]

فَلا إِكرَامَ أَعلَىٰ مِنْ إِكرَامِ اللهِ العَبدَ عَلَىٰ شُكرِهِ، وَلا إِهَانَةَ أَوضَعُ مِنْ إِهَانَتِهِ عَلَىٰ كُفرِهِ، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخُذلانِ وَالحِرمَانِ، وَطَاعَةِ الشَّيطَانِ وَغَضَبِ الرَّحمَنِ، وَنَسأَلُهُ التَّوفِيقَ وَالتَّسدِيدَ، وَالهِدَايَةَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرضَىٰ، إِنَّهُ كَرِيمٌ مَنَّانٌ[(٥)].

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٥٩)، وَحسَّنَ سندهُ الألباني رحمه الله في التعليق عَلَى «هداية الرواة» (٤/ ٤٤٤).

(٢) فتح البيان (١٥/ ١١٦).

(٣) الداء وَالدواء (ص٩٣).

(٤) المصدر السابق (ص١٢٣).

(٥) فتح الحميد في شرح التوحيد (٤/ ١٨١٨).

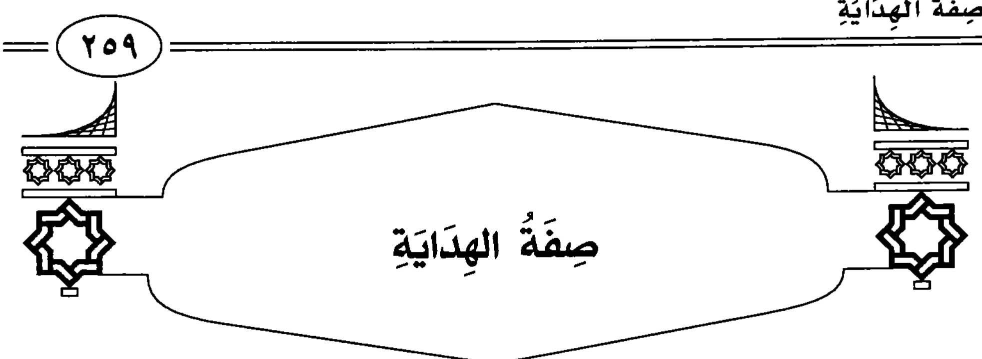

صِفَةُ الهِدَايَةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ هِدَايَتِهِ: فَهُوَ الهَادِي الَّذِي قَد كَمُلَ في هِدَايَتِهِ. قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وَكُلُّ عِلم فَلا بُدَّ لَهُ مِن هِدَايَةٍ، وَكُلُّ عَمَلٍ فَلا بُدَّ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ. فَالوَاجِبُ أَن يَكُونَ هُوَ أَصلَ كُلِّ هِدَايَةٍ، وَأَصلَ كُلِّ نُصرَةٍ وَقُوَّةٍ، وَلا يَستَهدِي العَبدُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلا يَستَنصِرُ إِلَّا إِيَّاهُ[1].

فَهُوَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذِي يَهدِي وَيُرشِدُ خَلقَهُ إِلىٰ جَمِيعِ المَنَافِعِ، وَإِلىٰ دَفعِ المَضَارِّ، وَيُعَلِّمُهُم مَا لا يَعلَمُونَ، وَيُوَفِّقُ الصَّالِحِينَ وَيُسَدِّدُهُم، وَيُلهِمُهُمُ التَّقوَىٰ، وَيَجعَلُ قُلُوبَهُم إِلَيهِ مُنِيبَةً، وَلأَوَامِرِهِ مُنقَادَةً. فَهُوَ سُبحَانَهُ الهَادِي الَّذِي يَهدِي القُلُوبَ إِلىٰ مَعرِفَتِهِ، وَيَهدِي النُّفُوسَ إِلىٰ طَاعَتِهِ.

وَالهِدَايَةُ: لَهَا أَربَعُ مَرَاتِب، وَهِيَ مَذكُورَةٌ في القُرآنِ:

المَرتَبَةُ الأُولىٰ: الهِدَايَةُ العَامَّةُ؛ وَهِيَ هِدَايَةُ كُلِّ مَخلُوقٍ مِنَ الحَيَوَانِ وَالآدَمِيِّ لِمَصَالِحِهِ الَّتِي بِهَا قَامَ أَمرُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلىٰ: ١ ـ ٣]؛

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٠).

فَذكَرَ أُموراً أَربَعَةً: الخَلقَ، وَالتَّسوِيَةَ، وَالتَّقدِيرَ، وَالهِدَايَةَ، فَسَوَّىٰ مَا خَلَقَهُ وَأتقَنَهُ وَأحكَمَهُ، ثُمَّ قَدَّرَ لَهُ أَسبَابَ مَصَالِحِهِ في مَعَاشِهِ وَتَقَلُّبَاتِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، وَهَدَاهُ إِلَيهَا.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، أَي: أَعطَىٰ كُلَّ شَيءٍ صُورَتَهُ الَّتِي لا يَشتَبِهُ فِيهَا بِغَيرِهِ، وَأَعطَىٰ كُلَّ عُضوٍ شَكْلَهُ وَهَيئَتَهُ، وَأَعطَىٰ كُلَّ مَوجُودٍ خَلقَهُ المُختَصَّ بِهِ، ثُمَّ هَدَاهُ إِلىٰ مَا خَلَقَهُ لَهُ مِنَ الأَعمَالِ، وَهَذِهِ الهِدَايَةُ تَعُمُّ هِدَايَةَ الحَيَوَانِ المُتَحَرِّكِ بِإِرَادَتِهِ إِلىٰ جَلْبِ مَا يَنفَعُهُ وَدَفعِ مَا يَضُرُّهُ، وَهِدَايَةَ الجَمَادِ المُسَخَّرِ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فَلَهُ هِدَايَةٌ تَلِيقُ بِهِ، كَمَا أَنَّ لِكُلِّ نَوعٍ مِنَ الحَيَوَانِ هِدَايَةً تَلِيقُ بِهِ، وَإِنِ اختَلَفَت أَنوَاعُهَا وَصُوَرُهَا، وَكَذَلِكَ لِكُلِّ عُضوٍ هِدَايَةٌ تَلِيقُ بِهِ، فَهَدَىٰ الرِّجلَينِ لِلمَشيِ، وَاليَدَينِ لِلبَطشِ وَالعَمَلِ، وَاللِّسَانَ لِلكَلامِ، وَالأُذُنَ لِلاستِمَاعِ، وَالعَينَ لِكَشفِ المَرئِيَّاتِ، وَكُلَّ عُضوٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَهَدَىٰ الزَّوجَينِ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ إِلىٰ الازدِوَاجِ وَالتَّنَاسُلِ وَتَربِيَةِ الوَلَدِ، وَهَدَىٰ الوَلَدَ إِلىٰ التِقَامِ الثَّدي عِندَ وَضعِهِ وَطَلَبِهِ. وَمَرَاتِبُ هِدَايَتِهِ ـ سُبحَانَهُ ـ لا يُحصِيهَا إِلَّا هُوَ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ.

وَهَدَىٰ النَّحلَ أَن تَتَّخِذَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِنَ الأَبنِيَةِ، ثُمَّ تَسلُكَ سُبُلَ رَبِّهَا مُذَلَّلَةً لَهَا لا تَستَعصِي عَلَيهَا، ثُمَّ تَأوِي إِلىٰ بُيُوتِهَا، وَهَدَاهَا إِلىٰ طَاعَةِ يَعسُوبِهَا وَاتِّبَاعِهِ وَالائتِمَامِ بِهِ أَينَ تَوَجَّهَ بِهَا، ثُمَّ هَدَاهَا إِلىٰ بِنَاءِ البُيُوتِ العَجِيبَةِ الصُّنعَةِ المُحكَمَةِ البِنَاءِ.

وَمَن تَأَمَّلَ بَعضَ هِدَايَتِهِ المَبثُوثَةِ في العَالَمِ، شَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الحَكِيمُ، وَانْتَقَلَ مِنْ مَعرِفَةِ

هَذهِ الهِدَايةِ إلىٰ إثبَاتِ النُّبوَّةِ بأَيسَرِ نَظَرٍ، وَأَوَّلِ وَهلَةٍ، وَأَحسَنِ طَرِيقٍ وَأَخصَرِهَا، وَأَبعَدِهَا مِن كُلِّ شُبهَةٍ، فَإِنَّ مَن لَم يُهمِل هَذِهِ الحَيَوانَاتِ سُدًىٰ وَلَم يَترُكهَا مُعَطَّلَةً، بَلْ هَدَاهَا إلىٰ هَذِهِ الهِدَايَةِ الَّتي تَعجَزُ عُقُولُ العُقَلاءِ عنهَا، كَيفَ يَلِيقُ بِهِ أَن يَترُكَ النَّوعَ الإنسَانِيَّ ـ الَّذِي هُوَ خُلاصَةُ الوُجُودِ، الَّذِي كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ خَلقِهِ ـ مُهمَلاً وَسُدًىٰ مُعَطَّلاً لا يَهدِيهِ إلىٰ أَقصَىٰ كَمَالاتِهِ وَأفضَلِ غَايَاتِهِ، بَلْ يَترُكُهُ مُعَطَّلاً لا يَأمُرُهُ وَلا يَنهَاهُ، وَلا يُثِيبُهُ وَلا يُعَاقِبُهُ، وَهَل هَذَا إلَّا مُنَافٍ لِحِكمَتِهِ، وَنِسبَةٌ لَهُ إلىٰ مَا لا يَلِيقُ بِجَلالِهِ؟! وَلِهَذَا أَنكَرَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن زَعَمَهُ وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنهُ، وَبيَّنَ أَنَّهُ يَستَحِيلُ نِسبَةُ ذَلِكَ إلَيهِ، وَأَنَّهُ يَتَعَالَىٰ عَنهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦]؛ فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَن هَذَا الحُسبَانِ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مُستَقِرٌّ بُطلانُهُ في الفِطَرِ السَّلِيمَةِ وَالعُقُولِ المُستَقِيمَةِ.

وَهَذَا أَحَدُ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ إثبَاتِ المَعَادِ بِالعَقلِ، وَأَنَّهُ مِمَّا تَظَاهَرَ عَلَيهِ العَقلُ وَالشَّرعُ، كَمَا هُوَ أَصَحُّ الطَّرِيقَينِ في ذَلِكَ، وَمَن فَهِمَ هَذَا فَهِمَ سِرَّ اقتِرَانِ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، بقَولِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٧]؛ وَكَيفَ جَاءَ ذَلِكَ في مَعرِضِ جَوَابِهِم عَن هَذا السُّؤَالِ وَالإشَارَةِ بِهِ إلىٰ إثبَاتِ النُّبُوَّةِ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يُهمِلْ أَمرَ كُلِّ دَابَّةٍ في الأَرضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيهِ، بَلْ جَعَلَهَا أُمَماً وَهَدَاهَا إلىٰ غَايَاتِهَا وَمَصَالِحِهَا، كَيفَ لا يَهدِيكُم إلىٰ كَمَالِكُم وَمَصَالِحِكُم؟! فَهَذِهِ أَحَدُ أَنوَاعِ الهِدَايَةِ وَأَعَمُّهَا.

المَرتَبَةُ الثَّانِيَةُ: هِدَايَةُ البَيَانِ وَالدَّلالَةِ وَالتَّعرِيفِ لِنَجدَيِ الْخَيرِ وَالشَّرِّ، وَطَرِيقَيِ النَّجَاةِ وَالهَلاكِ؛ وَهَذِهِ المرتَبَةُ هِيَ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خَلقِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، يَعنِي بَيَّنَّا لَهُم وَأَرشَدنَاهُم، وَدَلَلْنَاهُم وَعَرَّفنَاهُم، فَآثَرُوا الضَّلالَةَ وَالعَمَىٰ. فَهَذَا هُدًىٰ بَعدَ البَيَانِ وَالدَّلالَةِ. وَهَذِهِ المَرتَبَةُ هِيَ الَّتِي، لا يُعَذِّبُ أَحداً وَلا يُضِلُّهُ، إِلَّا بَعدَ وُصُولِهِ إِلَيهَا. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]. فَهَذَا الإِضلَالُ عُقُوبَةٌ مِنْهُ لَهُم، حِينَ بَيَّنَ لَهُم، فَلَم يَقبَلُوا ما بَيَّنَهُ لَهُم، وَلَم يَعمَلُوا بِهِ. فَعَاقَبَهُم بِأَن أَضَلَّهُم عَنِ الهُدَىٰ، وَمَا أَضلَّ اللهُ سُبحَانَهُ أَحَداً قَطُّ إِلَّا بَعدَ هَذَا البَيَانِ.

المَرتَبَةُ الثَّالِثَةُ: هِدَايَةُ التَّوفِيقِ وَالإِلهَامِ؛ وَهَذِهِ الهِدَايَةُ الَّتِي لا يَقدِرُ عَلَيهَا إِلَّا اللهُ، وَهِيَ المَذكُورَةُ في قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وَفِي قَولِهِ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وَفِي قَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَن يَهدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلا هَادِيَ لَهُ**»(١)، وَفِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]؛ فَنَفَىٰ عَنْهُ هَذِهِ الهِدَايَةَ، وَأَثبَتَ لَهُ هِدَايَةَ الدَّعوَةِ وَالبَيَانِ في قَولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]، فَعَمَّ بِالدَّعوَةِ خَلقَهُ، وَخَصَّ بِالهِدَايَةِ مَن شَاءَ مِنْهُم.

---

(١) رواه مسلم (٨٦٨).

المَرتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الهِدَايَةُ يَومَ القِيَامَةِ إِلىٰ طَرِيقِ الجَنَّةِ. وَهُوَ الصِّرَاطُ المُوصِلُ إِلَيهَا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩]، وَقَالَ أَهلُ الجَنَّةِ فِيهَا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]، بِأَن مَنَّ عَلَيهِم حَتَّىٰ أَوصَلَهُم إِلىٰ هَذِهِ الدَّارِ، فَنِعمَ الرَّبُّ الكَرِيمُ، الَّذِي ابتَدَأَهُمُ النِّعَمَ، وَأَسدَىٰ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، مَا لا يُحصِيهِ المُحصُونَ، وَلا يَعُدُّهُ العَادُّونَ، وَلَولاَ هِدَايَتُهُ لَهُم لَمَا اهتَدَوْا.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«كُلُّ أَهلِ النَّارِ يَرَىٰ مَقعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: لَو أَنَّ اللهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ عَلَيهِم حَسرَةً، وَكُلُّ أَهلِ الجَنَّةِ يَرَىٰ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: لَولاَ أَنَّ اللهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ شُكراً،** ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]»(١).

وَعَنْ أَبي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَخلُصُ المُؤمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحبَسُونَ عَلَىٰ قَنطَرَةٍ بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقتَصُّ لِبَعضِهِم مِن بَعضٍ مَظَالِمُ كَانَت بَينَهُم في الدُّنيَا؛ حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُم في دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ، لأَحَدُهُم أَهدَىٰ بِمَنزِلِهِ في الجَنَّةِ، مِنْهُ بِمَنزِلِهِ كَانَ في الدُّنيَا»**(٢).

فَمَنْ هُدِيَ في هَذِهِ الدَّارِ إِلىٰ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيمِ، الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٢٠٣٤).
(٢) رواه البخاري (٦٥٣٥).

رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، هُدِيَ هُنَاكَ إِلىٰ الصِّرَاطِ المُستَقِيم، المُوصِلِ إِلىٰ جَنَّتِهِ وَدَارِ ثَوَابِهِ. وَعَلَىٰ قَدْرِ ثُبُوتِ قَدَمِ العَبْدِ عَلَىٰ هَذَا الصِّرَاطِ الَّذِي نَصَبَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، يَكُونُ ثُبُوتُ قَدَمِهِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ المَنصُوبِ عَلَىٰ مَتنِ جَهَنَّمَ. وَعَلَىٰ قَدرِ سَيرِهِ عَلَىٰ هَذَا الصِّرَاطِ، يَكُونُ سَيرُهُ عَلَىٰ ذَاكَ الصِّرَاطِ. فَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَشَدِّ الرِّكَابِ، وَمِنْهُم مَن يَسعَىٰ سَعياً، وَمِنْهُم مَن يَمشِي مَشياً، وَمِنْهُم مَن يَحبُو حَبواً، وَمِنْهُمُ المَخدُوشُ المُسَلَّمُ، وَمِنْهُمُ المُكَردَسُ فِي النَّارِ. فَلْيَنظُرِ العَبدُ سَيرَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الصِّرَاطِ مِنْ سَيرِهِ عَلَىٰ هَذَا، حَذوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، جَزَاءً وِفَاقاً: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات: ٣٩][1].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الهِدَايَةِ:

الهِدَايَةُ إِلىٰ الصِّرَاطِ المُستَقِيم أَجَلُّ مَطلُوبٍ وَأَعظَمُ مَسؤُولٍ، وَنَيلُهُ أَشرَفُ المَوَاهِبِ. وَهِيَ أَكبَرُ نِعمَةٍ يُنعِمُ بِهَا الهَادِي سُبحَانَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ، وَأَجَلُّ مِنَنِهِ الوَاصِلَةِ إِلَينَا. فَعَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ الهِدَايَةَ إِلىٰ الصِّرَاطِ المُستَقِيم. وَلِهَذَا فَإِنَّ العَبدَ فِي اليَومِ وَاللَّيلَةِ، يَسْأَلُ اللهَ الهِدَايَةَ إِلىٰ الصِّرَاطِ المُستَقِيم، كَمَا فِي سُورَةِ الفَاتِحَةِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]، وَيَشهَدُ مِنَ «**اهدِنَا**» عَشْرَ مَرَاتِبَ، إِذَا اجتَمَعَت حَصَلَت لَهُ الهِدَايَةُ.

المَرتَبَةُ الأُولَىٰ: هِدَايَةُ العِلمِ وَالبَيَانِ. فَيَجعَلُهُ عَالِماً بِالحَقِّ مُدرِكاً لَهُ.

---

(١) تهذيب المدارج (ص٣١ ـ ٣٢).

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُقدِرَهُ عَلَيهِ. وَإِلَّا فَهُوَ غَيرُ قَادِرٍ بِنفسِهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يَجعَلَهُ مُرِيداً لَهُ.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلاً لَهُ.

الخامسةُ: أَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيَستَمِرَّ بِهِ إِلىٰ الوَفَاةِ.

السَادِسَةُ: أَنْ يَصرِفَ عَنْهُ المَوَانِعَ وَالعَوَارِضَ المُضَادَّةَ لَهُ[1]. وَمَعلُومٌ أَنَّ وَسَاوِسَ العَبدِ وَخَوَاطِرَهُ، وَشَهَوَاتِ الغَيِّ في قَلبِهِ، كُلٌّ مِنْهَا مَانِعٌ مِنْ وُصُولِ أَثَرِ الهِدَايَةِ إِلَيهِ، فَإِنْ لَم يَصرِفهَا اللهُ عَنْهُ لَم يَهتَدِ هُدًىٰ تَامًّا، فَحَاجَتُهُ إِلىٰ هِدَايَةِ اللهِ لَهُ مَقرُونَةٌ بِأَنْفَاسِهِ، وَهِيَ أَعظَمُ حَاجَةٍ لِلْعَبْدِ[2].

السَّابِعَةُ: أَنْ يَهدِيَهُ في الطَّرِيقِ نَفسِهَا هِدَايَةً خَاصَّةً، أَخَصَّ مِنَ الأُولَىٰ. فَإِنَّ الأُولَىٰ هِدَايَةٌ إِلىٰ الطَّرِيقِ إِجمَالاً، وَهَذِهِ هِدَايَةٌ فِيهَا وَفي مَنَازِلِهَا تَفصِيلاً[3].

فَإِنَّ العَبدَ قَد يَهتَدِي إِلىٰ طَرِيقٍ قَصدَهُ، تَتَمَيَّزُ لَهُ الطُّرُقُ عَن غَيرِهَا، وَلا يَهتَدِي إِلىٰ تَفَاصِيلِ سَيرِهِ فِيهَا، وَلِأَوقَاتِ المَسِيرِ مِن غَيرِهِ، وَزَادِ المَسِيرِ، وَآفَاتِ الطُّرُقِ[4].

الثَّامِنَةُ: أَنْ يُشهِدَهُ المَقصُودَ في الطَّرِيقِ، وَيُنَبِّهَهُ عَلَيهِ. فَيَكُونَ مُطَالِعاً لَهُ في سَيرِهِ، وَمُلتَفِتاً إِلَيهِ.

---

(١) تهذيب المدارج (ص١٠٥١).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٦).
(٣) تهذيب المدارج (ص١٠٥١).
(٤) شفاء العليل (ص٢٦٨).

التَّاسِعَةُ: أَنْ يُشهِدَهُ فَقرَهُ وَضَرُورَتَهُ إِلىٰ هَذِهِ الهِدَايَةِ، فَوقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ. في ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، في جَمِيعِ مَا يَأتِيهِ وَيَذَرُهُ. وَيَدخُلُ في هَذا أَنْ يَهدِيَ غَيرَهُ وَيُعَلِّمَهُ، فَيَصِيرَ هَادِياً مَهدِيّاً، كَمَا في دُعَاءِ النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجعَلنَا هُدَاةً مُهتَدِينَ**»[1].

يَعنِي نَهدِي غَيرَنَا وَنَهتَدِي في أَنْفُسِنَا، وَهَذِهِ أَفْضَلُ الدَّرَجَاتِ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ هَادِياً مَهدِيّاً. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤][2].

العاشِرَةُ: أَنْ يُشهِدَهُ طَرِيقَ المُنحَرِفِينَ عَنِ الهِدَايَةِ. وَهُمَا: طَرِيقُ أَهلِ الغَضَبِ، الَّذِينَ عَدَلُوا عَنِ اتِّبَاعِ الحَقِّ قَصداً وَعِنَاداً؛ وَطَرِيقُ أَهلِ الضَّلالِ، الَّذِينَ عَدَلُوا عَنهَا جَهلاً وَضَلالاً.

وَلَقَد كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَسأَلُ رَبَّهُ الهِدَايَةَ، وَيَحُثُّ أَصحَابَهُ عَلَىٰ سُؤَالِ اللهِ الهِدَايَةَ.

وَلِيَتَأَمَّلِ القَارِئُ اللَّبِيبُ، الأَحَادِيثَ التَّالِيَةَ:

١ ـ عَنْ أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ ـ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَن هَدَيتُهُ، فَاستَهدُونِي أَهدِكُم**»[3].

أَي: اطلُبُوا مِنِّي الهِدَايَةَ، أُوَفِّقْكُم إِلىٰ سُلُوكِ طَرِيقِهَا.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه النسائي (١٣٠٥و١٣٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١٢٣٧و١٢٣٨).

(٢) شرح حديث عمار بن ياسر (ص٤٩).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

٢ ـ عَنِ الحَسَنِ بنِ عَليٍّ رضي الله عنهما قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ في قُنُوتِ الوِتْرِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعطَيتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَىٰ عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيتَ، وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيتَ**»[١].

فَقَولُهُ: «**اهدِنِي**» سُؤالٌ لِلهِدَايَةِ المُطْلَقَةِ، الَّتِي لا يَتَخَلَّفُ عَنهَا الاهتِدَاءُ.

وَقَولُهُ: «**فِيمَن هَدَيتَ**» فِيهِ فَوَائِدُ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ سُؤالٌ لَهُ أَن يُدخِلَهُ في جُملَةِ المُهتَدِينَ، وَزُمرَتِهِم وَرِفقَتِهِم.

الثَّانِيَةُ: تَوَسُّلٌ إِلَيهِ بِإِحْسَانِهِ وَإِنعَامِهِ، أَي إِنَّكَ قَد هَدَيتَ مِنْ عِبَادِكَ بَشَراً كَثِيراً فَضْلاً مِنكَ وَإِحسَاناً، فَأَحسِنْ إِلَيَّ كَمَا أَحسَنتَ إِلَيهِم، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِلمَلِكِ: اجعَلنِي مِن جُملَةِ مَن أَغنَيتَهُ وَأَعطَيتَهُ وَأَحسَنتَ إِلَيهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَا حَصَلَ لأُولَئِكَ مِنَ الهُدَىٰ، لَمْ يَكُن مِنْهُم وَلا بِأَنفُسِهِم، وَإِنَّمَا كَانَ مِنكَ، فَأَنْتَ الَّذِي هَدَيتَهُم[٢].

٣ ـ عَن عَليٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُل: اللَّهُمَّ! اهدِنِي وَسَدِّدنِي، وَاذْكُر بِالهُدَىٰ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهمِ**»[٣].

---

(١) رواه أبو داود (١٤٢٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٣٩٢).

(٢) شفاء العليل (ص٣٣٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧٢٥).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا مِن أَبلَغِ التَّعلِيمِ وَالنُّصحِ، حَيثُ أَمَرَهُ أَن يَذكُرَ إِذَا سَأَلَ اللهَ الهُدَىٰ إِلىٰ طَرِيقِ رِضَاهُ وَجَنَّتِهِ، كَونَهُ مُسَافِراً، وَقَدْ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، وَلا يَدرِي أَينَ يَتَوَجَّهُ، فَطَلَعَ لَهُ رَجُلٌ خَبِيرٌ بِالطَّرِيقِ، عَالِمٌ بِهَا، فَسَأَلَهُ أَن يَدُلَّهُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، فَهَكَذَا شَأنُ طَرِيقِ الآخِرَةِ، تَمثِيلاً لَهَا بِالطَّرِيقِ المَحسُوسِ لِلمُسَافِرِ؛ وَحَاجَةُ المُسَافِرِ إِلىٰ اللهِ سُبحَانَهُ، إِلىٰ أَن يَهدِيَهُ تِلكَ الطَّرِيقَ، أَعظَمُ مِن حَاجَةِ المُسَافِرِ إِلىٰ بَلَدٍ، إِلىٰ مَن يَدُلُّهُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ المُوصِلِ إِلَيهَا.

وَكَذَلِكَ السَّدَادُ ـ وَهُوَ إِصَابَةُ القَصْدِ قَولاً وَعَمَلاً ـ فَمَثَلُهُ مَثَلُ رَامِي السَّهمِ إِذَا وَقَعَ سَهْمُهُ وَأَصَابَ، وَإِذَا لَم يَقَع بَاطِلاً؛ فَهَكَذَا المُصِيبُ لِلْحَقِّ فِي قَولِهِ وَعَمَلِهِ، بِمَنْزِلَةِ المُصِيبِ فِي رَمْيِهِ[1].

٤ ـ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدىٰ وَالتُّقىٰ وَالعَفَافَ وَالغِنَىٰ**»[2].

٥ ـ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بنِ عبدِ الرَّحمَنِ بنِ عوفٍ قَالَ: سَأَلتُ عَائِشَةَ أُمَّ المُؤمِنِينَ: بِأَيِّ شَيءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيلِ؟ قَالَت: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيلِ افتَتَحَ صَلاتَهُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ؛ أَنْتَ تَحكُمُ بَينَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ، اهدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذنِكَ، إِنَّكَ تَهدِي مَن تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ**»[3].

---

(١) إغاثة اللَّهفان (ص٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) رواه مسلم (٧٧٠).

ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ في الدُّعَاءِ العَظِيم القَدرِ، مِن أَوصَافِ اللهِ وَرُبُوبيَّتِهِ مَا يُنَاسِبُ المطْلُوبَ، فَإِنَّ فطرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ تَوَسُّلٌ إِلىٰ اللهِ بِهَذا الوَصفِ في الهِدَايَةِ لِلفِطرَةِ الَّتي ابتَدَأَ الخَلقَ عَلَيهَا، فَذَكَرَ كَونَهُ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالمَطْلُوبُ تَعْلِيمُ الحَقِّ، وَالتَّوفِيقُ لَهُ، فَذَكَرَ عِلمَهُ سُبحَانَهُ بِالغَيبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَنَّ مَنْ هُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ جَدِيرٌ أَنْ يَطلُبَ مِنْهُ عَبدُهُ أَنْ يُعَلِّمَهُ، وَيُرشِدَهُ وَيَهدِيَهُ؛ وَهُوَ بِمَنزِلَةِ التَّوَسُّلِ إِلىٰ الغَنِيِّ بِغِنَاهُ وَسَعَةِ كَرَمِهِ أَن يُعطِيَ عَبدَهُ شَيئاً مِنْ مَالِهِ، وَالتَّوَسُّلِ إِلىٰ الغَفُورِ بِسَعَةِ مَغْفِرَتِهِ أَنْ يَغفِرَ لِعَبدِهِ، وَبِعَفوِهِ أَن يَعفُوَ عَنهُ، وَبِرَحْمَتِهِ أَنْ يَرْحَمَهُ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ.

وَذَكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ تَعَالَىٰ لِجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسرَافِيلَ؛ وَهَذَا ـ وَاللهُ أَعلَمُ ـ لأَنَّ المَطلُوبَ هُدًىٰ يَحيَا بِهِ القَلبُ؛ وَهَؤُلاءِ الثَّلاثَةُ الأَملاكُ، قَد جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَيدِيهِم أَسبَابَ حَيَاةِ العِبَادِ:

أَمَّا جِبرِيلُ: فَهُوَ صَاحِبُ الوَحيِ الَّذِي يُوحِيهِ اللهُ إِلىٰ الأَنبِيَاءِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِلحَيَاةِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ.

وَأَمَّا مِيكَائِيلُ: فَهُوَ المُوَكَّلُ بِالقَطرِ، الَّذِي بِهِ سَبَبُ حَيَاةِ كُلِّ شَيءٍ.

وَأَمَّا إِسرَافِيلُ: فَهُوَ الَّذِي يَنفُخُ في الصُّورِ، فَيُحيِي اللهُ المَوتَىٰ بِنَفخَتِهِ؛ فَإِذَا هُم قِيَامٌ لِرَبِّ العَالَمِينَ(١).

فَالتَّوَسُّلُ إِلىٰ اللهِ سُبحَانَهُ بِرُبُوبِيَّةِ هَذِهِ الأَروَاحِ العَظِيمَةِ المُوَكَّلَةِ بِالحَيَاةِ، لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ في حُصُولِ المَطلُوبِ. وَاللهُ المُستَعَانُ(٢).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٢) شرح الطحاوية (١/ ٢٤٨).

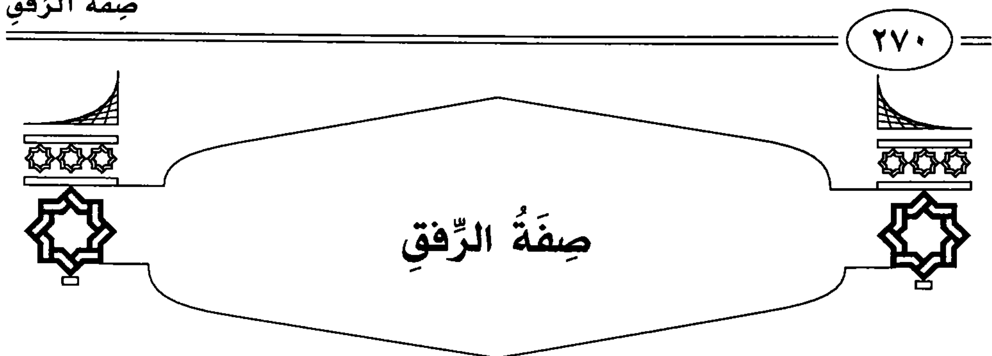

صِفَةُ الرِّفقِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ رِفقِهِ: فَهُوَ رَفِيقٌ، يُحِبُّ تَركَ العَجَلَةِ في الأَعمَالِ وَالأُمورِ «رَفِيقٌ في أَفعَالِهِ وَشَرعِهِ. وَمَن تَأَمَّلَ مَا احتَوَىٰ عَلَيهِ شَرعُهُ مِنَ الرِّفقِ، وَشَرعِ الأَحكَامِ شَيئاً بَعدَ شَيءٍ، وَجَرَيَانِهَا عَلَىٰ وَجهِ السَّدَادِ وَاليُسرِ، وَمُنَاسَبَةِ العِبَادِ وَمَا في خَلقِهِ مِنَ الحِكمَةِ؛ إِذ خَلَقَ الخَلْقَ أَطوَاراً، وَنَقَلَهُم مِنْ حَالَةٍ إِلىٰ أُخرَىٰ بِحِكَمٍ وَأَسرَارٍ، لا تُحِيطُ بِهَا العُقُولُ»[1].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الرَّفيقُ يُحِبُّ أَهلَ الرِّفقِ بَلْ   يُعطِيهِمُ بِالرِّفقِ فَوقَ أَمانِ[2]

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الرِّفقِ:

الحَثُّ عَلَىٰ التَّخَلُّقِ بِخُلُقِ الرِّفقِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الأَخلَاقِ وَأَجَلِّهَا، وَأَعظَمِهَا قَدراً، وَأَكثَرِهَا نَفعاً. فَلا يَكُونُ في شَيءٍ إِلَّا زَيَّنَهُ وَجَمَّلَهُ وَحَسَّنَهُ. وَلا يُنزَعُ مِن شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ وَعَابَهُ وَقَبَّحَهُ.

وَمَنْ آتَاهُ اللهُ الرِّفقَ فَقَد أَعطَاهُ خَيراً عَظِيماً قَدرُهُ، جَلِيلاً خَطَرُهُ، مِنَ الثَّنَاءِ الحَسَنِ وَالتَّوفِيقِ وَصَلاحِ البَالِ، وَنَيلِ المَطَالِبِ وَتَحقِيقِ

---

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٣٨٣).

(٢) الكافية الشافية (ص٢١٠).

المَآرِبِ، وَفي الآخِرَةِ أَجرٌ عَظِيمٌ وَثَوَابٌ جَزِيلٌ.

ذَلِكَ بِأَنَّ «المُتَأَنِّيَ الَّذِي يَأتِي الأُمُورَ بِرِفقٍ وَسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، اتِّبَاعاً لِسُنَنِ اللهِ في الكَونِ وَاتِّبَاعاً لِنَبِيِّهِ ﷺ، فَإِنَّ مَنْ هَذَا هَديُهُ وَطَرِيقُهُ تَتَيَسَّرُ لَهُ الأُمُورُ، وَبِالأَخَصِّ الَّذِي يَحتَاجُ إِلَىٰ أَمرِ النَّاسِ وَنَهيِهِم وَإِرشَادِهِم، فَإِنَّهُ مُضطَرٌّ إِلَىٰ الرِّفقِ وَاللِّينِ»(١).

وَكَمَا قِيلَ:

قَد يُدرِكُ المُتَأَنِّي بَعضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُستَعجِلِ الزَّلَلُ

وَكَذَلِكَ مَن آذَاهُ الخَلقُ بِالأَقوَالِ البَشِعَةِ وَصَانَ لِسَانَهُ عَنْ مُشَاتَمَتِهِم، وَدَافَعَ عَن نَفسِهِ بِرِفقٍ وَلِينٍ، اندَفَعَ عَنْهُ مِنْ أَذَاهُم مَا لا يَندَفِعُ بِمُقَابَلَتِهِم بِمِثلِ مَقَالِهِم وَفِعَالِهِم، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَد كَسَبَ الرَّاحَةَ وَالطُّمَأنِينَةَ وَالرَّزَانَةَ وَالحِلمَ(٢). فَمَا أَطيَبَ عَيشَهُ! وَمَا أَنعَمَ بَالَهُ! وَمَا أَقَرَّ عَينَهُ(٣).

فَيَنبَغِي عَلَىٰ الإِنسَانِ أَن يَكُونَ رَفِيقاً في جَمِيعِ شُؤُونِهِ، رَفِيقاً في مُعَامَلَةِ أَهلِهِ، وَفي مُعَامَلَةِ إِخوَانِهِ، وَفي مُعَامَلَةِ أَصدِقَائِهِ، وَفي مُعَامَلَةِ عَامَّةِ النَّاسِ، يَرفُقُ بِهِم(٤). وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالُهُ، فَالنُّفُوسُ تَرتَاحُ لَهُ، وَالقُلُوبُ تَأنَسُ بِهِ، وَالصُّدُورُ تَنشَرِحُ لَهُ.

وَبِالجُملَةِ، فَإِنَّ الرِّفقَ لَهُ التَّأثِيرُ العَظِيمُ في حُصُولِ المُرَادِ مِن

---

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٤٥).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٤٥).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٩٦).
(٤) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٠٣).

أَقوَالٍ وَأَفعَالٍ، وَلَهُ الوَقعُ الكَبِيرُ في التَّحَبُّبِ إِلىٰ النَّاسِ، وَإِزَالَةِ مَا في قُلُوبِهِم مِنْ بُغضٍ وَغِلٍّ وَحِقدٍ، وَجَلبِ خَوَاطِرِهِم إِلىٰ مَطلُوبِكَ الدِّينِيِّ وَالدُّنيَوِيِّ.

وَهَذِهِ بَعضُ الأَحَادِيثِ فِي فَضلِ الرِّفقِ، وَالحَثِّ عَلَىٰ التَّخَلُّقِ بِهِ، وَذَمِّ العُنفِ، وَأَنَّ الرِّفقَ سَبَبُ كُلِّ خَيرٍ.

١ ـ عَن أَبي الدَّردَاءِ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أُعطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفقِ، فَقَد أُعطِيَ حَظَّهُ مِنَ الخَيرِ؛ وَمَن حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفقِ، فَقَد حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الخَيرِ**»[1].

٢ ـ عَن جَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يُحرَمِ الرِّفقَ، يُحرَمِ الخَيرَ**»[2].

٣ ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ عز وجل بِأَهلِ بَيتٍ خَيراً، أَدخَلَ عَلَيهِمُ الرِّفقَ**»[3].

٤ ـ عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا أُعطِيَ أَهلُ بَيتٍ الرِّفقَ إِلَّا نَفَعَهُم، وَلا مُنِعُوهُ إِلَّا ضَرَّهُم**»[4].

٥ ـ عَنْ عَائِشَةَ زَوجِ النَّبيِّ ﷺ: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرِّفقَ لا**

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٣)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٨٢).

(٢) رواه مسلم [٧٦ ـ (٢٥٩٢)].

(٣) رواه أحمد (٦/ ٧١)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٢٦٦٩).

(٤) رواه الطبراني (١٣٢٦١)، وَقَالَ الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٢٦٧١): حسن صحيح.

يَكُونُ في شَيءٍ إلَّا زَانَهُ، وَلا يُنزَعُ مِنْ شَيءٍ إلَّا شَانَهُ»[١].

٦ ـ عَن أَبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الرِّفقَ وَيَرضَاهُ، وَيُعِينُ عَلَيهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَىٰ العُنفِ**»[٢].

٧ ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعطِي عَلَىٰ الرِّفقِ مَا لا يُعطِي عَلَىٰ العُنفِ، وَمَا لا يُعطِي عَلَىٰ مَا سِوَاهُ**»[٣].

٨ ـ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»[٤].

فَيَنبَغِي لِكُلِّ مُسلِمٍ أَن يَكُونَ رَفِيقاً في أُمُورِهِ وَجَمِيعِ أَحوَالِهِ، غيرَ عَجِلٍ فِيهَا، فَإِنَّ العَجَلَةَ مِنَ الشَّيطَانِ، وَلا تُفَارِقُهُ الخَيبَةُ وَالخُسرَانُ.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيطَانِ**»[٥].

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَن يُرَاجِعَ نَفْسَهُ أَرَفِيقٌ هُوَ أَم عَنِيفٌ؟ في البَيتِ وَالمَسجِدِ وَالسُّوقِ وَالشَّارِعِ وَالعَمَلِ وَنحوِ ذَلِكَ.

وَفَّقَ اللهُ الجَمِيعَ لأَحْسَنِ الأَخلاقِ، فَإِنَّهُ لا يَهدِي لأَحسَنِهَا إلَّا هُوَ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه الطبراني (٧٤٧٧)، وَصححه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب» (٢٦٦٨).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٤) رواه أحمد (٣/ ١٩٩)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٢٢٤٦).

(٥) رواه أبو يَعْلَى (٤٢٥٦)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب» (١٥٧٢).

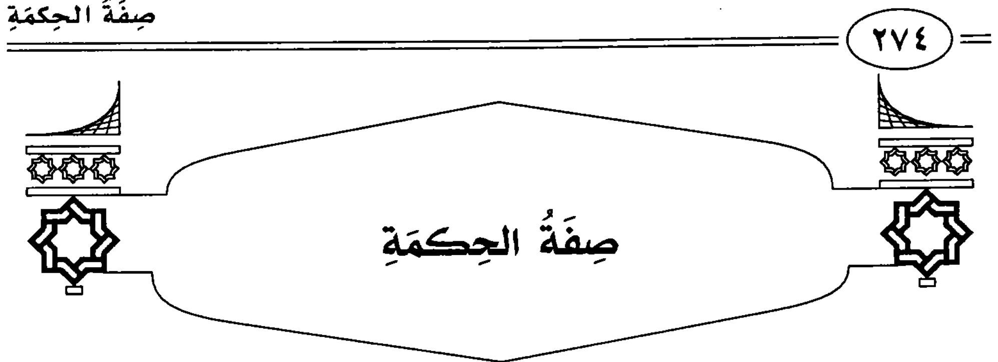

صِفَةُ الحِكمَةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حِكمَتِهِ: فَهُوَ الحَكِيمُ الَّذِي قَد كَمُلَ في حِكمَتِهِ؛ فهوَ ذو الحِكمةِ، أي: ذو الإتقانِ، في كُلِّ مَا خَلَقَ، وَكُلِّ ما شَرَعَ. وَهُوَ سبحانهُ أَحكَمُ الحَاكِمِينَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التِّين: ٨] «وَالحَكِيمُ يَتضَمَّنُ حُكمَهُ وَعِلمَهُ وَحِكمَتَهُ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفعَلُهُ، فَإِذَا أَمَرَ بِأَمرٍ كَانَ حَسَناً، وَإِذَا أَخبَرَ بِخَبَرٍ كَانَ صِدقاً، وَإِذَا أَرَادَ خَلقَ شَيءٍ كَانَ صَوَاباً، فَهُوَ حَكِيمٌ في إِرَادَاتِهِ وَأَفعَالِهِ وَأَقوَالِهِ»[١]. المَوصُوفُ بِكَمَالِ الحِكمَةِ، وَبِكَمَالِ الحُكمِ بينَ عِبَادِهِ. فَالحِكمَةُ هِيَ سِعَةُ العِلمِ وَالاطِّلاعِ عَلَىٰ مَبَادِىءِ الأُمُورِ وَعَوَاقِبِهَا، وَعَلَىٰ سِعَةِ الحَمدِ حَيثُ يَضَعُ الأَشيَاءَ مَوَاضِعَهَا وَيُنزِلُهَا مَنَازِلَهَا[٢] اللائِقَةَ بِهَا في خَلقِهِ وَأَمرِهِ، «ولايَتَوَجَّهُ إِلَيهِ سُؤَالٌ وَلا يَقدَحُ في حِكمَتِهِ مَقَالٌ»[٣]. ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]. فَهَذِهِ الأَحكَامُ، الَّتِي يَحكُمُ اللهُ فِيهَا، تُوجَدُ في غَايَةِ الحِكمَةِ وَالإِتقَانِ، لا خَلَلَ فِيهَا وَلا نَقصَ، بَلْ هِيَ مَبنِيَّةٌ عَلَىٰ القِسطِ وَالعَدلِ وَالحَمدِ، فَلا يَتَعَقَّبُهَا أَحَدٌ وَلا سَبِيلَ إِلَىٰ القَدحِ فِيهَا، بِخِلافِ حُكمِ غَيرِهِ فَإِنَّهُ قَد يُوَافِقُ الصَّوَابَ، وَقَدْ لا يُوَافِقُهُ[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٨٠).

(٢) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٣٩)، للعلامة السعدي.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٧٦).

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الحَكِيمُ وَذَاكَ مِن أَوصَافِهِ ... نوعَانِ أَيضاً مَا هُمَا عَدَمَانِ
حُكمٌ وَإِحكَامٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا ... نوعَانِ أَيضاً ثَابِتَا البُرهَانِ[١]

وَحِكْمَتُهُ نوعَانِ: أَحَدُهُمَا الحِكمَةُ في خَلقِهِ، فَإِنَّهُ خَلَقَ الخَلقَ بِالحَقِّ، وَمُشتَمِلاً عَلَىٰ الحَقِّ، وَكَانَ غَايَتُهُ وَنِهَايَتُهُ الحَقَّ، خلقَها بِأَحسَنِ نِظَامٍ، وَرَتَّبَهَا بِأَكمَلِ إِتقَانٍ، وَأَعطَىٰ كُلَّ مَخلُوقٍ خَلقَهُ اللَّائِقَ بِهِ، بَلْ أَعطَىٰ كُلَّ جُزءٍ مِن أَجزَاءِ المَخلُوقَاتِ، وَكُلَّ عُضوٍ مِن أَعضَاءِ الحَيوَانَاتِ، خِلقَتَهُ وَهَيئَتَهُ اللائِقَةَ بِهِ، بِحَيثُ لا يَرَىٰ الخَلقُ في خَلقِ الرَّحمَنِ تَفَاوُتاً وَلا فُطُوراً، وَلا خَلَلاً وَلا نَقصاً، بَلْ لَوِ[٢] اجتَمَعَت عُقُولُ الخَلقِ مِنْ أَوَّلِهِم إِلىٰ آخِرِهِم لِيَقتَرِحُوا مِثلَ خَلقِ الرَّحمَنِ، أَو مَا يُقَارِبُ مَا أَودَعَهُ في الكَائِنَاتِ مِنَ الحُسنِ وَالانتِظَامِ وَالإِتقَانِ، لَمْ يَقدِرُوا، وَأَنَّىٰ لَهُمُ القُدرَةُ عَلَىٰ شَيءٍ مِن ذَلِكَ[٣].

وَيَكفِي الإِنسَانَ فِكرُهُ في نَفسِهِ وَخَلقِهِ، وَأَعضَائِهِ وَمَنَافِعِهَا، وَقِوَاهُ وَصِفَاتِهِ وَهَيئَاتِهِ، فَإِنَّهُ لَوِ استَنفَدَ عُمُرَهُ لَمْ يُحِط عِلماً بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَهُ خَلقُهُ مِنَ الحِكَمِ وَالمَنَافِعِ عَلَىٰ التَّفصِيلِ، وَالعَالَمُ كُلُّهُ عُلوِيُّهُ وَسُفلِيُّهُ بِهَذِهِ المَثَابَةِ[٤].

وَهَذَا أَمرٌ مَعلُومٌ قَطعاً بِمَا يُعلَمُ مِن عَظَمَتِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَتَتَبُّعِ

(١) الكافية الشافية (ص٢٠٨).
(٢) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٣٩)، للعلامة السعدي.
(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٣٨).
(٤) شفاء العليل (٢/ ٥٧١).

حُكمِهِ في الخَلقِ وَالأَمرِ[١]. فَإِذَا كَانَ مِنَ المَعلُوم لِكُلِّ مُنصِفٍ مُؤمِنٍ: أَنَّ اللهَ لَهُ الكَمَالُ الَّذِي لا يُحِيطُ بِهِ العِبَادُ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ كَمَالٍ تَفرِضُهُ الأَذهَانُ وَيُقَدِّرُهُ المُقَدِّرُونَ، إِلَّا وَاللهُ أَعظَمُ مِن ذَلِكَ وَأَجَلُّ، كَانَت أَفعَالُهُ وَمَخلُوقَاتُهُ وَجَمِيعُ مَا أَوصَلَهُ إِلَىٰ الخَلقِ، أَكمَلَ الأُمُورِ وَأَحسَنَهَا، وَأَنظَمَهَا وَأَتقَنَهَا، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

فَالفِعلُ يَتبَعُ في كَمَالِهِ وَحُسنِهِ فَاعِلَهُ، وَالتَّدبِيرُ مَنسُوبٌ إِلَىٰ مُدَبِّرِهِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ كَمَا لا يُشبِهُهُ أَحَدٌ في صِفَاتِهِ في العَظَمَةِ وَالحُسنِ وَالجَمَالِ، فَكَذَلِكَ لا يُشبِهُهُ أَحَدٌ في أَفعَالِهِ[٢]. وَقَدْ تَحَدَّىٰ عِبَادَهُ وَأَمَرَهُم أَن يَنظُرُوا، وَيُكَرِّرُوا النَّظَرَ وَالتَّأَمُّلَ: هَل يَجِدُونَ في خَلقِهِ خَلَلاً أَو نَقصاً؟ وَأَنَّهُ لا بُدَّ أَن تَرجِعَ الأَبصَارُ كَلِيلَةً، عَاجِزَةً عَنِ الانتِقَادِ عَلَىٰ شَيءٍ مِن مَخلُوقَاتِهِ[٣]. وَمَنِ ادَّعَىٰ شَيئاً مِنْ ذَلِكَ بِسَفَاهَةِ عَقْلِهِ وَعِظَمِ جَرَاءَتِهِ، فَقَد نَادَىٰ عَلَىٰ عَقلِهِ بَينَ العُقَلاءِ بِالحَمَقِ وَالجُنُونِ[٤].

النَّوعُ الثَّانِي: الحِكمَةُ في شَرعِهِ وَأَمرِهِ، «فَإِنَّهُ شَرَعَ الأَحكَامَ الجَلِيلَةَ، وَالشَّرَائِعَ الجَمِيلَةَ. وَهِيَ مُشتَمِلَةٌ عَلَىٰ العَوَاقِبِ الحَمِيدَةِ، وَالغَايَاتِ العَظِيمَةِ، الَّتِي لا تُدرِكُهَا عُقُولُ الخَلقِ، وَلا يُحِيطُ بِهَا وَصفٌ، مَع مَا في ضِمنِهَا مِنَ الرَّحمَةِ التَّامَّةِ، وَالنِّعمَةِ السَّابِغَةِ»[٥]، كَمَا أَنَّهَا في نَفسِهَا في غَايَةِ الإِحكَامِ، فَمِن أَجَلِّ الغَايَاتِ في ذَلِكَ: أَنَّهُ

---

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٣٨)، للعلامة السعدي.
(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٣٩).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٣٨).
(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٣٩).
(٥) المصدر السابق.

تَعَالَىٰ شَرَعَ الشَّرَائِعَ وَأَنزَلَ الكُتُبَ، وَأَرسَلَ الرُّسُلَ لِيُعرفَ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلِيُعبَدَ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ[1]، فَأَيُّ حِكمَةٍ أَجَلُّ مِن هَذَا، وَأَيُّ فَضْلٍ وَكَرَمٍ أَعظَمُ مِن هَذَا؟!

فَإِنَّ مَعرِفَتَهُ تَعَالَىٰ وَعِبَادَتَهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَإِخلَاصَ العَمَلِ لَهُ، وَحَمدَهُ وَذِكرَهُ، وَشُكرَهُ وَالثَّنَاءَ عَلَيهِ، أَفضَلُ العَطَايَا مِنْهُ لِعِبَادِهِ عَلَىٰ الإِطلَاقِ، وَأَجَلُّ المَنَاقِبِ لِمَن يَمُنُّ اللهُ عَلَيهِ بِهَا، وَأَكمَلُ السَّعَادَةِ وَالفَلاحِ وَالسُّرُورِ لِلقُلُوبِ وَالأَروَاحِ، كَمَا أَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ الوَحِيدُ لِلوُصُولِ إِلىٰ السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ وَالفَلاحِ السَّرمَدِيِّ.

فَلَو لَمْ يَكُن فِي أَمرِهِ وَشَرعِهِ، إِلَّا هَذِهِ الحِكمَةُ، الَّتِي هِيَ أَصلُ الخَيرَاتِ، وَأَكمَلُ اللَّذَّاتِ، وَأَكبَرُ الوَسَائِلِ، وَالمَقَاصِدِ، وَلأَجلِهَا خُلِقَتِ الخَلِيقَةُ، وَلأَجلِهَا حُقَّ الجَزَاءُ، وَلأَجلِهَا خُلِقَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَلأَجلِهَا جَرَت عَلَىٰ الخَلِيقَةِ أَحكَامُ المَلِكِ الجَبَّارِ: الشَّرعِيَّةُ وَالجَزَائِيَّةُ، لَكَانَت كَافِيَةً شَافِيَةً.

هَذَا وَقَدِ اشتَمَلَ شَرعُهُ [وَدِينُهُ] عَلَىٰ كُلِّ خَيرٍ، فَأَخبَارُهُ تَملَأُ القُلُوبَ عِلماً [وَيَقِيناً وَإِيمَاناً] وَعَقَائِدَ صَحِيحَةً، وَتَستَقِيمُ بِهَا القُلُوبُ وَيَزُولُ انحِرَافُهَا، وَيَحصُلُ لَهَا مِنَ المَعَارِفِ أَفضَلُ الغَنَائِمِ وَالمَكَاسِبِ. وَأَوَامِرُهُ كُلُّهَا مَنَافِعُ وَمَصَالِحُ، وَتُثمِرُ مِنَ الأَخلاقِ الجَمِيلَةِ وَالمَنَاقِبِ الثَّمِينَةِ، وَالأَعمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالْهَدْيِ الكَامِلِ، وَالأَجرِ العَظِيمِ، وَالثَّوَابِ الجَسِيمِ. وَنَوَاهِيهِ كُلُّهَا مُوَافِقَةٌ لِلعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالفِطَرِ المُستَقِيمَةِ، لِأَنَّهَا لا تَنهَىٰ إِلَّا عَمَّا يَضُرُّ النَّاسَ فِي عُقُولِهِم وَأَخلاقِهِم، وَأَعرَاضِهِم وَأَبدَانِهِم وَأَموَالِهِم.

---

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٣٨١)، للعلامة السعدي.

وَبِالجُملَةِ، فَالمَصَالِحُ الخَالِصَةُ أَوِ الرَّاجِحَةُ تَأمُرُ بِهَا، وَالمَفَاسِدُ الخَالِصَةُ أَوِ الرَّاجِحَةُ تَنهَىٰ عَنهَا، فَهُوَ الحَكِيمُ في خَلقِهِ وَأَمرِهِ. وَكَذَلِكَ أَحكَامُ الجَزَاءِ عَلَىٰ الأعمَالِ، في غَايَةِ المُنَاسَبَةِ وَالمُوَافَقَةِ لِلحِكمَةِ، جُملَةً وَتَفصِيلاً[١]. وَهَل تَرَكَتِ الشَّرِيعَةُ خَيراً وَمَصلَحَةً إِلَّا جَاءَت بِهِ، وَأَمَرَت بِهِ وَنَدَبَت إِلَيهِ، وَهَل تَرَكَت شَرّاً وَمَفسَدَةً إِلَّا نَهَت عَنهُ، وَهَل تَرَكَت لِمُقْتَرِحٍ اقتِرَاحاً، أَو لِمُتَعَنِّتٍ تَعَنُّتاً، أَو لِسَائِلٍ مَطلَباً ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠][٢].

وَهَذِهِ قَطرَةٌ مِن بَحرِ حِكمَتِهِ المُحِيطَةِ بِخَلقِهِ، وَالبَصِيرُ يُطَالِعُ بِبَصِيرَتِهِ مَا وَرَاءَهُ، فَيُطلِعُهُ عَلَىٰ عَجَائِبَ مِن حِكمَتِهِ، لا تَبلُغُهَا العِبَارَةُ، وَلا تَنَالُهَا الصِّفَةُ[٣].

وَمِن حِكمَةِ الشَّرعِ الإسلامِيِّ: أَنَّهُ كَمَا أَنَّهُ هُوَ الغَايَةُ لِصَلاحِ القُلُوبِ وَالأَخلاقِ وَالأَعمَالِ، وَالاستِقَامَةِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ، فَهُوَ الغَايَةُ لِصَلاحِ الدُّنيَا، فَلا تَصلُحُ أُمُورُ الدُّنيَا صَلاحاً حَقِيقِيّاً إِلَّا بِالدِّينِ الحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ مَحسُوسٌ لِكُلِّ عَاقِلٍ، فَإِنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ لَمَّا كَانُوا قَائِمِينَ بِهَذَا الدِّينِ، أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، وَجَمِيعِ مَا يَهدِي وَيُرشِدُ إِلَيهِ، كَانَت أَحوَالُهُم في غَايَةِ الاستِقَامَةِ وَالصَّلاحِ، وَلَمَّا انحَرَفُوا عَنْهُ وَتَرَكُوا كَثِيراً مِن هُدَاهُ، وَلَم يَستَرشِدُوا بِتَعَالِيمِهِ العَالِيَةِ، انحَرَفَت دُنيَاهُم كَمَا انحَرَفَ دِينُهُم. وَكَذَلِكَ انظُر إِلَىٰ الأُمَمِ الأُخرَىٰ

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٣٩)، للعلامة السعدي.
(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٢٥).
(٣) تهذيب المدارج (ص٣٤٥).

الَّتي بَلَغَت في القُوَّةِ وَالحضَارَةِ وَالمَدَنِيَّةِ مبلَغاً هَائِلاً، لَكِن لمَّا كَانَت خَالِيةً مِن رُوحِ الدِّينِ وَرَحمَتِهِ وَعَدلِهِ، كَانَ ضَرَرُهَا أعظَمَ مِن نَفعِهَا، وَشَرُّهَا أَكبَرَ مِن خَيرِهَا، وَعَجزَ عُلَمَاؤُهَا وَحُكَمَاؤُهَا وَسَاسَتُهَا عَنْ تَلَافِي الشُّرُورِ النَّاشِئَةِ عَنهَا، وَلَن يَقدِرُوا عَلَىٰ ذَلِكَ مَا دَامُوا عَلَىٰ حَالِهِم. وَلِهَذَا كَانَ مِن حِكمَتِهِ تَعَالَىٰ: أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الدِّينِ وَالقُرآنِ، أَكْبَرُ البَرَاهِينِ عَلَىٰ صِدقِهِ وَصِدقِ مَا جَاءَ بِهِ، لِكَونِهِ مُحكَماً كَامِلاً، لا يَحصُلُ الصَّلاحُ إِلَّا بِهِ[1].

فتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ، وَأَحكَمُ الحَاكِمِينَ، ذُو الحِكمَةِ البَالِغَةِ وَالنِّعَمِ السَّابِغَةِ، الَّذِي وَصَلَت حِكمَتُهُ إِلىٰ حَيثُ وَصَلَت قُدرَتُهُ، وَلَهُ في كُلِّ شَيءٍ حِكمَةٌ بَاهِرَةٌ، كَمَا أَنَّ لَهُ فِيهِ قُدرَةً بَاهِرَةً.

وَهَذَا بَابٌ إِنَّمَا ذَكَرنَا مِنْهُ قَطرَةً مِن بَحرٍ، وَإِلَّا فَعُقُولُ البَشَرِ أَعجَزُ وَأَضعَفُ مِن أَن تُحِيطَ بِكَمَالِ حِكمَتِهِ في شَيءٍ مِن خَلْقِهِ[2].

وَلِذَا نَقُولُ:

لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ قَضَاهَا يَسْتَوجِبُ الحَمدَ على اقتِضَاهَا[3]

فَسُبحَانَ مَن فَاتَت حِكَمُهُ عَدَّ العَادِّينَ، وَحَصرَ الحَاصِرِينَ[4].

وَسُبحَانَ مَن بَهَرَت حِكمَتُهُ في خَلْقِهِ وَأَمرِهِ وَجَزَائِهِ عُقُولَ العَالَمِينَ، وَشَهِدَت بِأَنَّهُ أَحكَمُ الحَاكِمِينَ.

---

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٣٩)، للعلامة السعدي.

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٥٥ ـ ٦٥٦).

(٣) معارج القبول (١/ ٢٢٥).

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٤٦).

لله سِرٌّ تَحتَ كُلِّ لَطِيفَةٍ فَأَخُو البَصَائِرِ غائِصٌ يَتَملَّقُ[١]

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَالحِكمَةُ العُليَا عَلَىٰ نَوعَينِ أَيـ ـضاً حُصِّلا بِقَوَاطِعِ البُرهَانِ

إِحدَاهُمَا في خَلْقِهِ سُبحَانَهُ نَوعَانِ أَيضاً لَيسَ يَفتَرِقَانِ

إِحكَامُ هَذَا الخَلقِ إِذ إِيجَادُهُ في غَايَةِ الإِحكَامِ وَالإِتقَانِ

وَصُدُورُهُ مِن أَجلِّ غَايَاتٍ لَهُ وَلَهُ عَلَيهَا حَمدُ كُلِّ لِسَانِ

وَالحِكمَةُ الأُخرَىٰ فَحِكمَةُ شَرعِهِ أَيضاً وَفِيهَا ذَانِكَ الوَصفَانِ

غَايَاتُهَا اللَّاتِي حُمِدنَ وَكَونُها في غَايةِ الإِتقَانِ وَالإِحسَانِ[٢]

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الحِكمَةِ:

أَوَّلاً: إِنَّ أَهلَ الإِيمَانِ عِندَمَا يُدرِكُونَ اتِّصَافَهُ تَعَالَىٰ بِالحِكمَةِ البَالِغَةِ في خَلْقِهِ وَتَدْبِيْرِهِ إِحكَاماً وَإِتقَاناً، وَفي شَرعِهِ وَقَدَرِهِ عَدلاً وَإِحسَاناً، فَهِمُوا «عَنِ اللهِ مُرَادَهُ وَحِكمَتَهُ، وَانتَهَوْا إِلىٰ مَا وَقَفُوا عَلَيهِ، وَوَصَلَت إِلَيهِ أَفهَامُهُم وَعُلُومُهُم، وَرَدُّوا عِلْمَ مَا غَابَ عَنهُم إِلىٰ أَحكَمِ الحَاكِمِينَ وَمَن هُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ، وَتَحَقَّقُوا بِمَا عَلِمُوهُ مِنْ حِكمَتِهِ الَّتِي بَهَرَت عُقُولَهُم: أَنَّ للهِ في كُلِّ مَا خَلَقَ وَأَمَرَ وَأَثَابَ وَعَاقَبَ، مِنَ الحِكَمِ البَوَالِغِ مَا تَقْصُرُ عُقُولُهُم عَن إِدرَاكِهِ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ العَلِيمُ الحَكِيمُ»[٣].

فَحِكمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في تَكلِيفِهِم مَا كَلَّفَهُم بِهِ، أَعظَمُ وَأَجَلُّ عِندَهُم

---

(١) تهذيب المدارج (ص٣٠٢).

(٢) الكافية الشافية (ص٢٠٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٨٥).

مِمَّا يَخطُرُ بِالبَالِ، أَو يَجرِي بِهَا المَقَالُ، وَيَشْهَدُونَ لَهُ سُبحَانَهُ في ذَلِكَ بِالحِكَمِ البَاهِرَةِ، وَالأَسرَارِ العَظِيمَةِ، أَكثَرَ مِمَّا يَشْهَدُونَهُ في مَخلُوقَاتِهِ، وَمَا تَضَمَّنَتهُ مِنَ الأَسرارِ وَالحِكَمِ.

وَيَعلَمُونَ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ أَنَّهُ لا نِسبَةَ لِمَا أَطلَعَهُم سُبحَانَهُ عَلَيهِ مِن ذَلِكَ، إِلَىٰ مَا طَوَىٰ عِلمَهُ عَنهُم وَاستَأثَرَ بِهِ دُونَهُم، وَأَنَّ حِكمَتَهُ في أَمرِهِ وَنَهيِهِ وَتَكلِيفِهِم، أَجَلُّ وَأَعظَمُ مِمَّا تُطِيقُهُ عُقُولُ البَشَرِ، فَهُم يَعبُدُونَهُ سُبحَانَهُ بِأَمرِهِ وَنَهيِهِ، لأَنَّهُ تَعَالَىٰ أَهلٌ أَن يُعبَدَ، وَأَهلٌ أَن يَكُونَ الحَمدُ كُلُّهُ لَهُ، وَالعِبَادَةُ كُلُّهَا لَهُ، حَتَّىٰ لَو لَم يَخلُق جَنَّةً وَلا نَاراً، وَلا وَضَعَ ثَوَاباً وَلا عِقَاباً، لَكَانَ أَهلاً أَن يُعبَدَ أَقصَىٰ مَا تَنَالُهُ قُدرَةُ خَلقِهِ مِنَ العِبَادَةِ[١].

ثانياً: وَإِنَّ العَبدَ إِذَا خَفِيَت عَلَيهِ حِكمَةُ اللهِ في بَعضِ المَخلُوقَاتِ وَالمأمُورَاتِ؛ فَالوَاجِبُ عَلَيهِ التَّسلِيمُ، وَاتِّهَامُ عَقلِهِ، وَالإِقرَارُ للهِ بِالحِكمَةِ[٢]. فَإِنَّ الَّذِي عَلِمَهُ عَلَىٰ قَدرِ عَقلِهِ وَفَهمِهِ، وَمَا خَفِيَ عَنْهُ فَهُوَ فَوقَ عَقلِهِ وَفَهمِهِ.

فَهَذَا أَصلٌ يَجِبُ التَّمَسُّكُ بِهِ في هَذَا المَقَامِ، وَأَن يَعرِفَ أَنَّ عُقُولَ العَالَمِينَ وَمَعَارِفَهُم وَعُلُومَهُم وَحِكَمَهُم، تَقصُرُ عَنِ الإِحَاطَةِ بِتَفَاصِيلِ حِكمَةِ الرَّبِّ سُبحَانَهُ في أَصغَرِ مَخلُوقَاتِهِ[٣]. بَلْ مَا حَصَلَ لِلخَلائِقِ كُلِّهِم مِنَ العِلمِ بِهَا، كَنَقرَةِ عُصفُورٍ مِنَ البَحرِ المُحِيطِ[٤]؛ بَلْ «أَقَلُّ مِن نِسبَةِ

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤١).
(٣) شفاء العليل (٢/ ٥٣١).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٩١).

عَينِ الخَفَّاشِ، إِلىٰ جُرمِ الشَّمسِ»[١].

وَأَمَّا المُعتَرِضُونَ «فَنَازَعُوا تَدبِيرَهُ، وَقَدَحُوا في حِكمَتِهِ وَلَم يَنقَادُوا لِحُكْمِهِ، وَعَارَضُوا حُكمَهُ بِعُقُولِهِمُ الفَاسِدَةِ، وَآرَائِهِمُ البَاطِلَةِ، وَسِيَاسَاتِهِمُ الجَائِرَةِ، فَلا لِرَبِّهِم عَرَفُوا، وَلا لِمَصَالِحِهِم حَصَّلُوا»[٢].

* * *

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٠٧).

(٢) فوائد الفوائد (ص١٧٢).

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ جُودِهِ: فَهُوَ الجَوَادُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ في جُودِهِ. فَهُوَ «الجَوَادُ لِذَاتِهِ، كَمَا أَنَّهُ الحَيُّ لِذَاتِهِ، العَلِيمُ لِذَاتِهِ، السَّمِيعُ البَصِيرُ لِذَاتِهِ، فَجُودُهُ العَالِي مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ»[١] فَهُوَ وَصفٌ مِن أَوصَافِ ذَاتِهِ الكَمَالِيَّةِ، فَعَطَاؤُهُ غيرُ مَجذُوذٍ. سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَجوَدُ الأَجوَدِينَ، يُحِبُّ الجُودَ وَالعَطَاءَ وَالبِرَّ، الجُودُ كُلُّهُ لَهُ، وَأَحَبُّ مَا إِلَيهِ: أَن يَجُودَ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَيُوسِعَهُم فَضلاً، وَيَغمُرَهُم إحسَاناً وَجُوداً، وَيُتِمَّ عَلَيهِم نِعمَتَهُ، وَيُضَاعِفَ لَدَيهِم مِنَّتَهُ. فَجُودُهُ مَمدُودٌ، وَغيرُ مَحدُودٍ. أَجزَلَ لَنَا العَطَايَا الفَاخِرَةَ، وَأَنْعَمَ عَلَينَا النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ.

فَجُودُهُ جَلَّ وَعَلَا وَاسِعٌ، لا يَنْفَدُ عَطَاؤُهُ «وَجُودُ جَمِيعِ الخَلَائِقِ في جَنبِ جُودِهِ، أَقَلُّ مِنْ ذَرَّةٍ في جِبَالِ الدُّنيَا وَرِمَالِهَا»[٢]. وَلَو كَانَ جُودُ العِبَادِ «عَلَىٰ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَكُلُّ الخَلائِقِ عَلَىٰ ذَلِكَ الجُودِ، لَكَانَت نِسبَتُهُ إِلىٰ جُودِهِ، دُونَ نِسبَةِ قَطرَةٍ إِلىٰ البَحرِ»[٣]. بَل كُلُّ جُودٍ في العَالَمِ العُلوِيِّ وَالسُّفلِيِّ بِالنِّسبَةِ إِلىٰ جُودِهِ، أَقَلُّ مِن قَطرَةٍ في بِحَارِ الدُّنيَا وَهِيَ مِن جُودِهِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّما يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ؛ وَجُودُهُ لا يُنَاقِضُ

---

(١) تهذيب المدارج (ص٢١٢).

(٢) إغاثة اللّهفان (ص٥٤٤).

(٣) شفاء العليل (١/ ٣٣١).

حِكمَتَهُ، وَيَضَعُ عَطَاءَهُ مَوَاضِعَهُ، وَإِن خَفِيَ عَلَىٰ أَكثَرِ النَّاسِ أَنَّ تِلكَ مَوَاضِعُهُ، فَاللهُ يَعلَمُ حَيثُ يَضَعُ فَضلَهُ.

فَلَيسَ الجَوَادُ عَلَىٰ الإطلَاقِ إِلَّا هُوَ، وَجُودُ كُلِّ جَوَادٍ، فَمِن جُودِهِ، وَمَحَبَّتُهُ لِلجُودِ وَالإِعطَاءِ وَالإِحسَانِ، وَالبِرِّ وَالإِنعَامِ وَالإِفضَالِ: فَوقَ مَا يَخطُرُ بِبَالِ الخَلقِ، أَو يَدُورُ في أَوهَامِهِم[1]. فَلا «مُنتَهَىٰ لِجُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَهُوَ يُحِبُّ الجُودَ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَمِنْ أَعظَمِ مَا جَادَ بِهِ عَلَيهِم: تَعرِيفُهُ لَهُم بِأَسمَائِهِ الحُسنَىٰ وَصِفَاتِهِ العُليَا»[2].

وَبِجُودِهِ عَمَّ جَمِيعَ الأَنَام مِنْ طائِعٍ وَعَاصٍ، وَقَوِيٍّ وَضَعِيفٍ، وَشَكُورٍ وَكَفُورٍ، وَمَأمُورٍ وَأَمِيرٍ[3].

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ لا تَنقُصُ خَزَائِنُهُ عَلَىٰ كَثرَةِ عَطَائِهِ وَبَذلِهِ، وَلا يَغِيضُ مَا في يَمِينِهِ سَعَةُ عَطَائِهِ. فَيَدُهُ «مَبسُوطَةٌ لَهُم بِالعَطَاءِ وَالنَّوَالِ، يَمِينُهُ مَلأَىٰ لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ، وَعَطَاؤُهُ وَخَيرُهُ مَبذُولٌ لِلأَبرَارِ وَالفُجَّارِ»[4] في جَمِيعِ الأَوقَاتِ مِدرَاراً. يُفَرِّجُ كَرباً، وَيُزِيلُ غَمّاً، وَيُغنِي فَقِيراً، وَيَفُكُّ أَسِيراً وَيَجبُرُ كَسِيراً، وَيُجِيبُ سَائِلاً، وَيُعطِي فَقِيراً عَائِلاً، وَيُجِيبُ المُضطَرِّينَ، وَيَستَجِيبُ لِلسَّائِلِينَ. وَيُنعِمُ عَلَىٰ مَن لَم يَسأَلهُ، وَيُعَافِي مَن طَلَبَ العَافِيَةَ، وَلا يَحرِمُ مِنْ خَيرِهِ عَاصِياً. بَل خَيرُهُ يَرتَعُ فِيهِ البَرُّ وَالفَاجِرُ، وَيَجُودُ عَلَىٰ أَولِيَائِهِ بِالتَّوفِيقِ

---

(١) تهذيب المدارج (ص٢١١).
(٢) مجموع الفوائد (ص٢٥٠).
(٣) معارج القبول (١/ ٥٣).
(٤) شفاء العليل (٢/ ٥٢١).

لِصَالِحِ الأَعمَالِ ثُمَّ يَحمَدُهُم عَلَيهَا، وَيُضِيفُهَا إِلَيهِم، وَهِيَ مِن جُودِهِ؛ وَيُثِيبُهُم عَلَيهَا مِنَ الثَّوَابِ العَاجِلِ وَالآجِلِ، مَا لا يُدرِكُهُ الوَصفُ، وَلا يَخطُرُ عَلَىٰ بَالِ العَبدِ. وَيَلطُفُ بِهِم فِي جَمِيعِ أُمُورِهِم، وَيُوصِلُ إِلَيهِم مِنَ الإِحسَانِ، وَيَدْفَعُ عَنهُم مِنَ النِّقَمِ، مَا لا يَشعُرُونَ بِكَثِيرٍ مِنْهُ. فَسُبحَانَ مَنْ كُلُّ النِّعَمِ الَّتِي بِالعِبَادِ، فَمِنْهُ. وَتَبَارَكَ مَنْ لا يُحصِي أَحَدٌ ثنَاءً عَلَيهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أثنىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ. وَتَعَالَىٰ مَنْ لا يَخْلُو العِبَادُ مِنْ كَرَمِهِ طَرفَةَ عَينٍ، بَلْ وَلا وُجُودَ لَهُم، وَلا بَقَاءَ إِلَّا بِجُودِهِ[1].

وَكُلُّ «مَوْهُوبٍ وَصَلَ إِلى خَلْقِهِ، فَمِنْ فَيْضِ بِحَارِ جُودِهِ وَفَضْلِهِ، وَنَعْمَائِهِ الزَّاخِرَةِ»[2]. فَهُوَ عَظِيمٌ وَاسِعُ الفَضْلِ وَالكَرَمِ وَالجُودِ.

وَكَمَا أَنَّهُ الجَوَادُ بِإِعطَاءِ الخَيرَاتِ، وَنَيلِ المَوَاهِبِ وَالهِبَاتِ وَالبَرَكَاتِ، فَإِنَّهُ الجَوَادُ بِالحِلمِ عَنِ العَاصِينَ، وَالسَّترِ عَلَىٰ المُخَالِفِينَ، وَالصَّبرِ عَلَىٰ المُحَارِبِينَ لَهُ وَلِرُسُلِهِ المُبَارِزِينَ، وَالعَفوِ عَنِ الذُّنُوبِ. فَالعِبَادُ يُبَارِزُونَهُ بِالعَظَائِمِ وَبِمَا يُغضِبُهُ، وَهُوَ تَعَالَىٰ يُسدِي إِلَيهِمُ النِّعَمَ وَيَصرِفُ عَنهُمُ النِّقَمَ كَأَنَّهُم لَم يَعصُوهُ، وَيُعَافِيهِم وَيَرزُقُهُم كَأَنَّهُم لَم يَزالُوا يَشكُرُونَهُ[3]. فَأَيُّ جُودٍ أَعظَمُ مِن جُودِ مَنْ يُبَارِزُهُ العَبدُ بِالمَعَاصِي، وَهُوَ يُمِدُّهُ بِنِعَمِهِ، وَيُعَامِلُهُ بِأَلطَافِهِ، وَيُسبِلُ عَلَيهِ سَترَهُ؟

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ يَجُودُ عَلَىٰ عِبَادِهِ «بِالنَّوَالِ قَبلَ السُّؤَالِ، وَيُعطِي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٠٥).

(٢) معارج القبول (١/ ٤٨).

(٣) المجموعة الكاملة (٣/ ٣٨١).

سَائِلَهُ وَمُؤَمِّلَهُ فوقَ مَا تَعَلَّقَت بِهِ مِنْهُمُ الآمَالُ»[١]. وَاللهُ أَوسَعُ فَضلاً وَأَكرَمُ، وَأَجزَلُ عَطَاءً.

وَمِنْ جُودِهِ: مَا أَعَدَّهُ لأَولِيَائِهِ في دَارِ النَّعِيم مِمَّا لا عَينٌ رَأَت، وَلا أُذُنٌ سَمِعَت وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ[٢]؛ مِنْ أَنوَاعِ المآكِلِ، وَالمَشَارِبِ اللَّذِيذَةِ، وَالمَنَاظِرِ العَجِيبَةِ، وَالأَزوَاجِ الحَسَنَةِ، وَالقُصُورِ وَالغُرَفِ المُزَخْرَفَةِ، وَالأَشجَارِ المُتَدَلِّيَةِ، وَالفَوَاكِهِ المُستَغرَبَةِ، وَالأَصوَاتِ الشَّجِيَّةِ، وَالنِّعَم السَّابِغَةِ، وَتَزَاوُرِ الإِخوَانِ، وَتَذَكُّرِهِم مَا كَانَ مِنْهُم، في رِيَاضِ الجَنَّاتِ. وَأَعَلَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَأَجَلُّ: رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِم، وَتَمَتُّعُ الأَروَاحِ بِقُربِهِ، وَالعُيُونِ برُؤيَتِهِ، وَالأَسمَاعِ بِخِطَابِهِ، الَّذِي يُنْسِيهِم كُلَّ نَعِيمٍ وَسُرُورٍ. وَلَولا الثَّبَاتُ مِنَ اللهِ لَهُم لَطَارُوا، وَمَاتُوا مِنَ الفَرَحِ وَالحُبُورِ. فَلِلَّهِ مَا أَحلَىٰ ذَلِكَ النَّعِيمَ، وَمَا أَعلَىٰ مَا آتَاهُمُ الرَّبُّ الكَرِيمُ، وَمَا حَصَلَ لَهُم، مِن كُلِّ خيرٍ وَبَهجَةٍ، لا يَصِفُهُ الوَاصِفُونَ[٣].

عَنِ المُغِيرَةِ بنِ شُعبَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«سَأَلَ موسىٰ ـ عَلَيهِ السَّلَامُ ـ ربَّهُ تَعَالَىٰ: مَا أَدْنىٰ أَهلِ الجَنَّةِ مَنزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعدَ مَا أُدخِلَ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، فَيُقَالَ لهُ: ادخُلِ الجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَي رَبِّ! كَيفَ؟ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُم وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِم؟ فَيُقَالَ لَهُ: أَترضَىٰ أَن يَكُونَ لَكَ مِثلُ مُلكِ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنيا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ! فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثلُهُ وَمِثلُهُ وَمِثلُهُ وَمِثلُهُ. فَقَالَ في**

---

(١) عدة الصابرين (ص٣٣٩).

(٢) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٤٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٥٧).

الخَامِسَةِ: رَضِيتُ، رَبِّ! فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشتَهَت نَفسُكَ، وَلَذَّت عَينُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ! قَالَ: رَبِّ فَأَعلَاهُم مَنزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدتُ، غَرَستُ كَرَامَتَهُم بِيَدِي، وَخَتَمتُ عَلَيهَا، فَلَم تَرَ عَينٌ، وَلَم تَسمَع أُذُنٌ، وَلَم يَخطُر عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ» قَالَ: وَمِصدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][١].

فَسُبحَانَ مَن عَظُمَ جُودُهُ وَكَرَمُهُ، أَن يُحِيطَ بِهِ عِلمُ الخَلَائِقِ[٢].

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ سُبحَانَهُ يُحِبُّ مِن عِبَادِهِ أَن يُؤَمِّلُوهُ وَيَرجُوهُ، وَيَسأَلُوهُ مِن فَضلِهِ، لأَنَّهُ المَلِكُ الحَقُّ الجَوَادُ، أَجوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوسَعُ مَنْ أَعطَىٰ. وَأَحَبُّ مَا إِلَىٰ الجَوَادِ: أَن يُرجَىٰ، وَيُؤَمَّلَ وَيُسأَلَ. وَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّهُ مَن لَم يَسأَلِ اللهَ يَغْضَب عَلَيهِ**»[٣]، وَالسَّائِلُ رَاجٍ وَطَالِبٌ، فَمَن لَم يَرجُ اللهَ يَغضَبْ عَلَيهِ[٤].

اللهُ يَغضَبُ إِن تَرَكتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسأَلُ يَغضَبُ

وَأَحَبُّ خَلقِهِ إِلَيهِ أَكثَرُهُم وَأَفضَلُهُم لَهُ سُؤَالاً، وَهُوَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ، وَكُلَّمَا أَلَحَّ العَبدُ عَلَيهِ فِي السُّؤَالِ، أَحَبَّهُ وَقَرَّبَهُ وَأَعطَاهُ[٥].

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّ العَبدَ إِذَا دَعَاهُ، فَلا بُدَّ أَن يَغنَمَ: إِمَّا بِإِعطَائِهِ مَا سَأَلَ، أَو بِأَن يَدفَعَ عَنْهُ مِنَ الضَّرَرِ مَا هُوَ أَعظَمُ مِمَّا سَأَلَ، أَو بِأَن يَدَّخِرَ

---

(١) رواه مسلم (١٨٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٧٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٦).

(٤) تهذيب المدارج (ص٤٨٤).

(٥) حادي الأرواح (ص١٢٤).

لَهُ عِنْدَهُ يومَ القِيَامَةِ، مَعَ مَا في الدُّعَاءِ مِنَ الأَجرِ وَالعِبَادَةِ.

عَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا مِنْ مُسلِم يَدعُو بِدَعوَةٍ، لَيسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلا قَطِيعَةُ رَحِم، إِلَّا أَعطَاهُ اللهُ بِهَا إِحدَىٰ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَن تُعَجَّلَ لَهُ دَعوَتُهُ، وَإِمَّا أَن يَدَّخِرَهَا لَهُ في الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَن يَصرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثلَهَا»**، قَالُوا: إِذاً نُكثِرُ، قَالَ: **«اللهُ أَكثَرُ»**[1].

أَي: فَضلُ اللهِ أَكثَرُ، أَي: مَا يُعطِيهِ مِن فَضلِهِ وَسِعَةِ كَرَمِهِ، أَكثَرُ مِمَّا يُعطِيكُم في مُقَابَلَةِ دُعَائِكُم.

وَهَذَا غَايَةٌ في التَّرغِيبِ في الدُّعَاءِ، وَنِهَايَةٌ في استِعطَافِ قُلُوبِ الخَلائِقِ في الرَّغبَةِ إِلَيهِ، وَاستِدرَارِ مَا في خَزَائِنِهِ.

فَسُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ ذِي الكَرَمِ الفَيَّاضِ، وَالجُودِ المُتَتَابِعِ. فَشُكراً لَكَ يا رَبِّ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعمَةِ، شُكراً يَلِيقُ بِكَ، لا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثنَيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ[2].

وَمِنْ جُودِهِ: أَن رَضِيَ مِن عِبَادِهِ بِدُونِ اليَسِيرِ مِمَّا يَنبَغِي أَن يُعبَدَ بِهِ، وَيَستَحِقُّهُ لِذَاتِهِ وَإِحسَانِهِ، فَلا نِسبَةَ لِلوَاقِعِ مِنْهُم إِلىٰ مَا يَستَحِقُّهُ، بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ[3].

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ يَقبَلُ عُذرَ العَبدِ إِذَا اعتَذَرَ إِلَيهِ.

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ أَكَّدَ إِحسَانَهُ وَجُودَهُ وَبِرَّهُ، بِأَن أَوجَبَ لِعَبدِهِ عَلَيهِ

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٨)، وَقَالَ الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب وَالترهيب» (١٦٣٣): حسن صحيح.

(٢) قطر الولي (ص٢٢٤).

(٣) شفاء العليل (١/ ٣٥٩).

حَقّاً بِمُقتَضَىٰ الوَعدِ، فَإِنَّ وَعدَ الكَرِيمِ إِيجَابٌ[١]؛ مِنْ إِثَابَتِهِ لِمُطِيعِهِم، وَتَوبَتِهِ عَلَىٰ تَائِبِهِم، وَإِجَابَتِهِ لِسَائِلِهِم، فَتِلكَ حُقُوقٌ أَحَقَّهَا اللهُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ نَفسِهِ، بِحُكمِ وَعدِهِ وَإِحسَانِهِ، لا أَنَّهَا حُقُوقٌ أَحَقُّوهَا هُم عَلَيهِ، فَالحَقُّ فِي الحَقِيقَةِ للهِ عَلَىٰ عَبدِهِ، وَحَقُّ العَبدِ عَلَيهِ هُوَ مَا اقتَضَاهُ جُودُهُ وَبِرُّهُ، وَإِحسَانُهُ إِلَيهِ، بِمَحضِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ[٢].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ: أَن يَعبُدُوهُ، وَلا يُشرِكُوا بِهِ شَيئاً، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ: أَن لا يُعَذِّبَ مَن لا يُشرِكُ بِهِ شَيئاً**»[٣].

فَهَذَا حَقٌّ وَجَبَ بِكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ، وَوَعدِهِ الصَّادِقِ، لا أَنَّ العَبدَ نَفْسَهُ يَستَحِقُّ عَلَىٰ اللهِ شَيئاً، كَمَا يَكُونُ لِلمَخلُوقِ عَلَىٰ المَخلُوقِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ المُنعِمُ عَلَىٰ العِبَادِ بِكُلِّ خَيرٍ، وَحَقُّهُمُ الوَاجِبُ بِوَعدِهِ، هُوَ أَن لا يُعَذِّبَهُم. وَلَقَد أَحسَنَ القَائِلُ:

مَا لِلعِبَادِ عَلَيهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلا سَعيٌ لَدَيهِ ضَائِعُ

إِن عُذِّبُوا فَبِعَدلِهِ أَو نُعِّمُوا ... فَبِفَضلِهِ وَهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ[٤]

وَمِنْ جُودِهِ: أَنَّ العَبدَ إِذَا مَرِضَ أَو سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعمَلُ فِي الصِّحَّةِ وَالإِقَامَةِ.

عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) تهذيب المدارج (ص٦٨٨).

(٢) المصدر السابق (ص٦٨٩).

(٣) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٤) شرح الطحاوية (٢/ ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

«إِذَا مَرِضَ العَبدُ أَو سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثلُ مَا كَانَ يَعمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً»(١).

وَعَن شَدَّادِ بنِ أَوسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ اللهَ عز وجل يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابتَلَيتُ عَبداً مِن عِبَادِي مُؤمِناً، فَحَمِدَنِي عَلَىٰ مَا ابتَلَيتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِن مَضجَعِهِ ذَلِك، كَيَومِ وَلَدَتهُ أُمُّهُ مِنَ الخَطَايَا؛ وَيَقُولُ الرَّبُّ عز وجل: أَنَا قَيَّدتُ عَبدِي وَابتَلَيتُهُ، وَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنتُم تُجرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ»**(٢).

أَلَيسَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَظَاهِرِ الجُودِ؟! بَلَى فَهُو الجَوَادُ الكَرِيمُ الوَهَّابُ، الَّذِي عَظُمَتْ نَعمَاؤُهُ بِلا انقِطَاعٍ.

وَمَا خَفِيَ عَلَىٰ الخَلقِ مِن جُودِهِ أَعظَمُ وَأَعظَمُ مِمَّا عَرَفُوهُ مِنْهُ، بَل لا نِسبَةَ لِمَا عَرَفُوهُ مِن ذَلِكَ إِلىٰ مَا لَم يَعرِفُوهُ.

فَسُبحَانَ مَنْ عَمَّ جُودُهُ جَمِيعَ البَرِيَّاتِ، وَرَزَقَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَأَنْعَمَ بِمَا لا يُحصَىٰ مِنَ النِّعَمِ وَالهِبَاتِ، وَالعَطَايَا وَالمِنَحِ السَّنِيَّاتِ. فَلِلَّهِ مَا أَعظَمَ جُودَهُ وَكَرَمَهُ.

وتَبَارَكَ اللهُ «الكَرِيمُ الجَوَادُ، الَّذِي أَنعَمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ»(٣).

قَالَ ابنُ القَيِّم رحمه الله:

وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُو ... دَ جَمِيعَهُ بِالفَضلِ وَالإِحسَانِ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٣)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٣٠٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص١١٨١).

وَهُوَ الجَوَادُ فَلا يُخَيِّبُ سَائِلاً وَلَو أَنَّهُ مِن أُمَّةِ الكُفرَانِ[١]

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الجُودِ:

إِنَّ المُؤمِنَ عِندَمَا يُدرِكُ اتِّصَافَهُ تَعَالَىٰ بِالجُودِ وَكَثرَةِ العَطَاءِ، فَإِنَّهُ يَحرِصُ عَلَىٰ مَوَاقِعِ فَضلِهِ وَرَحمَتِهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهُ أَجوَدُ الأَجوَدِينَ وَأَكرَمُ الأَكرَمِينَ، فَهُوَ يُحِبُّ الإِحسَانَ وَالجُودَ وَالعَطَاءَ وَالبِرَّ، وَذَلِكَ أَنَّ الفَضلَ كُلَّهُ بِيَدِهِ، وَالخَيرُ كُلُّهُ مِنْهُ[٢].

وَعَلَىٰ المُؤمِنِ أَنْ يَجُودَ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ بِمَا جَادَ اللهُ عَلَيهِ، لأَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ قَد ضَمِنَ المَزِيدَ لِلجَوَادِ، وَالإِتلَافَ لِلمُمسِكِ.

عَن طَلحَةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ، وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخلَاقِ، وَيَكرَهُ سِفسَافَهَا**»[٣]. يَعني: رَدِيئَهَا.

(١) الكافية الشافية (ص٢١٠).
(٢) منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى (ص٤٦١).
(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٧٤٤).

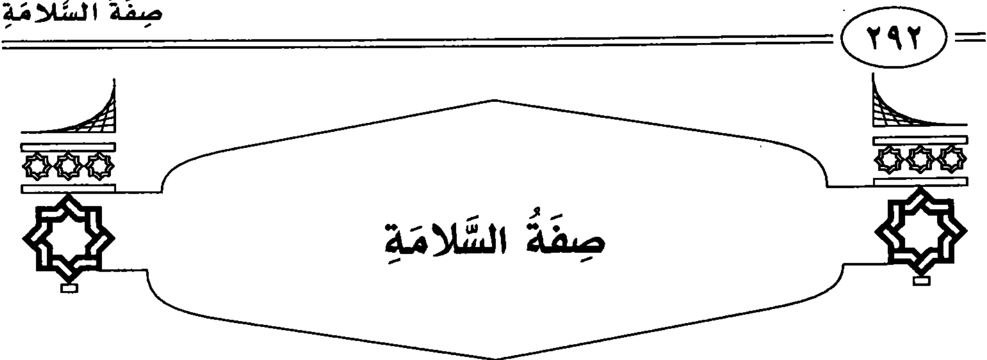

صِفَةُ السَّلامَةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ سَلامِهِ: فَهُوَ السَّلامُ الَّذِي سَلِمَ مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَأَفعَالِ النَّقصِ وَأَسمَاءِ النَّقصِ، مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ**»(١).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ السَّلامُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ سَالِمٌ ... مِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ(٢)

وَلِهَذَا وَصَفَ سُبحَانَهُ لَيلَةَ القَدرِ بِأَنَّهَا سَلامٌ، وَالجَنَّةَ بِأَنَّهَا دَارُ السَّلامِ، «لِسَلامَتِهَا مِنْ جَمِيعِ الآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ، وَذَلِكَ لِكَمَالِ نَعِيمِهَا، وَبَقَائِهِ، وَحُسْنِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ»(٣). ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] وَتَحِيَّتُهُ لأَهلِ الجَنَّةِ وَقتَ اللِّقَاءِ سَلامٌ، وَهِيَ المَذكُورَةُ في قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، فَتِلكَ تَحِيَّتُهُ لَهُم وَقتَ اللِّقَاءِ، كَمَا يُحَيِّي الحَبِيبُ حَبِيبَهُ إِذَا لَقِيَهُ، فَمَاذَا حُرِمَ المَحجُوبُونَ عَن رَبِّهِم يومَئِذٍ؟(٤) وَسَلامٌ «مِنْهُ سُبحَانَهُ كَافٍ مِنْ كُلِّ سَلامٍ، وَمُغنٍ عَنْ كُلِّ تَحِيَّةٍ، وَمُقَرِّبٌ مِنْ كُلِّ أُمنِيَةٍ، فَأَدنَىٰ سَلامٍ مِنْهُ - وَلا أَدنَىٰ هُنَاكَ -

---

(١) رواه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢). وللحديث تتمة.
(٢) الكافية الشافية (ص٢١٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٩١).
(٤) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٦١٢ - ٦١٣).

يَستَغرِقُ الوَصفَ، وَيُتِمُّ النِّعمَةَ، وَيَدفَعُ البُؤسَ، وَيُطَيِّبُ الحَيَاةَ، وَيَقْطَعُ مَوَادَ العَطَبِ وَالهَلاكِ»[١]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨] «وَإِذَا سَلَّمَ عَلَيهِمُ الرَّبُّ الرَّحِيمُ، حَصَلَت لَهُمُ السَّلامَةُ التَّامَّةُ، مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، وَحَصَلَت لَهُمُ التَّحِيَّةُ، الَّتي لا تَحِيَّةَ أَعْلَىٰ مِنْهَا، وَلا نَعِيمَ مِثلُهَا. فَمَا ظَنُّكَ بِتَحِيَّةِ مَلِكِ المُلُوكِ، الرَّبِّ العَظِيمِ، الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ، لأَهلِ دَارِ كَرَامَتِهِ، الَّذِينَ أَحَلَّ عَلَيهِم رِضوَانَهُ، فَلا يَسخَطُ عَلَيهِم أَبَداً»[٢].

وَتَحِيَّةُ أَهلِهَا السَّلامُ ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]؛ وَأَثنَىٰ عَلَىٰ أَولِيَائِهِ بِالقَولِ السَّلامِ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ المُرسَلِينَ لِسَلامَةِ مَا وَصَفُوهُ بِهِ مِن كُلِّ نَقصٍ وَعَيبٍ. كُلُّ ذَلِكَ السَّالِمُ مِنَ العُيُوبِ.

فَهُوَ السَّلامُ الحَقُّ بِكُلِّ اعتِبَارٍ، وَوَصْفُهُ بِالسَّلامِ أَبلَغُ في ذَلِكَ مِنْ وَصْفِهِ بِالسَّالِمِ، «فَهُوَ سَلامٌ سُبحَانَهُ في ذَاتِهِ عَنْ كُلِّ عَيبٍ وَنَقْصٍ يَتَخَيَّلُهُ وَهمٌ، وَسَلامٌ في صِفَاتِهِ مِنْ كُلِّ عَيبٍ وَنَقْصٍ، وَسَلامٌ في أَفعَالِهِ مِنْ كُلِّ عَيبٍ وَنَقْصٍ، وَشَرٍّ وَظُلْمٍ، وَفِعلٍ وَاقِعٍ عَلَىٰ غَيرِ وَجْهِ الحِكْمَةِ، بَلْ هُوَ السَّلامُ الحَقُّ مِنْ كُلِّ وَجهٍ وَبِكُلِّ اعتِبَارٍ، فَعُلِمَ أَنَّ استِحقَاقَهُ تَعَالَىٰ لِهَذَا الاسمِ، أَكمَلُ مِنَ استِحقَاقِ كُلِّ مَا يُطلَقُ عَلَيهِ.

وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ التَّنزِيهِ الَّذِي نَزَّهَ بِهِ نَفْسَهُ وَنَزَّهَهُ بِهِ رَسُولُهُ، فَهُوَ

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٥١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٩٧٧).

السَّلامُ مِنَ الصَّاحِبَةِ وَالوَلَدِ، وَالسَّلامُ مِنَ النَّظِيرِ وَالكُفءِ، وَالسَّمِيِّ وَالمُماثِلِ، وَالسَّلامُ مِنَ الشَّرِيكِ، وَكَذَلِكَ إِذَا نَظَرتَ إِلىٰ أَفرَادِ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَجَدتَ كُلَّ صِفَةٍ سَلاماً مِمَّا يُضَادُّ كَمَالَها، فَحَيَاتُهُ سَلامٌ مِنَ المَوتِ وَمِنَ السِّنَةِ وَالنَّومِ، وَكَذَلِكَ قَيُّومِيَّتُهُ وَقُدرَتُهُ سَلامٌ مِنَ التَّعَبِ وَاللُّغُوبِ، وَعِلمُهُ سَلامٌ مِنْ عُزُوبِ شَيءٍ عَنْهُ أَو عُرُوضِ نِسيَانٍ أَو حَاجَةٍ إِلىٰ تَذَكُّرٍ وَتَفكُّرٍ، وَإِرَادَتُهُ سَلامٌ مِنْ خُرُوجِهَا عَنِ الحِكْمَةِ وَالمَصْلَحَةِ، وَكَلِمَاتُهُ سَلامٌ مِنَ الكَذِبِ وَالظُّلمِ، بَلْ تَمَّت كَلِمَاتُهُ صِدقاً وَعَدلاً، وَغِنَاهُ سَلامٌ مِنَ الحَاجَةِ إِلىٰ غَيرِهِ بِوَجهٍ مَا، بَلْ كُلُّ مَا سِوَاهُ مُحتَاجٌ إِلَيهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَمُلكُهُ سَلامٌ مِن مُنَازِعٍ فِيهِ، أَو مُشَارِكٍ، أَو مُعَاوِنٍ مُظَاهِرٍ، أَو شَافِعٍ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذنِهِ، وَإِلَهِيَّتُهُ سَلامٌ مِنْ كُلِّ مُشَارِكٍ لَهُ فِيهَا، بَلْ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَحِلمُهُ وَعَفوُهُ وَمَغفِرَتُهُ وَتَجَاوُزُهُ سَلامٌ مِن أَن تَكُونَ عَن حَاجَةٍ مِنْهُ، أَو ذُلٍّ أَو مُصَانَعَةٍ كَمَا يَكُونُ مِن غَيرِهِ، بَلْ هُوَ مَحضُ جُودِهِ وَإِحسَانِهِ وَكَرَمِهِ.

وَكَذَلِكَ عَذَابُهُ وَانتِقَامُهُ، وَشِدَّةُ بَطشِهِ، وَسُرعَةُ عِقَابِهِ، سَلامٌ مِن أَن يَكُونَ ظُلماً أَو تَشَفِّياً، أَو غِلظَةً وَقَسوَةً، بَلْ هُوَ مَحضُ حِكمَتِهِ وَعَدلِهِ وَوَضعِهِ الأَشيَاءَ مَوَاضِعَها، وَهُوَ مِمَّا يَستَحِقُّ عَلَيهِ الحَمدَ وَالثَّنَاءَ، كَمَا يَستَحِقُّهُ عَلَىٰ إِحسَانِهِ وَثَوابِهِ وَنِعَمِهِ، بَلْ لَو وُضِعَ الثَّوَابُ مَوضِعَ العُقُوبَةِ، لَكَانَ مُنَاقِضاً لِحِكْمَتِهِ وَلِعِزَّتِهِ، فَوَضعُهُ العُقُوبَةَ مَوضِعَهَا هُوَ مِنْ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِزَّتِهِ، فَهُوَ سَلامٌ مِمَّا يَتَوَهَّمُ أَعدَاؤُهُ وَالجَاهِلُونَ بِهِ مِنْ خِلافِ حِكْمَتِهِ.

وَقَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ سَلامٌ مِنَ العَبَثِ وَالجَورِ وَالظُّلمِ، وَمِن تَوَهُّمِ

وُقُوعِهِ عَلَىٰ خِلافِ الحِكمَةِ البَالِغَةِ، وَشَرعُهُ وَدِينُهُ سَلامٌ مِنَ التَّنَاقُضِ وَالاختِلافِ وَالاضطِّرَابِ، وَخِلافِ مَصلَحَةِ العِبَادِ وَرَحمَتِهِم وَالإِحسَانِ إِلَيهِم وَخِلافِ حِكمَتِهِ، بَلْ شَرعُهُ كُلُّهُ حِكمَةٌ وَرَحمَةٌ وَمَصلَحَةٌ وَعَدلٌ.

وَكذَلِكَ عَطَاؤُهُ سَلامٌ مِنْ كَونِهِ مُعَاوَضَةً أَو لِحَاجَةٍ إِلىٰ المُعطِي. وَمَنعُهُ سَلامٌ مِنَ البُخلِ وَخَوفِ الإِملاقِ، بَلْ عَطَاؤُهُ إِحسَانٌ مَحضٌ لا لِمُعَاوَضَةٍ وَلا لِحَاجَةٍ، وَمَنعُهُ عَدلٌ مَحضٌ وَحِكمَةٌ لا يَشُوبُهُ بُخلٌ وَلا عَجْزٌ.

وَاستِوَاؤُهُ وَعُلُوُّهُ عَلَىٰ عَرشِهِ سَلامٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُحتَاجاً إِلىٰ مَا يَحمِلُهُ أَو يَستَوِي عَلَيهِ، بَلِ العَرشُ مُحتَاجٌ إِلَيهِ، وَحَمَلَتُهُ مُحتَاجُونَ إِلَيهِ، هُوَ الغَنِيُّ عَنِ العَرشِ وَعَنْ حَمَلَتِهِ، وَعَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَهُوَ استِوَاءٌ لا يَشُوبُهُ حَصْرٌ وَلا حَاجَةٌ إِلىٰ عَرشٍ وَلا غَيرِهِ، وَلا إِحَاطَةُ شَيءٍ بِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بَلْ كَانَ سُبحَانَهُ وَلا عَرشٌ وَلم يَكُن بِهِ حَاجَةٌ إِلَيهِ، وَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ، بَلِ استِوَاؤُهُ عَلَىٰ عَرشِهِ وَاستِيلاؤُهُ عَلَىٰ خَلقِهِ مِنْ مُوجِبَاتِ مُلكِهِ وَقَهرِهِ، مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ إِلىٰ عَرشٍ وَلا غَيرِهِ بِوَجهٍ مَا.

وَنُزُولُهُ كُلَّ لَيلَةٍ إِلىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا سَلامٌ مِمَّا يُضادُّ عُلُوَّهُ، وَسَلامٌ مِمَّا يُضَادُّ غِنَاهُ وَكَمَالَهُ، وَسَلامٌ مِن كُلِّ مَا يَتَوَهَّمُ مُعَطِّلٌ أَو مُشَبِّهٌ، وَسَلامٌ مِن أَن يَصِيرَ تَحتَ شَيءٍ، أَو مَحصُوراً في شَيءٍ ـ تَعَالَىٰ اللهُ رَبُّنَا عَنْ كُلِّ مَا يُضَادُّ كَمَالَهُ وَغِنَاهُ ـ.

وَسَمعُهُ وَبَصَرُهُ سَلامٌ مِن كُلِّ مَا يَتَخَيَّلُهُ مُشَبِّهٌ، أَو يَتَقَوَّلُهُ مُعَطِّلٌ.

وَمُوَالاتُهُ لأَولِيَائِهِ سَلامٌ مِنْ أَن تَكُونَ عَن ذُلٍّ كَمَا يُوَالِي المَخلُوقُ المَخلُوقَ، بَلْ هِيَ مُوالاةُ رَحمَةٍ وَخَيرٍ وَإِحسَانٍ وَبِرٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، فَلَم يَنفِ أَن يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ مُطلَقاً، بَلْ نَفَىٰ أَن يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ.

وَكَذَلِكَ مَحَبَّتُهُ لِمُحِبِّيهِ وَأَولِيَائِهِ، سَلامٌ مِنْ عَوَارِضِ مَحَبَّةِ المَخلُوقِ لِلمَخلُوقِ، مِنْ كَونِهِ مَحَبَّةَ حَاجَةٍ إِلَيهِ أَو تَمَلُّقٍ لَهُ، أَوِ انتِفَاعٍ بِقُربِهِ، وَسَلامٌ مِمَّا يَتَقَوَّلُهُ المُعَطِّلُونَ فِيهَا.

وَكَذَلِكَ مَا أَضَافَهُ إِلَىٰ نَفسِهِ مِنَ اليَدِ وَالوَجهِ، فَإِنَّهُ سَلَامٌ عَمَّا يَتَخَيَّلُهُ مُشَبِّهٌ، أَو يَتَقَوَّلُهُ مُعَطِّلٌ.

فَتَأَمَّل كَيفَ تَضَمَّنَ اسمُهُ «**السَّلَامُ**» كُلَّ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَكَمْ مِمَّنْ يَحْفَظُ هَذَا الِاسمَ، وَلا يَدرِي مَا تَضَمَّنَهُ مِن هَذِهِ الأَسرَارِ وَالمَعَانِي[1].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ السَّلَامَةِ:

١ ـ الدُّعَاءُ بِالسَّلَامَةِ:

إِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ السَّلَامُ وَيُحِبُّ السَّلَامَ، وَيُعطِي السَّلَامَ لِمَنْ طَلَبَهُ مِنهُ بِصِدقٍ وَإِخلاصٍ.

أ ـ عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا رَأَى الهِلالَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ! أَهِلَّهُ عَلَينَا بِالأَمنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالإِسلَامِ، رَبُّنَا وَرَبُّكَ اللهُ**»[2].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٠٢ ـ ٦٠٥).

(٢) رواه ابن حبان (٢٣٧٤) «موارد»، وصححه الألباني لغيره في «الصحيحة» (١٨١٦).

قَولُهُ: «**أَهِلَّهُ**» أَي: أَطلِعهُ عَلَينا، وَأَرِنَا إِيَّاهُ، وَالمَعنَى: اجعَلْ رُؤيَتَنا لَهُ مُقتَرِناً بِالأَمنِ وَالإِيمَانِ.

قَولُهُ: «**بِالأَمْنِ**» أَي: مُقتَرِناً بِالأَمنِ مِنَ الآفَاتِ وَالمَصَائِبِ.

قَولُهُ: «**وَالإِيمَانِ**» أَي: وَبِثَبَاتِ الإِيمَانِ فِيهِ.

قَولُهُ: «**وَالسَّلَامَةِ**» أَي: السَّلَامَةُ عَن آفَاتِ الدُّنيَا وَالدِّينِ[1].

ب ـ وَعَلَىٰ «العَبدِ أَن يَطلُبَ السَّلامَةَ يَومَ القِيَامَةِ يَومَ يَبعَثُ اللهُ الأَحيَاءَ، عِندَ مُعَايَنَتِهِ هَولَ المَطلَعِ، إِذَا قَدِمَ عَلَىٰ اللهِ وَحِيداً مُجَرَّداً عَن كُلِّ مُؤنِسٍ، إِلَّا مَا قَدَّمَهُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَعِندَ مُوَافَاتِهِ القِيَامَةَ مَعَ الجَمعِ الأَعظَمِ، لِيَصِيرَ إِلىٰ إِحدَىٰ الدَّارَينِ الَّتِي خُلِقَ لَهَا، وَاستُعمِلَ بِعَمَلِ أَهلِهَا؛ وَطَلَبُ السَّلامَةِ فِيهِ آكَدُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَبلَهُ، فَإِنَّ عَطَبَهُ لا يُستَدرَكُ، وَعَثرَتَهُ لا تُقَالُ، وَسَقَمَهُ لا يُدَاوَىٰ، وَفَقرَهُ لا يُسَدُّ. فَأَيُّ مَوطِنٍ أَحَقُّ بِطَلَبِ السَّلامَةِ مِنْ هَذَا المَوطِنِ، فَنسأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ فِيهَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، وَلُطفِهِ وَجُودِهِ وَإِحسَانِهِ»[2].

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **وَلا يَتَكَلَّمُ يَومَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعوَى الرُّسُلِ يَومَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[3].

٢ ـ إِفشَاءُ السَّلَامِ:

إِنَّ المُؤمِنَ يَسعَى إِلى إِفشَاءِ السَّلَام بَينَهُ وَبينَ النَّاسِ، لِأَنَّ السَّلَامَ أعظَمُ مَا يَبتَغِيهِ المُؤمِنُ وَيَحرِصُ عَلَيهِ؛ فَهُوَ أَصلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ النِّعَمِ.

---

(١) العلم الهيّب (ص٤٢١).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٦٥٤).

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

وَإِفشَاءُ السَّلَامِ مِنْ شَعَائِرِ الإِسلَامِ العَظِيمَةِ، الَّتي تَهاوَنَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ المُسلِمِينَ في هَذِهِ الأَيَّامِ. وَاللهُ المُستَعَانُ.

وَلنَتَأَمَّلِ الأَحَادِيثَ التَّالِيَةَ:

١ ـ عَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**أَفشُوا السَّلَامَ تَسلَمُوا**»[١].

وَإِفشَاءُ السَّلَامِ: نَشرُهُ وَإِذَاعَتُهُ، وَالإِكثَارُ مِنْهُ.

٢ ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**السَّلامُ اسمٌ مِنْ أَسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَضَعَهُ في الأَرضِ، فَأَفشُوهُ بَينكُم؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ المُسلِمَ إِذَا مَرَّ بِقَومٍ فَسَلَّمَ عَلَيهِم، فَرَدُّوا عَلَيهِ، كَانَ لَهُ عَلَيهِم فَضلُ دَرَجَةٍ، بِتَذكِيرِهِ إِيَّاهُمُ السَّلامَ؛ فَإِن لَم يَرُدُّوا عَلَيهِ، رَدَّ عَلَيهِ مَن هُوَ خَيرٌ مِنْهُم وَأَطيَبُ**»[٢].

٣ ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ السَّلامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَضَعَهُ اللهُ فِي الأَرْضِ، فَأَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»[٣].

٤ ـ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَدخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤمِنُوا، وَلَا تُؤمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُم عَلَىٰ شَيءٍ إِذَا فَعَلتُمُوهُ تَحَابَبتُم؟ أَفشُوا السَّلَامَ بَينكُم**»[٤].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٩)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٧٥٤).

(٢) رواه البزار «كشف الأستار» (١٩٩٩)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب» (٢٧٠٥).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٩)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٧٦٤).

(٤) رواه مسلم (٥٤).

قَولُهُ: «**أَفشُوا**» مِنَ الإِفشَاءِ، وَهُوَ الإِشَاعَةُ وَالإِكثَارُ، وَفِيهِ الحَثُّ العَظِيمُ عَلَى إِفشَاءِ السَّلام وَبَذلِهِ لِلمُسلِمِينَ كُلِّهِم: مَنْ عَرَفَهُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ. وَالسَّلامُ أَوَّلُ أَسبَابِ التَّآلُفِ، وَمِفْتَاحُ استِجلَابِ المَوَدَّةِ، وَمِن إِفشَائِهِ تُمَكَّنُ أُلفَةُ المُسلِمِينَ بَعضِهِم لِبَعضٍ، وَإِظهَارُ شِعَارِهِم المُمَيِّزِ لَهُم مِنْ غَيرِهِم مِنْ أَهلِ المِلَلِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ رِيَاضَةِ النَّفْسِ، وَلُزُومِ التَّوَاضُعِ، وَإِعظَامِ حُرُمَاتِ المُسلِمِينَ(١).

٥ ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ سَلَام ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفشُوا السَّلَامَ، وَأَطعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»(٢).

قَولُهُ: «**أَفشُوا السَّلَامَ**» يَعْنِي: أَظهِرُوا وَأَعْلِنُوا، وَأَكْثِرُوا مِنَ السَّلامِ.

وَيَنْبَغِي لِلْمُسَلِّم أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ حَتَّىٰ يُسْمَعَ، وَأَلَّا يُسَلِّمَ بِأَنْفِهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ ـ نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَهُمُ الهِدَايَةَ ـ يَكُونُ عِنْدَهُ كِبْرِيَاءٌ أَو عِنْدَهُ جَفَاءٌ، فَإِذَا لَاقَاكَ سَلَّمَ عَلَيْكَ بِأَنْفِهِ، لَا تَكَادُ تَسْمَعُهُ، هَذَا خِلَافُ إِفْشَاءِ السَّلَام. فَإِفْشَاءُ السَّلَامِ: أَنْ تَرْفَعَ صَوْتَكَ وَتَجهَرَ بِهِ. قَالَ العُلَمَاءُ: إِلَّا إِذَا سَلَّمَ عَلَىٰ قَوْمٍ أَيْقَاظٍ بَيْنَهُمْ نِيَامٌ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ رَفْعاً، يَسْتَيْقِظُ بِهِ النِّيَامُ؛ لِأَنَّ هَذَا يُؤْذِي النَّائِمِينَ.

عَن ثَابِتِ بنِ عُبَيدٍ قَالَ: أَتَيتُ مَجلِساً فِيهِ عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ فَقَالَ:

---

(١) العلم الهيِّب (ص٤٧٧ ـ ٤٧٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٢٥١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٣٠).

إِذَا سَلَّمتَ فَأَسمِع؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّةٌ مِن عِندِ اللهِ، مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ[١].

٦ ـ عَن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَولَىٰ النَّاسِ بِاللهِ، مَن بَدَأَهُم بِالسَّلَامِ**»[٢].

أَي: أَقرَبُهُم مِنَ اللهِ بِالطَّاعَةِ، وَمِنْ أَخَصِّهِم بِرَحمَتِهِ وَغُفرانِهِ وَالقُربِ مِنْهُ، مَنْ بَدَأَ أَخَاهُ المُسلِمَ بِالسَّلَامِ عِندَ مُلاقَاتِهِ، لِأَنَّهُ السَّابِقُ إِلَىٰ ذِكرِ اللهِ.

«وَإِنَّمَا كَانَ البَادِئُ أَولَى النَّاسِ بِاللهِ، لِأَنَّهُ سَبَقَ صَاحِبَهُ مِنَ الفَضِيلَةِ، وَالسَّابِقُ هُوَ المُقَرَّبُ، وَلِأَنَّ فِي ذَلِكَ المُسَارَعَةَ إِلَى الخَيرِ، وَاكتِسَابَ الفَضِيلَةِ»[٣].

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ ـ وَهُوَ أَشرَفُ الخَلقِ ـ يَبدَأُ مَن لَقِيَهُ بِالسَّلامِ، فَاحرِص عَلَىٰ أَن تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تُسَلِّمُ عَلَىٰ صَاحِبِكَ، وَلَو كَانَ أَصغَرَ مِنكَ؛ لِأَنَّ خَيرَ النَّاسِ مَن يَبدَؤُهُم بِالسَّلامِ، وَأَولَىٰ النَّاسِ بِاللهِ مَن يَبدَؤُهُم بِالسَّلامِ، فَهَل تُحِبُّ أَن تَكُونَ أَولَىٰ النَّاسِ عِندَ اللهِ؟![٤]

٧ ـ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا انتَهَىٰ أَحَدُكُم إِلَىٰ مَجلِسٍ فَليُسَلِّم، فَإِن بَدَا لَهُ أَن يَجلِسَ فَليَجلِس؛ ثُمَّ إِذَا قَامَ**

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٠٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٧٧٣).

(٢) رواه أبو داود (٥١٩٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٧٥).

(٣) العلم الهيِّب (ص٤٨٢).

(٤) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٣).

فَليُسَلِّم، فَلَيسَتِ الأُولىٰ بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ»[١].

قَالَ العَلَّامَةُ الأَلبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَالسَّلَامُ عِندَ القِيَامِ مِنَ المَجلِسِ أَدَبٌ مَترُوكٌ في بَعضِ البِلَادِ، وَأَحَقُّ مَن يَقُومُ بِإحيَائِهِ هُم أَهلُ العِلمِ وَطُلَّابُهُ، فَينبَغِي لَهُم إِذَا دَخَلُوا عَلَىٰ الطُّلَّابِ في غُرفَةِ الدَّرسِ مَثَلاً أَن يُسَلِّمُوا، وَكذَلِكَ إِذَا خَرَجُوا، فَلَيسَتِ الأُولَىٰ بِأَحَقَّ مِنَ الأُخرَىٰ، وَذَلِكَ مِن إِفشَاءِ السَّلَامِ المَأمُورِ بِهِ في الحَدِيثِ[٢].

وَانظُر مَا قَالَهُ قُرَّةُ لِابنِهِ مُعَاوِيَةَ: «يَا بُنَيَّ! إِن كُنتَ في مَجلِسٍ تَرجُو خَيرَهُ، فَعَجِلَت بِكَ حَاجَةٌ، فَقُل: سَلَامٌ عَلَيكُم، فَإِنَّكَ تُشرِكُهُم فِيمَا أَصَابُوا في ذَلِكَ المَجلِسِ»[٣].

٨ ـ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، عَطَسَ فَقَالَ: الحَمدُ للهِ، فَحَمِدَ اللهَ بِإِذنِهِ؛ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرحَمُكَ اللهُ يَا آدَمُ، اذهَب إِلىٰ أُولَئِكَ المَلائِكَةِ، إِلىٰ مَلإٍ مِنْهُم جُلُوسٍ، فَقُل: السَّلامُ عَلَيكُم، قَالُوا: وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحمَةُ اللهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلىٰ رَبِّهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَينَهُم»**[٤].

٩ ـ عَن زَيدِ بنِ أَرقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَينَا،

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٠٦)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٨٢).

(٢) السلسلة الصحيحة (١/ ٣٥٧).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٠٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الأدب المفرد» (٧٧٥).

(٤) رواه الترمذي (٣٣٦٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٨١).

قُلنَا: وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغفِرَتُهُ[١].

١٠ - عَن أَبِي تَمِيمَةَ الهُجَيمِيِّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ قَومِهِ قَالَ: ... قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ أَخَاهُ المُسلِمَ، فَلْيَقُلْ: السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحمَةُ اللهِ**»[٢].

١١ - عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُم أَخَاهُ فَليُسَلِّم عَلَيهِ، فَإِن حَالَت بَينَهُمَا شَجَرَةٌ أَو جِدَارٌ أَو حَجَرٌ، ثُمَّ لَقِيَهُ فَليُسَلِّم عَلَيهِ أَيضاً**»[٣].

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم كَانُوا يَفعَلُونَهُ، بِمُقتَضىٰ هَذَا الحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ أَصحَابَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا يَكُونُونَ، فَتَستَقبِلُهُمُ الشَّجَرَةُ، فَتَنطَلِقُ طَائِفَةٌ مِنْهُم عَن يَمِينِهَا وَطَائِفَةٌ عَن شِمَالِهَا، فَإِذَا التَقَوا؛ سَلَّمَ بَعضُهُم عَلَىٰ بَعضٍ»[٤].

١٢ - عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيكُم؛ فَرَدَّ عَلَيهِ السَّلامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٣٣٠)، وَجوَّد إسناده الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٤٤٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٧٢١)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٨٨).

(٣) رواه أبو داود (٥٢٠٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٧٦).

(٤) رواه ابن السني في «عمل اليوم وَالليلة» (٢٤١)، وَصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١/ ٣٦٣).

«**عَشرٌ**» ثُمَّ جاءَ آخرُ، فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحمَةُ اللهِ؛ فَرَدَّ عَلَيهِ، فَجَلَسَ، فقَالَ: «**عِشرُونَ**» ثُمَّ جاءَ آخرُ، فقَالَ: السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ؛ فَرَدَّ عَلَيهِ، فَجلسَ، فَقَالَ: «**ثَلاثُونَ**»[(١)].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: لَمَّا كَانَ الإنسَانُ، لا سَبِيلَ لَهُ إِلىٰ انتِفَاعِهِ بِالحَياةِ، إِلَّا بِثَلاثَةِ أَشياءَ:

أَحَدُهَا: سَلامَتُهُ مِنَ الشَّرِّ، وَمِن كُلِّ مَا يُضادُّ حَيَاتَهُ وَعَيشَهُ.

وَالثَّانِي: حُصُولُ الخَيرِ لَهُ.

وَالثَّالِثُ: دَوَامُهُ وَثَبَاتُهُ لَهُ.

فَإِنَّ بِهَذِهِ الثَّلاثَةِ يَكمُلُ انتِفَاعُهُ بِالحَيَاةِ، فَشُرِعَتِ التَّحِيَّةُ مُتَضَمِّنَةً لِلثَّلاثَةِ، فَقَولُهُ: «**السَّلامُ عَلَيكُم**» يَتَضَمَّنُ السَّلامَةَ مِنَ الشَّرِّ، وَقَولُهُ: «**وَرَحمَةُ اللهِ**» يَتَضَمَّنُ حُصُولَ الخَيرِ. وَقَولُهُ: «**وَبَرَكَاتُهُ**» يَتَضَمَّنُ دَوَامَهُ وَثَبَاتَهُ، كَمَا هُوَ مَوضُوعُ لَفظِ البَرَكَةِ، وَهُوَ كَثرَةُ الخَيرِ وَاستِمرَارُهُ. وَلَمَّا كَانَت هَذِهِ الثَّلاثَةُ مَطلُوبَةً لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ هِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِكُلِّ مَطَالِبِهِ، وَكُلُّ المَطَالِبِ دُونَهَا وَسَائِلُ إِلَيهَا، وَأَسبَابٌ لِتَحصِيلِهَا، جَاءَ لَفظُ التَّحِيَّةِ دَالًّا عَلَيهَا.

وَقَدْ عُرِفَ بِهَذَا فَضلُ هَذِهِ التَّحِيَّةِ وَكَمَالُهَا، عَلَىٰ سَائِرِ تَحِيَّاتِ الأُمَمِ، وَلِهَذَا اختَارَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ، وَجَعَلَهَا تَحِيَّتَهُم بَينَهُم فِي الدُّنيَا وَفِي دَارِ السَّلامِ. وَقَدْ بَانَ لَكَ أَنَّهَا مِن مَحَاسِنِ الإِسلامِ وَكَمَالِهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فَرعٌ مِن فُرُوعِ الإِسلامِ، وَهُوَ التَّحِيَّةُ الَّتِي يَعرِفُهَا الخَاصُّ وَالعَامُّ،

---

(١) رواه أبو داود (٥١٩٥)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٧٥).

فَمَا ظَنُّكَ بِسَائِرِ مَحَاسِنِ الإِسلامِ وَجَلالَتِهِ، وَعَظَمَتِهِ وَبَهجَتِهِ الَّتي شَهِدَت بِهَا العُقُولُ وَالفِطَرُ(١).

٣ ـ **الثَّنَاءُ عَلَىٰ اللهِ:**

عَنْ ثَوبَانَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا انصَرَفَ مِن صَلاتِهِ استَغفَرَ ثَلاثاً، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ، وَمِنكَ السَّلامُ، تَبارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكرَامِ**»(٢).

فَتَأَمَّل هَذِهِ الأَلفَاظَ الكَرِيمَةَ كَيفَ جَمَعَت نَوعَي الثَّنَاءِ، أَعنِي: ثَنَاءَ التَّنزِيهِ وَالتَّسبِيحِ، وَثَنَاءَ الحَمدِ وَالتَّمجِيدِ بِأَبلَغِ لَفظٍ وَأَوجَزِهِ وَأَتَمِّهِ مَعنًى، فَأَخبَرَ أَنَّهُ السَّلامُ وَمِنْهُ السَّلامُ، (فَالسَّلامُ) لَهُ وَصفاً وَمُلكاً، وَصِفَاتُ كَمَالِهِ، وَنُعُوتُ جَلالِهِ وَأَفعَالِهِ وَأَسمَائِهِ، كُلُّهَا سَلامٌ(٣).

٤ ـ مَن طَمِعَ فِي أَن يُسَلِّمَ عَلَيهِ المَلِكُ العَلَّامُ، فَلْيُكثِرِ مِنَ السَّلَامِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ.

عَنْ أَبِي طَلحَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَ ذاتَ يَوم، وَالبُشرَىٰ في وَجهِهِ، فَقُلنَا: إِنَّا لَنَرَىٰ البُشرَىٰ في وَجهِكَ؛ فَقَالَ: «**إِنَّهُ أَتَانِي المَلَكُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: أَمَا يُرضِيكَ أَنَّهُ لا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ؛ إِلَّا صَلَّيتُ عَلَيهِ عَشراً، وَلا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ، إِلَّا سَلَّمتُ عَلَيهِ عَشراً؟!**»(٤).

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٦٩ ـ ٦٧٠).

(٢) رواه مسلم (٥٩١).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٦٨٢ ـ ٦٨٣).

(٤) رواه النسائي (١٢٨٢)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٤١٠).

وَكَفَىٰ بِالعَبدِ نُبلاً أَن يُسَلِّمَ عَلَيهِ رَبُّ العَالَمِينَ، وَحَقِيقٌ بِأَن يَسمُوَ وَأَن يَتَقَدَّمَ. وَلَو لَم يَكُن مِن فَوَائِدِ السَّلَامِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا هَذَا المَطلُوبُ وَحدَهُ، لَكَفَىٰ المُؤمِنَ بِهِ شَرَفاً.

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ، إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي، حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيهِ السَّلَامَ**»[1].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ للهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرضِ، يُبَلِّغُونِي مِن أُمَّتِي السَّلَامَ**»[2].

وَهَذِهِ مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، يَنَالُهَا مَنْ سَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ. وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرُدُّ عَلَينَا السَّلامَ وَالرَّحمَةَ وَالبَرَكَةَ، فَهَذَا أَمرٌ عَظِيمٌ.

وَهَذِهِ الفَضِيلَةُ لا يَختَصُّ بِهَا مَنْ سَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قُربٍ، بَلْ بِمَنْ سَلَّمَ عَلَيهِ ﷺ في أَيِّ نَاحِيَةٍ مِنْ مَشَارِقِ الأَرضِ وَمَغَارِبِهَا.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٤١)، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٥٧٠).

(٢) رواه النسائي (١٢٨١)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٤١٠).

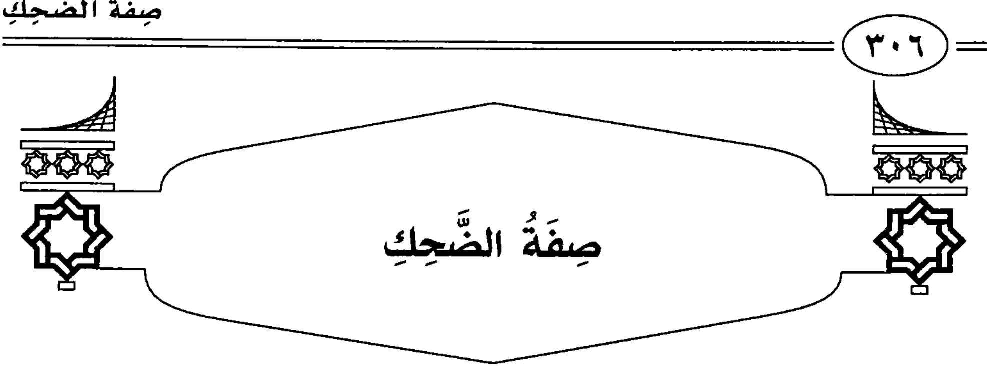

صِفَةُ الضَّحِكِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ ضَحِكِ الرَّبِّ سُبحَانَهُ: فَهُوَ حَقٌّ نَقُولُ فِيهِ مَا قَالَهُ نَبِيُّنَا ﷺ؛ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلا تَعطِيلٍ، وَمِن غَيرِ تَشبِيهٍ وَلا تَمثِيلٍ، بَلْ نُثبِتُ لَهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصِّفَاتِ، «وَنَنفِي عَنْهُ النَّقَائِصَ وَالعُيُوبَ وَمُشَابَهَةَ المَخلُوقَاتِ؛ إِثبَاتاً بِلا تَمثِيلٍ، وَتَنزِيهاً بِلا تَعطِيلٍ، فَمَن شَبَّهَ اللهَ بِخَلقِهِ؛ فَقَد كَفَرَ، وَمَن جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَد كَفَرَ، وَلَيسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ أَو وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشبِيهاً، فَالمُشَبِّهُ يَعبُدُ صَنَماً، وَالمُعَطِّلُ يَعبُدُ عَدَماً، وَالمُوَحِّدُ يَعبُدُ إِلَهاً وَاحِداً صَمَداً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]»[١]. وَهَذِهِ الآيَةُ فِيهَا سِرٌّ عَظِيمٌ، وَمَغزًى كَبِيرٌ، وَتَعلِيمٌ عَظِيمٌ مِن رَبِّ العَالَمِينَ.

«وَالكَلَامُ في الصِّفَاتِ كَالكَلَامِ في الذَّاتِ؛ فَكَمَا أَنَّا نُثبِتُ ذَاتاً لا تُشبِهُ الذَّوَاتِ، فَكَذَلِكَ نَقُولُ في صِفَاتِهِ: إِنَّهَا لَا تُشبِهُ الصِّفَاتِ، فَلَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ؛ لا في ذَاتِهِ، وَلا في صِفَاتِهِ، وَلا في أَفعَالِهِ، فَلا نُشَبِّهُ صِفَاتِ اللهِ بِصِفَاتِ المَخلُوقِينَ، وَلا نُزِيلُ عَنْهُ سُبحَانَهُ صِفَةً مِن صِفَاتِهِ لِأَجلِ شَنَاعَةِ المُشَنِّعِينَ، وَتَلقِيبِ المُفتَرِينَ»[٢].

---

(١) الكافية الشافية (ص٣٧ ـ ٣٨).

(٢) المصدر السابق.

وَمَعلُومٌ أَنَّ صِفَةَ المَخلُوقِ تُنَاسِبُهُ؛ فَالضَّحِكُ لِلمَخلُوقِ هُوَ قَهقَهَةٌ وَصَوتٌ، يَكُونُ عَن شَيءٍ يُعجِبُهُ أَو يُفرِحُهُ أَو يَسُرُّهُ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ يَضحَكُ كَمَا يَشَاءُ، بِصِفَةٍ لا نَعلَمُهَا وَلا نعلَمُ كَيفِيَّتَهَا[1].

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ حَقٌّ، وَكَونُهُ «تَعَالَىٰ الإِلَهَ الحَقَّ يَقتَضِي كَمَالَ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسمَائِهِ، وَوُقُوعَ أَفعَالِهِ عَلَىٰ أَكمَلِ الوُجُوهِ وَأَتَمِّهَا، فَمَن أَنكَرَ شَيئاً مِن ذَلِكَ، فَمَا وَصَفَ اللهَ بِأَنَّهُ الحَقُّ المُطلَقُ، مِن كُلِّ وَجهٍ وَبِكُلِّ اعتِبَارٍ»[2].

وَنُورِدُ لِلقَارِئِ اللَّبِيبِ، جُملَةً مِنَ الأَحَادِيثِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِفَةِ الضَّحِكِ.

١ ـ عَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إِلَىٰ نِسَائِهِ فَقُلنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن يَضُمُّ ـ أَو: يُضِيفُ ـ هَذَا؟**» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنصَارِ: أَنَا؛ فَانطَلَقَ بِهِ إِلَىٰ امرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكرِمِي ضَيفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَت: مَا عِندَنَا إِلَّا قُوتُ صِبيَانِي؛ فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَت طَعَامَهَا، وَأَصبَحَت سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَت صِبيَانَهَا؛ ثُمَّ قَامَت كَأَنَّهَا تُصلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطفَأَتهُ، فَجَعَلا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأكُلانِ، فَبَاتَا طَاوِيَينِ. فَلَمَّا أَصبَحَ غَدَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**ضَحِكَ اللهُ اللَّيلَةَ ـ أَو: عَجِبَ ـ مِن فِعَالِكُمَا**» فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩][3].

---

(١) الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد (ص١٤٣)، للعلامة ابن جبرين.

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٩٥).

(٣) رواه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

٢ ـ عَن شيخٍ مِن بَنِي غِفَارٍ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يُنشِيءُ السَّحَابَ، فَيَنطِقُ أَحسَنَ المَنطِقِ، وَيَضحَكُ أَحسَنَ الضَّحِكِ**»(١).

٣ ـ عَنْ أَبِي مُوسىٰ الأَشعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَجمَعُ اللهُ ﷻ الأُمَمَ في صَعِيدٍ يَومَ القِيَامَةِ... ثُمَّ يَأتِينَا رَبُّنَا ﷻ، وَنَحنُ عَلَىٰ مَكَانٍ رَفِيعٍ فَيَقُولُ: مَنْ أَنتُم؟ فَنَقُولُ: نَحنُ المسلِمُونَ، فَيَقُولُ: مَا تَنتَظِرُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَنتَظِرُ رَبَّنَا ﷻ**» قَالَ: «**فَيَقُولُ: وَهَل تَعرِفُونَهُ إِن رَأَيتُمُوهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَم، فَيَقُولُ: كَيفَ تَعرِفُونَهُ وَلَم تَرَوهُ؟! فَيَقُولُونَ: نَعَم إِنَّهُ لا عِدلَ لَهُ، فَيَتَجَلَّىٰ لَنَا ضَاحِكاً**»(٢).

٤ ـ عَن نُعَيمِ بنِ هَمَّارٍ ﷺ: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ: أَيُّ الشُّهدَاءِ أَفضَلُ؟ قَالَ: «**الَّذِينَ إِن يُلقَوا في الصَّفِّ، لا يَلفِتُونَ وُجُوهَهُم حَتَّىٰ يُقتَلُوا؛ أُولَئِكَ يَنطَلِقُونَ في الغُرَفِ العُلَىٰ مِنَ الجَنَّةِ، وَيَضحَكُ إِلَيهِم رَبُّهُم؛ وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلىٰ عَبدٍ في الدُّنيَا، فَلا حِسَابَ عَلَيهِ**»(٣).

٥ ـ عَنْ أَبِي الدَّردَاءِ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ ﷻ [وَ] يَضحَكُ إِلَيهِم وَيَستَبشِرُ بِهِم: الَّذِي إِذَا انكَشَفَت فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفسِهِ للهِ ﷻ، فَإِمَّا أَن يُقتَلَ وَإِمَّا أَن يَنصُرَهُ اللهُ ﷻ وَيَكفِيَهُ، فَيَقُولُ: انظُرُوا إِلىٰ عَبدِي كَيفَ صَبَرَ لِي نَفْسَهُ؟! وَالَّذِي لَهُ امرَأَةٌ حَسنَاءُ، وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيلِ، فَيَذَرُ شَهوَتَهُ، فَيَذكُرُنِي وَيُنَاجِينِي، وَلَو شَاءَ رَقَدَ. والَّذِي يَكُونُ في سَفَرٍ، وَكَانَ مَعَهُ رَكبٌ، فَسَهِرُوا وَنَصَبُوا**

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٣٥)، وصححه الألباني ﷺ في «الصحيحة» (١٦٦٥).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٠٧)، وصححه الألباني ﷺ بشواهده في «الصحيحة» (٧٥٥).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٨٧)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح الجامع» (١١٠٧).

ثُمَّ هَجَعُوا، فَقَامَ في السَّحَرِ، في سَرَّاءَ أَو ضَرَّاءَ»[١].

٦ ـ عَن أَبي رَزِينٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ضَحِكَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُربِ غِيَرِهِ**» قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَوَيَضحَكُ الرَّبُّ؟ قَالَ: «**نَعَم**» قُلتُ: لَن نَعدِمَ مِن رَبٍّ يَضحَكُ خَيراً[٢].

قَولُهُ: «**ضَحِكَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ**»: القُنُوطُ: أَشَدُّ اليَأسِ. يَضحَكُ الرَّبُّ مِن دُخُولِ اليَأسِ الشَّدِيدِ عَلَىٰ قُلُوبِ العِبَادِ.

قَولُهُ: «**وَقُربِ غِيَرِهِ**»: الوَاوُ بِمَعنىٰ (مَعَ)؛ يَعنِي: مَعَ قُربِ غِيَرِهِ.

«**وَالغِيَرُ**»: اسمٌ بِمَعنىٰ التَّغيِيرِ، وَعَلَىٰ هَذَا؛ فَيَكُونُ المَعنَىٰ: وَقُربِ تَغيِيرِهِ.

قَولُهُ: «**لَنْ نَعْدِمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خيراً**» أَي لَن نَفقِدَ الخَيرَ مِن رَبٍّ يَضحَكُ.

فَجَعَلَ الأَعرَابِيُّ العَاقِلُ ـ بِصِحَّةِ فِطرَتِهِ ـ ضَحِكَهُ دَلِيلاً عَلَىٰ إِحسَانِهِ وَإِنعَامِهِ؛ فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا الوَصفَ مَقرُونٌ بِالإِحسَانِ المَحمُودِ، وَأَنَّهُ مِن صِفَاتِ الكَمَالِ[٣]. وَلَو لَم يَفهَم مِن ضَحِكِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَعنًى، لَمْ يَقُلْ مَا قَالَ.

وَإِذا كَانَ الضَّحِكُ فِينَا مُستَلزِماً لِشَيءٍ مِنَ النَّقصِ، فَاللهُ تَعالى مُنَزَّهٌ عَن ذَلِكَ، فَضَحِكُهُ تَعَالَى يَلِيقُ بِهِ، لا يَلزَمُ عَلَيهِ شَيءٌ مِنَ النَّقصِ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء وَالصفات» (٩٨٣)، وَقوَّاهُ الألباني رَحِمَهُ اللهُ بطرقه وَشواهده في «الصحيحة» (٣٤٧٨).

(٢) رواه ابن ماجه (١٨١)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٦/ ٧٣٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ١٢١).

«وَفي هَذا الحَدِيثِ فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ، أَلا وَهِيَ أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَفهَمُونَ مَعَانِيَ نُصُوصِ الصِّفَاتِ، خِلافاً لِمَا يَدَّعِيهِ فِيهِم مُفَوِّضَةُ المَعَانِي: مِن أَنَّهُم كَانُوا يَقرَؤُونَ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثَهَا قِرَاءَةً مُجَرَّدَةً، دُونَ أَن يَفهَمُوا مِنْهَا أَيَّ مَعنًى؛ فَإِنَّ أَبَا رَزِينٍ ﷺ لَمَّا قَالَ: «**لَنْ نَعْدِمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيراً**»، لا شَكَّ أَنَّهُ فَهِمَ المَعنَىٰ»[1]، وَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ ذَلِكَ.

فَهَذَا الضَّحِكُ مِنَ البَارِي: يَدُلُّ عَلَىٰ غَايَةِ كَرَمِهِ وَجُودِهِ، وَتَنَوُّعِ بِرِّهِ.

وَيَجِبُ عَلَىٰ العَبدِ أَن يَجزِمَ، بِأَنَّ كُلَّ مَا عَارَضَ هَذِهِ الصِّفَةَ العَظِيمَةَ، وَغَيرَهَا مِنَ الصِّفَاتِ الجَلِيلَةِ «فَهُوَ بَاطِلٌ، وَكُلَّ شُبهَةٍ تُورَدُ عَلَيهِ فَهِيَ فَاسِدَةٌ، سَوَاءٌ قَدِرَ العَبدُ عَلَىٰ حَلِّهَا أَم لَا، فَلَا يُوجِبُ لَهُ عَجزُهُ عَن حَلِّهَا القَدحَ فِيمَا عَلِمَهُ، لِأَنَّ مَا خَالَفَ الحَقَّ فَهُوَ بَاطِلٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وَبِهَذِهِ القَاعِدَةِ الشَّرعِيَّةِ: تَنْحَلُّ عَنِ الإِنسَانِ إِشْكَالاتٌ كَثِيرَةٌ يُورِدُهَا المُتَكَلِّمُونَ، وَيُرَتِّبُهَا المَنطِقِيُّونَ، إِن حَلَّهَا الإِنسَانُ فَهُوَ تَبَرُّعٌ مِنْهُ، وَإِلَّا فَوَظِيفَتُهُ أَن يُبَيِّنَ الحَقَّ بِأَدِلَّتِهِ، وَيَدعُوَ إِلَيهِ»[2].

وَاعلَم «وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ لِمَا يُرضِيهِ مِنَ القَولِ وَالنِّيَّةِ وَالعَمَلِ، وَأَعَاذَنَا وَإِيَّاكَ مِنَ الزَّيغِ وَالزَّلَلِ، أَنَّ صَالِحَ السَّلَفِ، وَخِيَارَ الخَلَفِ، وَسَادَةَ الأَئِمَّةِ، وَعُلَماءَ الأُمَّةِ، اتَّفَقَت أَقوَالُهُم، وَتَطَابَقَت آرَاؤُهُم عَلَىٰ الإِيمَانِ»[3] بِصِفَةِ الضَّحِكِ «وَأَمَرُّوهُ كَمَا وَرَدَ مِنْ غَيرِ تَعَرُّضٍ لِكَيفِيَّةٍ، أَوِ

---

(١) تذكرة المؤتسي (ص١٥٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٥٩).

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد (ص٧٨).

اعتِقَادِ شُبْهَةٍ أَو مِثلِيَّةٍ، أَو تَأوِيلٍ يُؤَدِّي إِلَىٰ التَّعطِيلِ، وَوَسِعَتهُمُ السُّنَّةُ المُحَمَّدِيَّةُ، وَالطَّرِيقَةُ المَرْضِيَّةُ، وَلَمْ يَتَعَدَّوهَا إِلَىٰ البِدعَةِ المُرْدِيَةِ الرَّدِيَّةِ، فَحَازُوا بِذَلِكَ الرُّتبَةَ السَّنِيَّةَ، وَالمنزِلَةَ العَلِيَّةَ»[1].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ خُزَيمَةَ رَحِمَهُ اللهُ في كِتَابِ التَّوحِيدِ: (بَابُ ذِكرِ إِثبَاتِ ضَحِكِ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ) بِلا صِفَةٍ تَصِفُ ضَحِكَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، لا! وَلا يُشَبَّهُ ضَحِكُهُ بِضَحِكِ المَخلُوقِينَ وَضَحِكُهُم كَذَلِكَ، بَلْ نُؤمِنُ بِأَنَّهُ يَضحَكُ كَمَا أَعلَمَ النَّبيُّ ﷺ؛ وَنَسكُتُ عَنْ صِفَةِ ضَحِكِهِ جَلَّ وَعَلا، إِذِ اللهُ استَأثَرَ بِصِفَةِ ضَحِكِهِ، لَمْ يُطْلِعْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ، فَنَحنُ قَائِلُونَ بِمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ، مُصَدِّقُونَ بِذَلِكَ بِقُلُوبِنَا، مُنصِتُونَ عَمَّا لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا، مِمَّا استَأثَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِعِلمِهِ[2].

وَقَالَ الإِمَامُ الآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ في كِتَابِ الشَّرِيعَةِ: (بَابُ الإِيمَانِ بِأَنَّ اللهَ يَضْحَكُ) اعلَمُوا ـ وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم لِلرَّشَادِ مِنَ القَولِ وَالعَمَلِ ـ أَنَّ أَهلَ الحَقِّ يَصِفُونَ اللهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ الصَّحَابَةُ. وَهَذَا مَذهَبُ العُلَمَاءِ مِمَّنِ اتَّبَعَ وَلَمْ يَبْتَدِع، وَلا يُقَالُ فِيهِ: كَيفَ؟ بَلِ التَّسلِيمُ لَهُ وَالإِيمَانُ بِهِ: أَنَّ اللهَ يَضْحَكُ، كَذَا رُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ وَعَنْ صَحَابَتِهِ. وَلا يُنكِرُ هَذَا، إِلَّا مَنْ لا يُحمَدُ حَالُهُ، عِندَ أَهْلِ الحَقِّ[3]. ثُمَّ ذَكَرَ أَحَادِيثَ دَالَّةً عَلَىٰ صِفَةِ الضَّحِكِ، إِلَىٰ أَن قَالَ: «هَذِهِ السُّنَنُ كُلُّهَا نُؤمِنُ بِهَا، وَلا نَقُولُ فِيهَا: كَيفَ؟ وَالَّذِينَ نَقَلُوا هَذِهِ السُّنَنَ، هُمُ الَّذِينَ نَقَلُوا إِلَينَا السُّنَنَ في الطَّهَارَةِ، وَفي الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالحَجِّ وَالجِهَادِ، وَسَائِرِ الأَحكَامِ

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد (ص٨٠).
(٢) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب (ص٢٣٠ ـ ٢٣١).
(٣) الشريعة (٢/ ١٠٥١).

مِنَ الحَلالِ وَالحَرَامِ، فَقَبِلَهَا العُلَمَاءُ مِنْهُم أَحسَنَ قَبُولٍ، وَلا يَرُدُّ هَذِهِ السُّنَنَ إِلَّا مَنْ يَذهَبُ مَذْهَبَ المُعتَزِلَةِ، فَمَنْ عَارَضَ فِيهَا أَو رَدَّهَا، أَو قَالَ: كَيفَ؟ فَاتَّهِمُوهُ»[1].

فَمَنْ نَفى عَنِ اللهِ صِفَةَ الضَّحِكِ، فَقَدِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طـه: ٦١]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الضَّحِكِ:

١ ـ إِنَّ المؤمِنَ يُقَابِلُ صِفَةَ الضَّحِكَ بِالقَبُولِ، وَالرِّضَىٰ وَالتَّسلِيمِ، فَيستَنِيرُ بِهَا قَلبُهُ، وَيَتَّسِعُ لَهَا صَدرُهُ، وَيَمْتَلِىءُ بِهَا سُرُوراً وَمَحَبَّةً، وَيَعلَمُ أَنَّهَا تَعرِيفٌ مِنْ تَعرِيفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، تَعَرَّفَ بِهَا إِلَيهِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، فَأَنزَلَهَا مِن قَلبِهِ مَنزِلَةَ الغِذَاءِ، أَعْظَمَ مَا كَانَ إِلَيهِ فَاقَةً، وَمَنزِلَةَ الشِّفَاءِ، أَشَدَّ مَا كَانَ إِلَيهِ حَاجَةً؛ فَاشتَدَّ بِهَا فَرَحُهُ، وَعَظُمَ بِهَا غِنَاهُ، وَقَوِيَت بِهَا مَعْرِفَتُهُ، وَاطمَأَنَّت إِلَيهَا نَفْسُهُ، وَسَكَنَ إِلَيهَا قَلْبُهُ[2].

٢ ـ إِنَّنَا إِذَا عَلِمنَا أَنَّ اللهَ ﷻ يَضحَكُ؛ فَإِنَّنَا نَرجُو مِنْهُ كُلَّ خَيرٍ. وَلِهَذَا قَالَ أَبُو رَزِينٍ العُقَيلِيُّ ﵁ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَوَيَضحَكُ رَبُّنَا؟ قَالَ: «**نَعَم**». قَالَ: لَنْ نَعْدِمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خيراً.

إِذَا عَلِمنَا ذَلِكَ؛ انفتَحَ لَنَا الأَمَلُ في كُلِّ خَيرٍ[3]. وَتَفَاءَلنَا أَعظَمَ تَفَاؤُلٍ، وَاستَبشَرنَا خيراً.

---

(١) الشريعة (٢/١٠٦٨ ـ ١٠٦٩).

(٢) انظر: الكافية الشافية (ص٣٢ ـ ٣٣).

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية (ص٤٠٩)، للعلامة ابن عثيمين ﵀.

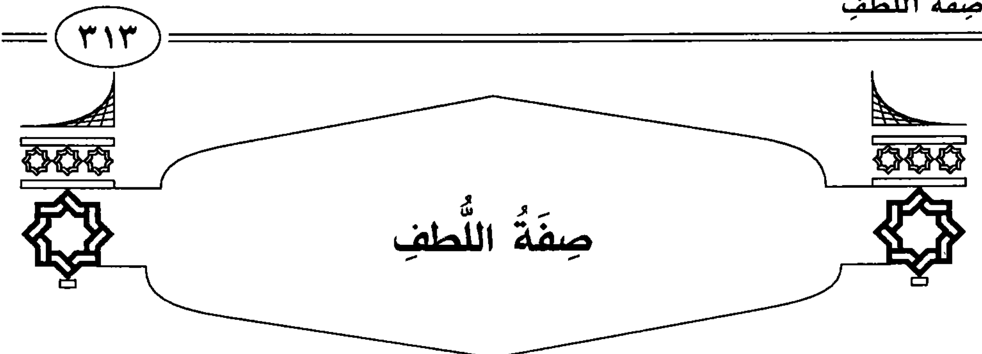

صِفَةُ اللُّطفِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ لُطفِهِ: فَهُوَ اللَّطِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي لُطْفِهِ جلَّ جلالُه. فَهُوَ «اللَّطِيفُ بِعِبَادِهِ: مُعَافَاةً وَإِعَانَةً، وَعَفْواً وَرَحْمَةً، وَفَضْلاً وَإِحْساناً، وَمِنْ مَعَانِي لُطْفِهِ: إدْرَاكُ أَسرَارِ الأُمُورِ، حَيثُ أَحَاطَ بِهَا خِبرَةً: تَفصِيلاً وَإِجمَالاً، وَسِرّاً وَإِعلاناً»[1]. سبحانَه وتعالَى يُدرِكُ بَوَاطِنَ الأَشيَاءِ وَخَفِيَّاتِهَا، وَسَرَائِرَهَا، وَيَسُوقُ إِلىٰ عَبدِهِ الخَيرَ، وَيَدفَعُ عَنْهُ الشَّرَّ، بِطُرُقٍ لَطِيفَةٍ تَخفَىٰ عَلَىٰ العِبَادِ، مِنْ حَيثُ لا يَعلَمُونَ وَلا يَحتَسِبُونَ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وَمِنْهُ التَّلَطُّفُ كَمَا قَالَ أَهلُ الكَهفِ: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبدِهِ	وَاللُّطفُ فِي أَوصَافِهِ نَوعَانِ
إِدرَاكُ أَسرَارِ الأُمُورِ بِخِبرَةٍ	وَاللُّطفُ عِندَ مَوَاقِعِ الإِحسَانِ
فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبدِي لُطفَهُ	وَالعَبدُ فِي الغَفَلاتِ عَن ذَا الشَّانِ[2]

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَنَّهُ يَعلَمُ مَوَاقِعَ القَطرِ مِنَ الأَرضِ، وَبُذُورَ الأَرضِ فِي

---

(١) معارج القبول (١/ ٥٠).

(٢) الكافية الشافية (ص٢١٠).

بَوَاطِنِهَا، فَيَسُوقُ ذَلِكَ المَاءَ، إِلىٰ ذَلِكَ البَذرِ، الَّذِي خَفِيَ عَلَىٰ الخَلائِقِ، فَيُنبِتُ مِنْهُ أَنوَاعَ النَّبَاتِ(١).

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَنَّهُ يَدفَعُ عَنِ العَبدِ «جَمِيعَ المَكرُوهَاتِ: مِنَ الأُمُورِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالأُمُورِ الخَارِجِيَّةِ. فَالأُمُورُ الدَّاخِلِيَّةُ لُطفٌ بِالعَبدِ، وَالأُمُورُ الخَارِجِيَّةُ لُطفٌ لِلعَبدِ. فَإِذَا يَسَّرَ اللهُ عَبدَهُ، وَسَهَّلَ طَرِيقَ الخَيرِ، وَأَعَانَهُ عَلَيهِ، فَقَد لَطَفَ بِهِ. وَإِذَا قَيَّضَ اللهُ لَهُ أَسبَاباً خَارِجِيَّةً، غَيرَ دَاخِلَةٍ تَحتَ قُدرَةِ العَبدِ، فِيهَا صَلاحُهُ، فَقَد لَطَفَ بِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. أَي لُطفُهُ تَعَالَىٰ خَاصٌّ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، مِمَّنْ يَعلَمُهُ تَعَالَىٰ مَحَلًّا لِذَلِكَ، وَأَهلاً لَهُ، فَلا يَضَعُهُ إِلَّا فِي مَحَلِّهِ، وَاللهُ أَعلَمُ حَيثُ يَضَعُ فَضلَهُ، فَإِذَا رَأَيتَ اللهَ تَعَالَىٰ قَد يَسَّرَ العَبدَ لِليُسرَىٰ، وَسَهَّلَ لَهُ طَرِيقَ الخَيرِ، وَذَلَّلَ لَهُ صِعَابَهُ، وَفَتَحَ لَهُ أَبوَابَهُ، وَنَهَجَ لَهُ طُرُقَهُ، وَمَهَّدَ لَهُ أَسبَابَهُ، وَجَنَّبَهُ العُسرَىٰ، فَقَد لَطَفَ بِهِ.

«فَسُبحَانَ اللَّطِيفِ لِمَا يَشَاءُ، الرَّحِيمِ بِالمُؤمِنِينَ»(٢).

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَنَّهُ يَتَوَلَّى المُؤمِنِينَ بِلُطفِهِ، فَيُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلىٰ النُّورِ: مِن ظُلُمَاتِ الجَهلِ وَالكُفرِ، وَالبِدَعِ وَالمَعَاصِي، إِلىٰ نُورِ العِلمِ وَالإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَنَّهُ يُقَدِّرُ لِعِبَادِهِ أَرزَاقَهُم، بِحَسَبِ عِلمِهِ بِمَصلَحَتِهِم، لا بِحَسَبِ مُرَادَاتِهِم، فَقَد يُرِيدُونَ شَيئاً وَغَيرُهُ أَصلَحُ، فَيُقَدِّرُ لَهُمُ الأَصلَحَ وَإِن كَرِهُوا، لُطفاً بِهِم وَبِرّاً وَإِحسَاناً. قَالَ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٥٣ ـ ٧٥٤).

(٢) المصدر السابق (ص٣٤٩).

بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ [الشورىٰ: ١٩]، وَقَالَ تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ [الشورىٰ: ٢٧].

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَنَّهُ يُقَدِّرُ عَلَى عِبَادِهِ أَنواعَ المَصَائِبِ، وَضُرُوبَ المِحَنِ وَالابتِلاءِ بِالأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، رَحمَةً بِهِم وَلُطفاً، وَسَوقاً إِلىٰ كَمَالِهِم وَكَمَالِ نَعِيمِهِم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فَرُبَّ أَمرٍ يَكرَهُهُ الإِنسَانُ فِيهِ نَجاتُهُ، وَرُبَّ أَمرٍ يُحِبُّهُ فِيهِ عَطَبُهُ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن يُقَدِّرَ لِعَبْدِهِ أَن يَتَرَبَّىٰ في وِلايَةِ أَهلِ الصَّلاحِ وَالعِلمِ وَالإِيمَانِ، وَبَينَ أَهلِ الخَيرِ، لِيَكتَسِبَ مِن أَدَبِهِم وَتَأدِيبِهِم، وَلِيَنشَأَ عَلَىٰ صَلاحِهِم وَإِصلاحِهِم، كَمَا امتَنَّ اللهُ عَلَىٰ مَريَمَ في قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وَمِنْ ذَلِكَ: إِذَا نَشَأَ بَينَ أَبَوَينِ صَالِحَينِ وَأَقَارِبَ أَتقِيَاءَ، أَو في بَلَدٍ صَالِحٍ، أَو وَفَّقَهُ لِمُقَارَنَةِ أَهلِ الخَيرِ وَصُحبَتِهِم، أَو لِتَربِيَةِ العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعظَمِ لُطفِهِ بِعَبْدِهِ، فَإِنَّ صَلاحَ العَبدِ مَوقُوفٌ عَلَىٰ أَسبَابٍ كَثِيرَةٍ: مِنْهَا، بَل مِنْ أَكثَرِهَا وَأَعظَمِهَا نَفعاً، هَذِهِ الحَالَةُ. وَمِن ذَلِكَ: إِذَا نَشَأَ العَبدُ في بَلَدٍ أَهلُهُ عَلَىٰ مَذهَبِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَإِنَّ هَذَا لُطفٌ لَهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا قَدَّرَ اللهُ أَن يَكُونَ مَشَايِخُهُ الَّذِينَ يَستَفِيدُ مِنْهُمْ ـ الأَحيَاءُ مِنْهُم وَالأَموَاتُ ـ أَهلَ سُنَّةٍ وَتُقًى، فَإِنَّ هَذَا مِنَ اللُّطفِ الرَّبَّانِيِّ. وَلا يَخفَىٰ لُطفُ البَارِي في وُجُودِ شَيخِ الإِسلَامِ ابنِ تَيمِيَّةَ، وَابنِ القَيِّمِ، وَابنِ رَجَبٍ، وَالذَّهَبِيِّ، وَابنِ كَثِيرٍ، وَابنِ بَازٍ، وَابنِ

عُثَيمِينَ، وَالأَلبَانِيِّ، وَغَيرِهِم في أَثنَاءِ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ وَتَبيينُ اللهِ بِهِم وَبِتَلامِذَتِهِم: مِنَ الخَيرِ الكَثِيرِ وَالعِلمِ الغَزِيرِ، وَجِهَادِ أَهلِ البِدَعِ وَالتَّعطِيلِ وَالكُفرِ، ثُمَّ انتِشَارُ كُتُبِهِم في هَذِهِ الأَوقَاتِ، فَلا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنْ لُطفِ اللهِ لِمَنِ انْتَفَعَ بِهَا، وَأَنَّهُ يَتَوَقَّفُ خَيرٌ كَثِيرٌ عَلَىٰ وُجُودِهَا، فَلِلَّهِ الحَمدُ وَالمِنَّةُ وَالفَضلُ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن يَجعَلَ لِعَبْدِهِ رِزقاً حَلالاً في رَاحَةٍ وَقَنَاعَةٍ، يَحصُلُ بِهِ المَقصُودُ، وَلا يَشغَلُهُ عَمَّا خُلِقَ لَهُ: مِنَ العِبَادَةِ وَالعِلمِ وَالعَمَلِ، بَل يُعِينُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ وَيُفَرِّغُهُ، وَيُرِيحُ خَاطِرَهُ وَأَعضَاءَهُ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: إِذَا قَدَّرَ لِلعَبدِ طَاعَةً جَلِيلَةً، لا تُنَالُ إِلَّا بِالعَونِ، قَدَّرَ لَهُ أَعوَاناً عَلَيهَا، وَمُسَاعِدِينَ عَلَىٰ حَملِهَا. قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلا، حِكَايَةً عَنْ مُوسَىٰ عَلَيهِ السَّلامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٤].

وَامتَنَّ عَلَىٰ سَيِّدِ الخَلقِ في قَولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وَهَذَا لُطفٌ لِعَبدِهِ خَارِجٌ عَن قُدرَتِهِ.

وَمِنْ هَذَا: لُطفُ اللهِ بِالهَادِينَ، إِذَا قَيَّضَ اللهُ مَن يَهتَدِي بِهُدَاهُم وَيَقْبَلُ إِرشَادَهُم، فَتَتَضَاعَفَ بِذَلِكَ الخَيرَاتُ وَالأُجُورُ، الَّتِي لا يُدرِكُهَا العَبدُ بِمُجَرَّدِ فِعْلِهِ، بَلْ هِيَ مَشرُوطَةٌ بِأَمرٍ خَارِجِيٍّ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن يَبتَلِيَ عِبَادَهُ بِبَعضِ المَصَائِبِ، فَيُوَفِّقَهُم لِلقِيَامِ بِوَظِيفَةِ الصَّبرِ فِيهَا، فَيُعَوِّضَهُم عَلَيهَا الثَّوَابَ الجَزِيلَ، وَالأَجرَ الجَمِيلَ.

وَهَذَا مِنْ لُطفِ اللهِ بِالمُؤمِنِينَ: أَن جَعَلَ فِي قُلُوبِهِمُ احتِسَابَ

الأَجرِ، فَخَفَّت مَصَائِبُهُم، وَهَانَ ما يَلقَونَ مِنَ المَشَاقِّ، في حُصُولِ مَرضَاتِهِ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن يُعَافِيَ المُؤمِنَ الضَّعِيفَ مِنْ أَسبَابِ الابتِلَاءِ، الَّتِي تُضعِفُ إِيمَانَهُ وَتُنقِصُ إِيقَانَهُ؛ كَمَا أَنَّ مِن لُطفِهِ بِالمُؤمِنِ القَوِيِّ تَهيِئَةَ أَسبَابِ الِابتِلاءِ وَالِامتِحَانِ وَيُعِينُهُ عَلَيهَا وَيَحمِلُهَا عَنْهُ، وَيَزدَادُ بِذَلِكَ إِيمَانُهُ وَيَعظُمُ أَجرُهُ. فَسُبحَانَ اللَّطِيفِ في ابتِلائِهِ وَعَافِيَتِهِ، وَعَطَائِهِ وَمَنعِهِ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن يَجعَلَ مَا يَبتَلِي بِهِ العَبدَ مِنَ المَعَاصِي سَبَباً لِرَحمَتِهِ، فَيَفْتَحَ لَهُ عِندَ وُقُوعِ ذَلِكَ بَابَ التَّوبَةِ وَالتَّضَرُّعِ، وَالابتِهَالِ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَازدِرَاءِ نَفسِهِ وَاحتِقَارِهَا، وَزَوَالِ العُجبِ وَالكِبرِ مِن قَلبِهِ، مَا هُوَ خَيرٌ لَهُ مِن كَثِيرٍ مِنَ الطَّاعَاتِ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن يُقَدِّرَ تَعَالَىٰ لِعَبدِهِ، وَيَبتَلِيَهُ بِوُجُودِ أَسبَابِ المَعصِيَةِ، وَيُوَفِّرَ لَهُ دَوَاعِيَها، وَهُوَ تَعَالَىٰ يَعلَمُ أَنَّهُ لا يَفعَلُهَا، لِيَكُونَ تَركُهُ لِتِلكَ المَعصِيَةِ، الَّتِي تَوَفَّرَت أَسبَابُ فِعلِهَا، مِنْ أَكبَرِ الطَّاعَاتِ، كَمَا لَطَفَ بِيُوسُفَ عَلَيهِ السَّلامُ في مُرَاوَدَةِ المَرأَةِ؛ وَأَحَدُ السَّبعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ، يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: رَجُلٌ دَعَتهُ امرَأَةٌ ذَاتُ مَنصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ[1].

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَنَّ العَبدَ إِذَا استَغنَىٰ بِمَا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُ عَمَّا حَرَّمَهُ، وَتَنَاوَلَ الحَلالَ المُلائِمَ لِلنُّفُوسِ بِهَذِهِ النِّيَّةِ، كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ، كَمَا قَالَ ﷺ حِينَ ذَكَرَ أَنوَاعاً مِنَ الصَّدَقَاتِ، حَتَّىٰ قَالَ: «**وَفي بُضعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجرٌ؟!

---

(١) المجموعة الكاملة (٥/ ٩٤ ـ ٩٩)، للعلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قَالَ: «**أَرَأَيتُم لَو وَضَعَهَا في حَرَام، أَكَانَ عَلَيهِ فِيهَا وِزرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا في الحَلالِ، كَانَ لَهُ أَجرٌ**»[١].

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَنَّهُ يَدفَعُ عَنْ عَبْدِهِ أَسبَابَ الفِتَنِ، أُمُوراً يَشعُرُ بِهَا وَأُمُوراً لا يَشعُرُ بِهَا، إِعَانةً مِنْهُ وَكَرَماً وَحِفظاً، فَكَم صَرَفَ عَنِ العَبدِ أُمُوراً يَسعَىٰ لِتَحصِيلِهَا، وَيَرَىٰ حَظَّهُ في حُصُولِهَا، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَد صَرَفَ عَنْهُ مَا يَضُرُّهُ[٢].

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن هَدَى المُؤمِنَ إِلىٰ الخَيرِ، هِدَايَةً لا تَخطُرُ بِبَالِهِ، بِمَا يَسَّرَ لَهُ مِنَ الأَسبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلىٰ ذَلِكَ، مِن فِطرَتِهِ عَلَىٰ مَحَبَّةِ الحَقِّ وَالانقِيَادِ لَهُ، وَإِيعَازِهِ تَعَالَىٰ لِمَلائِكَتِهِ الكِرَامِ، أَن يُثَبِّتُوا عِبَادَهُ المُؤمِنِينَ، وَيَحُثُّوهُم عَلَىٰ الخَيرِ، وَيُلقُوا في قُلُوبِهِم مِنْ تَزيِينِ الحَقِّ، مَا يَكُونُ دَاعِياً لاتِّبَاعِهِ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن أَمَرَ المُؤمِنِينَ بِالعِبَادَاتِ الاجتِمَاعِيَّةِ، الَّتِي بِهَا تَقوَىٰ عَزَائِمُهُم، وَتَنبَعِثُ هِمَمُهُم، وَيَحصُلُ مِنْهُمُ التَّنَافُسُ عَلَىٰ الخَيرِ، وَالرَّغبَةُ فِيهِ، وَاقتِدَاءُ بَعضِهِم بِبَعضٍ.

وَمِنْ لُطْفِهِ: أَن قَيَّضَ لِعَبدِهِ كُلَّ سَبَبٍ، يَحُولُ بَينَهُ وَبَينَ المَعَاصِي، حَتَّىٰ إِنَّهُ تَعَالَىٰ، إِذَا عَلِمَ أَنَّ الدُّنيَا وَالمَالَ، وَالرِّيَاسَةَ وَنَحوَهَا، مِمَّا يَتَنَافَسُ فِيهِ أَهلُ الدُّنيَا، تَقطَعُ عَبدَهُ عَنْ طَاعَتِهِ، أَو تَحمِلُهُ عَلَىٰ الغَفلَةِ عَنهُ، أَو عَلَىٰ مَعصِيَتِهِ، صَرَفَهَا عَنهُ[٣]. وَلَم يَدرِ العَبدُ أَنَّ رَبَّهُ قَد لَطَفَ

---

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

(٢) المجموعة الكاملة (٥/ ٤٥١)، للعلامة السعدي رحمه الله.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٦٣ ـ ١٠٦٤).

بِهِ، حَيثُ أَبقىٰ لَهُ الأَمرَ النَّافِعَ، وَصَرَفَ عَنْهُ الأَمرَ الضَّارَّ. وَلِهَذَا، كَانَ الرِّضَىٰ بِالقَضَاءِ في مِثلِ هَذِهِ الأَشيَاءِ، مِنْ أَعلَىٰ المَنَازِلِ.

فَكَم للهِ مِنْ لُطفٍ وَكَرَمٍ، لا تُدرِكُهُ الأَفهَامُ، وَلا تَتَصَوَّرُهُ الأَوهَامُ.

فَسُبحَانَ مَن خَفِيَت أَلطَافُهُ وَدَقَّت، في إِيصَالِهِ البِرَّ وَالإِحسَانَ، إِلَىٰ خَوَاصِّ أَصفِيَائِهِ، وَأَولِيَائِهِ[1].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

يَكفِيكَ رَبٌّ لَم تَزَل أَلطَافُهُ ... تَأتِي إِلَيكَ بِرَحمَةٍ وَحَنَانِ[2]

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ اللُّطفِ:

إِنَّ المُؤمِنَ عِندَمَا يُدرِكُ اتِّصَافَهُ تَعَالَىٰ بِاللُّطفِ، فَإِنَّهُ يُوقِنُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مُتَّصِفٌ بِدِقَّةِ العِلمِ، وَإِحَاطَتِهِ بِكُنهِ الأَشيَاءِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، وَعِندَئِذٍ فَجَدِيرٌ بِهِ أَن يُحَاسِبَ نَفسَهُ عَلَىٰ أَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ، وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، فَإِنَّهُ في كُلِّ وَقتٍ وَحِينٍ بَينَ يَدَي خَالِقِهِ، وَفي قَبضَةِ اللَّطِيفِ الخَبِيرِ، القَائِلِ في كِتَابِهِ الكَرِيمِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وَيَعلَمُ أَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ يُجَازِي النَّاسَ عَلَىٰ أَفعَالِهِم يَومَ الدِّينِ، إِن خَيراً فَخَيرٌ، وَإِن شَرّاً فَشَرٌّ. لا يَفُوتُهُ مِنْ أَعمَالِهِم شَيءٌ، فَلا المُحسِنُ يَضِيعُ مِنْ إِحسَانِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ، وَلا المُسِيءُ يَضِيعُ مِن سَيِّئَاتِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٤٦).

(٢) الكافية الشافية (ص٢٨٧).

[الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وَعَن إحسَانِ المُحسِنِ، قَالَ تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: ٣٠]، وَهُوَ بَعدَ ذَلِكَ يَزِيدُ أُجُورَ الصَّالِحِينَ، مِنْ فَضلِهِ وَكَرَمِهِ مَا يَشَاءُ، وَيَعفُو وَيَتَجَاوَزُ عَنْ ذُنُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِفَضْلِهِ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ بِعَدلِهِ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً.

وَمِن مُقتَضىٰ الإِيمَانِ بِهَذَا الاسمِ الكَرِيمِ: أَن يَحرِصَ المُؤمِنُ أَن يَكُونَ لَهُ حَظٌّ مِنْهُ، فَيَتَلَطَّفَ مَعَ العِبَادِ وَخُصُوصاً في دَعوَتِهِ العُصَاةَ إِلىٰ الحَقِّ، لِيَجلِبَهُم بِلَطِيفِ أَخلاقِهِ، لِأَنَّ الرِّفقَ وَاللِّينَ مَا كَانَ في شَيءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَقُدوَتُهُ في ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَإِنَّهُ تَلَطَّفَ بِالنَّاسِ فَأَخَذَ بِأَلبَابِ العُقُولِ وَأَزِمَّةِ القُلُوبِ، وَلَولا صَبرُهُ عَلَيهِم وَرِفقُهُ بِهِم، لَمَا تَهَيَّأَ لِدِينِ اللهِ مَا تَهَيَّأَ لَهُ: مِنَ النُّصرَةِ وَالتَّمكِينِ وَالبَلاغِ، مَا شَهِدَ بِهِ القَاصِي وَالدَّانِي، وَالمُوَافِقُ وَالمُخَالِفُ[1].

❊ ❊ ❊

(١) منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى (ص٣٤٤).

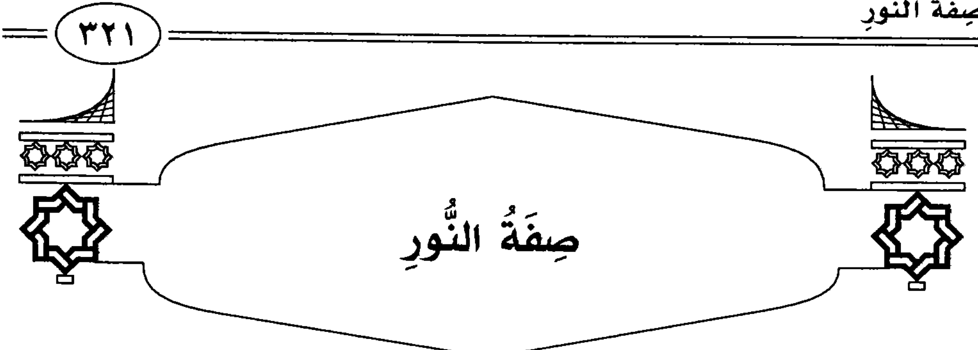

صِفَةُ النُّورِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ نُورِهِ: فَهُوَ نُورٌ لا يُشبِهُ الأَنوَارَ المَخلُوقَةَ، عَلَىٰ حَدِّ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، فَكَمَا أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَهُ عِلمٌ لا يُشبِهُ عِلمَ المَخلُوقِينَ، وَرَحمَةٌ لا تُشبِهُ رَحمَةَ المَخلُوقِينَ، وَقُدرَةٌ لا تُشبِهُ قُدرَةَ المَخلُوقِينَ، فَكَذَٰلِكَ نُورُهُ لا يُشبِهُ نُورَ المَخلُوقِينَ، فَهُوَ نُورٌ لا كَالأَنوَارِ.

وَالنُّورُ مِنْ أَوصَافِهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَوعَينِ:

نُورٌ حِسِّيٌّ: وَهُوَ مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ النُّورِ العَظِيمِ جل جلاله، لا يُفَارِقُ ذَاتَ الرَّبِّ، وَقَد وَرَدَ النَّصُّ بِتَسمِيَةِ الرَّبِّ نُوراً، وَبِأَنَّ لَهُ نُوراً مُضَافاً إِلَيهِ، وَبِأَنَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَبِأَنَّ حِجَابَهُ نُورٌ، فَهَذِهِ أَربَعَةُ أَنوَاعٍ:

فَالأَوَّلُ: يُقَالُ عَلَيهِ سُبحَانَهُ بِالإِطلاقِ، فَإِنَّهُ النُّورُ.

وَالثَّانِي: يُضَافُ إِلَيهِ، كَمَا يُضَافُ إِلَيهِ حَيَاتُهُ وَسَمعُهُ، وَبَصَرُهُ وَعِزَّتُهُ، وَقُدرَتُهُ وَعِلمُهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، فَأَخبَرَ أَنَّ الأَرضَ يومَ القِيَامَةِ تُشرِقُ بِنُورِهِ، الَّذِي هُوَ نُورُهُ، فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ يَأتِي لِفَصلِ القَضَاءِ بَينَ عِبَادِهِ وَينصُبُ كُرسِيَّهُ في الأَرضِ، فَإِذَا جَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ أَشرَقَتِ الأَرضُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تُشرِقَ بِنُورِهِ[1]، وَلَيسَ

---

(١) مختصر الصواعق (٣/ ١٠٣٦ ـ ١٠٣٧).

إِشرَاقُهَا يومَئِذٍ بِشَمسٍ وَلا قَمَرٍ؛ فَإِنَّ الشَّمسَ تُكَوَّرُ، وَالقَمَرُ يُخسَفُ، وَيَذهَبُ نُورُهُمَا[(١)]؛ وَعِندَ المُعَطِّلَةِ لا يَأتِي وَلا يَجِيءُ، وَلا لَهُ نُورٌ تُشرِقُ بِهِ الأَرضُ[(٢)]. فَإِذَا كَانَتِ الأَرضُ يومَ القِيَامَةِ تُشرِقُ مِن نُورِهِ، كَيفَ لا يَكُونُ هُوَ نوراً؟!

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما يَقُولُ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ عز وجل خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلمَةٍ، فَأَلقَىٰ عَلَيهِم مِنْ نُورِهِ؛ فَمَنْ أَصَابَهُ مِن ذَلِكَ النُّورِ اهتَدَىٰ، وَمَن أَخطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ القَلَمُ عَلَىٰ عِلمِ اللهِ**»[(٣)].

وَالثَّالِثُ: وَهُوَ إِضَافَةُ نُورِهِ إِلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، كَقَولِهِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

فَاللهُ سُبحَانَهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ، عَلَىٰ مَا قَالَ. وَمَنْ تَعَدَّىٰ أَن يَقُولَ: اللهُ نُورٌ، فَقَد تَعَدَّىٰ إِلَىٰ غَيرِ سَبِيلِ المُؤمِنِينَ، لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيُسَمِّيَ نَفْسَهُ لِعِبَادِهِ بِمَا لَيسَ هُوَ بِهِ[(٤)].

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَن فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَمَن فِيهِنَّ...**»[(٥)].

---

(١) الوابل الصيب (ص١١٧).

(٢) مختصر الصواعق (٣/ ١٠٣٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٤٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٥٤).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٤٣).

(٥) رواه البخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩).

فَقَدِ اشتَمَلَ هَذَا الحَدِيثُ عَلَىٰ صِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالقَيُّومِيَّةِ وَالنُّورِ، وَهِيَ قَائِمَةٌ بِهِ لا تُفَارِقُهُ، وَآثَارُهَا مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ. فَفَرقٌ بَينَ النُّورِ الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ وَالنُّورِ الَّذِي هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ فَرقاً بَينَ الرَّحمَةِ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ وَالرَّحمَةِ الَّتِي هِيَ مَخلُوقَةٌ، وَلَكِن لَمَّا وُجِدَت بِرَحمَتِهِ سُمِّيَت بِرَحْمَتِهِ. وَكَمَا أَنَّهُ لا يُماثِلُ في صِفَاتٍ مِنَ الصِّفَاتِ خَلقَهُ، فَكَذَلِكَ نُورُهُ سُبحَانَهُ؛ فَإِنَّ «لِنُورِ الرَّبِّ شَأناً، هُوَ أَعظَمُ مِن أَن يَكُونَ لَهُ مِثَالٌ»[1].

وَالرَّابعُ: كَقَولِهِ ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ**»[2].

وَهَذَا النُّورُ لا يُمكِنُ التَّعبِيرُ عَنْهُ إِلَّا بِمِثلِ هَذِهِ العِبَارَةِ النَّبَوِيَّةِ المُؤَدِّيَةِ لِلمَعنَىٰ العَظِيمِ، وَأَنَّهُ لا تُطِيقُ المَخلُوقَاتُ كُلُّهَا الثُّبُوتَ لِنُورِ وَجهِهِ لَو تَبدَّىٰ لَهَا، وَلَولا أَنَّ أَهلَ دَارِ القَرَارِ يُعطِيهِمُ الرَّبُّ حَيَاةً كَامِلَةً، وَيُعِينُهُم عَلَىٰ ذَلِكَ، لَمَا تَمَكَّنُوا مِنْ رُؤيَةِ الرَّبِّ العَظِيمِ؛ وَجَمِيعُ الأَنوَارِ في السَّمَاوَاتِ العُلْوِيَّةِ كُلِّهَا مِنْ نُورِهِ، بَلْ نُورُ جَنَّاتِ النَّعِيمِ - الَّتِي عَرضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرضُ، وَسِعَتُهَا لا يَعلَمُهُ إِلَّا اللهُ - مِنْ نُورِهِ، فَنُورُ العَرشِ وَالكُرسِيِّ وَالجَنَّاتِ مِنْ نُورِهِ، فَضلاً عَنْ نُورِ الشَّمسِ وَالقَمَرِ وَالكَوَاكِبِ.

عَن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَل رَأَيتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**رَأَيتُ نُوراً**». وَفي رِوَايَةٍ: «**نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ؟!**»[3].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٦).

(٢) رواه مسلم (١٧٩)، عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (١٧٨).

فَيَكُونُ ـ وَاللهُ أَعلَمُ ـ مَعْنَىٰ قَولِهِ لأَبي ذَرٍّ: «**رَأَيتُ نُوراً**» أَنَّهُ رَأَىٰ الحِجَابَ، وَمَعنَىٰ قَولِهِ: «**نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ**»: النُّورُ هُوَ الحِجَابُ يَمنَعُ مِن رُؤيَتِهِ، فَأَنَّىٰ أَرَاهُ: أَي: فَكَيفَ أَرَاهُ وَالنُّورُ حِجَابٌ بَينِي وَبَينَهُ يَمْنَعُنِي مِنْ رُؤيَتِهِ![1]

وإِذَا كَانَ نُورُ الحِجَابِ مَانِعاً مِن رُؤيَةِ ذَاتِهِ فَنُورُ ذَاتِهِ سُبحَانَهُ أَعظَمُ مِن نُورِ الحِجَابِ، بَلِ الحِجَابُ إِنَّمَا استَنَارَ بِنُورِهِ، وَهَل يُعقَلُ أَن يَكُونَ النُّورُ حِجَابَ مَن لَيسَ لَهُ نُورٌ؟ هَذَا مِنْ أَبيَنِ المُحَالِ[2].

فَهَذَا النُّورُ المُضَافُ إِلَيهِ يَجيءُ عَلَىٰ أَحَدِ الوُجُوهِ الأَربَعَةِ، وَالنُّورُ الَّذِي احتَجَبَ بِهِ سُمِّيَ نُوراً وَنَاراً، كَمَا وَقَعَ التَّرَدُّدُ فِي لَفْظِهِ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشعَرِيِّ، وَهُوَ قَولُهُ: «**حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّارُ**»، فَإِنَّ هَذِهِ النَّارَ هِيَ نُورٌ، وَهِيَ الَّتِي كَلَّمَ اللُه كَلِيمَهُ مُوسَىٰ مِنْهَا، وَهِيَ نارٌ صَافِيَةٌ لَهَا إِشرَاقٌ بِلا إِحرَاقٍ.

فَالأَقسَامُ ثَلاثَةٌ: إِشرَاقٌ بِلَا إِحرَاقٍ كَنُورِ القَمَرِ، وَإِحرَاقٌ بِلَا إِشرَاقٍ وَهِيَ نَارُ جَهَنَّمَ فَإِنَّهَا سَودَاءُ مُحرِقَةٌ لَا تُضِيءُ، وَإِشرَاقٌ بِإِحرَاقٍ وَهِيَ هَذِهِ النَّارُ المُضِيئَةُ، وَكَذَلِكَ نُورُ الشَّمسِ لَهُ الإِشرَاقُ وَالإِحرَاقُ. فَهَذَا فِي الأَنوَارِ المَشهُورَةِ المَخلُوقَةِ، وَحِجَابُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نُورٌ وَهُوَ نَارٌ، وَهَذِهِ الأَنوَاعُ كُلُّهَا حَقِيقَةٌ بِحَسَبِ مَرَاتِبِهَا، فَنُورُ وَجهِهِ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازٌ، وَإِذَا كَانَ نُورُ مَخلُوقَاتِهِ كَالشَّمسِ وَالقَمَرِ وَالنَّارِ حَقِيقَةً، فَكَيفَ يَكُونُ نُورُهُ الَّذِي نِسْبَةُ الأَنوَارِ المَخْلُوقَةِ إِلَيهِ، أَقَلُّ مِنْ نِسبَةِ سِرَاجٍ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٢٤).

(٢) مختصر الصواعق (٣/ ١٠٣١).

ضَعِيفٍ إِلَىٰ قُرصِ الشَّمسِ، فَكَيفَ لا يَكُونُ هَذا النُّورُ حَقِيقَةً؟[١]

فَنِسبَةُ الأَنوَارِ المَخلُوقَةِ إِلَىٰ نُورِ الرَّبِّ «كَنِسبَةِ العُلُومِ إِلَىٰ عِلمِهِ، وَالقِوَىٰ إِلَىٰ قُوَّتِهِ، وَالغِنَىٰ إِلَىٰ غِنَاهُ، وَالعِزَّةِ إِلَىٰ عِزَّتِهِ، وَالعَبدُ إِذَا سَمَا بَصَرُهُ صُعُداً إِلَىٰ نُورِ الشَّمسِ، غُشِيَ عَلَيهِ دُونَ إِدرَاكِهِ وَتَعَذَّرَ عَلَيهِ غَايَةَ التَّعَذُّرِ، وَأَيُّ نِسبَةٍ لِنُورِ الشَّمسِ إِلَىٰ نُورِ خَالِقِهَا وَمُبدِعِهَا؟! وَإِذَا كَانَ نُورُ البَرقِ يَكَادُ يَلتَمِعُ البَصَرَ وَيَخطِفُهُ وَلا يَقْدِرُ العَبْدُ عَلَىٰ إِدرَاكِهِ، فَكَيفَ بِنُورِ الحِجَابِ؟ فَكَيفَ بِمَا فَوقَهُ؟ وَالأَمرُ أَعظَمُ مِنْ أَن يَصِفَهُ وَاصِفٌ أَو يَتَصَوَّرَهُ عَقلٌ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِيْنَ الَّذِي أَشرَقَتِ الظُّلُمَاتُ لِنُورِ وَجهِهِ، وَعَجِزَتِ الأَفْكَارُ عَنْ إِدرَاكِ كُنْهِهِ، وَدَلَّتِ الآيَاتُ وَشَهِدَتِ الفِطَرُ بِاستِحَالَةِ شَبَهِهِ، فَلَولا أَنَّهُ وَصَفَ نَفسَهُ لِعِبَادِهِ لَمَا أَقدَمُوا عَلَىٰ وَصفِهِ، فَهُوَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ وَكَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ، وَفَوقَ مَا يَصِفُهُ الوَاصِفُونَ»[٢].

وَالنُّوعُ الثَّانِي: نُورُهُ المَعنَوِيُّ وَهُوَ النُورُ الَّذِي نَوَّرَ قُلُوبَ أَنبِيَائِهِ وَأَصفِيَائِهِ وَأَولِيَائِهِ وَمَلائِكَتِهِ، مِنْ أَنوَارِ مَعرِفَتِهِ وَأَنوَارِ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ لِمَعْرِفَتِهِ فِي قُلُوبِ أَولِيَائِهِ المُؤمِنِينَ أَنوَاراً بِحَسَبِ مَا عَرَفُوهُ مِنْ نُعُوتِ جَلالِهِ، وَمَا اعْتَقَدُوهُ مِنْ صِفَاتِ جَمَالِهِ، فَكُلُّ وَصْفٍ مِنْ أَوصَافِهِ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي قُلُوبِهِم، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ المَولَىٰ أَعظَمُ المَعَارِفِ كُلِّهَا، وَالعِلمَ بِهِ أَجَلُّ العُلُومِ، وَالعِلْمُ النَّافِعُ كُلُّهُ أَنوَارٌ فِي القُلُوبِ، فَكَيفَ بِهَذَا العِلمِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ العُلُومِ وَأَجَلُّهَا، وَأَصْلُهَا وَأَسَاسُهَا؟!

---

(١) مختصر الصواعق (٣/ ١٠٣٩ ـ ١٠٤٠).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٠٥٩ ـ ١٠٦٠).

فَكَيفَ إِذَا انْضَمَّ إِلىٰ هَذَا نُورُ مَحبَّتِهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ؟! فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ أَقْطَارُ القَلْبِ وَجِهَاتُهُ مِنَ الأَنوَارِ المُتَنَوِّعَةِ، وَفُنُونِ اللَّذَّاتِ المُتَشَابِهَةِ في الحُسْنِ وَالنَّعِيمِ.

فَمَعَاني العَظَمَةِ وَالكِبرِيَاءِ وَالجَلالِ وَالمَجدِ، تَملأُ قُلوبَهُم مِنْ أَنوَارِ الهَيبَةِ وَالتَّعظِيمِ وَالإِجلالِ وَالتَّكبِيرِ.

وَمَعَانِي الجَمَالِ وَالبِرِّ وَالإِكرَامِ: تَملأُهَا مِنْ أَنوَارِ المَحبَّةِ وَالوُدِّ وَالشَّوقِ.

وَمَعَانِي الرَّحمَةِ وَالرَّأفَةِ وَالجُودِ وَاللُّطفِ: تَملأُ قُلوبَهُم مِنْ أَنوَارِ الحُبِّ النَّامِي عَلىٰ الإِحسَانِ، وَمِنْ أَنوَارِ الشُّكرِ وَالحَمدِ بِأَنوَاعِهِ وَالثَّنَاءِ.

وَمَعَانِي الأُلُوهِيَّةِ: تَملأُهَا مِنْ أَنوَارِ التَّعبُّدِ، وَضِيَاءِ التَّقَرُّبِ، وَسَنَاءِ الحُبِّ، وَأَسرَارِ التَّوَدُّدِ، وَحُرِّيَّةِ التَّعلُّقِ التَّامِّ بِاللهِ رَغبَةً وَرَهبَةً، وَطَلَباً وَإِنَابَةً، وَانصِرَافِ القَلبِ عَن تَعَلُّقِهِ بِالأَغيَارِ كُلِّهَا.

وَمَعَانِي العِلمِ وَالإِحَاطَةِ وَالشَّهَادَةِ وَالقُربِ الخَاصِّ: تَملأُ قُلُوبَهُم مِن أَنوَارِ مُرَاقَبَتِهِ، وَتُوصِلُهُم إِلىٰ مَقَامِ الإِحسَانِ الَّذِي هُوَ أَعلَىٰ المَقَامَاتِ كُلِّهَا؛ أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

فَكُلُّ مَعنًى وَنَعتٍ مِن نُعُوتِ الرَّبِّ يَكفِي في امتِلاءِ القَلبِ مِن نُورِهِ، فَكَيفَ إِذَا تَنَوَّعَت وَتَوَارَدَت عَلىٰ القُلُوبِ الطَّاهِرَةِ الزَّكِيَّةِ الذَّكِيَّةِ، وَهُنَا يَصدُقُ عَلىٰ هَذِهِ القُلُوبِ القُدسِيَّةِ انطِبَاقُ هَذَا المَثَلِ عَلَيهَا، وَهُوَ قَولُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

وَهَذَا النُّورُ المَضرُوبُ هُوَ نُورُ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَبِصِفَاتِهِ وَآيَاتِهِ، مَثَلُهُ فِي قُلُوبِ المُؤمِنِينَ مَثَلُ هَذَا النُّورِ الَّذِي جَمَعَ جَمِيعَ الأَوصَافِ الَّتِي فِيهَا زِيَادَةُ النُّورِ، وَهُوَ أَعظَمُ مَثَلٍ يَعرِفُهُ العِبَادُ.

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ النُّورِ:

إِنَّ المُؤمِنَ إِذَا كَمُلَ إِيمَانُهُ أَنَارَ اللهُ قَلبَهُ، فَانكَشَفَت لَهُ حَقَائِقُ الأَشيَاءِ، وَحَصَلَ لَهُ فُرقَانٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَينَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَصَارَ هَذَا النُّورُ هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ العَبدِ وَقُوَّتُهُ عَلَىٰ الخَيرِ عِلماً وَعَمَلاً، وَانكَشَفَت عَنْهُ الشُّبُهَاتُ القَادِحَةُ فِي العِلمِ وَاليَقِينِ، وَالشَّهَوَاتُ النَّاشِئَةُ عَنِ الغَفلَةِ وَالظُّلمَةِ، «فَهُوَ فِي النَّاسِ كَالرَّجُلِ يَمشِي فِي قُبُورِ الأَموَاتِ، نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمسَةٍ مِنَ النُّورِ: فَكَلامُهُ نُورٌ، وَعِلمُهُ نُورٌ، وَمَدخَلُهُ نُورٌ، وَمَخرَجُهُ نُورٌ، وَمَصِيرُهُ إِلىٰ النُّورِ يَومَ القِيَامَةِ إِلىٰ الجَنَّةِ»[1]. وَالنُّورُ يَتَوَقَّدُ فِي قَلبِهِ، وَيَجرِي عَلَىٰ لِسَانِهِ، وَيَظهَرُ عَلَىٰ وَجهِهِ. وَاكتَسَىٰ «مِنَ الخَيرِ وَالعِلمِ وَالرَّحمَةِ وَالهِدَايَةِ وَالعفوِ وَالجُودِ، وَالصَّبرِ وَالحِلمِ وَالتَّوَاضُعِ وَالنَّصِيحَةِ بِحَسَبِ ذَلِكَ النُّورِ»[2]. وَقَدْ دَعَا ﷺ لِحُصُولِ هَذَا النُّورِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اجعَل فِي قَلبِي نُوراً، وَفِي سَمعِي نُوراً، وَفِي بَصَرِي نُوراً، وَعَن يَمِينِي نُوراً، وَعنْ شِمَالِي نُوراً، وَأَمَامِي نوراً، وَخَلْفِي نوراً، وَفوقِي نُوراً، وَتَحتِي نُوراً، واجعَلنِي نُوراً**»[3].

وَهَذَا النُّورُ الَّذِي يُعطِيهِ اللهُ عَبدَهُ أَعظَمُ مِنَّةٍ مِنْهُ عَلَيهِ، وَهُوَ

---

(١) مختصر الصواعق (٣/ ١٠٥٢).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٠٥٦).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم [١٨٧ ـ (٧٦٣)] ـ واللفظ له ـ.

أَصلُ الخَيرِ[١].

وَإِذَا استَنَارَ القَلبُ أَقبَلَت وُفُودُ الخَيرَاتِ إِلَيهِ مِن كُلِّ نَاحِيَةٍ[٢].

وَمَتَىٰ امتَلأَ القَلبُ مِن هَذَا النُّورِ فَاضَ عَلَىٰ الوَجهِ، فَاستَنَارَ الوَجهُ، وَانقَادَتِ الجَوَارِحُ بِالطَّاعَةِ رَاغِبَةً. وَهَذَا النُّورُ الَّذِي يَكُونُ في القَلبِ هُوَ الَّذِي يَمنَعُ العَبدَ مِنَ ارتِكَابِ الفَوَاحِشِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلا يَسرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسرِقُ وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلا يَشرَبُ الخَمرَ حَينَ يَشرَبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ**»[٣].

فَأَخبَرَ أَنَّ وُقُوعَ هَذِهِ الكَبَائِرِ لا يَكُونُ، وَلا يَقَعُ مَعَ وُجُودِ الإِيمَانِ وَنُورِهِ[٤].

فَمَتَىٰ مَنَّ اللهُ عَلَىٰ العَبدِ بِمَعرِفَةٍ صَحِيحَةٍ مُتَلَقَّاةٍ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَفَقَّهَ في أَسمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَتَعَبَّدَ للهِ بِهَا، وَاجتَهَدَ أَن يُحَقِّقَ مَقَامَ الإِحسَانِ فَيَعبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ فَإِن لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ، وَلَهِجَ بِذِكرِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ استَنَارَ قَلبُهُ وَحَصَلَ لَهُ مِنْ لَذَّةِ المَعرِفَةِ وَمَوَاجِيدِ الإِيمَانِ أَعظَمُ لَذَّاتٍ، وَذَلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ[٥]، وَالإِحسَانِ العَمِيمِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) المجموعة الكاملة (٣/ ٣٨٩)، للعلامة السعدي.

(٢) الداء والدواء (ص٢٧٥).

(٣) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٤) فتح الرحيم الملك العلام (ص٥٧ ـ ٥٩).

(٥) المجموعة الكاملة (٣/ ٣٨٩)، للعلامة السعدي.

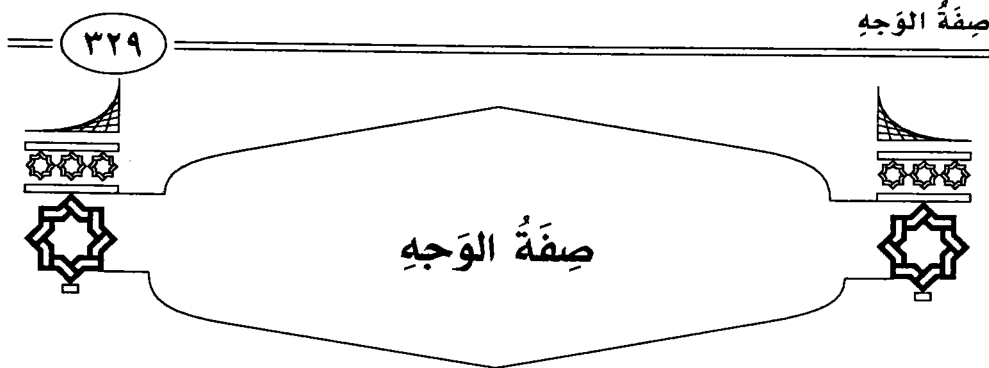

صِفَةُ الوَجهِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ وَجهِهِ: فَهُوَ وَجهٌ مَوصُوفٌ بِالجَلالِ وَالإِكرَامِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]؛ وَمَوصُوفٌ بِالبَهَاءِ وَالعَظَمَةِ، حَتَّىٰ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَو كَشَفَهُ لأَحرَقَت سُبُحَاتُ وَجهِهِ مَا انتَهَىٰ إِلَيهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[1].

قَولُهُ: «**حِجَابُهُ النُّورُ**» أَشَارَ بِذَلِكَ أَنَّ حِجَابَهُ خِلافُ الحُجُبِ المَعهُودَةِ، فَهُوَ مُحتَجِبٌ عَنِ الخَلقِ بِأَنوَارِ عِزِّهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبرِيَائِهِ. وَذَلِكَ هُوَ الحِجَابُ الذي تَدهَشُ دُونَهُ العُقُولُ، وَيُذهِبُ الأَبصارَ، وَتَتَحَيَّرُ البَصَائِرُ[2].

قَولُهُ: «**سُبُحَاتُ وَجهِهِ**» أَيْ: بَهَاؤُهُ وَعَظَمَتُهُ وَجَلالُهُ وَنُورُهُ.

قَولُهُ: «**مَا انتَهَىٰ إِلَيهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»: وَبَصَرُهُ يَنْتَهِي إِلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وَعَلَيهِ فَلَو كَشَفَ هَذَا الحِجَابَ ـ حِجَابَ النُّورِ ـ عَنْ وَجْهِهِ، لاحتَرَقَ كُلُّ شَيءٍ. فَلَم يَبقَ مَخلُوقٌ إِلَّا احتَرَقَ، وَلا مَقطُورٌ إِلَّا اضمَحَلَّ. وَلَكِن مِن رَحمَتِهِ جَلَّ وَعَلا وَمِن حِكمَتِهِ: أَنِ احتَجَبَ عَن خَلقِهِ بِالحِجَابِ المَذكُورِ.

---

(١) رواه مسلم (١٧٩)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة (١/ ٥٧ ـ ٥٨).

«فَإِذَا كَانَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ الأَعْلَىٰ لا يَقُومُ لَهَا شَيءٌ مِنْ خَلْقِهِ وَلَو كَشَفَ حِجَابَ النُّورِ عَنْ تِلكَ السُّبُحَاتِ لاحْتَرَقَ العَالَمُ العُلْوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ، فَمَا الظَّنُّ بِجَلالِ ذَلِكَ الوَجهِ الكَرِيمِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبرِيَائِهِ وَكَمَالِهِ وَجَلالِهِ؟!»[١].

لِهَذَا نَقُولُ: هَذَا وَجهٌ عَظِيمٌ مَوصُوفٌ بِالجَلالِ وَالإِكرَامِ، وَجهٌ لا يُمكِنُ أَبداً أَن يُمَاثِلَ أَوجُهَ المَخلُوقَاتِ، وَلا يُمكِنُ الإِحَاطَةُ بِهِ وَصْفاً، وَلا يُمْكِنُ الإِحَاطَةُ بِهِ تَصَوُّراً، بَلْ كُلُّ شَيءٍ تُقَدِّرُهُ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَوقَ ذَلِكَ وَأَعظَمُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. فَلا يَصِفُهُ الوَاصِفُونَ وَلا يَخْطُرُ بِقَلْبِ بَشَرٍ.

○ الفَائِدَةُ المَسْلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِوَجهِ اللهِ تَعَالَىٰ:

أ ـ قَصْدُ وَجهِ اللهِ بِصَالِحِ الأَعمَالِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] أَي: يَقْصِدُونَ وَجْهَ اللهِ بِالرِّضَا، أَي رِضَا وَجْهِهِ سُبحَانَهُ، وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢١]. فَجَعَلَ غَايَةَ أَعمَالِ الأَبرَارِ وَالمُقَرَّبِينَ وَالمُحِبِّينَ إِرَادَةَ وَجْهِهِ[٢]. أَي: يَقْصِدُونَ بِأَعمَالِهِم وَجْهَ اللهِ، بِدُخُولِهِمُ الجَنَّةَ وَرُؤيَتِهِ فِيهَا.

---

(١) الصواعق (ص١٠٨٣)، لابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) تهذيب المدارج (ص٨١٩).

عَنْ أَبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرأَيتَ رَجُلاً غَزَا يَلتَمِسُ الأَجرَ وَالذِّكرَ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لا شَيءَ لَهُ»** فَأَعَادَهَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لا شَيءَ لَهُ»** ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ، إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصاً وَابتُغِيَ بِهِ وَجهُهُ»**(١).

وَعَنْ عُثمَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ بَنَىٰ مَسجِداً يَبتَغِي بِهِ وَجهَ اللهِ، بَنَىٰ اللهُ لَهُ مِثلَهُ فِي الجَنَّةِ»**(٢).

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا مِنْ جُرعَةٍ أَعظَمَ أَجراً عِندَ اللهِ، مِنْ جُرعَةِ غَيظٍ كَظَمَهَا عَبدٌ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ»**(٣).

وعَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ تَعَلَّمَ عِلماً مِمَّا يُبتَغىٰ بِهِ وَجهُ اللهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنيَا، لَم يَجِد عَرفَ الجَنَّةِ يَومَ القِيَامَةِ»** - يَعنِي: رِيحَهَا -(٤).

وَعن عِتبَانَ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«... فَإِنَّ اللهَ قَد حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَن قَالَ: لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، يَبتَغِي بِذَلِك وَجهَ اللهِ»**(٥).

---

(١) رواه النسائي (٣١٤٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢٩٣٤).

(٢) رواه البخاري (٤٣٩)، ومسلم (٥٣٣).

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٧٧).

(٤) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣١١٢).

(٥) رواه البخاري (٤٢٥ و١١٨٦ و٥٤٠١ و٦٤٢٣ و٦٩٣٨)، ومسلم (٣٣).

وَعَن سَعدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **إِنَّكَ لَن تُخلَّفَ، فَتَعمَلَ عَمَلاً تَبتَغِي بِهِ وَجهَ اللهِ تَعَالَىٰ، إِلَّا ازدَدتَ بِهِ خَيراً، وَدَرَجَةً وَرِفعَةً**»(١).

وَعَن حُذَيفَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَسنَدتُ النَّبيَّ ﷺ إِلَىٰ صَدْرِي فَقَالَ: «**مَن قَالَ: لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن صَامَ يَوماً ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٢).

وَمَتَى أَنفَقَ العَبدُ لِيُرِيدَ مِنَ المُنفَقِ عَلَيهِ جَزَاءً بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، فَهَذا لَم يُرِد وَجهَ اللهِ، وَإِنَّمَا يُقبَلُ مَا كَانَ عَطَاؤُهُ للهِ، وَقَصدُهُ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ.

فَلِهَذا يَنبَغِي لِلعَبدِ، أَن يَقصُدَ وَجهَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيُخْلِصَ العَمَلَ للهِ، في كُلِّ وَقتٍ، وَفي كُلِّ جُزءٍ مِنْ أَجزَاءِ الخَيرِ، لِيَحْصُلَ لَهُ بذَلِكَ الأَجرُ العَظِيمُ، وَلِيَتَعَوَّدَ الإِخلاصَ، فَيَكُونَ مِنَ المُخلِصِينَ، وَلِيُتَمَّ لَهُ الأَجرُ، سَوَاءٌ تَمَّ مَقصُودُهُ أَم لا، لأَنَّ النِّيَّةَ حَصلَت، وَاقتَرَنَ بِهَا، مَا يُمكِنُ مِنَ العَمَلِ(٣).

ب ـ الِاستِعَاذَةُ بِوَجهِهِ سُبحَانَهُ:

عَن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) رواه أحمد (٢٣٤٣١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٨٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٥٤).

يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**». قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ: «**أَعُوذُ بِوَجهِكَ**». قَالَ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا أَهوَنُ أَو هَذا أَيسَرُ**»[١].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا دَخَلَ المَسجِدَ قَالَ: «**أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيم، وَبِوَجهِهِ الكَرِيم، وَسُلطَانِهِ القَدِيم، مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ**» قَالَ: «**فَإِذَا قُلتَ ذَلِك، قَالَ الشَّيطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ اليَومِ**»[٢].

قَالَ ابنُ القَيِّم رحمه الله: فَتَأَمَّل كَيفَ فَرَّقَ في الاستِعَاذَةِ بَينَ استِعَاذَتِهِ بِالذَّاتِ وَبينَ استِعَاذَتِهِ بِالوَجهِ الكَرِيمِ، وَهَذَا صَرِيحٌ في إِبطَالِ قَولِ مَن قَالَ: إِنَّهُ الذَّاتُ نَفسُهَا[٣].

ج ـ إِجَابَةُ مَنْ سَأَلَكَ بِوَجهِ اللهِ:

عَن أَبي مُوسىٰ الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَلعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجهِ اللهِ، وَمَلعُونٌ مَن سُئِلَ بِوَجهِ اللهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ، مَا لَم يَسأَل هُجراً**»[٤].

قَولُهُ: «**هُجراً**» الهُجرُ: الكلامُ البَاطِلُ[٥].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنِ استَعَاذَ بِاللهِ؛**

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٦)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٤١).

(٣) مختصر الصواعق (٣/ ١٠١٠).

(٤) رواه الطبراني، وَحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٨٩٠).

(٥) المجموع (٥/ ٣١٠)، للإمام النووي رحمه الله.

فَأَعيذُوهُ، وَمَن سَأَلَكُم بِوَجهِ اللهِ فَأَعطُوهُ»[١].

قَالَ العَلَّامَةُ الأَلبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَوُجُوبُ الإِعطَاءِ إِنَّمَا هُوَ إِذَا كَانَ المَسؤُولُ قَادِراً عَلَىٰ الإِعطَاءِ، وَلا يَلحَقُهُ ضَرَرٌ بِهِ أَو بِأَهلِهِ، وَإِلَّا فَلا يَجِبُ عَلَيهِ، وَاللهُ أَعلَمُ[٢].

فَلَو سَأَلَكَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَسأَلُكَ بِوَجهِ اللهِ أَن تُعطِيَنِي كَذَا وَكَذَا، أَعطِهِ، إِلَّا إِذَا سَأَلَكَ شَيئاً مُحَرَّماً، فَلا تُعطِهِ، مَثَلاً أَن يَسأَلَكَ يَقُولُ لَكَ: أَسأَلُكَ بِوَجهِ اللهِ أَن تُخبِرَنِي مَاذَا تَصنَعُ مَعَ أَهلِكَ مَثَلاً، هَذَا لا يَجُوزُ أَنْ تُخبِرَهُ، بَلْ وَجِّهْهُ وَانْصَحهُ وَقُل: هَذَا تَدَخُّلٌ فِيمَا لا يَعنِيكَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مِنْ حُسْنِ إِسلامِ المَرءِ تَركُهُ مَا لا يَعنِيهِ»**[٣]. وَكَذلِكَ لَو سَأَلَ مُحَرَّماً وَلَو سَأَلَكَ بِوَجهِ اللهِ لا تُعطِهِ، لَو قَالَ: أَسأَلُكَ بِوَجهِ اللهِ أَن تُعطِيَنِي كَذَا وَكَذَا لِيَشتَرِيَ بِهِ دُخَاناً، فَلا تُعطِهِ، لأَنَّهُ سَأَلَكَ لِيَستَعِينَ بِهِ عَلَىٰ شَيءٍ مُحَرَّمٍ، فَالمُهِمُّ أَنَّ مَن سَأَلَكَ بِوَجهِ اللهِ فَأَعطِهِ مَا لَمْ يَكُن عَلَىٰ شَيءٍ مُحَرَّمٍ. وَكَذَلِكَ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ ضَرَرٌ، فَإِن كَانَ عَلَيْكَ ضَرَرٌ فَلا تُعطِهِ[٤]، لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ»**[٥].

---

(١) رواه أبو داود (٥١٠٨)، وَقَالَ الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٥٥): حسن صحيح.

(٢) السلسلة الصحيحة (١/ ٥١٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٣١).

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٦٥)، للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(٥) رواه ابن ماجه (٢٣٤١)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٩١٠).

د ـ الطَّمَعُ في رُؤيَةِ وَجهِ اللهِ:

عَن عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... **وَأَسأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلىٰ وَجهِكَ**»(١).

وَعَن أَبِي مُوسىٰ الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَينَ القَومِ وَبَينَ أَن يَنظُرُوا إِلىٰ رَبِّهِم إِلَّا رِدَاءُ الكِبرِيَاءِ عَلَىٰ وَجهِهِ في جَنَّةِ عَدنٍ**»(٢).

وَمِن أَعظَمِ نَعِيمِ الجَنَّةِ: التَّمَتُّعُ بِالنَّظَرِ إِلىٰ وَجهِ اللهِ الكَرِيمِ، وَسَمَاعِ كَلامِهِ، وَقُرَّةُ العَينِ بِالقُربِ مِنْهُ وَبِرِضْوَانِهِ.

وَهَلْ فَوقَ نَعِيم قُرَّةِ العَينِ بِرُؤيَةِ اللهِ، الَّذِي لا شَيءَ أَجَلُّ مِنْهُ، وَلا أَكمَلُ وَلا أَجمَلُ، قُرَّةُ عَينِ البَتَّةَ؟!

وَهَذَا ـ وَاللهِ ـ هُوَ العَلَمُ الَّذِي شَمَّرَ إِلَيهِ المُحِبُّونَ، وَاللِّوَاءُ الَّذِي أَمَّهُ العَارِفُونَ، وَهُوَ رُوحُ مُسَمَّىٰ «الجَنَّةِ» وَحَيَاتُهَا، وَبِهِ طَابَتِ الجَنَّةُ، وَعَلَيهِ قَامَت.

فَنسأَلُ اللهَ بِأَسمَائِهِ الحُسنى، وصِفَاتِهِ العُلى، أَن يَرزُقَنَا لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجهِهِ. إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

* * *

---

(١) قطعة من حديث أخرجه النسائي (١٣٠٥و١٣٠٦)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١٢٣٧ و١٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٨) وَ (٤٨٨٠) وَ (٧٤٤٤)، وَمسلم (١٨٠).

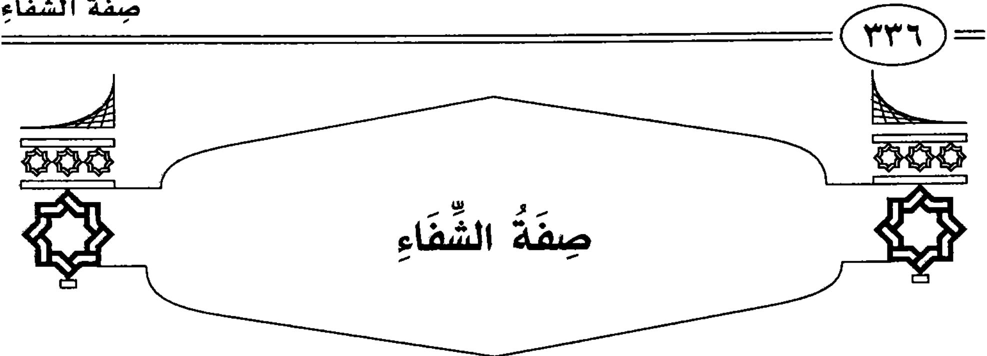

صِفَةُ الشِّفَاءِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ شِفَائِهِ: فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ الشَّافِي الحَقِيقِيُّ لِكُلِّ عَاهَةٍ وَمَرَضٍ.

وَقَدْ أَخبَرَ اللهُ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، بِقَولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٠].

أَسنَدَ إِبرَاهِيمُ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ المَرَضَ إِلىٰ نَفْسِهِ، وَإِن كَانَ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلقِهِ، وَلَكِن أَضَافَهُ إِلىٰ نَفسِهِ أَدَباً.

وَمَعْنىٰ ذَلِكَ: إِذَا وَقَعْتُ فِي مَرَضٍ فَإِنَّهُ لا يَقدِرُ عَلَىٰ شِفَائِي أَحَدٌ غَيرُهُ، بِمَا يُقَدِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الأَسبَابِ المُوصِلَةِ إِلىٰ الشِّفَاءِ[1].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا عَادَ مَرِيضاً يَقُولُ: «**أَذهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَماً**»[2].

وَقَدْ أَنزَلَ اللهُ عز وجل القُرآنَ وَجَعَلَهُ الشِّفَاءَ التَّامَّ مِنْ جَمِيعِ الأَدوَاءِ القَلبِيَّةِ وَالبَدَنِيَّةِ.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٩)، بتصرف.

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم [٤٧ ـ (٢١٩١)] ـ والسِّياق له ـ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

القُرآنُ الكَرِيمُ، رَبِيعُ القُلُوبِ، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ، وَنُورُ البَصَائِرِ، وَحَيَاةُ الأَروَاحِ، وَهُوَ كَلامُ رَبِّ العَالَمِيْنَ[١]. القُرآنُ شِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ، وَإِن لَم يَستَشفِ بِهِ أَكثَرُ المَرْضىٰ، فَهُوَ نَفْسُهُ شِفَاءٌ استُشفِيَ بِهِ أَو لَم يُستَشفَ بِهِ[٢].

فَلَم يُنزِلِ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنَ السَّمَاءِ شِفَاءً قَطُّ أَعَمَّ وَلا أَنفَعَ وَلا أَعظَمَ وَلا أَنجَعَ في إِزَالَةِ الدَّاءِ مِنَ القُرآنِ[٣]، فَمَنِ استَشفَىٰ بِهِ صَحَّ وَبَرِئَ مِنْ مَرَضِهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وَقَالَ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وَ(مِن) هُنَا لِبَيَانِ الْجِنسِ لا لِلتَّبعِيضِ؛ فَإِنَّ القُرآنَ كُلَّهُ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ.

فَالقُرآنُ هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِن جَمِيعِ الأَدوَاءِ القَلبِيَّةِ وَالبَدَنِيَّةِ، وَأَدوَاءِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَمَا كُلُّ أَحَدٍ يُؤَهَّلُ وَلا يُوَفَّقُ لِلاستِشفَاءِ بِهِ، وَإِذَا أَحْسَنَ العَلِيلُ التَّدَاوِيَ بِهِ، وَوَضَعَهُ عَلَىٰ دَائِهِ بِصِدقٍ وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ، وَاعتِقَادٍ جَازِمٍ، وَاستِيفَاءِ شُرُوطِهِ، لَمْ يُقَاوِمْهُ الدَّاءُ أَبَداً.

وَكَيفَ تُقَاوِمُ الأَدوَاءُ كَلامَ رَبِّ الأَرضِ وَالسَّمَاءِ[٤]، الَّذِي لَو أُنزِلَ

(١) شفاء العليل (ص٦٢٩).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٧١).
(٣) الداء والدواء (ص٧).
(٤) زاد المعاد (٤/ ٣٥٢).

عَلَىٰ جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلالَتِهِ[١]؟! فَمَا مِنْ مَرَضٍ مِن أَمرَاضِ القُلُوبِ وَالأَبدَانِ إِلَّا وَفي القُرآنِ سَبِيلُ الدَّلالَةِ عَلَىٰ دَوَائِهِ وَسَبَبِهِ[٢]، وَالحِميَةِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ مُؤذٍ وَمُضِرٍّ، وَمَعَ هَذا فَإِعرَاضُ أَكثَرِ القُلُوبِ عَنهُ، وَعَدَمُ اعتِقَادِهَا الجَازِمِ الَّذِي لَا رَيبَ فِيهِ أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَعَدَمُ استِعمَالِهِ، وَالعُدُولُ عَنْهُ إِلَىٰ الأَدوِيَةِ الَّتِي رَكَّبَهَا بَنُو جِنسِهَا، حَالَ بَينَهَا وَبينَ الشِّفَاءِ بِهِ، وَغَلَبَتِ العَوَائِدُ، وَاشتَدَّ الإِعرَاضُ، وَتَمَكَّنَتِ العِلَلُ وَالأَدوَاءُ المُزْمِنَةُ مِنَ القُلُوبِ، وَتَرَبَّىٰ المَرضَىٰ وَالأَطِبَّاءُ عَلَىٰ عِلاجِ بَنِي جِنسِهِم وَمَا وَضَعَهُ لَهُم شُيُوخُهُم، وَمَن يُعَظِّمُونَهُ وَيُحسِنُونَ بِهِ ظُنُونَهُم، فَعَظُمَ المُصَابُ، وَاستَحْكَمَ الدَّاءُ، وَتَرَكَّبَتْ أَمرَاضٌ وَعِلَلٌ أَعيَىٰ عَلَيهَا عِلاجُهَا، وَكُلَّمَا عَالَجُوهَا بِتِلكَ العِلاجَاتِ الحَادِثَةِ، تَفَاقَمَ أَمرُهَا وَقَوِيَت، وَلِسَانُ الحَالِ يُنَادِي عَلَيهِم:

وَمِنَ العَجَائِبِ وَالعَجَائِبُ جَمَّةٌ ... قُربُ الشِّفَاءِ وَمَا إِلَيهِ وُصُولُ
كَالعِيسِ في البَيدَاءِ يَقتُلُهَا الظَّمَا ... وَالمَاءُ فَوقَ ظَهرِهَا مَحمُولُ[٣]

قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فَمَن لَمْ يَشْفِهِ القُرآنُ، فَلا شَفَاهُ اللهُ، وَمَن لَمْ يَكفِهِ، فَلا كَفَاهُ اللهُ[٤].

عَنْ أَبي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: انطَلَقَ نَفَرٌ مِن أَصحَابِ النَّبيِّ ﷺ في سَفرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّىٰ نَزَلُوا عَلَىٰ حَيٍّ مِنْ أَحيَاءِ العَرَبِ، فَاستَضَافُوهُم

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٥٢).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق (٤/ ١٠١).
(٤) المصدر السابق (٤/ ٣٥٢).

فَأَبَوا أَن يُضَيِّفُوهُم، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ فَسَعَوا لَهُ بِكُلِّ شَيءٍ لا يَنفَعُهُ شَيءٌ، فَقَالَ بَعضُهُم: لَو أَتَيتُم هَؤلاءِ الرَّهطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَن يَكُونَ عِندَ بَعضِهِم شَيءٌ، فَأَتَوهُم فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَينَا لَهُ بِكُلِّ شَيءٍ لا يَنفَعُهُ، فَهَل عِندَ أَحَدٍ مِنكُم مِنْ شَيءٍ؟ فَقَالَ بَعضُهُم: نَعَم، وَاللهِ إِنِّي لأَرقِي، وَلَكِن وَاللهِ لَقَدِ استَضَفنَاكُم فَلَم تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُم حَتَّىٰ تَجعَلُوا لَنَا جُعلاً، فَصَالَحُوهُم عَلَىٰ قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانطَلَقَ يَتفِلُ عَلَيهِ وَيَقرَأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانطَلَقَ يَمشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ. قَالَ: فَأَوفَوهُم جُعلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُم عَلَيهِ، فَقَالَ بَعضُهُم: اقسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَىٰ: لا تَفعَلُوا حَتَّىٰ نَأتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «**وَمَا يُدرِيكَ أَنَّهَا رُقيَةٌ**؟!» ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ أَصَبتُم، اقسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُم سَهماً**» فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ[١].

قَولُهُ: «**فَاستَضَافُوهُم**» أَي: طَلَبُوا مِنهُمُ الضِّيَافَةَ.

قَولُهُ: «**فَلُدِغَ**» اللَّدغُ اللَّسعُ، مِن لَدغِ الحَيَّةِ وَالعَقرَبِ.

قَولُهُ: «**هَؤلاءِ الرَّهطَ**» الرَّهطُ مِنَ الرِّجَالِ: فَمَا دُونَ العَشَرَةِ.

قَولُهُ: «**جُعلاً**» الأُجرَةُ عَلَى الشَّيءِ فِعلاً وَقَولاً.

قَولُهُ: «**قَطِيعٍ**» القَطِيعُ: الجَمَاعَةُ مِنَ الغَنَمِ.

قَولُهُ: «**نُشِطَ مِن عِقَالٍ**» أَي: حُلَّ. وَالعِقَالُ: الَّذِي يُعقَلُ بِهِ البَعِيرُ.

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦)، وَمسلم (٢٢٠١).

قَولُهُ: «**وما بِهِ قَلَبَةٌ**» أَي: وَجَعٌ وَعِلَّةٌ.

قَولُهُ: «**وَمَا يُدرِيكَ؟**» أَي: أَيُّ شَيءٍ أَدرَاكَ، أَي: عَلَّمَكَ وَأَخبَرَكَ.

قَولُهُ: «**أَنَّهَا رُقيَةٌ**» أَي: إِنَّ قِرَاءَةَ الفاتِحَةِ رُقْيَةٌ(١).

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: فَقَد أَثَّرَ هَذَا الدَّوَاءُ في هَذَا الدَّاءِ وَأَزَالَهُ حَتَّىٰ كَانَ لَم يَكُن؛ وَهُوَ أَسهَلُ دَوَاءٍ وَأَيسَرُهُ، وَلَو أَحسَنَ العَبدُ التَّدَاوِيَ بِالفَاتِحَةِ لَرَأَىٰ لَهَا تَأثِيراً عَجِيباً في الشِّفَاءِ(٢).

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الشِّفَاءِ:

أَوَّلاً: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الشَّافِي، وَلا شَافِيَ إِلَّا هُوَ، وَلا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُهُ، وَلا يَرفَعُ المَرَضَ إِلَّا هُوَ.

وَفِي الحَدِيثِ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذهِبِ البَاسَ، وَاشفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي؛ لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفاءً لا يُغَادِرُ سَقَماً**»(٣).

وَقَولُهُ: «**لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ**» صَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاءُ اللهِ، فَشِفَاءُ اللهِ لا شِفَاءُ غَيرِهِ، وَشِفَاءُ المَخلُوقِينَ لَيسَ إِلَّا سَبَباً، وَالشَّافِي هُوَ اللهُ، فَلَيسَ الطَّبِيبُ وَلَيسَ الدَّوَاءُ هُمَا اللَّذَانِ يَشفِيَانِ، بَلِ الطَّبِيبُ سَبَبٌ، وَالدَّوَاءُ سَبَبٌ، وَإِنَّمَا الشَّافِي هُوَ اللهُ.

وَلِهَذَا يَمرَضُ رَجُلانِ بِمَرَضٍ وَاحِدٍ، وَيُدَاوَيَانِ بِدَوَاءٍ وَاحِدٍ، وَعَلَىٰ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَمُوتُ هَذَا، وَيَشفَىٰ ذَاكَ، لأَنَّ الأَمرَ كُلَّهُ

---

(١) العلم الهيِّب (ص٣٩٠ ـ ٣٩١).
(٢) الداء والدواء (ص٨).
(٣) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

بِيَدِ اللهِ فَهُوَ الشَّافِي، وَمَا يُصنَعُ مِنْ أَدوِيَةٍ أَو رُقًى فَهُوَ سَبَبٌ وَنَحْنُ مَأمُورُونَ بِذَلِكَ السَّبَبِ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: **«فَتَدَاوَوْا، وَلا تَتَدَاوَوا بِحَرَامٍ»**[١].

وَقَولُهُ: **«شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَماً»** يَعنِي: شِفَاءً كَامِلاً لا يُبْقِي سَقَماً، أي: لا يُبْقِي مَرَضاً[٢].

فَفِي هَذِهِ الرُّقْيَةِ تَوَسُّلٌ إِلىٰ اللهِ بِكَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَكَمَالِ رَحمَتِهِ بِالشِّفَاءِ، وَأَنَّهُ وَحدَهُ الشَّافِي، وَأَنَّهُ لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُهُ، فَتَضَمَّنَتِ التَّوَسُّلَ إِلَيهِ بِتَوحِيدِهِ وَإِحسَانِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ[٣].

ثَانِياً: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَم يُنزِل دَاءً إِلَّا وَأَنزَلَ لَهُ شِفَاءً، وَلَهُ أَسبَابٌ.

عَن جَابِرٍ ﵁: عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذنِ اللهِ تَعَالَىٰ»**[٤].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ ﵁: يَبلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: **«مَا أَنزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا وَقَدْ أَنزَلَ لَهُ شِفَاءً؛ عَلِمَهُ مَن عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَن جَهِلَهُ»**[٥].

وَعَن أُسَامَةَ بنِ شَرِيكٍ ﵁ قَالَ: أَتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصحَابَهُ، كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمُ الطَّيرُ، فَسَلَّمتُ ثُمَّ قَعَدتُ، فَجَاءَ الأَعرَابُ مِن هَهُنَا وَهَهُنَا؛ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَتَدَاوىٰ؟ فَقَالَ: **«تَدَاوَوا، فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَم**

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٧٤)، وصححه الألباني ﵀ بشواهده في «الصحيحة» (١٦٣٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٥ ـ ٦٦).

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٨٨).

(٤) رواه مسلم (٢٢٠٤).

(٥) رواه أحمد (١/ ٣٧٧)، وصححه الألباني ﵀ في «الصحيحة» (٤٥١).

يَضع دَاءً، إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الهَرَمِ»[١].

وَمِنَ الأَسبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ شِفَاءً:

١ ـ الدُّعَاءُ:

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: **«مَن عَادَ مَرِيضاً لَم يَحضُر أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبعَ مِرَارٍ: أَسأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ أَن يَشفِيَكَ، إِلَّا عَافَاهُ اللهُ مِن ذَلِكَ المَرَضِ»**[٢].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِذَا عَادَ أَحَدُكُم مَرِيضاً، فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ اشفِ عَبدَكَ يَنكَأُ لَكَ عَدُوًّا، أَو يَمشِي لَكَ إِلَىٰ صَلَاةٍ»**[٣].

وَعَن سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: تَشَكَّيتُ بِمَكَّةَ شَكوَىٰ شَدِيدَةً، فَجَاءَنِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي... ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ جَبهَتِي، ثُمَّ مَسَحَ يَدَهُ عَلَىٰ وَجهِي وَبَطنِي، ثُمَّ قَالَ: **«اللَّهُمَّ اشفِ سَعداً»**[٤].

٢ ـ العَسَلُ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٦١).

(٢) رواه أبو داود (٣١٠٦)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٢٧٦).

(٣) رواه أبو داود (٣١٠٧)، وَالحاكم (١/ ٣٤٤) ـ وَاللفظ له ـ. وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٦٨١).

(٤) رواه البخاري (٥٦٥٩)، ومسلم (١٦٢٨).

عَن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً أَتىٰ النَّبِيَّ ﷺ فقَالَ: أَخِي يَشتَكِي بَطنَهُ، فَقَالَ: «**اسقِهِ عَسَلاً**» ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «**اسقِهِ عَسَلاً**»؛ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «**اسقِهِ عَسَلاً**» ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: قَد فَعلتُ؟ فَقَالَ: «**صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطنُ أَخِيكَ، اسقِهِ عَسَلاً**» فَسَقَاهُ فَبَرَأَ[١].

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا الَّذِي وَصَفَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ العَسَلَ، كَانَ استِطلَاقُ بَطنِهِ عَن تُخمَةٍ أَصَابَتهُ عَنِ امتِلَاءٍ، فَأَمَرَهُ بِشُربِ العَسَلِ لِدَفعِ الفُضُولِ المُجتَمِعَةِ فِي نَوَاحِي المَعِدَةِ وَالأَمعَاءِ، فَإِنَّ العَسَلَ فِيهِ جِلَاءٌ، وَدَفعٌ لِلفُضُولِ، وَكَانَ قَد أَصَابَ المَعِدَةَ أَخلَاطٌ لَزِجَةٌ، تَمنَعُ استِقرَارَ الغِذَاءِ فِيهَا لِلُزُوجَتِهَا، فَإِنَّ المَعِدَةَ لَهَا خَملٌ كَخَملِ القَطِيفَةِ، فَإِذَا عَلِقَت بِهَا الخِلَاطُ اللَّزِجَةُ، أَفسَدَتهَا، وَأَفسَدَتِ الغِذَاءَ، فَدَوَاؤُهَا بِمَا يَجلُوهَا مِن تِلكَ الأَخلَاطِ، وَالعَسَلُ مِن أَحسَنِ مَا عُولِجَ بِهِ هَذَا الدَّاءُ، لَا سِيَّمَا إِن مُزِجَ بِالمَاءِ الحَارِّ.

وَفِي تِكرَارِ سَقيِهِ العَسَلَ مَعنًى طِبِّيٌّ بَدِيعٌ، وَهُوَ أَنَّ الدَّوَاءَ يَجِبُ أَن يَكُونَ لَهُ مِقدَارٌ، وَكَمِّيَّةٌ بِحَسَبِ حَالِ الدَّاءِ، إِن قَصَرَ عَنهُ، لَم يُزِلهُ بِالكُلِّيَّةِ، وَإِن جَاوَزَهُ، أَوهىٰ القِوىٰ، فَأَحدَثَ ضَرَراً آخَرَ، فَلَمَّا أَمَرَهُ أَن يَسقِيَهُ العَسَلَ، سَقَاهُ مِقدَاراً لَا يَفِي بِمُقَاوَمَةِ الدَّاءِ، وَلَا يبلُغُ الغَرَضَ، فَلَمَّا أَخبَرَهُ، عَلِمَ أَنَّ الَّذِي سَقَاهُ لا يَبْلُغُ مِقدَارَ الحَاجَةِ، فَلَمَّا تَكَرَّرَ تِردَادُهُ إِلىٰ النَّبِيِّ ﷺ، أَكَّدَ عَلَيهِ المُعَاوَدَةَ لِيَصِلَ إِلىٰ المِقدَارِ المُقَاوِمِ لِلدَّاءِ، فَلَمَّا تَكَرَّرَتِ الشَّربَاتُ بِحَسَبِ مَادَّةِ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذنِ اللهِ، وَاعتِبَارُ مَقَادِيرِ الأَدوِيَةِ، وَكَيفِيَّاتِها، وَمِقدَارِ مُدَّةِ المَرَضِ وَالمَرِيضِ، مِن أَكبَرِ قَوَاعِدِ الطِّبِّ.

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

وَفي قَولِهِ ﷺ: «**صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطنُ أَخِيكَ**»، إِشَارَةٌ إِلىٰ تَحقِيقِ نَفعِ هَذَا الدَّوَاءِ، وَأَنَّ بَقَاءَ الدَّاءِ لَيسَ لِقُصُورِ الدَّوَاءِ في نَفسِهِ، وَلَكِن لِكَذِبِ البَطنِ، وَكَثرَةِ المَادَّةِ الفَاسِدَةِ فِيهِ، فَأَمَرَهُ بِتِكرَارِ الدَّوَاءِ لِكَثرَةِ المَادَّةِ.

وَلَيسَ طِبُّهُ ﷺ كَطِبِّ الأَطِبَّاءِ، فَإِنَّ طِبَّ النَّبِيِّ ﷺ مُتَيَقَّنٌ قَطعِيٌّ إِلَهِيٌّ، صَادِرٌ عَنِ الوَحيِ، وَمِشكَاةِ النُّبُوَّةِ، وَكَمَالِ العَقلِ، وَطِبُّ غَيرِهِ، أَكثَرُهُ حَدْسٌ وَظُنُونٌ، وَتَجَارِبُ، وَلا يُنكَرُ عَدَمُ انتِفَاعِ كَثِيرٍ مِنَ المَرضَىٰ بِطِبِّ النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ إِنَّما يَنتَفِعُ بِهِ مَن تَلَقَّاهُ بِالقَبُولِ، وَاعتِقَادِ الشِّفَاءِ بِهِ، وَكَمَالِ التَّلَقِّي لَهُ بِالإِيمَانِ وَالإِذعَانِ، فَهَذَا القُرآنُ الَّذِي هُوَ شِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ ـ إِن لم يُتَلَقَّ هَذَا التَّلَقِّيَ ـ لم يَحصُل بِهِ شِفَاءُ الصُّدُورِ مِن أَدوائِهَا، بَلْ لا يَزِيدُ المُنَافِقِينَ إِلَّا رِجساً إِلىٰ رِجسِهِم، وَمَرَضاً إِلىٰ مَرَضِهِم، وَأَينَ يَقَعُ طِبُّ الأَبدانِ مِنْهُ، فَطِبُّ النُّبُوَّةِ لا يُنَاسِبُ إِلَّا الأَبدَانَ الطَّيِّبَةَ، كَمَا أَنَّ شِفاءَ القُرآنِ لا يُنَاسِبُ إِلَّا الأَروَاحَ الطَّيِّبَةَ، وَالقُلُوبَ الحَيَّةَ، فَإِعرَاضُ النَّاسِ عَن طِبِّ النُّبُوَّةِ كَإِعرَاضِهِم عَنِ الاستِشفَاءِ بِالقُرآنِ الَّذِي هُوَ الشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَلَيسَ ذَلِكَ لِقُصُورٍ في الدَّوَاءِ، وَلَكِن لِخُبثِ الطَّبِيعَةِ، وَفَسَادِ المَحَلِّ، وَعَدَمِ قَبُولِهِ، وَاللهُ المُوَفِّقُ(١).

عَن أَبِي الأَحوَصِ: أَنَّ رَجُلاً أَتىٰ عَبدَ اللهِ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي مَرِيضٌ اشتَكىٰ بَطنُهُ، وَأَنَّهُ نُعِتَ لَهُ الخَمرُ أَفَأَسقِيهِ؟ قَالَ عَبدُ اللهِ: سُبحَانَ اللهِ! مَا جَعَلَ اللهُ شِفَاءً في رِجسٍ، إِنَّمَا الشِّفَاءُ في شَيئَينِ: العَسَلُ شِفَاءٌ

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٥ ـ ٣٦).

لِلنَّاسِ، وَالقُرآنُ شِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ[١].

٣ ـ الحبَّةُ السَّوداءُ:

عَن أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**في الحَبَّةِ السَّوداءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ**»[٢].

نَبَّهَ ﷺ عَلَى شَرَفِ هَذَا الدَّوَاءِ، وَكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ، وأَنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا المَوْتَ. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَصِحُّ الحُكْمُ عَلَى نَفْعِ هَذَا الدَّوَاءِ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَمِنَ الأَدْوَاءِ مَا يُنَافِيهِ؟ فالجَوَابُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ وَجهَينِ، **أَحَدُهُمَا**: أَنَّهُ يَجُوزُ أَن يَكُونَ لِهَذَا الدَّوَاءِ هَذِهِ الصَّلَاحِيَةُ، وَهُوَ فِي عِلْمِ اللهِ، وَعِلْمِ رَسُولِهِ ﷺ كَذَلِكَ، لَكِنْ يَمْتَنِعُ عِلْمُ ذَلِكَ لَنَا، مِنْ جِهَةِ تَعَذُّرِ الْوَجْهِ الْمُوَافِقِ فِي اسْتِعْمَالِهِ فِي كُلِّ دَاءٍ، فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ: «**فِيهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ**» ولَم يَقُل: يَشفِي مِن كُلِّ دَاءٍ. **والوَجهُ الثَّانِي**: أَن يَكُونَ مِنَ العَامِّ المَخصُوصِ، وَذَكَرَ شِفَاءَهَا مِنَ الأَدواءِ بِصِيغَةِ العُمُومِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا، والعَرَبُ تَصِفُ الوَاحِدَ العَظِيمَ بِصِفَاتِ الجَمعِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠]. وَالأُمَّةُ: الجَمَاعَةُ، فَلِكَثْرَةِ مَا فِي الحَبَّةِ السَّودَاءِ مِنَ المَنَافِعِ، قَالَ: «**فِيهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ**»، وَذَكَرَ الأَطِبَّاءُ فِيهَا مِنَ المَنَافِعِ: نَحْوَ أَربَعِينَ مَنْفَعَةً[٣].

٤ ـ الحِجَامَةُ:

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشِّفَاءُ في ثَلاثَةٍ: في**

---

(١) رواه الطبراني (٨٩١٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٤/١٧٦).

(٢) رواه البخاري (٥٦٥٨)، ومسلم (٢٢١٥).

(٣) صحيح «الطب النبوي»، للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة (ص٦٢، ٦٣).

شَرطَةِ مِحجَمٍ، أَو شَربَةِ عَسَلٍ، أَو كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنَا أَنهَىٰ أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ»(١).

وعَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الحِجَامَةُ عَلَىٰ الرِّيقِ أَمثَلُ، وَفِيهِ شِفَاءٌ وَبَرَكَةٌ؛ وَتَزِيدُ فِي العَقلِ وَفِي الحِفظِ، فَاحتَجِمُوا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ يَومَ الخَمِيسِ**»(٢).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنِ احْتَجَمَ لِسَبعَ عَشرَةَ، وَتِسعَ عَشرَةَ، وَإِحدَىٰ وَعِشرِينَ؛ كَانَ شِفَاءً مِن كُلِّ دَاءٍ**»(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَمثَلَ مَا تَدَاوَيتُم بِهِ الحِجَامَةُ**»(٤).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مَرَرتُ لَيلَةَ أُسرِيَ بِي بِمَلَإٍ مِنَ المَلائِكَةِ، إِلَّا كُلُّهُم يَقُولُ لِي: عَلَيْكَ، يَا مُحَمَّدُ! بِالحِجَامَةِ**»(٥).

٥ ـ الكَمأَةُ:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**العَجوَةُ مِنَ الجَنَّةِ، وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ؛ وَالكَمأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلعَينِ**»(٦).

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨١).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٨٧)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٨٢٥).

(٣) رواه أبو داود (٣٨٦١)، وَحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٥٩٦٨).

(٤) رواه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧).

(٥) رواه الترمذي (٢٠٥٣)، وَابن ماجه (٣٤٧٧) ـ وَاللفظ له ـ. وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٨١٨).

(٦) رواه الترمذي (٢٠٦٦)، وَصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٤١٢٦).

الكَمأَةُ: هِيَ الَّتِي تُعرفُ عِنْدَ النَّاسِ بِالفَقْعِ، تَنبُتُ مِنْ كَثرَةِ الأَمطَارِ، وَلا سِيَّمَا الأَمطَارُ المَوسِمِيَّةُ. وَهِيَ مَعرُوفَةٌ، لَذِيذَةُ الطَّعمِ، تَنبُتُ عَلَىٰ الأَرضِ، وَإِذَا كَبُرَت يَأخُذُهَا النَّاسُ: بِدُونِ كُلفَةٍ وَبِدُونِ مَشَقَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**الكَمأَةُ مِنَ المَنِّ**» أَي مِمَّا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ: بِيُسرٍ وَسُهُولَةٍ «**وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلعَينِ**» يَعنِي أَنَّ المَاءَ الَّذِي يُستَخْرَجُ مِنْهَا: إِذَا مَرِضَتِ العَينُ بَسَبَبِ الرُّطُوبَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ تَشفِيهِ بِإِذنِ اللهِ ﷻ[١].

وَقَولُهُ ﷺ: «**مِنَ الْمَنِّ**» أَي هِيَ مِمَّا مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى العِبَادِ، وقِيلَ: شَبَّهَهَا بِالمَنِّ، وَهِيَ العَسَلُ الحُلْوُ الَّذِي يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَفْواً بِلَا عِلَاجٍ. وَكَذَلِكَ الكَمْأَةُ لَا مَؤُونَةَ فِيهَا بِبَذْرٍ، ولَا سَقْيٍ، ولَا نَحوِهِمَا، وَهِيَ جَوهَرٌ أَرضِيٌّ، وَهِيَ بَارِدَةٌ رَطْبَةٌ، وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الأَطِبَّاءِ، أَنَّ مَاءَهَا يَجلُو العَينَ. وَلَم يَقُل ﷺ فِيهَا كَمَا قَالَ فِي الحَبَّةِ السَّودَاءِ، فَإِنَّهَا عَكْسُهَا فِي كَثْرَةِ مَضَارِّهَا، فَإِنَّهَا بَطِيئَةُ الهَضمِ، تُثْقِلُ فِي المَعِدَةِ، وَتُورِثُ القُولَنْجَ، وعُسرَ البَولِ، وتُفسِدُ النَّكهَةَ، وَتُوَلِّدُ خَلْطاً غَلِيظاً سَودَاوِيّاً وبَلغَمِيّاً، ويُخَافُ مِنهَا الفَالِجُ، والسَّكتَةُ، وَمِنهَا نَوعٌ قَاتِلٌ. والأَخضَرُ والأَسْوَدُ والطَّاوُوسِيُّ يُحدِثُ ضِيْقَ نَفَسٍ وَذَبْحَةً، ونَفْخَةَ البَطْنِ، والمَعِدَةِ، وَنَوَاقاً، ومَغصاً، وصُفرَةَ اللَّونِ، وغَيْرَ ذَلِكَ. فَلِذَلِكَ، لَم يَذكُر ﷺ عَنِ النَّفعِ، سِوَى أَنَّ مَاءَهَا شِفَاءٌ لِلعَيْنِ، وتَخصِيصُهُ ﷺ مَاءَهَا بِالشِّفَاءِ، يَدُلُّ بِمَفْهُومِهِ عَلَى نَفْيِ الشِّفَاءِ عَن غَيْرِهِ. وَلَا عَجَبَ مِن ذَلِكَ، لِأَنَّهُ ﷺ قَد أُوتِيَ جَوَامِعَ الكَلِمِ. واللهُ تَعَالَى أَعلَمُ[٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/٥٤٨).

(٢) صحيح «الطب النبوي»، للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة (ص٩٠).

٦ ـ أَلبَانُ البَقَرِ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«عَلَيكُم بِأَلبَانِ البَقَرِ، فَإِنَّهَا تَرُمُّ مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ، وَهُوَ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ»**[1].

وَقَوْلُهُ ﷺ: **«تَرُمُّ»**، أَيْ تَأْكُلُ.

وَالحَدِيثُ مُشتَمِلٌ عَلَى فَصلَينِ: أَحَدُهُمَا: إِخبَارُهُ ﷺ أَنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ، وذَلِكَ يَقتَضِي حَثَّ العَزَائِمِ، وتَحرِيكَ الهِمَمِ عَلَى تَعَلُّمِ الطِّبِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا عُلِمَ إِمكَانُ شِفَاءِ كُلِّ دَاءٍ وَأَنَّ لَهُ دَوَاءً، رَغِبَ الإِنسَانُ فِي العِلمِ بِهِ، فَإِنَّ الصِّحَّةَ أَشرَفُ المَطَالِبِ، لأَنَّ بِهَا تَمَامَ أُمُورِ الدِّينِ والدُّنيَا، وَكَمَالَ الأَنفُسِ، وعِلْمُ الطِّبِّ كَالكَافِلِ بِحِفظِهَا مَوجُودَةً ورَدِّهَا مَفقُودَهَا. وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مُفتَقِراً إِلَى حُصُولِ الإِمكَانِ، وَمُتَوَقِّفاً عَلَى الِاستِعدَادِ الخَاصِّ، قَالَ ﷺ: **«عَلِمَ ذَلِكَ مَنْ عَلِمَهُ، وَجهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»**.

فَإِنْ قُلْتَ: بَعْضُ الأَدوَاءِ لَهُ، قُلْتُ: إِنْ أَرَدتُّم أَنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهُ نَعلَمُهُ فَمُسَلَّمٌ، وَلَا يَلزَمُ مِن عَدَمِ عِلْمِ العُلَمَاءِ كُلِّهِم بِهِ، أَن لَا يَكُونَ فِي نَفْسِ الأَمرِ، قَد نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ ﷺ بِقَولِهِ: **«عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»**. وَأَخفَىٰ ذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِحِكمَتِهِ فِي بَرِيَّتِهِ، وَنُفُوذِ قَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ فِي إِتمَامِ نُفُوذِ المَشِيئَةِ! بِالأَجَلِ المُقَدَّرِ لِكُلِّ شَخصٍ.

إِنَّ بَعضَ الأَدوَاءِ الَّتِي عُرِفَت أَدوِيَتُهَا، قَد يَقَعُ فِي عِلَاجِهَا مِنَ الغَلَطِ بِمَا يُوجِبُ الفَسَادَ الكُلِّيَّ، وَيَتَعَذَّرُ تَلَافِيهِ، وَرُبَّمَا كَانَ الغَلَطُ مِنَ الطَّبِيبِ لِعَدَمِ مَعرِفَتِهِ لِلمَرَضِ، أَوِ السَّبَبِ، لِاشتِبَاهِهِ عَلَيهِ بِغَيرِهِ مِنَ

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٤٠٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٤٠٥٩).

الأَدوَاءِ بِالنَّفعِ فِي مَرَضٍ، ثُمَّ يَعرِضُ لَهُ التَّغَيُّرُ فِي ذَاتِهِ فَينقَلِبُ إِلَى جَانِبٍ، أَو مِنَ المَرِيضِ إن لَم يُطِع فِي وَاجِبِ التَّدبِيرِ، أَو مِنَ المُبَاشِرِ لِخِدمَتِهِ، إِلَى غيرِ ذَلِكَ.

الفَصلُ الثَّانِي: فِي التَّنبِيهِ عَلَى كَثرَةِ مَنَافِعِ هَذِهِ الأَلبَانِ: فَإِنَّهُ ﷺ بَعدَ أَن ذَكَرَ «**لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ**»، بِفَاءِ التَّعقِيبِ المُقتَضِيَةِ لِلسَّبَبِيَّةِ، مَعَ لَفظَةِ الإِغرَاءِ الَّتِي هِيَ «عَلَيكُم»، المُقتَضِيَةِ لِتَأكِيدِ الحَثِّ. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي هَذِهِ الأَلبَانِ مَنَافِعَ شَتَّى، فِي أَمرَاضٍ شَتَّى، وَلَم يَقتَصِر عَلَى ذَلِكَ، بَل عَلَّلَهُ بِعِلَّةٍ صَحِيحَةٍ مُنَاسِبَةٍ، وَهِيَ قَولُهُ ﷺ: «**فَإِنَّهَا تَرُمُّ مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ**» وَقَد قَالَ الأَطِبَّاءُ: إِنَّ الأَلبَانَ تَختَلِفُ بِحَسَبِ مَرعَى حَيَوَانِهَا، فَالمَرعَى الحَارُّ يَجعَلُ اللَّبَنَ حَارّاً، وَالمَرعَى البَارِدُ: يَجعَلُهُ بَارِداً، وَعَلَى قِيَاسِ ذَلِكَ بَاقِي الكَيفِيَّاتِ. فَقَولُه ﷺ: «**تَرُمُّ مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ**»، يُرِيدُ اختِلَافَ لَبَنِها بِاختِلَافِ مَرَاعِيهَا، وَإِذَا اختَلَفَ: صَحَّ القَولُ بِنَفعِهَا مِن أَدوَاءَ كَثِيرَةٍ، فَمَا أَحسَنَ هَذَا الحُكمَ وَالتَّعلِيلَ وَأَوجَزَهُ، وَاللهُ أَعلَمُ[١].

٧ ـ أَلْيَةُ شَاةٍ أَعرَابِيَّةٍ:

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**شِفَاءُ عِرقِ النَّسَا، أَلْيَةُ شَاةٍ أَعرَابِيَّةٍ تُذَابُ، ثُمَّ تُجَزَّأُ ثَلَاثَةَ أَجزَاءٍ؛ ثُمَّ يُشرَبُ عَلَىٰ الرِّيقِ، فِي كُلِّ يَومٍ جُزءٌ**»[٢].

---

(١) صحيح «الطب النبوي»، للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة (ص٩٧ ـ ٩٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٦٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٨٠٥).

٨ ـ العَجوَةُ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ في عَجوَةِ العَالِيَةِ شِفَاءً، وَأَنَّهَا تِريَاقٌ أَوَّلَ البُكرَةِ**»(١).

٩ ـ العُودُ الهِندِيُّ:

عَن أَمِّ قَيسٍ بِنتِ مِحصَنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَت: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**عَلَيكُم بِهَذَا العُودِ الهِندِيِّ، فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشفِيَةٍ: يُستَعَطُ بِهِ مِنَ العُذرَةِ، وَيُلَدُّ بِهِ مِنْ ذَاتِ الجَنبِ**»(٢).

١٠ ـ زَمزَمُ:

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَيرُ مَاءٍ عَلَىٰ وَجهِ الأَرضِ مَاءُ زَمزَمَ، فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطُّعمِ، وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقمِ**»(٣).

١١ ـ السَّنىٰ وَالسَّنُّوتُ:

عَن أَبِي أُبَيٍّ ابنِ أُمِّ حَرَامٍ ـ وَكَانَ قَد صَلَّىٰ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ القِبلَتَينِ ـ يَقُولُ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**عَلَيكُم بِالسَّنىٰ، وَالسَّنُّوتِ، فَإِنَّ فِيهِمَا شِفَاءً مِن كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا السَّامُ؟ قَالَ: «**المَوتُ**»(٤).

(**السَّنىٰ**): نَبَاتٌ كَأَنَّهُ الحِنَّاءُ، زَهرُهُ إِلىٰ الزُّرقَةِ، وَحَبُّهُ مُفرَطَحٌ إِلىٰ

---

(١) رواه مسلم (٢٠٤٨).

(٢) رواه البخاري (٥٦٩٢)، ومسلم (٢٢١٤).

(٣) رواه الطبراني (١١١٦٧)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب» (١١٦١).

(٤) رواه ابن ماجه (٣٤٥٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٨٠١).

الطُّولِ، وَأَجوَدُهُ الحِجَازِيُّ، وَيُعرَفُ بِـ (السَّنىٰ المَكِّيِّ). كَمَا في «المُعجَمِ الوَسِيطِ».

وَ(**السَّنُّوتُ**): العَسَلُ. وَقِيلَ: الرُّبُّ. وَقِيلَ: الكَمُّونُ. كَمَا في «النِّهَايَةِ»، وَبِالأَخِيرِ جَزَمَ في «الوَسِيطِ»[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) السلسلة الصحيحة (٤/ ٤٠٩).

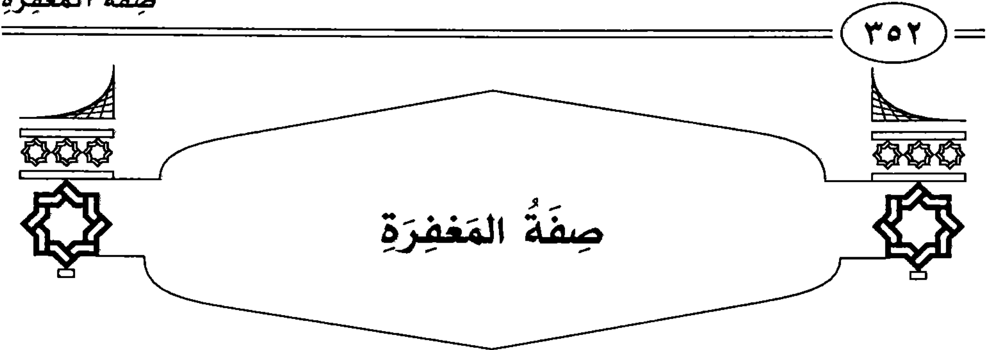

صِفَةُ المَغفِرَةِ

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ مَغْفِرَتِهِ: فَهُوَ غَافِرُ الذُّنُوبِ وَغَفَّارُهَا وَغَفُورُهَا، كَمَا قَالَ عَجَّلَ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣]. وَقَالَ فِيمَا حَكَاهُ عَنْ نَبِيِّهِ نُوحٍ عَلَيهِ السَّلامُ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠﴾ [نوح: ١٠]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٩٩]. وَقَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢].

وَالمَغْفِرَةُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، لا تَنفَكُّ ذَاتُهُ عَنهَا، وَلَم تَزَل آثَارُهَا سَارِيَةً فِي الوُجُودِ، مَالِئَةً لِلمَوجُودِ، تَشمَلُ الخَلِيقَةَ آنَاءَ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ، فَمَغفِرَتُهُ وَسِعَتِ المَخلُوقَاتِ وَالذُّنُوبَ وَالجَرَائِمَ. قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢]، «فَلَولَا مَغفِرَتُهُ، لَهَلَكَتِ البِلَادُ وَالعِبَادُ»[1].

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النَّجم: ٣٢]، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«إِن تَغفِرِ اللَّهُمَّ تَغفِر جَمًّا وَأَيُّ عَبدٍ لَكَ لا أَلَمَّا»[2]

وَالجَمُّ: بِمَعنَىٰ الكَثِيرِ العَظِيمِ. أَي: مِن شَأنِكَ غُفرَانُ الذُّنُوبِ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١١٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦١٨).

الكَبيرَةِ الكَثِيرَةِ فَضلاً عَنِ الصَّغَائِرِ؛ لأَنَّهَا لا يَخلُو عَنهَا أَحَدٌ، وأَنَّهَا مُكَفَّرَةٌ بِالحَسَنَاتِ.

وَمِنْ سِعَةِ مَغْفِرَتِهِ: مَا قَالَهُ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

فَيَا لَهَا مِنْ بِشَارَةٍ تَرتَاحُ لَهَا قُلُوبُ المُؤمِنِينَ المُحسِنِينَ ظَنَّهُم بِرَبِّهِم، الصَّادِقِينَ في رَجَائِهِ الخَالِعِينَ لِثِيَابِ القُنُوطِ الرَّافِضِينَ لِسُوءِ الظَّنِّ بِمَنْ لا يَتَعَاظَمُهُ ذَنبٌ، وَلا يَبخَلُ بِمَغفِرَتِهِ وَرَحمَتِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، المُتَوَجِّهِينَ إِلَيهِ في طَلَبِ العَفوِ، المُلتَجِئِينَ بِهِ في مَغفِرَةِ ذُنُوبِهِم، وَمَا أَحسَنَ مَا عَلَّلَ بِهِ سُبحَانَهُ هَذَا الكَلامَ قَائِلاً: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] أَي كَثِيرُ المَغفِرَةِ وَالرَّحمَةِ عَظِيمُهُمَا بَلِيغُهُمَا وَاسِعُهُمَا. وَمَنْ أَبىٰ هَذَا الفَضْلَ العَظِيمَ، وَالعَطَاءَ الجَسِيمَ، وَظَنَّ أَنَّ تَقنِيطَ عِبَادِ اللهِ وَتَأيِيسَهُم مِنْ رَحْمَتِهِ أَولىٰ بِهِم مِمَّا بَشَّرَهُمُ اللهُ بِهِ، فَقَد رَكِبَ أَعظَمَ الشَّطَطِ وَغَلَطَ أَقبَحَ الغَلَطِ، فَإِنَّ التَّبشِيرَ وَعَدَمَ التَّقنِيطِ هُوَ الَّذِي جَاءَت بِهِ مَوَاعِيدُ اللهِ في كِتَابِهِ العَزِيزِ، وَالمَسلَكُ الَّذِي سَلَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ[1].

وَمِنْ سِعَةِ مَغْفِرَتِهِ: مَا قَالَهُ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

أَي: مَنْ تَجَرَّأَ عَلَىٰ المَعَاصِي، وَاقتَحَمَ عَلَىٰ الإِثمِ، ثُمَّ استَغفَرَ اللهَ استِغفَاراً تَامّاً، يَستَلزِمُ الإِقرَارَ بِالذَّنبِ، وَالنَّدَمَ عَلَيهِ، وَالإِقلاعَ، وَالعَزمَ عَلَىٰ أَن لا يَعُودَ. فَهَذا قَد وَعَدَهُ مَن لا يُخلِفُ المِيعَادَ، بِالمَغفِرَةِ

---

(١) فتح البيان (١٢/١٢٨).

وَالرَّحمَةِ. فَيَغفِرُ لَهُ مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنَ الذَّنبِ، وَيُزِيلُ عَنْهُ مَا تَرَتَّبَ عَلَيهِ مِنَ النَّقصِ وَالعَيبِ، وَيُعِيدُ إِلَيهِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيُوَفِّقُهُ فِيمَا يَستَقبِلُهُ مِن عُمُرِهِ، وَلا يَجْعَلُ ذَنبَهُ حَائِلاً عَن تَوفِيقِهِ، لأَنَّهُ قَد غَفَرَهُ، وَإِذَا غَفَرَهُ غَفَرَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيهِ[1]. وَمَعنَىٰ المَغفِرَةِ: سَترُ الذَّنبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنهُ، وَلَيسَت هِيَ مُجَرَّدَ التَّجَاوُزِ عَنِ الذَّنبِ؛ لأَنَّ أَصلَهَا مِنَ المِغفَرِ، وَالمِغفَرُ مَا يُوضَعُ عَلَىٰ الرَّأسِ حَالَ الحَربِ يُتَوَقَّىٰ بِهِ السِّهَامُ، وَهُوَ مُفِيدٌ فَائِدَتَينِ وَهُمَا: السَّترُ وَالوِقَايَةُ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَولُهُ تَعَالَىٰ حِينَمَا يُحَاسِبُ عَبدَهُ فِي الآخِرَةِ وَيُقِرُّ العَبدُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: «**قَد سَتَرتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنيَا وَأَنَا أَغفِرُهَا لَكَ اليَومَ**»[2]. فَمَن سَتَرَ اللهُ عَلَيهِ ذَنبَهُ فِي الدُّنيَا فَقَد غَفَرَهُ لَهُ، وَلَكِن لا تَتِمُّ المَغفِرَةُ إِلَّا بِالتَّجَاوُزِ عَنِ الذَّنبِ وَعَدَمِ العُقُوبَةِ عَلَيهِ[3].

وَمِنْ سِعَةِ مَغفِرَتِهِ: أَنَّ المُسرِفِينَ الَّذِينَ قَطَعُوا أَعمَارَهُم بِالأَعمَالِ السَّيِّئَةِ، إِذَا تَابُوا إِلَيهِ وَأَنَابُوا، وَلَو قُبَيلَ مَوتِهِم بِأَقَلِّ القَلِيلِ، فَإِنَّهُ يَعفُو عَنهُم، وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِم[4]. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢]. فَاللهُ هَذَا وَصفُهُ المُستَقِرُّ اللَّازِمُ الذَّاتِيُّ، وَمُعَامَلَتُهُ لِعِبَادِهِ فِي جَمِيعِ الأَوقَاتِ.

وَمِنْ سِعَةِ مَغْفِرَتِهِ: أَنَّهُ ذُو مَغفِرَةٍ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٥١).
(٢) رواه البخاري (٢٤٤١)، وَمسلم (٢٧٦٨).
(٣) تفسير سورة آل عمران (٢/ ١٦٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٧٤).

أَي: لا يَزَالُ خَيرُهُ إِلَيهِم، وَإِحسَانُهُ وَبِرُّهُ، وَعَفوُهُ نَازِلاً إِلَىٰ العِبَادِ، وَهُم لا يَزَالُ شَرُّهُم، وَعِصْيَانُهُم إِلَيهِ صَاعِداً. يَعصُونَهُ فَيَدعُوهُم إِلَىٰ بَابِهِ، وَيُجرِمُونَ فَلا يَحْرِمُهُم خَيرَهُ وَإِحسَانَهُ. فَإِن تَابُوا إِلَيهِ، فَهُوَ حَبِيبُهُم، لأَنَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ، وَإِن لَم يَتُوبُوا، فَهُوَ طَبِيبُهُم، يَبتَلِيهِم بِالمَصَائِبِ، لِيُطَهِّرَهُم مِنَ المعَايِبِ[1]. وَفي الآيَةِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ وَرَجَاءٌ كَبِيرٌ[2].

وَمِنْ سِعَةِ مَغْفِرَتِهِ: أَنَّ ذُنُوبَ العِبَادِ وَإِن عَظُمَت، فَإِنَّ عَفوَ اللهِ وَمَغفِرَتَهُ أَعظَمُ مِنْهَا وَأَعظَمُ، فَهِيَ صَغِيرَةٌ في جَنبِ عَفْوِ اللهِ وَمَغْفِرَتِهِ[3].

عَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُم، فَلا يَقُولُ: إِن شِئتَ، وَليَعزِمِ المَسأَلَةَ، وَليُعَظِّمِ الرَّغبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَعظُمُ عَلَيهِ شيءٌ أَعطَاهُ**»[4].

وَمِنْ سِعَةِ مَغْفِرَتِهِ: مَا قَالَهُ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لا أَبرَحُ أُغوِي عِبَادَكَ مَا دَامَت أَروَاحُهُم فِي أَجسَادِهِم. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَزَالُ أَغفِرُ لَهُم مَا استَغفَرُونِي**»[5].

وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٦٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٩٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠٦).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٠٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٤٧٥).

(٥) رواه الحاكم (٤/ ٢٦١) (٧٦٧٢)، وحسنه المحدث الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٦٥٠).

«قَالَ اللهُ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَا ابنَ آدمَ! إنَّكَ ما دَعوتَنِي وَرَجوتَنِي؛ غَفرتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ؛ وَلا أُبالِي، يَا ابنَ آدَمَ! لَو بَلَغَت ذُنوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ استَغفَرتَنِي؛ غَفرتُ لَكَ وَلا أُبالِي، يَا ابنَ آدم! إنَّكَ لَو أَتيتَني بِقُرَابِ الأَرضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بي شَيئاً؛ لأَتَيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغفِرَةً»[1].

فَهُوَ الغفُورُ عَنِ المُسِيئِينَ وَالمُقَصِّرِينَ وَالمُذنِبِينَ، إِذَا تَابُوا وَأَنَابُوا. فَإِنَّهُ يَغفِرُ ذُنُوبَهُم، وَيَستُرُ عُيُوبَهُم، وَلَو كَانَت مِلءَ الدُّنيَا.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الغَفُورُ فَلَو أُتيَ بِقُرابِهَا ... مِن غَيرِ شِركٍ بَلْ مِنَ العِصيَانِ
لأَتَاهُ بِالغُفرَانِ مِلءَ قُرَابِهَا ... سُبحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الغُفرَانِ[2]

وَمِنْ سِعَةِ مَغْفِرَتِه: أَنَّهُ العَوَّادُ بِالمَغفِرَةِ. عَن جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَرَّ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبلَكُم في بَنِي إِسرَائِيلَ بِجُمجُمَةٍ، فَنظَرَ إِلَيهَا، فقَالَ: أَي رَبِّ! أَنْتَ أَنْتَ، وَأَنَا أَنَا! أَنْتَ العَوَّادُ بِالمَغفِرَةِ، وَأَنَا العَوَّادُ بِالذُّنُوبِ؛ ثُمَّ خَرَّ سَاجِداً، فَقِيلَ لَهُ: ارفَع رَأسَكَ، فَأَنَا العَوَّادُ بِالمغفِرَةِ، وَأَنْتَ العَوَّادُ بِالذُّنُوبِ، فَرَفَعَ رَأسَهُ فَغَفَرَ لَهُ»**[3].

وَمِنْ سِعَةِ مَغْفِرَتِهِ: مَا قَالَهُ جَلَّ وَعَلا: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ [المائدة: ٧٤]. «هَذَا الاستِعطَافُ وَالكَلامُ اللَّيِّنُ العَظِيمُ في الاستِعطَافِ، وَالوَعدِ بِالمَغفِرَةِ لِلَّذِينَ قَالُوا:

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٥٥).

(٢) الكافية الشافية (ص٢١١).

(٣) أخرجه ابن عدي (٢/ ٣٨٤)، وقوّاهُ الألباني رَحِمَهُ اللهُ بالمتابعة في «الصحيحة» (٣٢٣١).

إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ، يَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ رَحمَةِ اللهِ وَسِعَةِ مَغفِرَتِهِ جَلَّ وَعَلا ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]: كَائناً مَا كَانَ، مِن شِدَّةِ رَحمَةِ اللهِ وَمَغفِرَتِه»[١].

○ الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإيمَانِ بِصِفَةِ المَغفِرَةِ:

١ ـ إذا عَلِمنَا أنَّ اللهَ غفورٌ تعَرَّضْنَا لِمَغْفِرَتِهِ، وَفَعَلْنَا الأسبابَ التي تكونُ بِهَا المغفرةُ؛ مِنَ الاستغفارِ، وَفِعْلِ الأعمالِ الصالحةِ، التي تُغْفَرُ بِها الذنوبُ.

٢ ـ إنَّ مَغفِرَةَ اللهِ لِلمَرءِ مِن أَعظَمِ الثَّوَابِ، فَلا نَغفَل عَن أَن نُكثِرَ مِنْ سُؤَالِ اللهِ المَغفِرَةَ. وَالعَبدُ أَحوَجُ شَيءٍ إِلَيهِ، لِأَنَّهُ يُخطِىءُ بِاللَّيلِ وَالنَّهارِ. كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُم تُخطِئُونَ بِاللَّيلِ وَالنَّهارِ، وَأَنَا أغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، فَاستَغفِرُونِي أَغفِر لَكُم**»[٢].

وَمَن غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ فَقَد فَازَ، وَعَلَىٰ الصِّرَاطِ جَازَ.

والاستِغفَارُ عَظِيمٌ، وَثَوَابُهُ جَسِيمٌ.

وَلِيَتَدَبَّرِ القَارِئُ اللَّبِيبُ، الأَحَادِيثَ التَّالِيَةَ:

١ ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ الضُّحَىٰ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اغفِر لِي، وَتُب عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**» حَتَّىٰ قَالَهَا مَائَةَ مَرَّةٍ[٣].

---

(١) العذب النَّمير (٥/ ٤٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧) بطوله، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦١٩)، وصحَّحَ إسنادَه الألبانيُّ رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٤٨٣).

٢ ـ عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ يُعَدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي المَجلِسِ الوَاحِدِ ـ مَائَةَ مَرَّةٍ مِن قَبلِ أَن يَقُومَ ـ: «**رَبِّ! اغفِر لِي، وَتُب عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ**»(١).

٣ ـ عَن رَجُلٍ مِنَ الأَنصَارِ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ في صَلاةٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغفِر لِي، وَتُب عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ**» مَائَةَ مَرَّةٍ(٢).

٤ ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ مِن قَولِ: «**سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ، أَستَغفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ**»(٣).

٥ ـ عَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ استَغفَرَ لِلمُؤمِنِينَ وَالمُؤمِنَاتِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤمِنٍ وَمُؤمِنَةٍ حَسَنَةً**»(٤).

٦ ـ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن قَالَ: أَستَغفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ، الحَيَّ القَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ ثَلاثاً، غُفِرَت لَهُ ذُنُوبُهُ، وَإِن كَانَ فَارّاً مِنَ الزَّحفِ**»(٥).

٧ ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ نَبِيُّكُم ﷺ إِذَا كَانَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٣٤)، وَصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤١٥).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٧١)، وَصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٦٠٣).

(٣) رواه، مسلم [٢٢٠ ـ (٤٨٤)].

(٤) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٥٥)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦).

(٥) رواه الحاكم (١/ ٥١١) (١٨٨٤) بسند صحيح.

رَاكِعاً أَو سَاجِداً، قَالَ: «**سُبحَانَك وَبِحَمدِك، أَستَغفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيكَ**»(١).

٨ ـ عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ـ فِيمَا يَحكِي عَن رَبِّهِ ﷻ ـ قَالَ: «**أَذنَبَ عَبدٌ ذَنباً فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذنَبَ عَبدِي ذَنباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأَخُذُ بِالذَّنبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ، فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبدِي أَذنَبَ ذَنباً فَعَلِمَ، أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأَخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ، فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذنَبَ عَبدِي ذَنباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأَخُذُ بِالذَّنبِ. اعمَل مَا شِئتَ، فَقَد غَفَرتُ لَكَ**»(٢).

فَقَد دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ: «عَلَى أَنَّ اللهَ ﷻ يَقبَلُ استِغفَارَ مَن عَادَ إِلَى الذَّنبِ غَيرَ مَرَّةٍ، إِذَا عَاوَدَ الاستِغفَارَ، وَهَذِهِ بِشَارَةٌ جَلِيلَةٌ يَنبَغِي أَن يَفرَحَ بِهَا عِبَادُ اللهِ، وَيَحمَدُوا اللهَ عَلَيهَا، عَلَى سَعَةِ رَحمَتِهِ، وَلُطفِهِ بِعِبَادِهِ»(٣).

وَلا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الاستِغفَارَ لَيسَ هُوَ الَّذِي يَنطِقُهُ اللِّسَانُ، بَلِ «الاستِغفَارُ المُوجِبُ لِلمَغفِرَةِ: هُوَ مَا قَارَنَ عَدَمَ الإِصرَارِ، كَمَا مَدَحَ اللهُ أَهلَهُ، وَوَعَدَهُمُ المَغفِرَةَ، قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آلِ عِمرَان: ١٣٥]، فَهُوَ حِينَئِذٍ يُعَدُّ تَوبَةً نَصُوحاً تَجُبُّ مَا قَبلَهَا. وَهَذَا الاستِغفَارُ هُوَ المَانِعُ مِنَ العُقُوبَةِ، كَمَا

---

(١) رواه الطبراني (١٠٣٠٢)، وَحسنه الألباني ﷺ في «صحيح الجامع» (٤٧٧١).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) واللفظ له.
(٣) تحفة الذاكرين (ص٢٥٧).

قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

٩ ـ عن مِحجَنَ بنِ الأدرَعِ رضي الله عنه قال: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَسجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قد قَضَىٰ صَلَاتَهُ، وَهُوَ يَتَشَهَّدُ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ يَا اللهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَم يَلِد وَلَم يُولَد، وَلَم يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ! أَن تَغفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ؛ فقَالَ: «**قَد غُفِرَ لَهُ، قَد غُفِرَ لَهُ**» ثَلَاثاً[1].

١٠ ـ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي ظُلماً كَثِيراً، وَلَا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغفِر لِي مَغفِرَةً مِن عِندِكَ، وَارحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ[2].

فَأَخبَرَ عَن ظُلمِهِ لِنَفْسِهِ، وَوَصَفَهُ بِالكَثرَةِ المُقتَضِيَةِ لِتَعَدُّدِهِ وَتَكَثُّرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**فَاغفِر لِي مَغفِرَةً مِن عِندِكَ**» أَي لَا يَنَالُهَا عَمَلِي وَلَا سَعيِي، بَلْ عَمَلِي يَقصُرُ عَنهَا، وَإِنَّمَا هِيَ مِن فَضلِكَ وَإِحسَانِكَ، لَا بِكَسبِي وَلَا بِاستِغفَارِي وَتَوبَتِي، وَإِنَّمَا هِيَ مِن عِندِكَ»[3]. وَمَا كَانَ مِن عِندِ اللهِ، لَا يُحِيطُ بِهِ وَصفُ وَاصِفٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

«ثُمَّ قَالَ: «**وَارحَمنِي**» أَي لَيسَ مُعَوَّلِي إِلَّا عَلَىٰ مُجَرَّدِ رَحمَتِكَ، فَإِنْ رَحِمتَنِي، وَإِلَّا فَالهَلَاكُ لَازِمٌ لِي.

---

(١) رواه أبو داود (٩٨٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٨٦٩).

(٢) رواه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٣) طريق الهجرتين (ص٥١٧).

فَليَتَدَبَّرِ اللَّبِيبُ هَذَا الدُّعَاءَ، وَمَا فِيهِ مِنَ المَعَارِفِ وَالعُبُودِيَّةِ، وَفِي ضِمنِهِ: أَنَّهُ لَو عَذَّبتَنِي لَعَدَلتَ فِيَّ وَلَم تَظلِمنِي، وَإِنِّي لَا أَنجُو إِلَّا بِرَحمَتِكَ وَمَغفِرَتِكَ»[1].

ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**» وَالجَمعُ بَينَهُمَا، لِفَائِدَةٍ عَظِيمَةٍ: وَهِيَ الجَمعُ بَينَ الوِقَايَةِ وَالعِنَايَةِ، بَينَ الوِقَايَةِ بِالمَغفِرَةِ: يَقِيكَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَرَّ الذُّنُوبِ، وَالعِنَايَةِ بِالرَّحمَةِ: يَعتَنِي اللهُ بِكَ، فَيُيَسِّرُكَ لِليُسرَىٰ، وَيُجَنِّبُكَ العُسرَىٰ[2].

١١ ـ عَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَسأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغفِرَتَهُ... أَسأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغفِرَتَهُ... أَسأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغفِرَتَهُ**»[3].

١٢ ـ **اللَّهُمَّ اغفِر لَنَا... اللَّهُمَّ اغفِر لَنَا... اللَّهُمَّ اغفِر لَنَا**[4].

وَلنَقتَصِر عَلَىٰ هَذَا القَدرِ مِن ذِكرِ «**الأَسمَاءِ الحُسنَىٰ وَالصِّفَاتِ العُلَىٰ**» وَأَحكَامِهَا وَثَمَرَاتِهَا، فَإِنَّهُ مَا أُطِيلَ الكَلَامُ فِيهَا، إِلَّا لِفَرطِ الحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ إِلَىٰ مَعرِفَتِهَا، وَمَعرِفَةِ آثَارِهَا، فَليَتَأَمَّلهَا اللَّبِيبُ، وَليَجعَلهَا سَيرَهُ وَسُلُوكَهُ، وَليَبنِ عَلَيهَا عُلُومَهُ وَأَعمَالَهُ وَأَقوَالَهُ وَأَحوَالَهُ، فَمَا نَتَجَ مَن نَتَجَ إِلَّا مِنْهَا، وَلا تَخَلَّفَ مَن تَخَلَّفَ إِلَّا مِن فَقدِهَا.

وَاللهُ المُوَفِّقُ لِمُرَاعَاةِ ذَلِكَ، وَالقِيَامِ بِهِ عَمَلاً وَحَالاً، كَمَا وَفَّقَ لَهُ عِلماً وَمَعرِفَةً، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالمَانُّ بِهِ، وَهُوَ حَسبُنَا وَنِعمَ الوَكِيلُ.

---

(١) طريق الهجرتين (ص٥١٧).

(٢) تفسير سورة آل عمران (١/ ١٩٣).

(٣) رواه النسائي (٩٣٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٩٠٠).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٤٨)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٨٧٩).

الخَاتِمَةُ

الحَمدُ للهِ الكَرِيمِ الوَهَّابِ، المَوصُوفِ بِكُلِّ صِفَةِ كَمَالٍ، المُنَزَّهِ عَنْ كُلِّ نَقصٍ، لَهُ كُلُّ ثَنَاءٍ حَسَنٍ، لا يَصدُرُ عَنْهُ إِلَّا كُلُّ فِعلٍ جَمِيلٍ، أَسمَاؤُهُ أَحسَنُ الأَسمَاءِ، وَلا يُثنَىٰ عَلَيهِ إِلَّا بِأَكْمَلِ الثَّنَاءِ، المَحمُودُ المَحبُوبُ المُعَظَّمُ ذُو الجَلالِ وَالإِكرَامِ، «حَيَاةُ القُلُوبِ في مَعرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَكَمَالُ الجَوَارِحِ في التَّقَرُّبِ إِلَيهِ بِطَاعَتِهِ، وَالقِيَامِ بِخِدمَتِهِ، وَالأَلسِنَةِ بِذِكرِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيهِ بِأَوصَافِ مَدحِهِ»[١]. الَّذِي فَتَحَ عَلَينَا في هَذَا البَابِ، وَأَرشَدَنَا فِيهِ إِلىٰ الصَّوَابِ. «فَلَهُ الحَمدُ وَالمِنَّةُ، وَنَسأَلُهُ المَزِيدَ مِن فَضلِهِ»[٢].

إِنَّ العِلمَ بِاللهِ: وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفعَالِهِ، أَجَلُّ عُلُومِ الدِّينِ كُلِّهَا، **فَمَعرِفَتُهُ أَجَلُّ المَعَارِفِ العَالِيَةِ، وَأَرفَعُ المَوَاهِبِ الغَالِيَةِ، وَأَعظَمُ المَطَالِبِ السَّامِيَةِ** «وَإِرَادَةُ وَجهِهِ أَجَلُّ المَقَاصِدِ، وَعِبَادَتُهُ أَشرَفُ الأَعمَالِ، وَالثَّنَاءُ عَلَيهِ بِأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَدحِهِ وَتَمجِيدِهِ، أَشرَفُ الأَقوَالِ»[٣]. فَهَذَا أَشرَفُ مَا في الدُّنيَا، وَجَزَاؤُهُ أَشرَفُ مَا فِي الآخِرَةِ[٤].

---

(١) عدة الصابرين (ص٣٤٠).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٠١).
(٣) موارد الأمان (ص٤٢٩).
(٤) عدة الصابرين (ص١٤٧).

وَإِنَّ الإِيمانَ «بِالصِّفَاتِ وَمَعرِفَتِهَا، وَإِثبَاتَ حَقَائِقِهَا، وَتَعلُّقَ القَلبِ بِهَا، وَشُهُودَهُ لَهَا هُوَ»[١] أَفضَلُ نِعمَةٍ، أَنعَمَ اللهُ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَأَجَلُّ مَنقَبَةٍ حَصَّلُوهَا، وَهِيَ أَشرَفُ عَطَايَا الكَرِيمِ لِعِبَادِهِ. فَهِيَ مِنَ **المَطَالِبِ العَالِيَةِ، وَالمَوَاهِبِ الغَالِيَةِ، وَالمَقَاصِدِ السَّامِيَةِ**، تَستَدعِي مِنْهُم شُكرَهَا، وَالإِكثَارَ مِن ذِكرِ اللهِ: الَّذِي مَنَّ عَلَيهِم بِهَذِهِ المِنَّةِ الجَلِيلَةِ، وَالنِّعمَةِ العَظِيمَةِ، وَالمِنْحَةِ الجَسِيمَةِ.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرنَاهُ في هَذِهِ المَسأَلَةِ العَظِيمَةِ النَّفعِ، الجَلِيلَةِ القَدرِ، قَطرَةٌ مِنْ بَحرٍ؛ «بِحَسَبِ أَذهَانِنَا الوَاقِفَةِ، وَقُلُوبِنَا المُخطِئَةِ، وَعُلُومِنَا القَاصِرَةِ»[٢] نَبَّهنَا بِهِ تَنبِيهاً يَعلَمُ بِهِ اللَّبِيبُ مَا وَرَاءَهُ، وَإِلَّا فَعُقُولُ البَشَرِ أَعجَزُ وَأَضعَفُ، وَأَقصَرُ مِن أَن تُحيطَ بِكَمَالِ صِفَةٍ، مِنْ صِفَاتِ الرَّحِيمِ الرَّحمَنِ.

فَإِنَّ «مَا يَصِفُهُ الوَاصِفُونَ مِنْهُ وَتَنتَهِي إِلَيهِ عُلُومُهُم، هُوَ كَمَا يُدخِلُ الرَّجُلُ أُصبُعَهُ في اليَمِّ ثُمَّ يَنزِعُهَا! فَهُوَ يَصِفُ البَحرَ بِمَا يَعلَقُ عَلَىٰ إِصبَعِهِ مِنَ البَلَلِ، وَأَينَ ذَلِكَ مِنَ البَحرِ؟! فَيَظُنُّ السَّامِعُ أَنَّ تِلكَ الصِّفَةَ أَحَاطَت بِالبَحرِ، وَإِنَّمَا هِيَ صِفَةُ مَا عَلِقَ عَلَىٰ الإِصبَعِ مِنْهُ! وَإِلَّا فَالأَمرُ أَجَلُّ وَأَعظَمُ وَأَوسَعُ، مِنْ أَنْ تُحِيطَ عُقُولُ البَشَرِ بِأَدنَىٰ جُزءٍ مِنْهُ.

وَمَاذَا عَسَىٰ أَن يَصِفَ بِهِ النَّاظِرُ إِلىٰ قُرْصِ الشَّمسِ: مِنْ ضَوئِهَا وَقَدرِهَا وَحُسنِهَا، وَعَجَائِبِ صُنعِ اللهِ فِيهَا، وَلَكِن قَد رَضِيَ اللهُ مِن عِبَادِهِ بِالثَّنَاءِ عَلَيهِ، وَذِكرِ آلائِهِ، وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكمَتِهِ وَجَلالِهِ، مَعَ أَنَّهُ لا

(١) تهذيب المدارج (ص٩٨٦).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٨).

يُحصِي ثَنَاءً عَلَيهِ أَبَداً، بَلْ هُوَ كَمَا أَثنَىٰ عَلَىٰ نَفسِهِ، فَلا يَبلُغُ مَخلُوقٌ ثَنَاءً عَلَيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كَمَا هُوَ أَهلٌ أَن يُثنَىٰ عَلَيهِ، بَلْ هُوَ فَوقَ ما يُثنُونَ بِهِ عَلَيهِ، وَمَعَ هَذَا: فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ أَن يُحمَدَ، وَيُثنَىٰ عَلَيهِ»[1]، وَيُمدَحَ وَيُمَجَّدَ.

عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيهِ المَدحُ مِنَ اللهِ عز وجل، مِن أَجلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفسَهُ...**»[2].

وَاللهُ المَحمُودُ وَحدَهُ: عَلَىٰ مَا مَنَّ بِهِ وَأَنْعَمَ، وَهُوَ وَاسِعُ الفَضلِ وَالإِحسَانِ.

وَهِيَ المَوَاهِبُ مِن رَبِّ العِبَادِ، فَمَا يُقَالُ: لَولا، وَلا: هَلَّا، وَلَا: فَلِمَا؟[3]

فَالحَمدُ للهِ عَلَىٰ مَوَاهِبِهِ الَّتِي لا مُنتَهَىٰ لَهَا، وَنَسأَلُهُ أَن يَمْلَأَ قُلُوبَنَا مِن مَعرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ. إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

وَآخِرُ دَعوَانَا أَنِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣١٠).
(٢) رواه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) ـ واللفظ له ـ.
(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٦٤١).

المحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة